عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم

1

سلسلة تاريخ الإمارات

أبوظبي

توحيد الإمارة وقيام الاتحاد



مركز الوثائق والبحوث


أبوظبي
توحيد الإمارة وقيام الاتحاد

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

ISBN: 9948-05-062-2

مركز الوثائق والبحوث

هاتف: ٤٤٤٥٤٠٠-٠٢ فاكس: ٤٤٤٤٣٠٦-٠٢ ص.ب: ٥٨٨٤

، - الإمارات العربية المتحدة

اهـــــــداء2004

مركز الوثائق و البحوث
الأمارات العربية المتحدة

أبوظبي

توحيد الإمارة وقيام الاتحاد

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم



مركز الوثائق والبحوث



برزت جزيرة أبوظبي منذ منتصف القرن الثامن عشر عاصمة لكنفدرالية عربية صريحة وفدت من قلب الصحراء بزعامة بني ياس تحت إمرة شيوخها من آل نهيان من البوفلاح؛ فأضافت بعداً جديداً إلى أبعاد وحدة تليدة. تأسست في ليوا ومحاضرها وفي مناطق أخرى متفرقة من الصحراء وواحاتها في الظهير الظبياني في فترة ما قبل بداية القرن السابع عشر الميلادي، بجهود شيوخ آل نهيان – وحدة غير منفصمة ضمت عدة بيوت وعشائر وقبائل اتخذت اسم ياس الجد الأكبر لآل نهيان عَلَماً عليها. واتسعت هذه الوحدة الياسية لتضم حلفاً من قبائل شتى تضامنت لدرء أخطار الصحراء، وتعاونت لما فيه خير إنسانها، وغدا لبني ياس – منذ تلك الفترة الباكرة من القوة والمنعة – قدر يمكنها من إجارة المستجير. وأدركت القوى الإقليمية الأخرى– خاصة العمانية منها – شجاعة هؤلاء الرجال وقوة شكيمتهم؛ فاستعانوا بهم جنداً مخلصين كان لهم دورهم في تسوية النزاعات التي عمّت عمان في أواخر فترة حكم اليعاربة. وحرص شيوخ آل نهيان – منذ أن تأسست دولة البوسعيد – على التحالف الوثيق مع السلطة الشرعية في مسقط، وأصبحوا – بقوة قبائلهم واتحادها قلباً وقالباً – درعاً لعمان في صد كل خطر يطرقها من داخل شبه الجزيرة العربية. وقد أدى هذا الدور التاريخي إلى زيادة الترابط بين قبائل أبوظبي من بني ياس وغيرها؛ لإدراكهم أن اتحاد الكلمة والهدف هو الضمان الوحيد للحفاظ على كيانهم الإقليمي؛ لموقعهم الوسطي بين قوتين إقليميتين كبيرتين تنافرت سياستهما، وتشاجرت أيديولوجيتهما. وقد أسهم هذا الموقع في استشعار ضرورة الوحدة الدفاعية بين قبائل المنطقة.

بدأ الاستقرار في أبوظبي– تلك الجزيرة الراقدة فوق مياه الخليج وهي تحتضن ساحلها الصحراوي دونما فواصل طبوغرافية تمنع النوق من أن تخوض إليها الوشل عند الجزر وتعجزها عند المد – مع اكتشاف الماء فيها. وقد تمكنت أبوظبي من توظيف هذا الموقع الوسطي الممتاز لتأمين اتحاد الجزر والسواحل مع الصحراء والدواخل. وحين غدت سلطات الهند البريطانية – منذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر – قوة الهيمنة على مياه الخليج وحظرت على أهله الإبحار فيه أو الاتجار والاستثمار إلا على السواحل وضمن حدود معلومة. استثمر شيوخ أبوظبي هذا الحظر لتأكيد وحدة الإمارة إنساناً وتراباً، ووظفوه لخدمة اقتصادها استثماراً في الغوص في الهيرات وصيد الأسماك. وأدى هذا الترابط الإنتاجي إلى تشكيل جوهر البناء الاجتماعي المتضامن حول مفهوم الوحدة التي تهيء لبلدتهم إنتاجاً متنامياً في حالات السلم، وقوة دفاعية متماسكة في حالات الحرب. وهكذا تمكن شيوخ أبوظبي من الجمع بين الاقتصاد التقليدي من تمور وإبل إلى اقتصاد صيد البحر المتنامي من لؤلؤ وأسماك، واستثمار في صناعة بعض القوارب أو أجزاء منها. وزاد هذا الترابط الاقتصادي في توثيق عرى الترابط القبلي لاتحاد المصالح، وتكرست الوحدة بشكل كبير حين بات إنسان الداخل يفد إلى عاصمته التي كانت جرداء لا تفي مصادرها الذاتية بالحاجات الحياتية لإنسانها، وهو يحمل حطب الوقود والتمور وغير ذلك مما تقدمه مصادر الصحراء الشحيحة، ويعود إلى أهله في الداخل بالأسماك، ولربما «بربيات» معدودات وبشيء من أرز قليل، وغير ذلك من سلع الرفاهية التي بدأت تتقاطر إلى عاصمته . كان على شيوخ آل نهيان حفظ الأمن بين السواحل والدواخل، وأدى هذا إلى تنشيط شرايين الاتصال بين الداخل والخارج، وأخذت القبائل تنتظم في سلك الوحدة في الغالب وقسراً في بعض الأحيان، وتوثق – بما يماثل رحلتي الشتاء والصيف بين الدواخل

والسواحل حبل الوحدة؛ فما إن يترجل إنسان الداخل عن ناقته التي أقلته في رحلته إلى الساحل حتى يبحر في قارب ضمن قافلة بحرية تجوب به الهيرات والجزر، ويعوج بعدها إلى أبوظبي ليمتطي ناقته عائداً من حيث أتى.

كوّن توثيق عرى الوحدة بين قبيلة بني ياس وحلفائها الهم الأول لشيوخ آل نهيان الذين عملوا على ترسيخها في أوساط قبائلهم بنظام الحكم الأبوي الموروث الذي يقوم على العطاء والبذل، ولا يستثني التلويح بالقوة أو استعمالها، ثم العفو يتبعه الندى حين يرشد أتباعهم ويثوبوا. وقد توّج الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥ – ١٩٠٩م) هذه السياسة بدعوته إلى الاتحاد بين إمارات المنطقة التي كانت قائمة على عهدة، وقيام مجلس لشيوخها يوحد بالشورى الرأي والهدف. وبوفاته تراجعت فكرة الاتحاد، وأدت ظروف دولية ومحلية وإقليمية إلى شروخ في جسد الوحدة، ووئدت إلى حين ظهور فكرة الاتحاد الأشمل. وحين تولى شخبوط بن سلطان الحكم في ١٩٢٨م بذل جهده لوقف هذا التدهور. وكانت الأعراف القبلية عدته لدرء ذلك، ولكنها لم تعد وحدها كافية لمواجهة المستجدات التي طرأت بعد الحرب العالمية الثانية، وما أحدثته من خلل في موازين القوى العالمية، خاصة في مجال الاستثمارات النفطية التي أدخلت الإمارة في منتصف ستينيات القرن الماضي في لجة السياسة العالمية، بعد أن غدت مصدراً ثرياً من مصادر الطاقة للعالم الغربي. واقتضت هذه المرحلة أن يتصدى للقيادة من آل نهيان بطل وطني ينطلق من تاريخه، معتزاً بأعراف مجتمعه، متطلعاً للتحديث والإعمار.

يرى بعض فلاسفة التاريخ ومفسريه أن التاريخ في محصلته النهائية تجسيد لأفكار الأبطال وأفعالهم. فالبطل – في تقديرهم – هو الروح الإنسانية المفعمة بالحرية التي

تنظر في بواطن الأمور، وهو الكل في الفرد؛ لأنه خرج من قلب المجتمع الذي صاغ شخصيته، وهو الفرد في الكل؛ لأن وقته وجهده وماله وكل ما يملكه وقْف لخدمة المجتمع. وللبطل فوق هذا وذاك من مصادر القوة المادية والمعرفية والأخلاقية ما يمكن له توظيفه – بلا إفراط ولا تفريط – لخير المجتمع.

يقدم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز عبد الغني إبراهيم قراءة متمعنة لهذه النظرية على ضوء من سيرة صاحب السموّ رئيس الدولة الذي انطلق في مجال الوحدة والاتحاد من حيث انتهى جده الشيخ زايد بن خليفة؛ فبعد أن وثق وحدة قبائل بني ياس وأحلافها باتفاق السميح في ١٨ فبراير ١٩٦٨ تصدى فأقام الاتحاد بين إمارات المنطقة التي عاشت تاريخاً واحداً غير منفصم، وحّد بين عقول أهل المنطقة وقلوبهم. ولا تزال همّة الشيخ البطل تتطلع إلى المزيد لينتظم الاتحاد كافة دول الخليج العربي، ويتعداها إلى محيطها الأكبر.



مدير عام مركز الوثائق والبحوث

بين يدي هذا الكتاب

منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي شهدت المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية التي تستشرف الخليج العربي تطورات متلاحقة غيّرت شكل خريطته السياسية؛ فبرزت إلى الوجود مستقرات حضّرية، ونشأت دول وإمارات عربية كوّنت التاريخ الحديث في المنطقة ولا تزال. ويمكن أن نرد جذور التكوين السياسي الحديث لكافة إمارات الخليج العربية إلى هذه الفترة.

أدى انهيار الاستعمار البرتغالي في الشرق عامة وفي الخليج العربي خاصة – ذلك الانهيار الذي تسببت فيه عدّة عوامل كان من ضمنها المقاومة العربية التي كان لبني ياس نصيب فيها – ظهور عدّة تكتّلات سياسة على سواحل الخليج، ووفدت إلى الساحل من ظهيره قوى قوامها قبيلة أو عدّة قبائل أسلمت قيادها لشيخ كان يمارس حكمها في الداخل الصحراوي. وكان من نتائج ذلك أن وجدت تلك الحواضر الجديدة منذ قيامها نمط حكم ارتضاه سكانها منذ أمد في بواديهم، و لم يكن وليد هذا الاستقرار الطارئ.

قاد انهيار السلطة البرتغالية التي كانت تحكم البحر ومحيطه من قلاع على اليابسة تطلّ على الخليج إلى فراغ أمني واقتصادي كبير تصدى عرب المنطقة لملئه. وكان البرتغاليون يستأثرون دون غيرهم بحماية أمنهم في البحر بكل وسيلة، مشروعة كانت أم غير مشروعة لتحقيق أهدافهم، وكانوا يقبضون بقوة على كل ريع اقتصادي في المنطقة حتى لا يدخل أي عائد منه إلا الخزينة العامة في البرتغال، أو جيوب الجنود البرتغاليين العاملين في المنطقة. وراحت السياسة الأمنية للبرتغال تحظر كل استقرار للعرب على سواحلهم، أما سياستهم الاقتصادية التي أرسيت على الاحتكار الكامل

الشامل لموارد البحر من صيد وتجارة فقد كانت تجعل مثل هذا الاستقرار العربي غير ذي جدوى.

شهدت هذه الفترة – خاصة في العقدين الخامس والسادس من القرن الثامن عشر – قيام أسرة البوسعيد في عام ١٧٤١م، وبدأت قلعة مسقط تستعيد نشاطها القديم – ولا سيما بعد اندفاع أبناء أحمد بن سعيد – لتأسيس إمبراطورية عربية في المواقع التي طرد اليعاربة منها البرتغاليين في شرق أفريقيا وفي بعض سواحل المحيط الهندي في آسيا. و لم يمض أكثر من نصف قرن على قيام دولة البوسعيد حتى غدت مسقط – على الساحل دون الرستاق في الداخل – مركز الثقل الاقتصادي والإداري لتلك الدولة التي بات توجهها بحرياً لا برّيّاً. ونشأ في هذه الفترة أيضاً – في حوالي عام ١٧٤٧م – الحلف القاسمي الذي اتخذ من رأس الخيمة [جلفار التاريخية] عاصمة له، وكان توجه هذا الحلف بحرياً أيضاً لا بريّاً، ما أعطى سياسة رأس الخيمة أيضاً وقعاً متزايداً في سياسة الخليج العربي ودوراً في مناهضة الوجود الاستعماري فيه، إضافة إلى تناقض المصالح مع مسقط لتماثل التوجهات في استثمار اقتصاد البحر. وأطلّت الدولة السعودية القديمة [الأولى] منذ عام ١٧٩٣م على سواحل الخليج بعد انهيار سلطة الخوالد في الأحساء، كما برزت أبوظبي في عام ١٧٦١م حاضرة صغيرة فوق جزيرة عند سيف الساحل، أسستها قوة قبلية اندفعت إليها من ظهير ساحلها، واتخذتها مركزاً اقتصادياً. و لم تجعل بنو ياس التي أسست هذه الحاضرة الاستثمار فيها مقصوراً عليها فقط، إنما سمحت لجميع القبائل المتحالفة معها بالإسهام فيه و لم تحظره أيضاً على الجماعات الأخرى في دائرة نفوذها. و لم ينقض القرن الثامن عشر حتى اكتسب هذا المركز الاقتصادي بعداً سياسياً حين انتقل مركز الحكم من الداخل إليها، وأصبحت أبوظبي عاصمة لشيوخ آل نهيان من بني ياس.

ولا يعني هذا أن أبوظبي التي أصبحت حاضرة الحكم كانت مجهولة لدى عرب ظهيرها قبل ذلك التاريخ؛ فقد اعتاد عرب بني ياس ومن والاهم أن ينزلوا بهذا الساحل منذ أمد بعيد إذا انحبس الغيث عن صحراواتهم ونزل بها القحط؛ ليكسبوا رزقهم من أسماك البحر، ولكنهم لم يكونوا يستقرّون فيها. ولا يرجع عدم الاستقرار في هذه المنطقة إلى سياسة الحظر الأمني والاقتصادي الذي قامت عليه خطط البرتغاليين فقط، إنما يعود إلى أن عرب المنطقة لم يهتدوا لوجود الماء في السواحل إلا في هذه الفترة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان العرب حين يفدون إلى هذه المنطقة التي هي جزء مما كان يعرف بمليح يجلبون معهم مياههم من الداخل، وما كان ذلك ليكفيهم إلا يوماً أو أياماً قليلة يفرّون بعدها بأسماكهم الطريّة والمملحة إلى الداخل. أما وقد وُجد الماء وذهبت ريح البرتغاليين بطردهم من المنطقة فقد أصبح استقرار عرب الداخل ممكناً ليس لصيد الأسماك فقط إنما للعمل في سواحل اللؤلؤ واستثمار موارد البحر الأخرى تحت إدارة شيوخ تمرّسوا منذ أمد على الإدارة وشؤون الحكم.

يحدثنا كشف الغمة لسعيد بن سرحان الأزكوي الذي تولى «روث» نشرة بالإنجليزية أن شيوخ بني ياس كانوا قد اتخذوا في ليوا قلعة قدّمت الحماية لنفر من الهلاليين الذي التجأوا إليها من عمان. وقع الحدث المشار إليه في العقد الثالث من القرن السابع عشر؛ أي منذ نحو قرن ونصف من الزمان قبل استقرارهم في أبوظبي. وليس لنا حتى الآن من الشواهد المسجّلة ما يمكننا أن نؤرخ بداية قيام هذا الحلف الذي اجتمعت له عشائر عربية الأرومة مختلفة الفروع، تداخلت وتوحدت حتى ذاب بعضها في بعض واتخذت اسم بني ياس عَلَماً يدلّ عليها. ويمكن أن نجد تفسيراً لهذا أورده الرحالة الغربي كارستين نيبور "Neibhour" الذي وفد إلى شبه الجزيرة العربية ضمن بعثة دنماركية في هذا الوقت الذي برز فيه بنو ياس إلى الساحل وأسسوا أبوظبي. يذكر نيبور في معرض حديثه عن الحكم المشيخي الأبوي في شبه الجزيرة العربية أن

الشيوخ يتولون حكم القبائل التابعة لهم، ولكن إذا ضعفت هذه القبيلة فإنها عادة ما تستقوي بالدخول في قبيلة أخرى تابعة لشيخ آخر. ويمكن لهذه القبائل التي تكاملت واتحدت واندمجت في قبيلة واحدة أن ترتضي من شيوخها شيخاً يصبح رئيساً أعلى للجميع يلقّبونه بشيخ الشيوخ أو الشيخ الكبير. وقد تختار هذه القبائل شيخاً متنفّذاً يسبغ اسمه أو اسم أسرته على هذا التجمع لما له من ميزات تؤهله "لأبوّة" الجميع. واعتماداً على ذلك نرجّح أن ياساً الذي تنتمي إليه القبيلة التي نحن بصددها قد عاش في فترة تسبق القرن السابع عشر التي ذكر كشف الغمة أنه كان لبنيه قلعة في ليوا. وحين نستذكر أن القلاع التي اتخذها بنو ياس مؤسسة دفاع حضرية لا تعرفها البادية فإن عراقة بني ياس لا تحتاج إلى دليل، ومن ثمة يكون ياس المذكور قد عاش قبل فترة طويلة تسبق الحدث الذي يذكره هذا المصدر، وأن شيوخ أبوظبي المتحدرين من ياس ورثوا عن أسلافهم العمل لتأكيد الوحدة التي تحققت بجهودهم منذ أمد بعيد، وتوسيع دائرتها لتنظيم القبائل المتحالفة معهم.

وجد شيوخ آل نهيان بلادهم بين قوتين إقليميتين هما: السعودية في نجد، والبوسعيدية في عمان، تعارضت ولاءاتهما القبلية بين القيسية واليمنية، واشتجرت توجهاتهما العقدية بين الوهابية والإباضية، وتقاطعت مصالحهما الاقتصادية، أو ربما أمكن القول: بين حلفين أحدهما غافري تكوّن في الغالب من تحالف عريض للعرب المنحدرين من نجد، والآخر هناوي تكوّن في الغالب من تحالف عريض من العرب المنحدرين من اليمن. وأصبح لزاماً على شيوخ بني ياس الذين اقتصر همّهم على المحافظة على وحدة قبيلتهم وحماية أرضها وأمنها، والوفاء بالتزاماتهم تجاه القبائل الحليفة من مناصير وعوامر ثم ظواهر وغيرهم فيما يحقق بالتعاون أمنهم وديارهم المشتركة وتأكيد المصير الواحد – أن يختاروا مكانهم من أبرز القوتين في الإقليم.

واختار آل نهيان التحالف مع البوسعيد دون السعوديين. ولربما لأن قوة نجد أخذت تتمدد عبر ديار بني ياس في اتجاه عمان بينما كانت الأخيرة تنشغل عبر البحر بأطرافها خارج حدود شبه الجزيرة العربية. وأصبح اتحاد قوّة أبوظبي مع دعم مسقط أمراً لازباً؛ ففي حماية أرض بني ياس حماية لظهير مسقط الذي لن تستطيع القوة السعودية بلوغه إلا بعد تأمين خطوط إمداداتها في مناطق ليوا مهد بني ياس ومقرّ أقدم «محاضرها». وكان توجه شيوخ بني ياس في التحالف مع مسقط أصدق من تحالف الأخيرة معها إذ كانت تخشى في عهود بعض سادتها أن تبلغ أبوظبي من القوّة ما يجعلها أيضاً مصدراً للتهديد. وعلى الرغم من صدق تحالف أبوظبي مع مسقط إلا أنها اتخذت خطاً مرناً في تعاملها مع السعودية أيضاً؛ فتجنبت الصدام معها، وكانت تؤدي لها الزكاة أحياناً، وتمسك عن أدائها أحياناً أخرى. وتأرجحت علاقاتهما عبر التاريخ بين الجفاء الذي يقود إلى الشجار أحياناً، والصفاء الذي يجعل من أبوظبي حليفاً يقوم بالوساطة وتسوية المشكلات بين القوتين السعودية والعمانية.

وثّقت أبوظبي، ما كان ذلك ممكناً، علاقة حسن الجوار مع الرياض، وأكدت — في الوقت ذاته — قوة التحالف مع مسقط؛ فأمنت عدوان الأولى، وضمنت دعم الثانية. واستثمر شيوخ آل نهيان هذا الدعم العماني في تأكيد قوة قبائل الظهير، كما استفادوا أيضاً من علاقة عمان الوثيقة بالوجود البريطاني في الخليج خاصة بعد عام ١٨٢٠م في تطوير اقتصادهم البحري، استثمروا بذكاء الحظر «الأمني» الذي فرضته بريطانيا على الملاحة العربية فوق مياه الخليج، وراجت صناعة الغوص وراح العديد من بني ياس والمتحالفين معهم يخوضون من الظهير الصحراوي إلى أبوظبي ثم إلى الجزر القريبة من الساحل، يجمعون رزقهم ويميرون أهلهم في الداخل ببعض مؤن الخارج حين يعودون إليهم بعد موسم الغوص. وأصبحت أبوظبي واسطة العقد في تبادل المنافع، وتأكدت الوحدة بين البحر والصحراء بسيادة الأمن في هذه الطرق التي ربطت بينهما وأصاب

الدخل الفردي من جراء هذا النشاط ما يسدّ الحاجات الأساسية البسيطة لإنسان البادية دون أن يداخل النظام الأساسي لحياة لذلك الإنسان خلل يذكر؛ فهو يسير على سنّة البادية في الرحلة التي أخذت تمتد عبر الصحراء على بعيره إلى سيف البحر في أبوظبي ثم يسيح في البحر إلى الجزر على قواربه التي راحت تتطور جيلاً بعد جيل لتواكب متطلبات هذا النشاط المستحدث، ثم يقفل بعد «القفال» عائداً إلى «ديرته» بما تهيأ له من مال قليل وشيء يسير من الملابس يستر عريه، وربما يسعد بعضهم بالعودة إلى أهله بكمية قليلة من الأرز هي إلى جانب التمر والسمك المملح مائدته الهانئة في الصحراء وواحاتها. فالبدوي بطبيعته غير نهم شبّ وترعرع في بيئة شحيحة الموارد غير معطاء فَأَلِفَ الكَفاف حتى ما عاد يحسّه؛ لأنه أمر طبيعي. ومتّنت هذه الرحلة المتواترة بين الساحل والظهير روابط الوحدة بين البادية والحاضرة، وأرسخت قواعد شيوخ آل نهيان في البادية بما أورثته لخزينتهم من ثراء نسبي وظّفوه لتأكيد ولاء القبائل التي ترعى الظهير وامتثالها طوعاً لأهدافهم في تحقيق السلم الاجتماعي بينهم صيانةً للوحدة وتوسيعاً لدائرتها؛ فقد عرفت البادية نظام الحكم المشيخي الأبوي - منذ أن تكوّنت القبيلة في شبه الجزيرة العربية - أسرة واحدة كان الأب الحاكم فيها رفيع العماد كثير الرماد، وكان الكرم الذي تسنده الشجاعة هو الرابط الأوثق بين مؤسسة الحكم الأبوي ومجتمعها.

يشهد بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا أبوظبي في الربع الأول من القرن التاسع عشر أن شيوخ آل نهيان كانون يعيشون في الحضر قِيَمَ البادية، ويتمسكون بأعرافها؛ فقد كانوا مخالطين للفرس والهنود وغيرهم - ليس مثل الآخرين من شيوخ البوادي الداخلية الذي ما يتسنّى لهم ذلك - ولكنهم ما كانوا يأخذون من هذا الاختلاط المادي والثقافي إلا ما يفيد ولا يتعارض مع الموروثات. وتفيد هذه المصادر أيضاً أنهم

كانوا يأخذون بنظام الشورى ولا يبرمون أمراً إلا بعد التشاور مع كبار السن، ويؤكد ذلك أن شيوخ آل نهيان منذ أن تكوّنت قبيلة بني ياس في الظفرة ظلّوا يسيرون في دروب التحضر على هدى من قيم البداوة وأصالتها، وكانوا يكتبون ويقرأون في وقت لم يألف شيوخ البادية هذا النشاط الذي هو سِمَة تحضر لا تحتاج إليها الزعامة في البادية التي لا تستند إلا إلى الشجاعة والكرم والحكمة الموروثة ثم المكتسبة بالتشاور مع ذوي الشأن في القبيلة، و لم يأنفوا التعامل مع الأجانب – شأن أكثر شيوخ البادية – والتحدث إليهم بلسان البادية واهتماماتها في التاريخ والتراث وسائر شؤونها، وآية ذلك أنك لن تجد مؤلَّفاً واحداً في تاريخ منطقة الخليج – بأية لغة كانت وعلى أي منهج اتبعه مؤلفه – إلا استند بشكل كبير إلى روايات الشيخ شخبوط بن ذياب وأبنائه التي قالوا بها لبعض الإداريين البريطانيين في الخليج، ونقلها عنهم سالدانها ولوريمر وغيرهما من المؤرخين الرسميين للإدارة البريطانية في الخليج.

يضمّ هذا الكتاب أربعة فصول، عالج الفصل الأول منها وحدة قبيلة بني ياس ونهج شيوخهم في الفترة التي سبقت مجيء زايد بن خليفة إلى الحكم للمحافظة على وحدة بني ياس وحقوق حلفائهم المتحدين معهم. ولاحظنا أن شيوخ آل نهيان ما كانوا يتورعون عن إشهار الحسام في وجوه الخارجين عن الجماعة من أبناء القبيلة، ولكنهم كانوا أبداً يكرّمون العائدين إلى السرب ويبذلون لشيوخهم الكرم، أما في مجالهم المحلي والدولي فقد كانوا يحرصون على حسن الجوار، خاصة مع دولة البوسعيد ويتعاملون مع الآخرين بما يقتضيه الموقف على أساس الأصالة العربية:

إذا احتربت يوماً فسالت دماؤها   تذكرت القربى فسالت دموعها

وكثيراً ما كانوا يعبّرون عن هذا المعنى في عقود مصالحتهم للآخرين بأن «ما فات مات».

وتناول الفصل الثاني من هذا الدراسة عهد الشيخ زايد بن خليفة ومحاولاته الناجحة «لقولبة» قيم البادية لإقامة مجتمع مدني في منطقة الإمارات ومعالجته الناجعة لكثير من العقبات التي اعترضت هذا التوجه الذي انتهى إلى صيغة اتحاد كان يقوم فيه بدور الأب الرئيس الذي يشاور نظراءه ويزجر أبناءه ثم يسترضيهم بالكرم والبذل والعطاء. وقد عالج هذا الفصل أيضاً فترة الركود ثم فترة التدهور التي عاشها أبناء الشيخ زايد بن خليفة، ونظرنا في أسبابها، وانتهى الفصل بتناول طرف من تاريخ الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد. وعني الفصل الثالث باستجلاء الفترة الباكرة من حياة زايد بن سلطان آل نهيان، وانتهى الفصل الرابع بتطبيق نظرية البطولة في التاريخ على هذا الشيخ الذي أصغى ملياً لنداء الروح فتوّج مع نظرائه الشيوخ الآخرين وعامة أبناء شعبه تاريخ بلادهم بقيام اتحاد ما زالت روابطه تزداد متانة يوماً بعد آخر نتيجة جهود الشيخ البطل وحكمته ورويته وسخائه. وقديماً قالت العرب: لفلان تاريخ قومه، قصدوا بذلك أنه المقدّم فيهم. ونحن حين نقتبس هذه العبارة من ثقافة العرب نقول: إن زايداً تاريخ قومه، ولا نقف عند المعنى الذي قصدوه فحسب، فهو المقدّم فيهم ولا ريب، ولكنه – فوق ذلك – الأكثر معرفة بتاريخ قومه الذي عاشه صبيّاً، وتدبّره يافعاً، وكان له النصيب الأوفى في صناعته كهلاً وشيخاً.

اعتمدت هذه الدراسة المنهج التحليلي لاستقراء حقائق الوحدة والاتحاد، كما اعتمدت الوثائق البريطانية مصدراً لها. ولا يعود اختيارنا لهذا المصدر الأكثر أهمية بين مصادر تاريخ الخليج الحديث إلى ملازمته الحثيثة لكافة مراحل تاريخ إمارة أبوظبي فحسب إذ رصد أحداثها منذ عام ١٨٢٠م رصداً وصل إلى حد تسجيل اليوميات أحياناً، ولا إلى سهولة الوصول إلى هذا المصدر لما اتسمت به دور الوثائق البريطانية من دقة في التنظيم وتفاني العاملين فيها لخدمة الباحثين بكفاءة واقتدار، ولكنه يعود إلى ما

حاولنا أن نؤكده منذ زمن بعيد وفي كل مناسبة أن هذه الوثائق بريطانية الدار وليست بريطانية الهويّة؛ فهي تدور في فلك المنطقة وتهتم بكل همومها وشجونها، كما أن العديد من وثائقها مسجل بالحرف العربي، ويحمل توقيعات شيوخ هذه المنطقة الذين كانوا يعالجون تشابك المصالح بما يتفق وقدراتهم ومعطيات عهودهم. وقد يحتج علينا البعض – بعد كل هذا – بأن هذه الوثائق تعبّر عن وجهات نظر الإدارة البريطانية في الخليج وتلك حجّة من لا يعرف أن التاريخ يكتبه المؤرخ، ولا تملي عليه الوثيقة، ولا وجهة نظر من كتبها؛ فالتاريخ الذي هو علم الوثيقة – حقيقة لا مجازاً – لا تزيد الوثيقة فيه عن الحرف الذي يستحيل كتابة التاريخ إلا به. ولكننا – مع هذا – إذا تيسر لنا أن نجمع كل الحروف التي عرفها العالم في لغاته الحيّة والميتة، ووضعنا بعضها جانب بعض – فلن نخرج منها بكلمة واحدة مفيدة. يجب على المؤرخ أن يؤلف بين هذه الحروف بعد أن يثقفها ويعجمها ليكوِّن منها كلمة يضعها بعد تمحيصها إلى جوار نظيرتها ليكوِّن منها جملة بعد أخرى يمتحنها وينقدها حتى ينتهي إلى كتابه مؤلَّف في التاريخ. وهذا هو عين منهجنا في استجلاء مقاصد الوثيقة في هذه الدراسة.

وحَريٌّ بنا أن نذكر أننا بدأنا هذه الدراسة منذ حين، تقدمنا فيها وتأخرنا ثم انطلقنا لاستكمالها بدافع التشجيع الذي وجدناه من الدكتور عبدالله محمد الريس، مدير عام مركز الوثائق والبحوث في أبوظبي، ذلك الصرح العلمي الذي وجّه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان منذ عام ١٩٦٨م بإنشائه لما يعرفه من أن زخر تاريخ هذه المنطقة هو أحد المحفزِّات القوية التي تعين على السير في درب الاتحاد والوحدة. وقد وجد هذا المجتمع العلمي رعاية من سموّ الشيخ منصور بن زايد الذي اتصلت اهتماماته باهتمامات والده. ولا يفوتنا أن نذكر للزملاء العاملين في هذا المركز – وفي مقدمتهم الدكتورة فاطمة سهيل المهيري نائب مدير المركز التي جمعت إلى عِلْمها الجمّ حماساً

غير محدود للعمل والإنجاز - تعاونهم في إخراج هذا العمل العلمي في صورته هذه التي نراها وافية فنشكرهم، ونعدّ هذا الكتاب - إذا قدّر له أن يحقق هدفه - بعض إنجازهم. أما إذا كانت الأخرى فالكتاب حرفاً حرفاً صرفاً مسؤولية صاحبه الذي يرجو أن يمنّ الله عليه بفضل الاجتهاد إن أخطأ فضل الإصابة. وما التوفيق إلا من عند الله، إليه نضرع أن يثيبنا علماً ويقيناً.

والله من وراء القصد.

أ. د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم
أبوظبي ٦ أغسطس ٢٠٠٤

الفصل الأول

دور شيوخ آل نهيان الأوائل في تحقيق وحدة الإمارة

- بنو ياس في التقارير البريطانية
- أبوظبي، بداية تكوين العاصمة الاتحادية
- الشيخ شخبوط بن ذياب (١٧٩٥ - ١٨١٩م)
- الشيخ طحنون بن شخبوط (١٨١٨ - ١٨٣٣م)
- الشيخ خليفة بن شخبوط (١٨٣٣ - ١٨٤٥م)
- الشيخ سعيد بن طحنون (١٨٤٥ - ١٨٥٥م)

«السلطة التي يمارسها هؤلاء الشيوخ سلطة أبَويّة، ولكنها تضع وزناً أكبر لآراء كبار السن في القبيلة في المسائل الخاصة بتسوية المشكلات وتسيير المصالح الخاصة ... إن انكار الذات عند هؤلاء الشيوخ يحفظهم في إطار التقاليد الوطنية ...»

المسّاح جيمس ريموند ولستد (١٨٢٨م)



دور شيوخ آل نهيان الأوائل في تحقيق وحدة الإمارة

بنو ياس في التقارير البريطانية

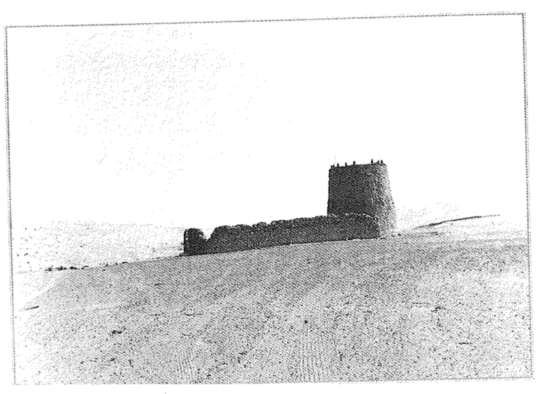
الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان سليل أسرة شيوخ آل نهيان من البوفلاح التي يمكن أن تتبع تاريخها بدّقة من المصادر الحديثة منذ تأسيس أبوظبي، هذه البلدة التي ارتبط تاريخها بهذه الأسرة.

يرجع شيوخ آل نهيان من البوفلاح إلى قبيلة بني ياس[1]، وهي قبيلة تردّها بعض المصادر العمانية إلى ياس بن عامر بن صعصعة، إلا أن كافة مصادرنا الحديثة تؤكد أن هذه القبيلة لا تعود إلى أب واحد، وتجمع على أنها قد تكوّنت من عدد من العشائر العربية الأرومة، المتجانسة المصالح، اجتمعت وفق منظومة البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية التي تعدّ القبيلة وحدة أساسية لتنظيم شؤون الحياة وتحقيق الأمن الجماعي في البادية العربية بحلف تحت قيادة أسرة تجتمع عليها آراء المنضوين تحت لواء ذلك الحلف؛ فتكسبها الريادة في السلم، وتنيط بها القيادة في الحرب. وكان شيوخ آل نهيان من البوفلاح – أسلاف زايد – هم الذين تولوا تحقيق هذه الوحدة الاندماجية في هذه القبيلة في تاريخها الحديث.

لا نعرف على وجه الدقّة التاريخ الذي تمّ فيه إنشاء هذا الحلف الياسي، ولكن الثابت لدينا أن عشائره كانت قسماً من حلف الجبور الذي حكم منطقة الخليج العربي قبل سقوطها للبرتغاليين، وأن هذا الحلف كان قائماً منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي[2]، وأنه قد أدّى دوراً بارزاً في الأحداث التي عمّت عمان في تلك الفترة؛ فقد قدمت قبيلة بني ياس في عام ١٦٣٣م الدعم لناصر بن قطن الهلالي وناصرته ضدّ إمام عمان*. وتورد هذه المصادر أن ناصر بن قطن الهلالي كان قد اعتصم في تلك

السنة بقلعة بني ياس في أرض الظفرة[٣]. ولعل في هذا الخبر ما يشير إلى أن قبيلة بني ياس كان لها منذ تلك الفترة الباكرة في أرض الظفرة قوّة ومنعة، وكان لها وجود مؤثّل تحميه قلعة أو ربما قلاع. وعلى الرغم من أن قبيلة بني ياس كانت بدوية إلا أن وجود قلعة أو قلاع في أراضيها يعني أن قسماً منها – على الأقل – عرف حياة التحضر في «محاضر» القبيلة في ليوا وغيرها من أرض الظفرة. كما يشير وجود القلاع في أرض بني ياس إلى نمط متقدّم من أنماط الحياة المدنية والتنظيم الإداري والعسكري الذي مارسته هذه القبيلة منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي على أقل تقدير، تحت قيادة شيوخها من البوفلاح، لحماية أرضها من تعديات القبائل الأخرى.

ورد في تقرير للكابتن تيلور – مساعد المقيم البريطاني في تركيا العربية (العراق) يرجع تاريخه إلى عام ١٨١٨م/ ١٥٣٥هـ – أن بني ياس قبيلة من قبائل عمان تعمل في الرعي[٤]. ويذكر هذا التقرير أيضاً أن القبيلة تنقسم ثلاثة أقسام هي: بنو ياس، والمناصير، والعوامر، وأن أفرادها يتوزعون بين الداخل والساحل، وأن قاطني المناطق الداخلية يمتلكون أجود سلالات الإبل، أما الذين يسكنون السواحل فهم أهل البحر، يمتلكون قوارب صغيرة يسع كل منها أربعة أفراد. ويستطرد التقرير فيقول: إن لبني ياس بساتين صغيرة من التمور في الداخل تدرّ عليهم محصولاً شحيحاً، وإن القبيلة تلجأ في موسم الصيف إلى تلك البساتين تتفيأ ظلالها ولا تغادرها حتى ينفد المحصول. ورأى تيلور أن المياه في تلك المنطقة مالحة، وأن القبيلة ترحل في شهور الشتاء وراء إبلها بحثاً عن المرعى، وتصل في تجوالها حتى مناطق قطر والأحساء. يسترعي الانتباه ما ذكره تيلور من أن هذه القبيلة يمكن أن تجنّد عشرين ألفاً من حملة البندقيات الممتازين في الرماية، ما يحدّث عن قوة هذا التجمع القبلي ومنعة شيوخ آل نهيان القائمين عليه.



من قلاع ليوا التي غالبت الزمن



شكّل النخيل الفصل الأول من فصول الاستقرار في ليوا
مهد تحالف بني ياس

ولعلنا نلحظ الخلط الذي ورد في هذا التقرير حين جعل المناصير والعوامر – وهما قبيلتان منفصلتان– قسماً مندمجاً في قبيلة بني ياس. ولعل عذر كاتب هذا التقرير أنه يكتب عن مناطق داخلية كانت فيها هاتان القبيلتان مع بني ياس تحت إدارة شيوخ البوفلاح. وقد كانت تحالف هاتين القبيلتين مع قبيلة بني ياس تحالفاً وثيقاً ذابت فيه الفوارق في ذهن تيلور، أو في الذهن الغربي عامة الذي يعدّ الخضوع لكلمة شيخ كبير أو لحاكم واحد كياناً سياسياً اندماجياً هو – في هذه الحالة – قبيلة بني ياس التي ينحدر منها شيوخ آل نهيان.

وتتدارك التقارير البريطانية اللاحقة هذا الخلط الذي وقع فيه تيلور في الربع الأول من القرن التاسع عشر حين كانت معرفة الإداريين البريطانيين بمناطق شبه الجزيرة العربية وراء السواحل معرفة ظنيّة. ولعل التقرير الوارد في لوريمر (*) الذي جاء بعد أقل من قرن من التقرير السابق هو الأجدر من غيره؛ ففي حديث لوريمر عن الظفرة التي يعرِّفها بأنها في أقصى أرجاء عمان غرباً يقول: إن هذه المنطقة إدارة من إدارات ساحل عمال المتصالح، وفيها قبيلتان هما بنو ياس، والمناصير، وأن المناصير بدو رحّل، وبني ياس مستقرّون. ويستطرد لوريمر فيقول: إن هاتين القبيلتين تتقاسمان السكن في ليوا، والقرية الوحيدة المعمورة هناك هي المحاضر التي يسكنها بنو ياس. أما مواطن المناصير، فهي في العادة، غير مأهولة إلا في فترة الصيف وموسم «خرص» التمور. ويضيف التقرير أن هذه التمور في تلك المنطقة حقّ مشاع للجميع. ويلحظ لوريمر أن مساكن بني ياس، مثلها مثل مساكن المناصير، لا تزيد عن كونها «عششاً» أقاموها من خوص النخل وسعفه، وأن المناصير حين يزمعون الرحيل من ليوا فإنهم يغلقون هذه «العشش»، ويقال: إنهم يهيلون الرمال على آبارهم فيطمرونها ويحفرونها حينما يعودون مرّة أخرى إلى المنطقة. ويشير التقرير إلى أن الظفرة هي منطقة المراعي الرئيسة للمناصير وبينونة منطقة الرعي المفضّلة لبني ياس، وأن المناصير يتركون إبلهم لدى بني ياس في بينونة في فترة الصيف، ويرحلون بها شتاءً إلى الغرب حتى قطر. وبينما يؤكد

التقرير أن المناصير كانت قبيلة أكثر بداوة من بني ياس يعود ليذكّر بأن المناصير يشاركون بني ياس في العمل في سواحل اللؤلؤ، وأن لهم قوارب لهذا النشاط يحتفظون بها في بندر رديم وخور مغيرة وبندر ميرفة. ويسترعي النظر في هذا التقرير ما أورده من أن بني ياس في الظفرة يفوقون المناصير عدداً إذ يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف ومائة نسمة بينما لا يزيد عدد سائر المناصير عن ألف وأربعمائة نسمة[٦]. ولعلنا نستطيع القول: إن هذا التفوّق العددي لبني ياس، والروح الوحدوية التي استشعرها شيوخ هذه القبيلة من آل نهيان، والمصالح الاقتصادية المشتركة في تلك البيئة الشحيحة المصادر هي التي دفعت بالمناصير من أهل الرحلة، وبني ياس من أهل مناطق الاستقرار والتنظيم الإداري إلى نمط من أنماط التضامن والتحالف القبلي والتحالف الوثيق.

أما قبيلة العوامر التي عدّها تقرير تيلور السابق – خطأً – إحدى قبائل بني ياس فهي من أصدق القبائل ولاء لشيوخ البوفلاح. فالعوامر – كما هو معروف عند لوريمر وغيره من موظفي حكومة الهند البريطانية[٧]، وكما هو ثابت في المصادر العربية الموثوقة – قبيلة بدوّية، يمنيّة الأصل، اتخذت في تحركاتها عدداً من المستقرّات في عمان الداخلية وساحل الباطنة. وقد امتدت تحركات بعض عشائر العوامر حتى الظفرة الشرقية والخطم، والساحل الغربي للباطنة، وكانوا يصيفون بالقرب من البريمي، وقد يقضي بعضهم الصيف في ليوا أحياناً. وكان العوامر الذين يقيمون في هذه المناطق – مع بداية القرن التاسع عشر – من أخلص جند البوفلاح، خاصة في وقائعهم مع الوهابيين في مناطق البريمي، وناصروهم ضدّ قطر منذ عام ١٨٨٩م/ ١٣٠٦هـ، وشاركوا بني ياس وقائعهم الأخرى التي سنذكرها في حينها. وقد كان على شيوخ البوفلاح من بني ياس «تنظيم» العلاقة بين هذه القبيلة وقبيلة المناصير، فكلتاهما من أهل الرحلة، وكان بينهما وقبيلة بني ياس تحالف يرعاه آل نهيان الذين يشكلون ذروة عماد بيوت بني ياس.

ولعل من المفيد هنا أن ننظر في الخطاب رقم ٣٩٦ المؤرخ في ٢٧ أغسطس ١٦/١٩٣٤ جمادى الأولى ١٣٥١ الذي أرسله وكيل المقيمية في الشارقة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين ردّاً على خطاب الأخير رقم ٦٦٠ المؤرخ في ١٥ يوليو ١٩٣٤ الذي يطلب فيه إلى الوكيل في الشارقة أن يستقصي ما يخصّ شؤون القبائل والعشائر والوجهاء التابعين لشيخ أبوظبي، وكذلك التجار الوافدين إلى المدينة[٨]. يقول خطاب الوكيل في تعريفه لبني ياس: إنها قبيلة من عدّة عشائر، ويبدأ بذكر القبيسات «الكبيساة» الذين هم فخذ من بني صخر يسكنون أماكن متفرقة في إمارة أبوظبي وخارجها. ويبلغ عدد القبيسات الذين يسكنون أبوظبي — في تقرير هذا الوكيل — نحو أربعمائة رجل، أما الذين يسكنون منهم في ليوا فيبلغ عددهم نحو خمسمائة رجل، كما يسكن نحو ثلاثمائة رجل منهم في جزيرتي دلما وغاغه وكذلك في وكرة. ويفيد هذا التقرير أن القبيسات جميعهم مسلحون بالبندقيات «التفق» وبالخناجر، وأنهم يعيشون من ريع نخيلهم في ليوا، كما يعملون في الغوص أيضاً. أما «كبير القبيسات» فقد كان في هذه الفترة حامد بن بطي بن خادم وهو خال الشيخ شخبوط، حاكم أبوظبي في ذلك الوقت، وله «شأن عظيم» في بني ياس.[٩]

ويرد هذا التقرير المرر الذين هم شريحة من بني ياس إلى بني مروان، وأنهم يسكنون أبوظبي وليوا أيضاً إذ يسكن في الأولى نحو مائتي رجل منهم، وفي الثانية نحو مائة وخمسين. وهم أهل إبل ويعملون في الغوص أيضاً، وكلهم مسلحون بالبندقيات والخناجر. كما تضمّ قبيلة بني ياس عشيرة المحاربة الذين يقطن نحو مائة رجل منهم في أبوظبي ويعيشون على الغوص، ونحو مئتين وخمسون في ليوا التي يملكون فيها نحو ثلاثة آلاف من الإبل. ويفيد التقرير أيضاً أن جميعهم مسلح بالبندقيات والخناجر، أما كبيرهم فهو خليفة بن سويدان.

ويسكن البوحمير الذين هم قسم من بني ياس أيضاً في أبوظبي حيث يوجد منهم نحو مائتي رجل يعملون في الغوص، كما يسكن بعضهم البريمي، ويبلغ عددهم نحو

٩٩٦
١٩٤٤

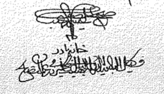
٢٧ اكست ١٩٤٤ مطابق ٦ رمضان ١٣٦٣



جناب الأجل الأفخم ام ورث اي سي ايه البليوز المعتمد البريطاني في البحرين المحترم

٩٩٤٤

بعد السلام والسؤال عن خاطركم المرضي نسبةً الى كتابكم السري نمرة سي ٦٦٠ المؤرخ ١٥ جولاي
مطلوبكم نكتب لجنابكم تقرير عن كل شخص من أعيان بوظبي مع ذكر الأفراد البارزين من عائلة
الحاكم وكذلك الايرانيين عن كل شخص على حدة وعن قطاع البوظبي
عدد سكانها والبيان والبساتين الجهال الذين لهناك الحال ما جاء لنا خبر منذ العام
الصحيح في ذلك مع وصول بنادر الربع لجنابكم الحقيقة الوقت قيض وكثير هج من سند
حتى نعرف الشتاء إلا بعد ... هذا ما لزم



خانبادر
وكيل المقيمية البريطانية

من خطاب عيسى بن عبداللطيف، وكيل المقيمية البريطانية

حامد بن بطي في ابظبي

ا حامد بن بطي

ب كبيسي

ت طوايش

ث حامد بن بطي بن حاتم كبير طائفة الكبيسات وله شأن عظيم في قبيلة بني ياس
وهم نخوتهم بني صخر وهو خال شيخ ابوظبي الحالي (شخبوط بن سلطان)
اكثرها تعتبر يكونون في ليوه عند نخيلهم وطان وبعض اهله في جزيرة دلما وغاغه
يتاماون كمفص

من تقرير عيسى بن عبداللطيف

بني ياس طائفة الكبيسات

الكبيسات نخوتهم بني صخر كبيرهم حامد بن بطي يسكنون ابظبي
دائماً ٢٠٠ نفر يسكنون ليوه تخميناً ٥٠٠ نفر في يسكنون
جزيرة دلمه وغاغه وابوكره تخميناً ٣٠٠ نفر يشتغلون
بالغوص بعضهم نخيل في ليوه بعضهم تخميناً ١٠٠٠ ركاب
جميعهم مسلحين اعني فاطبقاً عندهم سلاح كلهم حامله تفق خنجر

مائتي رجل. والبوحمير أهل إبل يملكون منها نحو ألفي رأس. ويشير التقرير إلى أن كافتهم مسلحون بالبندقيات والخناجر، وأن كبيرهم هو أحمد بن محمد الحميري.

ويستطرد التقرير فيذكر أن نحو مئتي رجل من الهوامل – وهم من بني ياس كبيرهم جليب – يسكنون أبوظبي حيث يعملون في الغوص، ونحو ثلاثمائة في ليوا التي لهم فيها من الإبل نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رأس، ويفيد التقرير أن الهوامل أيضاً مسلحون بالبندقيات والخناجر.

أما المزاريع فهم قسم من بني ياس يقطن نحو مائة وخمسين رجلاً منهم في أبوظبي حيث يمارسون الغوص، ونحو ثلاثمائة في جزيرة دلما التي يمارسون فيها ذات النشاط، بينما يسكن قسم منهم ليوا التي لهم فيها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رأس من الإبل هي ثروتهم الرئيسة هناك، وهم أيضاً مسلحون، وكبيرهم هو فارس بن علي.

ويشير هذا التقرير الذي كتبه خان بهادر عيسى بن عبد اللطيف [١٠]، الوكيل الوطني للبريطانيين في الشارقة، إلى أن البومهير هم كذلك من بني ياس يسكنون جميعاً أبوظبي، ويكسبون رزقهم من الغوص، ومن ريع إبلهم التي يبلغ عددها نحو ألف وخمسمائة رأس، ويتولى الرئاسة فيهم علي بن خاطر ومحمد بن عبد الله، وعندهم من السلاح «كل نفر تفق واحد وخنجر». كما يشير هذا التقرير أيضاً إلى أن السودان من بني ياس وهم نحو ثلاثمائة رجل يسكنون محيط مدينة أبوظبي، وهم مسلحون بالبندقيات والخناجر ويحترفون صيد البحر. وكان كبيرهم في هذه الفترة خليفة بن أحمد. أما الرميثات الذين يقتصر وجودهم على أبوظبي فيبلغ عددهم نحو أربعمائة وخمسين رجلاً، وهم من بني ياس أيضاً، يكسبون عيشهم من الغوص، ويعيشون على ريع إبلهم التي لهم منها نحو ألفين وخمسمائة رأس. وكان كبيرهم محمد بن علي. ويذكر هذا التقرير القمزان «الكمزان» الذين هم – شأنهم شأن الرميثات – عشيرة يقتصر وجودها على أبوظبي، ويكسبون رزقهم من الغوص ومن «الركاب»،

إذ يمتلكون نحو خمسمائة من الإبل، ويبلغ عددهم نحو الخمسين، وكبيرهم هو محمد بن خليفة.

ولعلنا حين نعتمد هذه التقارير المختلفة نخلص إلى حقيقة أن بني ياس تجمّع لعشائر بدوية ومستقرّة، بل إن لكل عشيرة من عشائرها شقين، باد وحاضر. ولعل من الطريف أن نقرر أن التحضر في هذه القبيلة يرتكز على مفهوم البداوة أيضاً، بمعنى أنهم سكنوا في حواضر ليوا لكنهم كانوا يجوبون بينونة، وبوادي الظفرة على إبلهم، وسكنوا أبوظبي ولكنهم راحوا كذلك يجوبون البحر قريباً من السواحل على قواربهم وما كانوا يستقرون في حاضرة أبوظبي إلا فترة ما؛ ولذا يمكن القول: إن هذه القبيلة كانت في بدوها وحضرها قبيلة ذات همّة لا تفتر ونشاط لا يهدأ، في حركة دائبة لا تعرف الاستقرار. ولّما كان كل عشائر بني ياس ذات الحركة الدائمة مسلحة فإن رؤساءها وكبراءها كانوا في حاجة ماسة إلى شيوخ ذوي كفاءة وحكمة وشجاعة لتنظيم هذه الحركة المسلحة فوق أرض كانت شحيحة الموارد حتى لا تضار مصلحة أي فئة من قبل فئة أخرى. وتفيد هذه التقارير أيضاً أن الأرض التي تتحرك فيها بنو ياس تمتد بين ليوا في الظفرة، وأبوظبي في السواحل، والبريمي في الداخل، وأن أبوظبي هي العاصمة التي تتجلى فيها الوحدة السياسية إذ يدين الجميع بالولاء لشيخ واحد، والوحدة الإدارية أيضاً إذ يحكم الشيخ المعني هذه القبائل بوساطة كبارهم الذين هم عماد مجلس ذلك الشيخ. ولعل في ذلك ما يؤكّد أن أبوظبي قد عرفت منذ إنشائها نوعاً من لا مركزية الحكم والإدارة، وأن شيوخها من آل نهيان قد أتاحوا لسكانها لوناً من ألوان الديموقراطية الموروثة عن الأعراف والتقاليد البدوية العتيدة، وتتجلى فيها أيضاً الوحدة الاقتصادية؛ فالنشاط الاقتصادي واحد هو ممارسة الغوص، والتعامل تجارياً مع البحر والظهير الصحراوي وفق معايير أقرّها ذلك المجتمع.

ويمكن أن ننظر في تقرير آخر كتبه أيضاً خان بهادر عيسى بن عبد اللطيف برقم ٤١٦ وتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٣٤م، إلى غردون لوخ، الوكيل السياسي في البحرين

بالإنابة، استكمالاً للتقرير السابق[11]. يتحدث هذا التقرير عن العلاقة بين القبائل الداخلة في حلف بني ياس وشيوخ آل نهيّان. ونتناول هنا جانباً من التقرير الذي يعنى بتكوين قبيلة المناصير وعلاقاتها بشيوخ آل نهيّان. وذكر ابن عبد اللطيف أنه استقى معلومات هذا التقرير من شيوخ المناصير أنفسهم.

أورد الكاتب أن قبيلة المناصير تتكون من عدّة أفرع هي: البورحمة من نحو خمسمائة رجل يسكنون الظفرة، وهم رعاة يملكون نحو سبعة آلاف وخمسمائة رأس من الإبل، ويعيشون «من محصول ركابهم». ولديهم السلاح، ورؤساؤهم «يتشفعون» عند المشايخ من آل نهيان. والبو خيل وهم أصحاب إبل يعيشون منها، «ويعاملون» في أبوظبي، ولديهم من السلاح ما يكفيهم، وكبيرهم سيف بن عفيصان. والبومنذر الذين يبلغ عددهم نحو مائتين وخمسين فرداً، ويعمرون أرض زايد بن خليفة، وهم رعاة مسلحون، شيخهم راشد بن مانع، ويعيشون من محصول ركابهم. والبوشعر ويسكنون الظفرة، ويصل عددهم إلى الثلاثمائة فرد، وهم مسلحون بالبندقيات والخناجر. ويعيش البوشعر من ريع إبلهم التي يصل عددها إلى نحو ستمائة، كما يعمل بعض أفرادها في الغوص في أبوظبي وفي دبي أيضاً، وكان شيخهم غانم بن يربوع.

ولعلنا نلاحظ هنا الصلة الوثيقة التي ربطت عبر التاريخ المناصير ببني ياس في الظفرة وخارجها. فالمساكن مشتركة، والمصالح مشتركة، وهم أهل إبل، وأهل سلاح يهرعون عند الحاجة للتعاون مع الطوائف المستقِرّة من بني ياس في الظفرة وخارجها، لرد أي اعتداء على الأرض والممتلكات وفاء بالمصالح المشتركة التي رعاها شيوخ آل نهيّان من البوفلاح. وكان شيوخ المناصير - كما يذكر التقرير- «يتشفعون عند الشيوخ» آل نهيان الذين ما كانوا يردون لهم شفاعة وتشير الأحداث التي سنعرضها في حينها أن شيوخ آل نهيّان كانوا ينتصرون للمناصير ويدفعون عنهم كل طارئ وإن

المناصير طائفة آل بوحمد فخذ من المناصير

سعيد بن سويف ومحمد بن ناصر بوكيني رؤساء آل بوحمد وهم (٥٠٠) نفر يسكنون
في جهات الظفرة ويتاعون البوظبي يعيشون من محصول نخيلهم ويشتغلون
عند شيخ الأصل وعندهم غنم تخمينا (٧٥٠٠) جمل وعندهم سلاح 8

المناصير آل بالخيل فخذ من المناصير

سيف بن عفصان كبير طائفة آل بالخيل وهم (٥٠) نفر يسكنون في جهة الظفرة
يعيشون من محصول نخيلهم وبعض منهم يتعاملون الغوص عندهم ركاب
(٤٠٠٠) جمل وعندهم سلاح 8 كفاية

المناصير البومنذر فخذ من المناصير

راشد بن مانع كبير البومنذر وهم (٢٥٠) نفر يسكنون في أرض بينونه حليفه
وعندهم ركاب (٤٥٠٠) وعندهم سلاح ويتعيشون من محصول ركابهم
ويشتغلون عند [illegible] البلدان وغيرهم

المناصير البوكشر فخذ من المناصير

غانم بن بوتيه شيخ طائفة البوكشر وهم يسكنون في جهات الظفرة
٣٥٠ نفر وعندهم ٦٠٠ جمل عندهم سلاح يتعيشون من محصول
ركابهم وبعض منهم يتعاطون الغوص في أبوظبي ودبي شغلهم شغل في أبوظبي
ولكن مسافرتهم في دبي

كان ذلك من بطون قبيلة بني ياس ذاتها. وهكذا وهنت بسياسات شيوخ آل نهيان من البوفلاح الفوارق بين القبائل المختلفة حتى كادت تتلاشى. ويسترعي انتباهنا ما ورد في هذا التقرير أيضاً من أن بعض بطون المناصير كانت تقيم في بعض الأراضي التي ترجع ملكيتها مباشرة إلى بعض شيوخ آل نهيان، إضافة إلى ما هو معروف من أن بعض شيوخ آل نهيان قد تزوجوا في بيوت المناصير، ما قوّى صلات القربى، وروابط العرف، ووحدة المصير حتى باتت بعض بيوت المناصير تتدخل أحياناً في الخلافات داخل البيت الفلاحي. ويؤكد تقرير بريطاني يعود إلى عام ١٩٥٢م/ ١٣٧١هـ أن آل بلخيل، الذين لا يشكّ في أنهم من المناصير، قد أصبحوا بالتدريج منذ بداية القرن التاسع عشر – كما يقول أحد شيوخهم – قسماً من قبيلة بني ياس. لقد استشعر شيوخ آل نهيّان تقاليد البادية وأعرافها، واستثمروا المفاهيم الحضرية التقليدية، ووظّفوا الروابط الثقافية والأمنية، وصولاً إلى هذا النمط الفريد من الاتحاد بين الياسيين والمناصير، ثم مع كافة القبائل والجماعات التي تعمر المناطق الخاضعة لنفوذهم.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن تقارير لوريمر، مثلها مثل تقريري خان بهادر عيسى بن عبد اللطيف، تغفل ذكر البوفلاسة ضمن أفرع بني ياس رغم أنهم في القلب منها. ويرجع ذلك – في تقديرنا – إلى أن فرع البوفلاسة من بني ياس قد أصبح منذ عام ١٨٣٣م/ ١٢٤٩هـ كياناً منفصلاً اتخذ من دبي عاصمة له، بينما تطورت فصائل بني ياس الأخرى إلى كيان سياسي له نمط الدولة التي أصبحت أبوظبي عاصمة لها. ولعلنا نلاحظ أيضاً أن العلاقة الوطيدة التي ربطت بوفلاسة دبي بأهلهم البوفلاح من بني ياس قد كانت – رغم الخلافات الطارئة أحياناً – رصيداً تراكمياً في الفكر الوحدوي لشيوخ آل نهيان انتهى إلى وضع اللبنة الأولى في بناء دولة الإمارات العربية المتحدة بالإعلان الصادر في السميح بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٦٨م.

تعود أوائل التقارير البريطانية التي كتبت عن أبوظبي إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر؛ فقد أوفدت حكومة شركة الهند البريطانية في هذه الفترة عدداً من المسّاحين بهدف «رسم» خط ساحل الإمارات ودراسة العوامل الطبيعية والبشرية والإيكولوجية فيه. وقد أجمعت تلك التقارير كلها على أن أبوظبي جزيرة رملية غير آمنة المراسي، وأن ساحلها لا يستقبل إلا المراكب التي لا يزيد غاطسها على ١٢ – ١٣ قدماً، والتي يتحتم عليها أن ترسو على بعد نحو ٢٥٠ ياردة من خط الساحل. وأجمعت هذه التقارير أيضاً على أن هذه المراكب ذات الغواطس الصغيرة نسبياً لا تستطيع أن تصل إلى مشارف ساحل هذه الجزيرة إلا برياح مواتية مع مرشدين حاذقين. وتشير هذه التقارير أيضاً إلى وجود فجوة في الصخور المرجانية شمال المدينة ويحتاج من يعبرها إلى ربان ماهر ومرشد خبير.

يقول الكابتن جورج بارنز بركس[١٢] – أحد هؤلاء المساحين الأوائل – إن أبوظبي هي القصبة الرئيسة لقبيلة بني ياس، وهي مقرّ شيخها، وتضمّ بالإضافة إلى العشائر المعتمدة من بني ياس، عدداً من عشائر المناصير وعشائر أخرى متعددة تعترف بسلطة هذا الشيخ. ويقدر بركس عدد سكان أبوظبي بألف ومائتي رجل، ولكنه يرى هذا العدد يزداد كثيراً في مواسم الغوص إذ تفد إلى الجزيرة في هذه الفترات أعداد كبيرة من ساكني المناطق الداخلية في الظفرة وغيرها، وعدد من «البنيان» الذين يعملون في التجارة، وفي صياغة الذهب. ويشير هذا التقرير إلى أن سكان أبوظبي يعملون في صيد البحر، ولهم عدد كبير من القوارب الصغيرة، ويسهمون بنصيب كبير في صيد اللؤلؤ، مصدر الدخل الرئيس للسكان، وبشيء يسير من النشاط التجاري.

ويؤكد تقرير آخر كتبه الليوتنانت هنيل بعد نحو عقدين من الزمان ما جاء في هذا التقرير، ويتفق معه في أن عدد سكان أبوظبي يتأرجح تبعاً لمواسم العام، ويضيف أن

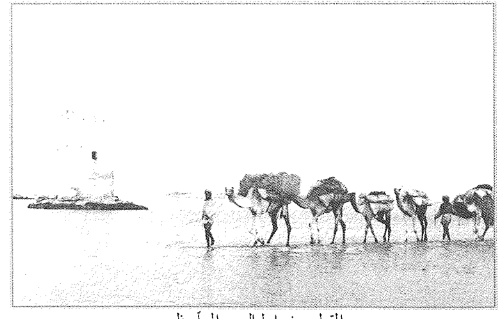
عدد السكان المستقرّين في البلدة يصل إلى حوالي ثمانية عشر ألفاً، ولكنه يربو على ذلك كثيراً في مواسم الغوص[١٣]. نرى حين نقارن بين عدد السكان المستقرّين الوارد في هذا التقرير وبين أعدادهم في التقارير السابقة له – أن معدل النموّ السكاني الذي شهدته هذه المدينة في هذين العقدين تحت قيادة شيوخ آل نهيّان كان مرتفعاً جداً. ويرى هذا التقرير أيضاً، كالتقارير السابقة – أن جزيرة أبوظبي غير آمنة المراسي، وأن على المراكب التي يزيد غاطسها عن أربعة عشر قدماً أن ترسو على بعد نحو ربع ميل من خط الساحل، وأنها تبقى هناك مكشوفة ومعرّضة للرياح الشمالية الغربية. ويخلص هذا التقرير إلى أن طبيعة هذه الجزيرة وساحلها المنخفض، وجوّها الخانق، والظروف الطبيعية المحيطة بها، تجعل الوصول إليها أمراً شاقاً وعسيراً. وعلى الرغم من ذلك – كما يقول التقرير – فإن النشاط الاقتصادي لهذه الجزيرة الذي يقوم على صيد اللؤلؤ يجذب إليها أعداداً غفيرة من قبائل بني ياس والقبائل الأخرى التي تدخل تحت سلطة الشيخ، فترى أولئك جميعاً في مواسم الغوص ينتشرون في الجزر المجاورة للشريط الساحلي التي أصبحوا يعمرونها بشكل دائم أو موسمي، وترى قواربهم في حركة دائبة بين غدوّ إلى جزيرة أبوظبي ورواح منها.

يعدد هذا التقرير البطون التي تتألف منها قبيلة بني ياس التي يحكمها شيوخ آل نهيّان من البوفلاح في أبوظبي، ويذكر منها: المرر، والقمزان، والهوامل، والمحاربة، والقبيسات، والبومهير، والبوفلاسة، ويفيد أن هذه العشائر كلها بدوية الأصول، وأن شأنها شأن أسرة البوفلاح التي تختار هذه العشائر حكامها منهم، قد نزحوا من نجد، واستقرّوا في المنطقة الممتدة بين البدع والبريمي يرعون فيها سوائمهم من إبل وغنم[١٤].

ويقدم هذا التقرير تفسيراً للعوامل التي دفعت ببعض رجال هذه القبائل إلى الهجرة من الداخل إلى الساحل ويردّها للأحوال المناخية السائدة في المنطقة، وظروف الجدب التي تسودها خاصة في السنوات التي ينحبس فيها الغيث؛ فيفقد العديد من هؤلاء



المقطع : مراقبة القادمين إلى المدينة



المقطع وضوابط العبور إلى أبوظبي

البدو قطعانهم، ويضربهم الفقر فيضطرّون إلى البحث عن وسائل كسب عيش أخرى. وليس لمثل هؤلاء إلا أن ينزحوا إلى السواحل المواجهة لديارهم في المنطقة الممتدة بين دبي وخور العديد[١٥]. ولم يكن استقرارهم في تلك السواحل في بداية الأمر استقراراً دائماً؛ وذلك نتيجة شحّ المياه فيها. وكان العاملون في هذه النشاطات البحرية يضطرّون إلى جلب مياههم معهم من الداخل الذي سرعان ما يعودون إليه عندما تنفد. أما إذا تحسنت الأحوال المناخية في المناطق الداخلية، ونزل الغيث، وسالت الأودية، وعادت الماشية ترتع وتتكاثر، فإنهم سرعان ما يزهدون في هذه الهجرة القسرية التي ما تلبث أن تفتر ثم تزول بزوال دوافعها ويعودون لممارسة حياة البادية مرّة أخرى[١٦].

في الحقيقة لم تكن جزيرة أبوظبي – شأنها شأن كافة مناطقها الساحلية – منطقة مأهولة، إنما كانت الجماعات تغشاها لصيد السمك في مياهها الضحلة وشرومها العديدة، وسرعان ما يتركونها لخلوّها من المياه الصالحة للشرب. وحين عثر بعض الأفراد في عام ١٧٦١م/ ١١٧٤هـ على المياه في هذه الجزيرة قامت عند تلك البئر مستعمرة تضمّ نحو عشرين منزلاً. وكانت مياه تلك البئر مُرّة المذاق ملحيّة، ولكنها كانت مستساغة الطعم لدى أهل البادية. وحين شاع في البادية خبر وجود الماء في أبوظبي أخذت المستعمرة حول البئر تتسع، وتحلّق حولها في مدى عامين فقط نحو أربعمائة منزل، وأصبحت مجتمعاً مدنياً كان على شيوخ القبيلة من آل نهيان رعايته وحمايته. وكانت هذه الأسر والجماعات من بني ياس أساساً ومن حلفائها الآخرين الذين اجتمعوا في الداخل على الولاء لشيوخ آل نهيان. وكان لهؤلاء الشيوخ خبرة ممتدة في تقديم الأمن للمستقرات الداخلية من حواضر ونجوع وحمايتها من تعديات البادية التي يمكن أن تقع عليها لولا السياسات الحكيمة التي اتّبعها هؤلاء الشيوخ من آل نهيان التي تمثلت بسياسة الأحلاف التي وحّدت بين البدو والمستقرّين، كما تمثلت بتشييد القلاع في بعض مناطق التماس القبلي في البادية وفي مناطق الاستقرار

الموسمي، ما لم يكن مألوفاً في سياسات البدو. ويدل اختيار شيوخ آل نهيان جزيرة أبوظبي عاصمة لهم دون سائر الجزر العديدة التي تساحلهم على وعي مبكر باستراتيجية المكان الذي تمتع بموقع ذي حماية طبيعية تقيه غولات الهجوم المفاجئ وتتيح في ذات الوقت حرية المرور البريء إليه. فأبوظبي هي بنت الصحراء الراقدة عند سيف البحر على الرف القاري غير المقطوع عن الساحل تستعصم بكل من يبغي بها شراً من ظهيرها بحركة المد الذي يقطعها عن الساحل وتمد ذراعيها مع حركة الجزر تحت أعين حراس قلعتها لكل ذي محرم يرعى حرمتها ويخوض إليها لجّة «المقطع» طلباً للنوال والرزق الحلال. ولذلك أقام هؤلاء الشيوخ قلعة عند البئر في جزيرة أبوظبي لحمايتها، أصبحت بعدئذ بيت الشيخ ورمز السلطة في أبوظبي. وعلينا أن نشير هنا إلى أن سياسة الاستقرار وسيادة أنماط التحضر وضروب التحديث لم تكن أمراً جديداً استحدثه شيوخ آل نهيان إنما هو نهج قديم لهم في قلب بادية شبه الجزيرة العربية. وقد أرسخت هذه المزاوجة بين أساليب التحضر وأعراف البادية سيادة أسرة آل نهيان في البادية والحاضرة على حد سواء. فقد ألفت البادية هذه الأساليب الحضرية التي كفّت أيدي العشائر بعضها عن بعض وحافظت – في الوقت ذاته – على أعرافها وتقاليدها، أما الحاضرة فما كانت ترى في البادية إلا صنواً لها تمدّها حال السلم بقوّة العمل، وتتبادل معها المنافع الاقتصادية، وترفدها في حالة الحرب بالدعم العسكري، وتقاسمها المنافع الأمنية. وظلت أبوظبي لذلك فترة طويلة بعد قيام المجتمع المدني فيها مدينة ريفية أو مدينة بدوية، إذا صحّ التعبير؛ فقد شيدت المنازل فيها من جذوع النخل وسعفه، و لم تقم فيها بيوت من الحجارة. و لم تشجّع سياسة شيوخ آل نهيان السكان المستقرّين في أبوظبي على العمران الحضاري. ويمكن أن يردّ هذا الأمر – في تقديرنا – إلى سبب منطقي وهو أن الذهنية البدوية المنفتحة في باديتها على الفضاء العريض الذي لا تحجبه الأسوار لم تعمد إلى أن تتخذ من الحجارة بيوتاً وربما أنفت ذلك. ورحم الله تلك البدوية التي أصبحت زوجة لأحد الخلفاء الأمويين فأنشدت:

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيه أحبُّ إليّ من قصر منيف

هذا بالإضافة إلى أن شدّة القيظ وارتفاع نسبة الرطوبة في هذه المنطقة تجعل من خباء السعف مقرّاً أدعى إلى السكن والراحة من البناء الحجري. ويمكن هنا أن نضيف أيضاً أن المستقرّين الأوائل من البدو لم يعمدوا – في بادئ الأمر – إلى الاستقرار الدائم إنما كانوا يرَوْن مساكنهم الجديدة معسكر عمل يمكن أن يهجروه إذا تحسنت الظروف الطبيعية في المناطق الداخلية، ولا يعودوا إليه إلا في مواسم صيد الآلئ.

ويقدم تقرير هنيل – في هذا الصدد – تفسيرين نرى فيهما جانباً كبيراً من الصواب، إذ يذكر أن من سياسة شيوخ آل نهيان عدم تشجيع هذه العشائر المستقرّة على البناء؛ لأن العشائر البدوية إذا اعتصم بعضها عن بعض بالحجارة ثم ثارت فيها نعرة البادية فسينفرط عقد الأمن فيها، وتصبح الأحياء مقسّمة الولاء. فالقلعة أو البناء بالحجارة يجب أن يظل حقّاً للشيخ، ورمزاً للسلطة الواحدة التي تكفّ أيدي القوم عن تعدّيات بعضهم على بعض، وترد عنهم جميعاً خطر التعديات الخارجية. ويضيف هنيل أيضاً أن هذه الجزيرة – شأن كافة المستوطنات الساحلية في المنطقة – مكشوفة لمدافع السفن البريطانية. فإذا حدث هجوم بريطاني على هذه الجزيرة أمكن لأهلها الانسحاب منها إلى الداخل دون خسائر كبيرة. ونحن حين نعتمد الأسباب المادية التي أوردها هنيل يمكن أن نضيف إليها أن السكان في هذه المستعمرة الوليدة لم يكونوا حينئذٍ مؤهّلين مادياً ولا تقنياً لبناء مساكن حجرية لا تتسق مع مناخ المنطقة[١٧]، ولا تلائم إيكولوجيتها.

وأيّاً كانت الأسباب التي منعت التطوّر العمراني الحديث في أبوظبي، فإن الهدف من وراء ذلك كان أمنياً في المكان الأول، وهذا ما دعا شيوخ آل نهيان إلى إرساء القلعة التي أصبحت المقرّ الرسمي للشيخ، ومكان عقد مجلسه حين كان يفد على أبوظبي من الداخل دورياً لتفقّد أوضاع رعاياه فيها. و لم يكن قرار انتقال مقرّ الشيخ من الداخل

حيث النفوذ القبلي التقليدي، وحيث الإبل التي كانت تشكّل مع الرجال قوة الجيش ومنعة القبائل، وحيث البساتين التي كانت تدرّ ثروة لا يستهان بها رغم شحّ عطائها إلا لضرورة لازبة. فمع قيام هذه المدينة في أبوظبي تضاعفت مشكلات الشيوخ الإدارية والأمنية كما تضاعفت أيضاً حاجاتهم المادية للوفاء بالالتزامات الجديدة. وأصبحت الطرق التي تقود من الداخل إلى الساحل كثيرة الحركة تعجّ بالمواطنين، خاصة مع بداية مواسم صيد اللؤلؤ وعند «القفال» عندما تنتهي تلك المواسم، فكان لابد من رفع مستوى الأمن في تلك الطرق، كما أخذت تجارة اللؤلؤ تزدهر في أبوظبي، ووفد إلى المدينة عدد من الأجانب الذين أخذوا يعملون في تلك التجارة .

ووقع على الشيوخ من آل نهيان عبء إضافي في حماية هؤلاء الأجانب الذين كانوا – في أعمّهم– رعايا بريطانيين وافدين من شبه القارة الهندية، وكان كل عمل يعرقل نشاطاتهم الاستثمارية يستثير الإدارة البريطانية في الخليج، ويدفع بها إلى التعامل بقسوة مع هذه المستقرّات الساحلية مستخدمين في ذلك سفنهم ذات التقنية العالية، ومدافعهم التي برهنت كافة الحوادث السابقة أن عرب المنطقة لا يملكون أسلحة دفاع لردعها؛ لذا أصبح وجود السلطة الإدارية العليا التي يمثّلها شيوخ آل نهيان في أبوظبي ضرورة قصوى للتعامل مع السلطة البريطانية في الخليج حرباً وسلماً. ونشأ لذلك شكّل من أشكال الدبلوماسية إذ أصبح التعامل مع قوّة دولية مؤثرة أمراً لابدّ منه، و لم يكن من الممكن للشيوخ القيام بعبء هذه المسؤولية المستحدثة إلا بالانتقال من الداخل والاستقرار في الساحل الذي أصبح في هذه المرحلة أكثر حركة ونشاطاً وأكثر عطاءً مادياً وإنتاجاً.

يضاف إلى هذا كله أن رعايا هؤلاء الشيوخ كانوا قد انتشروا من أبوظبي إلى الجزر المواجهة لسواحلهم بعد أن ازدهرت حرفة صيد اللؤلؤ. وغدت حاضرة أبوظبي لموقعها المتوسط بين الصحراء والبحر منطقة ضابطة تجتمع فيها كافة خيوط التجانس

الاجتماعي والاقتصادي والأمني لأهل المنطقة. ولم يعد الساحل كما كان سابقاً هو الحدود المعتمدة للمشيخة، إنما اتسعت الحدود حتى شملت مناطق شاسعة في البحر وجزره. وامتدت مسؤولية شيوخ آل نهيّان في البحر على المراكب التي تعمل في صيد اللؤلؤ والأخرى التي أخذت تعمل في النشاط التجاري، وإن كان محدوداً. وكان على الحاكم أن يستثمر هذا الموقع الوسطي لضبط كافة النشاطات الحيوية لشعبه والتعامل مع المشكلات المستحدثة لما يكفل لمواطنيه حقوقهم المكتسبة. أما من الناحية الاقتصادية فقد أصبحت أبوظبي، مع مرور الزمن، تدرّ على الشيوخ من الرسوم المستخلصة من نشاطات التعامل في اللؤلؤ أكثر مما يصيبه أولئك الشيوخ من البادية التي لم تكن في تلك الفترة تدرّ من المال سوى الزكاة من الإبل التي كانت تؤدى في الغالب نوعاً، أو زكاة الزروع التي ما كان عائدها يفي بأكثر مما يستهلكه القاصدون إلى مجالس أولئك الشيوخ. وهكذا يمكن القول: إن أبوظبي قد أصابت مع بداية القرن التاسع عشر من الميزات الإستراتيجية والاقتصادية ما جعلها تصبح مركز الثقل السياسي والأمني والاقتصادي للمشيخة، وبات على شيخها المسؤول لذلك أن ينقل مقرّه من الداخل إلى الساحل.

في رواية للشيخ شخبوط بن ذياب (١٧٩٥-١٨١٦ م) أن فلاحاً – الجدّ الذي تنتسب إليه أسرته – ترك أربعة أبناء هم: نهيّان وسعدون، ومحمد، وسلطان. وكان كل شيخ من هؤلاء الأربعة يحكم في قسم من قبيلة بني ياس، غير أنهم في تطلعاتهم لوحدة تجمع القبيلة راحوا يتنافسون فيما بينهم، كلٌ يسعى لحشد دعم قبلي أكبر. ورجحت كفّة نهيّان في هذا المجال؛ فقد أطاعته أكثر عشائر بني ياس ودعمته ببذل الولاء له. غير أن أمر السلطة القبلية لم يكن قد حسم بعد بصفة تامة حين توفي هؤلاء الشيوخ الأربعة؛ فقد تنافس على الرئاسة في القبيلة كل من: عيسى بن نهيان، وزايد بن محمد، وسلطان بن سعدون. وتمكن الشيخ عيسى من أن يظفر بولاء العشائر المختلفة وتثبيت سلطته، وتوحّدت بنو ياس تحت رايته، واستقرت الرئاسة بعدئذ في ابنه الشيخ ذياب

دون منافس آخر من أسرته التي كانت دون غيرها من الأسر، محل الرئاسة في بني ياس ومستقرّها.[١٨]

وما لبثت هذه القبيلة في عهد الشيخ ذياب أن وسّعت من نشاطاتها في أبوظبي التي لم تكن في عهد أبيه الشيخ عيسى إلا نواة لمستعمرة جديدة لم تتضح معالمها بعد، وكان هذا الشيخ الأخير لا يزورها إلا موسمياً. واتّبع ذياب سياسة والده؛ فظل من مقرّه في الداخل يصّرف أمور الساحل الذي كان كثيراً ما يتفقده موسمياً كذلك. غير أن الموارد المالية المستحدثة التي بدأت واعدة في هذا المركز الجديد الذي أصاب ثقلاً سياسياً وإدارياً وأمنياً قد اجتمعت مع ضعف وسائل الاتصالات والمواصلات وشجعت الشيخ هزاع بن محمد بن زايد على أن يؤسس لنفسه سلطة في أبوظبي؛ فثارت الخلافات بين القيادة الشرعية من آل نهيان في الداخل، والقيادة المتطلعة للرئاسة في الساحل وانتهت بجلاء هزاع عن أبوظبي لاجئاً إلى قبائل البوعلي في مناطق البحرين خارج حدود سيطرة بني ياس، ثم عاد إلى أبوظبي وقتل ذياباً واستقرّ الأمر له فترة. واستقر الأمر بعدئذٍ عام ١٧٩٥م/ ١٢١٠هـ للشيخ شخبوط بن ذياب بن عيسى* الذي أدرك تماماً أهمية جزيرة أبوظبي، وبات مقتنعاً بضرورة انتقال مركز حكمه من الداخل إلى الساحل لتأكيد وحدة تراب المشيخة ولمّ شعث القبيلة التي غدا أفرادها موزّعين بين الداخل والساحل، وربطهم برباط سلطة واحدة فاعلة قادرة على التعامل مع اتساع الرقعة التي انتشرت فيها.

كان على شيوخ آل نهيان في هذه الفترة ضبط المستجدات التي طرأت في أبوظبي في المجالين المحلي والإقليمي، وقضت بتحوّل نمط الحكم المشيخي التقليدي إلى آخر من الحكم الأميري القائم على أعراف الشياخة والرئاسة التقليدية والذي عليه أن يستجيب للمتغيّرات الجديدة التي كان من أهمّها أن تقوم عاصمة على سيف البحر تؤدي دورها في حكم الصحراء.

اتخذ الشيخ شخبوط قراره بنقل مقرّ حكمه من الداخل إلى الساحل، واكتسب بهذا القرار لقب المؤسس لمدينة أبوظبي التي أرسى فيها الأساس لقيام الإمارة. ودخلت الإمارة منذ تلك الفترة الباكرة إلى دائرة التاريخ المسجل؛ لاتصالها بالعالم الخارجي وأحداثه مفارقة بذلك ذاكرة التاريخ الشفهي للبادية التي لم تكن تسجل تاريخها.

الشيخ شخبوط بن ذياب (١٧٩٥- ١٨١٦م)

التزمت سياسة هذا الشيخ ثوابت لم تعمد إلى تجاوزها واستحدثت – لبلوغ الغاية – منهجاً للحفاظ على هذه الثوابت لم تعمل على أن تحيد عنه مهما تفاقمت الأمور. وتمثلت تلك الثوابت بترسيخ الوحدة القبلية بين مختلف العشائر التي تضمّها المشيخة، وتأكيد روح التضامن القبلي في الداخل، ونقل تلك التجربة التضامنية إلى المستوطنة المستحدثة في الساحل، والحفاظ على تكامل الأرض وأمن إنسانها في البرّ والبحر. أما منهج الشيخ شخبوط بن ذياب فقد اعتمد الطرق السلمية وسياسة حسن الجوار في التعامل مع محيطه الإقليمي. ازدادت في الفترة التي حكم فيها الشيخ شخبوط الصلات بين الداخل الصحراوي والخارج الساحلي والبحري، وامتدّت الظفرة، ممثلة بإنسانها، إلى أبوظبي. فقد غدا لكل عشيرة في تلك المدينة عدّة أسر تقيم بشكل موسمي أو دائم، وتوثقت العلاقات بين قرى البريمي وأبوظبي؛ فقد كان من سياسة هذا الشيخ أن يبقي على مدينته الجديدة مفتوحة أمام سائر العشائر والجماعات التي تسعى لكسب الرزق، ولم يقصر السكنى في مدينته أو الإقامة الدائمة أو المؤقتة فيها على قبيلة بني ياس فقط وحلفائهم الأقربين.

وفي تقديرنا أن هذه السياسة الحكيمة لم تنبع من توجّه شيوخ آل نهيان الموروث لتحقيق الوحدة بين الجماعات والقبائل التي تحت سلطتها فحسب، إنما من ضرورة غدت ماسّة لتعامل هذه المدينة مع محيطها الداخلي والخارجي تعاملاً سلمياً. فالأرض

المجدبة لهذه المدينة الجديدة لم تكن لتفي إلا بالقليل من حاجاتها اليومية فهي جافة، جرداء غير مثمرة مرّة المياه حتى كان البعض يطلق على هذه الجزيرة والسواحل في مواجهتها اسم مليح. وكان لابدّ لها أن تعتمد في إمداداتها على محيطها برّاً وبحراً. فإذا حوصرت المدينة الوليدة برّاً انقطع عنها ثمار الأرض، أما إذا حوصرت بحراً فقد تختنق تماماً؛ لأنها تعتمد على البحر. ووجد سكان قرى البريمي في هذه المدينة الجديدة سوقاً لمنتوجاتهم الزراعية والحيوانية، وراحت القوافل تغدو بالثمار وغلّة الأرض من تمور وحطب وبإنتاجها من اللحوم والألبان إلى أبوظبي، وتعود منها محمّلة بالأسماك المجفّفة وبما تيسر أحياناً من الوارد إلى مينائها من أرز قليل وغير ذلك مع بعض التجار الذين أخذوا يتقاطرون إليها حديثاً من الآسيويين من غير العرب. وعرفت قرى البريمي نوعاً من الازدهار أيضاً مما كان يردها مع الشيوخ وغيرهم من أهل أبوظبي حين كانوا يفدونها صيفاً هرباً من جوّ المدينة القائظ الرطب. ويضاف إلى ذلك أن هذه القرى الداخلية كانت قد شهدت في بعض فترات حكم هذا الشيخ اضطرابات أمنية كانت سبباً في نزوح بعض أهل هذه القرى إلى أبوظبي التي وجدوا فيها الأمن، كما وجدوا في اقتصادها الناشئ فرصاً للعمل في بعض الحرف الصغيرة، أو العمل مع الغواصين أو في صيد الأسماك وتجارتها في الساحل ومع الداخل.

شهدت السنوات الأولى لمولد مدينة أبوظبي تحوّلات هامة في الإستراتيجيات الدولية، وتبدّلاً سريعاً في موازين القوى الإقليمية والمحلّية. وكان لذلك التحوّل والتبدّل انعكاسات على السياسة المحلية للشيخ شخبوط بن ذياب الذي أدرك بحصافته أنه لن يستطيع أن يحافظ على ثوابته في وحدة شعبه وتكامل أرضه إلا بالتعامل السلمي مع هذه المتغيّرات.

فعلى المستوى الدولي كان لفرنسا في هذه الفترة وجود مؤثر في الخليج العربي عملت إنجلترا على تجاوزه بتعاونها مع فارس أولاً. عقد الإنجليز مع الشيخ سعدون،

شيخ بوشهر في ١٢ أبريل ١٧٦٣م اتفاقاً حصلوا بموجبه على امتيازات كبيرة ما لبث كريم خان حاكم فارس الجديد أن وثّقها وزاد فيها(١٩). وقد أسس هذا الاتفاق للإنجليز في الخليج قاعدة ذات نفوذ كبير يحرسها وكيل إنجليزي مقيم أصبح يتدخل بشكل سافر ومؤثر في صراعات القوى المحلية، ويكسب المزيد من النفوذ السياسي والإداري أيضاً، غير أن فرنسا تطلعت في حربها على إنجلترا عام ١٧٩٣م إلى ضرب الوجود الإنجليزي في الهند؛ فأصبحت تنظر إلى الخليج العربي كقاعدة متقدمة في طريق الهند تستطيع أن تنطلق منها لتحقيق أهدافها في الهند. ونشطت السياسة الفرنسية في إرسال البعثات التجسّسية إلى الخليج. ولتحقيق هذا الهدف وصلت بعثة فرنسية إلى طهران عام ١٧٩٦م/ ١٢١١هـ، وحاولت في هذه الفترة أن تقيم لها قنصلية دائمة في مسقط. وعملت السياسة الإنجليزية من جانبها لمعارضة هذه الخطط الفرنسية. ولمّا لقي بونابرت الهزيمة في مصر انهارت هذه الخطط الفرنسية وما عادت فرنسا قوّة يخشى الإنجليز بأسها في الخليج. وعلى الرغم من ذلك فقد عمل الإنجليز على إغلاق كافة المنافذ أمام فرنسا في الخليج العربي، وبدأوا بعقد معاهدة صداقة(٢٠) مع السيد سلطان بن أحمد (١٧٩٣ - ١٨٠٣ م) لحجب نفوذ المستعمرات الفرنسية في الشرق عند مدخله؛ حتى لا تتجاوزه إلى الداخل الذي أخذ يشكل في الفكر الجيوبوليتيكي للهند البريطانية نطاقاً حيوّياً لأمن دروب الهند البحرية. وأصبحت بريطانيا مع بداية القرن التاسع عشر هي القوّة الدولية العظمى الوحيدة في الخليج الذي بات فرضاً على شيوخه كافتهم التعامل معها سلماً وحرباً.

لم تكن لبريطانيا في هذه الفترة أية مصالح أو ارتباطات مباشرة مع مشيخة أبوظبي التي أخذت ترسي أسس مدينتها الساحلية؛ فقد كانت بريطانيا تعمل في هذه الفترة للسيطرة على الدروب الملاحية في الخليج حماية لإستراتيجياتها الأمنيّة في الهند، وحفاظاً على طرق اتصالاتها مع شبه القارة الهندية، وتنمية لاستثماراتها التجارية. ولم تتعارض هذه الأهداف البريطانية في هذه المرحلة مع أهداف الشيخ شخبوط

مباشرة؛ بفضل السياسة السلمية التي اختطّها الشيخ لدولته الجديدة. لم يسع البريطانيون للتدخل في شؤون البرّ حيث الإدارة القبلية المؤثرة لشيوخ آل نهيّان، أو التدخل في شؤون السواحل التي أخذ الشيخ شخبوط يتعامل معها لتفعيل إدارته في مدينته الجديدة، وضبط أمن الاستثمار في الجزر المواجهة لسواحله. و لم يكن لأبوظبي في هذه الفترة أسطول تجاري – شأن القواسم – تتضارب مصالحه مع المصالح التجارية الهندوبريطانية. ويمكن القول أن السياسة السلمية التي اختطها الشيخ شخبوط لدولته الجديدة كانت السياسة المثلى في تلك الفترة الباكرة للتعامل مع السلطات البريطانية في الخليج. لم تتقاطع المصلحة الوطنية لإمارة أبوظبي مع المصالح الهندوبريطانية و لم تكن لشخبوط في هذه الفترة قوة بحرية تقود إلى تناقض الاستراتيجيات.

أما على المستوى الإقليمي فقد برزت الدولة السعودية القديمة (الأولى) في الفترة التي ولدت فيها مدينة أبوظبي قوّة مؤثِّرة في السياسة الداخلية لمشيخة بني ياس خاصة بعد أن انتظم القواسم – الشقّ الثاني في دولة الإمارات الحديثة – في الدعوة التي رفعت تلك الدولة لواءها. وكان القواسم في هذه الفترة ذاتها، قوّة بحرّية ذات شأن تسيطر على مساحات كبيرة من مداخل الخليج العربي، وعلى عدد من جزره. وكانت لهم معاقلهم البحرية في قشم، ولنجه، ولفت، وشنياص وغير ذلك. وقد أدى هذا الوضع إلى التناقض الصريح بين القواسم الذين أصبحوا مدعومين بقوّة السعوديين وبين البريطانيين الذين كانوا يعملون للسيطرة على الطرق البحرية في الخليج، والذين جهدوا في منع المدّ السعودي من السيطرة على عمان وعرقلة وصولها إلى مسقط التي لو سقطت للسعوديين فستصبح – فيما تقول الوثائق البريطانية – خليّة للقراصنة يناهضون منها سفن البريطانيين.[٢١] وقد كان هذا التكامل القاسمي السعودي سبباً لتقارب عماني بريطاني. وكان على شخبوط بحكم موقعه بين عمان ونجد أن يؤسس لسياسة توازن دقيق يحفظ لدولته الوليدة تكاملها، يتعامل مع جيرانه السعوديين

الأقوياء في البرّ، ومع البريطانيين الأقوياء في البحر، دون أن يخسر صداقته التقليدية مع عمان، تلك الصداقة التي بدأت قبل قيام دولة البوسعيد منذ أن انقسمت قبائل المنطقة إلى: غافرية وهناوية. لم يعمد شخبوط إلى مواجهة الدولة السعودية بل هادنها وقام بأداء الزكاة لها، ولكن دون أن يفرّط في ثوابته، فلم يدخل في تبعيتها أو يدعمها ضد حليفه سلطان عمان، خاصة بعد أن وصل الجند السعودي إلى البريمي حيث تتعانق الأراضي التابعة لسلطته مع الأراضي العمانية*. و لم يتطلع السعوديون بدورهم إلى دعم عسكري من آل نهيان، كما كان دأبهم مع القواسم الذين طلب إليهم السعوديون بما لهم من قوّة بحرية كبيرة أن يحملوا راية الدعوة في البحر، ويناهضوا البريطانيين والقوى الإقليمية المعادية التي كانت لها تجارة ومصالح إستراتيجية وأمنية في الخليج العربي.

ضمن الشيخ شخبوط بسياسته السلمية تجاه كل من رأس الخيمة والدرعية من جهة، وعمان وبريطانيا من جهة أخرى حماية إمارته الناشئة من تدخل تلك القوى في شؤونها الداخلية، كما ضمن بصداقته حاكم مسقط نماء تجارياً لمينائه في أبوظبي. يقول بكنجهام – وهو فيما نعرف أقدم الرحالة الغربيين الذين كتبوا عن أبوظبي – في وصف أبوظبي في ١٨١٦م/ ١٢٣١هـ: إن أبوظبي جزيرة بها مدينة تحمل هذا الاسم ذاته، تقع في أعلى الجزيرة، ميناؤها عامر نسبياً بالتجارة. ويردّ بكنجهام هذا الرواج الاقتصادي في أبوظبي إلى الصداقة التي تجمع بين حاكمي أبوظبي ومسقط[٢٢]. أما القوّة القاسمية فلم يكن بينها وبين أبوظبي في هذه الفترة الباكرة أية عوامل تثير العداء؛ فهي قوة جوار بحرية، بينما كانت أبوظبي قوة برّية. و لم يحدث وصول هذه القوة البرّية الياسية إلى الساحل بعدد من قوارب الصيد الصغيرة أي توجس لدى القوّة القاسمية التي كانت تطمح إلى تأكيد سيطرتها على البحر في الخليج ضد الوجود الأجنبي فيه. وعلى ذلك يمكن القول: إن السياسة السلمية التي انتهجها الشيخ

شخبوط تجاه كافة القوى المتصارعة في المنطقة قد أدّت دورها في إتاحة فرصة النموّ لإماراته الوليدة التي باتت تتلمس بداية دربها بخطوات حثيثة في محيط مضطرب.

أصيبت قوّة القواسم البحرية في ٧ يونيو عام ١٨٠٥م/ ١٢٢٠هـ بضربة قاسية في الخليج حين أوقعت القوة البريطانية عدداً من سفن القواسم في كمين. وتمّت تسوية الأمر باتفاق صلح وقّعه الشيخ سلطان بن صقر شيخ القواسم مع البريطانيين(٢٣)، ولكنه لم ينفّذ تماماً إذ استدعي إلى الدرعية ليظل هناك في الضيافة القسرية. وعاد الجهاد القاسمي ضد البريطانيين في البحر على أشدّه بعد أن استبدلت السلطات السعودية بتلك القيادة القاسمية أخرى. وسيّر البريطانيون حملة أخرى في ١٨٠٩ - ١٨١٠ م ضربت رأس الخيمة ودمّرتها، كما دمّرت عدداً من معاقل القواسم في لنجه وغيرها(٢٤). ولم يتدخل الشيخ شخبوط في هذه الأحداث البحرية التي لم يكن يملك من وسائل التدخل فيها شيئاً؛ فهو لم يناصر حليفه إمام عمان وحلفاءه البريطانيين كما أنه لم يعمل على مقاومة القوّة السعودية التي انطلقت براً لإنقاذ رأس الخيمة ولا معاونتها.

ومع هروب سلطان بن صقر من الدرعية ووصوله إلى مسقط وطلبه إلى إمامها أن يعينه لاستعادة سلطته على أرض القواسم على أن يتعهد من جانبه بعدم مهاجمة عمان، لم يعد هناك بدّ من جرّ الشيخ شخبوط بقوّته البرية للدخول في هذا الحلف الذي تزعّمته عمان، والذي أيّدته السلطات البريطانية في الخليج، وبدت مؤشرات نجاحه في تحقيق هدفه واعدة لانشغال الدرعية عن عمان بالدفاع عن دولتها ضد حملة محمد علي باشا الزاحفة إلى الدرعية(٢٥). وخرجت الحملة العمانية البريطانية لنصرة سلطان بن صقر عام ١٨١٣م/ ١٢٢٨هـ، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها لانسحاب الشيخ شخبوط من التحالف(٢٦) لعدم اتساقه مع سياسة الحياد والجنوح إلى السلم التي لم يحد عنها إلا مضطرّاً، ولكنه عاد في السنة التالية* بقوّة من بني

ياس واستجاب في عام ١٨١٤م لرغبات السيد سعيد والشيخ سلطان والقوّة البريطانية في الخليج. وأعيد سلطان بن صقر حاكماً على الشارقة في وقت أصبح فيه وَهْن الدرعية في المنطقة بارزاً للعيان [٢٧]. ولعل ضعف الدرعية كان السبب الذي شجّع هذا الشيخ الذي كان لا يزال في طور تأسيس سياسة أمنيّة لحماية سواحله للاستجابة لدعوات معارضيها في المنطقة. ويمكن أن نؤرخ بهذا العام لبداية تشتت القوى القاسمية كقوّة مؤثرة في أحداث الساحل العماني؛ فقد ظل حسن بن رحمه حاكماً على رأس الخيمة بضمان من السيد سعيد سلطان عمان، بينما دخلت الشارقة في تبعية سلطان بن صقر بدعم من عمان وأبوظبي. وأخذت المناطق الأخرى التي كانت تابعة لحلف القواسم تتطلع إلى الاستقلال عنهم والخروج عن سلطتهم خاصة بعد أن بدا ضعفهم بارزاً. ولم تنجّ رأس الخيمة الموالية للسعوديين في هذا الوقت من آثار هذا الضعف خاصة بعد وفاة الإمام سعود وخلافة ابنه عبد الله الذي واجهته حملة محمد علي بقوّة في هذا الوقت.

وساد الوئام علاقات الشيخ شخبوط شيخ بني ياس، والشيخ سلطان بن صقر شيخ القواسم الذي أعيد للسلطة في الشارقة بدعم من بني ياس، وتوثّقت العلاقات السلمية بين قبائل الشيخين، كما استمرت العلاقات الطيّبة بين حاكمي أبوظبي ومسقط [٢٨]. وعلى الرغم من أن القواسم في رأس الخيمة ظلوا على عدائهم للإنجليز ومهاجمتهم للسفن التي ترفع العلم البريطاني إلا أنهم لم يعملوا في هذه الفترة على مضايقة التجارة العمانية. ولم يعد إمام مسقط في هذه الفترة صادق التوجه في تأكيد تحالفه مع البريطانيين خاصة بعد ما رأى الضعف الذي أصاب الدرعية وانشغالها عنه.

تمكن الشيخ محمد بن شخبوط في عام ١٨١٦م من مشيخة أبوظبي، وخرج الشيخ شخبوط إلى بعض قرى البريمي حيث أقام في قلعة بناها في المريجب*، وتحدثنا بعض المصادر أنه كان لبني ياس في الظاهرة تاريخ وجود ممتد بعيد الجذور لا يقل زمنياً عن تاريخ وجودهم في ليوا. فقد عمرت بني ياس بحسبانها القبيلة الأقوى والأوسع

رسالتان من شخبوط بن دياب وسلطان بن صقر بخصوص مشكلات الحكم في أبوظبي

بسم الله الرحمن الرحيم

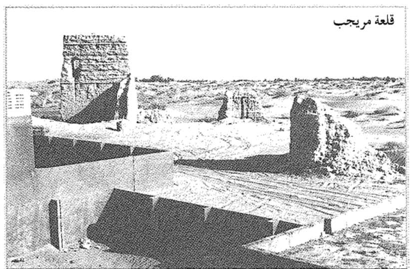
من شخبوط الى السردال النقريز سلام عليكم ورحمة
الله وبركاته وبعد انا جوابي سابق عليكم ان
واحد من اولادي طحنون وصقر بن دياب
يوم قلت لهم لا تسعون جنزا في البحر قيضو
عبيتي واطلعوني من ادبيه وبعد ذالك
ادبجاو يوم سعو جنجال في البر والبحر وجزت
منهم وسكنت عند سلطان بن صقر الان
في غنى جماعته عن الجنجال وانا معاهم
سردال النقريز واليوم اريد منكم تامرون
على طحنون وصقر يطلعون من بلادي و
تهدمون قصر ابوظبي وقصر ادبي ان كان
تبغون الجنجال يوقف من البحر وانا اشهد
انهم خراب البحر هم وانت احسن
واجبه والسلام حرر ذالك ليلت


بسم الله الرحمن الرحيم

من سلطان بن صقر الى جناب الاجل الاكرم الافخم السردال الجندرال المعظم

شق علينا الامر واليوم نحن ناس من المصالحين في سركال الانقريز
وجالسين في ذمة سركار الانقريز وصار علينا التعدي والضرب
والنهب والغارات في البر والبحر من يوم تاريخ حضور قبطان
طمسين الى الآن فاول ما جرى ان بني ياس اهل بوظبي واهل دبي
الذي كان كبيرهم شخبوط وصلوا الى طرفنا في وقت للبرود بحق الرمال
واخذوا الاموال وشرفنا قبطان طمسين واخبرناه وهو شاف بعينه
المجروح والفعل في رفاقنا وجماعتنا كذالك ما اخذوا لنا قدر سبعة
عشر جمل وطمسين عنده خبر بذالك واليوم امير هم وكبيرهم شخبوط ما
طاعهم وانكر عليهم ذالك وهم اخذوا بيته وحصنه وراغوه
وخرجوه من طاعته وهو الآن عندنا ونحن تاريخ خمسة وعشرين
من شهر رجب غاروا علينا اهل دبي الذي ميرهم زايد بن سيف وذ
بحور رجالين من جماعتنا ورفاقتنا اسمهم واحد محمد بن محمد وواحد
اسمه محمد بن خميس وايضا اخذوا لنا قدر خمسة عشر سطيه

انتشاراً في كافة مناطق الظهير الظبياني الممتد من حدود قطر الطبيعية إلى حدود عمان الطبيعية هذه المنطقة وساكنت القبائل والعشائر الأخرى وتراوحت علاقاتها بها بين التحالف الوثيق والتنافر المرحلي. وتوثقت علاقاته في هذه الفترة مع قبائل الظواهر الذين عاش معهم حتى وفاته. وازداد في هذه الفترة نفوذ شيوخ آل نهيان في هذه المنطقة الداخلية خاصة بعد سقوط الدرعية وتراجع الوجود السعودي عن هذه المنطقة. وكان لاستقرار الشيخ شخبوط في تلك المنطقة أثره الإيجابي في توثيق الروابط مع قبائل


قلعة مريجب

المنطقة وأعيانها، وتمكين نفوذ آل نهيان هناك بالعطاء وبالسياسة التصالحية التي اتخذها منهجاً له.

الشيخ طحنون بن شخبوط (١٨١٨- ١٨٣٣ م)

لم يوافق طحنون أخاه محمداً على إقصاء والدهما من الحياة العامة في أبوظبي وخروجه إلى قرى الظواهر؛ فالتمس مساعدة إمام مسقط ودعمه، وتمكن بذلك من استرجاع السلطة لوالده اسمياً، ولكنه احتفظ بها فعلياً. ولم يكن شخبوط في بداية الأمر يقر لطحنون بالريادة في الحكم فاستعان عليه بسلطان بن صقر ثم زهد في ذلك واستقر في مريجب ليصبح عضداً وسنداً لابنه حاكم أبوظبي. وظل الوالد** من مقرّه في المريجب يعين ابنه طحنون في الاتصالات الإقليمية والخارجية والمهمات ذات الطابع السلمي؛ فقد كان هذا الشيخ يحظى باحترام أهل المنطقة وبثقة شيوخ قبائلها.

وظلت العلاقة متوترة بين محمد بن شخبوط الذي كان يحظى بمؤازرة سويدان بن زعل، شيخ المحاربة من بني ياس، وبين أخيه طحنون الذي كانت كافة قبائل بني ياس الموالية له ولأبيه تؤيده. و لم ينجح محمد في محاولته إقصاء أخيه عن الإمارة في عام ١٨٢٢م مدعوماً بالمحاربة وشيخهم سويدان بن زعل، ولا في محاولاته في أواخر عام ١٨٢٣م مدعوماً بطائفة من المناصير، وبتأييد من الشيخ سلطان بن صقر؛ فقد كان الشيخ سلطان بن صقر يكره من طحنون علاقته الوطيدة بمسقط التي ظلت تعينه وأباه ضد كل المحاولات التي كان يقوم بها محمد بن شخبوط. وتوترت العلاقات بين سلطان بن صقر وطحنون بن شخبوط *** فقد كان رأي الأول الذي قال به لستانوس إي جي، المقيم البريطاني، حينما طلب إليه التدخل لإصلاح ذات البين بين الأخوين محمد وطحنون – أن هذا الأمر لن يعالج إلا بعودة حقيقية للشيخ شخبوط إلى سدّة الرئاسة. و لم يكن توتّر العلاقات بين طحنون شيخ بني ياس وسلطان شيخ القواسم أمراً مزعجاً للبريطانيين الذين أصبحوا بموجب معاهدة ١٨٢٠م/ ١٢٣٥هـ المسؤولين عن سيادة الأمن في البحر وفي المنطقة الساحلية؛ فقد كان من رأي المقيم البريطاني أن ذلك الخلاف يحدث توازناً في المنطقة يمكن أن يكون له مردوده على الأمن العام فيها. فقد كان كل من طحنون وسلطان يتمتع بثقة تجمع كبير من العشائر، و لم يكن اتحاد الكلمة بين التجمعين الكبيرين يصب في مصلحة البريطانيين.

تميّزت فترة حكم طحنون بحدثين مهمّين كان لهما تأثيرهما الكبير في صياغة سياسة هذا الشيخ الذي يوصف في المصادر البريطانية بالرجل النحيف الضئيل الجسم الذي يتمتع بولاء كافة أفراد القبيلة، والذي يسيطر «بشكل شامل على أرض آبائه ويتحكم فيها». تمثّل هذان الحدثان بانهيار الدولة السعودية القديمة تحت ضربات جيش إبراهيم باشا ونهاية وجودها العسكري في مناطق البريمي، وانهيار قوّة القواسم البحرية تحت ضربات البريطانيين في عام ١٨١٩– ١٨٢٠ م، ثم ما كان من عقد البريطانيين معاهدة مع شيوخ الإمارات كافة بعد انهيار قوّة القواسم في عام ١٨١٩– ١٨٢٠ م، تحكمت بريطانيا بمقتضاها في إدارة الأمن في المنطقة بما يوافق إستراتيجيتها في الخليج(٢٩) وكان على الشيخ طحنون أن يرسي أسس سياسة جديدة تعتمد الثوابت

التي أرساها والده في الحفاظ على ولاء مواطنيه وتكامل أراضي قبائله، وبات عليه – إضافة إلى ذلك – الاستجابة للمتغيّرات في منطقته بكسب ولاء قبائل أخرى كانت تخضع في الداخل للسيطرة السعودية. وقد أثار الفراغ النسبي الذي تركه الانسحاب السعودي من المنطقة ومحاولة أبوظبي ملءه – مشكلات للشيخ طحنون مع جيرانه القواسم الذين أصبحوا بعد أن حبس البريطانيون بالحملات والاتفاقيات الإذعانية قوّتهم في الساحل أكثر تطلعاً إلى أداء دور أكبر في سياسة الداخل خاصة في أوساط القبائل التي كانت مثلهم تمالئ السعوديين. يضاف إلى ذلك الخلافات التي طرأت بين هاتين القوتين الجارتين، القاسمية والظبيانية، في السياسة الداخلية التي انعكست بدورها على علاقاتهما في السواحل. ودخلت إمارة أبوظبي للمرة الأولى في دوامة الاضطرابات التي تثور في البحر. وتطلع طحنون بعدئذ إلى أداء دور أكبر في سياسة الخليج وذلك بالخطط الطموحة لإمام عمان، الحليف التقليدي لأبوظبي في المنطقة.

اعتمد تعهد ١٨٢٠م الذي فرضته بريطانيا على شيوخ هذه المنطقة على المبدأ الاستعماري الأصيل: «فرِّقْ تسد»[٣٠]. فرضت بريطانيا هذا التعهد بعد حملة عسكرية دمرّت فيها رأس الخيمة، قصبة القواسم، كما دمّرت الرمس، واستحكامات أم القيوين وعجمان والشارقة وأبو هيل، وبعض استحكامات دبي، وأحرقت كافة السفن التابعة لهذه الموانئ أو استولت عليها. وخسر القواسم جرّاء هذه العمليات ما يربو على مائتين وثمانية عشر مركباً بحرياً من أحجام مختلفة. ولمّا صاغ البريطانيون هذا التعهد الذي أعقب هذه الحملة وأمهره برسمه أو بختمه كل من سلطان بن صقر، شيخ القواسم، وشخبوط بن ذياب موفداً من قبل حكومة ابنه طحنون، وحشد من الشيوخ الآخرين الذين كانوا في معظمهم قبل بدء هذه الحملة البريطانية تحت لواء القواسم أو لواء بني ياس – تقطعت أوصال المنطقة. وفرض هذا الحشد من أسماء الشيوخ الموقِّعين على هذا الاتفاق واقع التقسيم على المنطقة الذي خططت له السلطات البريطانية. وتذكر الوثائق البريطانية في هذه الفترة أن سياسة تفكيك المنطقة تخدم الأهداف البريطانية؛ لأنها تحدّ من سيطرة الشيوخ الأقوياء الذين سيتطلعون – مثل الشيوخ الآخرين – إلى

التعهد الذي دخل فيه شخبوط مع كير
بعد الحملة البريطانية على المنطقة
(١٨١٩-١٨٢٠)

تعهد ١٨٢٠ الذي فرضته
بريطانيا على الشيوخ تحت
اسم المعاهدة العمومية

الحماية والدعم البريطاني والركون إلى النصيحة البريطانية حتى في المسائل التي تخصّ الشيوخ الذين كانوا تابعين لهم سلفاً، بالإضافة إلى أن هؤلاء الشيوخ الأصغر قد أصبحوا يحظّون - بموجب هذا الاتفاق - بحقوق قانونية متساوية للشيوخ الكبار ما زاد في حدّة الانقسامات.

ولّما فقد القواسم ريادتهم البحرية بعد حملة ١٨١٩ - ١٨٢٠ م وتراجعت قوّتهم بعد تدمير سفنهم التجارية المسلحة لجأ بعضهم لكسب العيش إلى مصادر البرّ والسواحل القريبة منه، وهي مصادر أساسية لبني ياس التي تسيطر على البر، ولكنها كانت مصادر ثانوية للقوة الأساسية من القواسم التي كانت تجد مصدر رزقها الأساسي في البحر المفتوح. وزاد هذا الأمر الاحتكاك بين أكبر تجمعين قبليين في منطقة واحدة. ثم ما لبث هذا الاحتكاك أن انتقل إلى ساحل البحر وتفاقم أمره. وعمل الشيخ طحنون من جانبه على امتصاص عقابيل تلك الأحداث حتى لا ينفرط عقد الأمن الاجتماعي في المنطقة الداخلية الذي دأب أسلافه من آل نهيان على ترسيخه، كما عمل في الوقت ذاته على تأكيد قوّته التقليدية في البرّ. وتأكدت بذلك سيطرته على المناصير، ومدّها لتشمل قبائل بني قتب وبني هاجر وقبائل أخرى في المنطقة، مستثمراً في ذلك علاقاته الراسخة في التحالف مع إمام عمان وتلقيه الدعم والإمدادات منه، واستقطب ولاء الظواهر والحواضر المعمورة في منطقة البريمي التي انتهى فيها الوجود الوهابي، مستثمراً في ذلك وجود أبيه الشيخ شخبوط وعلاقاته التي أصبحت وثيقة بأهل هذه المنطقة وشيوخها الذين باتوا يتطلعون إلى دعمه المادي والمعنوي بشكل أكبر من ذي قبل. وتعالى أوار خلافات البرّ بين القوتين، واحتدمت آثارها حتى تناهت إلى ساحل البحر حيث لم يعد طحنون يخشى قوّة القواسم بعد أن وهنت قوّتهم هناك بعد حملة ١٨١٩- ١٨٢٠ م، وزادت فيه قوته بدعم من سلطان عمان. ولم تهدأ معارك الساحل بين القوّتين عام ١٨٢٤م إلا حين استدعى المقيم البريطاني سفينتين لمراقبة الموقف.[٣١]

عمل الشيخ سلطان بن صقر من جانبه في توجهه إلى الداخل مع بعض القبائل التي كانت موالية للوهابيين – على مدّ نفوذه لملء الفراغ الذي تركه السعوديون. وكان هذا الأمر ذاته هو الدأب الشاغل للشيخ طحنون الذي كان يرى في القواسم قوّة بحرية لا يحقّ لها أن ترث عن الوهابيين قبائل ظهير الساحل. وهكذا غدا الاحتكاك بين قوّة شيخ بني ياس وقوّة شيخ القواسم بالقلاع المتجاورة في الداخل أمراً لا مناص منه، وبدت نذر الحرب وشيكة. وعلى الرغم من ذلك ظلت العلاقات بين القطبين الكبيرين في منطقة الساحل العماني متأرجحة بين الصفاء والجفاء. وعندما زار ماكلويد المقيم البريطاني الشارقة وفد إليه هنالك شيخا أبوظبي ودبي، وكلاهما من بني ياس ولكن «الشيخ طحنون، شيخ أبوظبي هو الأقوى»[٣٢]. يقول ماكلويد في تقريره بتاريخ ٢٧ فبراير ١٨٢٣م/ ١٥ جمادي الثاني ١٢٣٨هـ: إن هذين الشيخين عبّرا عن التزامهما بتعهد ١٨٢٠م. وفي تقديرنا أن طحنون كان له من الدهاء السياسي ما مكنّه من توظيف هذا التعهد البريطاني المفروض فرضاً على شيوخ المنطقة – والذي قصد به تفتيت المنطقة عامة– في تثبيت سلطة إمارة أبوظبي على أتباعها.

شكا طحنون للمقيم البريطاني أن المدعو سويدان بن زعل – من أتباعه من عشيرة المحاربة من قبائل بني ياس – قد رحل بعدد من أتباعه وخرج عن دائرة سلطته، وأنه قد غدا طريداً يتنقل من جزيرة إلى أخرى في المنطقة الواقعة بين الشارقة وأبوظبي لا يقرّ له قرار في منطقة معيّنة. ومع ذلك فقد عبّر لماكلويد بأنه مسؤول عن أية تجاوزات يرتكبها هذا الشخص، وطلب إلى المقيم البريطاني أن يعمل على إعادته إلى أبوظبي أو دبي إذا تمكن منه ليبقى تحت رقابة الشيخ المسؤول عن سلوكه. وطلب المقيم البريطاني من جانبه إلى طحنون أن يمدّه بخطاب لسويدان يطلب إليه الانتظام في الطاعة وذلك حتى يعطيه إياه إذا حدث أن صادفه في جولاته، كما أمدّ المقيم البريطاني طحنون بخطاب آخر يطلب إلى ابن زعل الامتثال لرغبات سيّده.[٣٣]

أثمرت هذه السياسة العملية لشيوخ بني ياس رد كل الخارجين عن سلطتهم من أتباعهم إلى حظيرتهم، مستغلين في ذلك، بذكاء فطري موروث، قوّة تعهد استحدثه البريطانيون لزرع الفرقة. وقد نجح هذا التعهد – من ناحية أخرى – في توهين قوة القواسم الذين راح شيوخهم يتنصلون من جرائر أتباعهم ومغبّة العقوبات التي تنزل بهم، ما أوهن – ضمن عوامل أخرى – القوّة القاسمية.

جرى أول احتكاك بين القوتين الظبيانية والقاسمية في منطقة البريمي حيث كان طحنون يعتمد في توسّعه على نفوذ أبيه خاصة وسط الظواهر، كما كان يعتمد في هذا المجال أيضاً على علاقته الوطيدة بمسقط. أما سلطان بن صقر – شيخ القواسم – فقد كان يرى نفسه الوريث الشرعي للقوّة الوهابية التي انهارت في المنطقة بعد سقوط الدرعية.

وتدخل الشيخ شخبوط بحنكته المكتسبة، بين ابنه طحنون ونظيره سلطان بن صقر فأحدث بين الرجلين اتفاقاً في ديسمبر ١٨٢٤م/ ١٢٤٠هـ قضى بهدم كافة القلاع المتنافرة الولاء في المنطقة. وقد ختم الاتفاق باسمه أو برسمه كل من: طحنون بن شخبوط، والسيد سعيد بن سلطان إمام عمان، وسلطان بن صقر. و لم يثبت الاتفاق أمام التنفيذ فقد نبذه طحنون الذي أدرك أن قوّته أخذت تتفوّق على قوّة سلطان القاسمي خاصة بعد أن فقد القواسم الدعم البرّي السعودي بعد سقوط الدرعية.

أطلت الخلافات مرّة أخرى قوّية بين القوّتين القاسمية والظبيانية في الساحل، خاصة في دبي ذات الولاء التقليدي لشيخ أبوظبي، وازدادت تعقيداً بزواج الشيخ سلطان بن صقر بأخت الشيخ محمد ابن هزاع – شيخ دبي – الذي بات سلطان يرى نفسه حامياً له. وتفاقم الأمر حين أعان الشيخ طحنون قسماً من قبيلة السودان – من بني ياس – وشيخهم سالم بن ناصر لبناء قلعة لهم في ديرة بين الشارقة ودبي. وقد أثار

هذا التصّرف الشيخ سلطان الذي بات يرى القوّة الياسية تدقّ أبواب إمارته فهمّ بتهديم تلك القلعة.[٣٤] وتدخل سلطان مسقط – الحليف التقليدي لآل نهيّان – بالوساطة بين بني ياس والقواسم. وتمّ الاتفاق في أواخر عام ١٨٢٥م/ ١٢٤١هـ على تهديم تلك القلعة ورحيل سالم بن ناصر وجماعته من المنطقة، وأن تعزّز قلعة دبي بمجموعة من الرجال تحت قيادة قائد تابع لمسقط. ولم يلتزم طحنون بهذا الاتفاق أيضاً؛ فعلى الرغم من أن ديرة على أطراف أرض القواسم إلا أن الامتثال لهدمها يضعف من قبضته على دبي التي كانت تعمد الخروج على سلطته مع أنها كانت حاضرة من حواضر بني ياس، جهد طحنون في الحفاظ على ولائها.

أبلغ شيخ القواسم سلطان بن صقر في سبتمبر ١٨٢٦م/ صفر ١٢٤٢هـ المقيم البريطاني الذي أصبح –بموجب تعهد ١٨٢٠م– الحَكَم في المسائل الأمنية في المنطقة الساحلية – أنه سيهاجم القلعة ويهدمها؛ فاستمهله المقيم ريثما يتصل بالشيخ طحنون لإقناعه بإزالتها سلمياً. ولم تثمر اتصالات المقيم البريطاني عن شيء ذي بال رغم تهديده الشيخ طحنون بضرورة تنفيذ اتفاق الإزالة الذي سبق أن توسط فيه سلطان مسقط، وارتضته السلطات البريطانية التي وعدت بتنفيذه بالقوة إذا اقتضى الحال؛ حفاظاً على السلم العام. وتدخّل سلطان مسقط مرّة أخرى وتعهّد للمقيم بإزالة القلعة بالهجوم عليها بحراً على أن يقوم القواسم بحصارها برّاً. وعلى الرغم من ذلك لم يتحرك سلطان مسقط فوراً لتنفيذ ما تعهد به.

وتزايدت حّدة الخلافات بين طحنون بن شخبوط وسلطان بن صقر حين عمد الأول إلى جلب حجارة من منطقة الخان لتجديد بناء بعض أبراج دبي التي هدمت في فترة سابقة[٣٥]. ويبدو أن إمام مسقط كان يقدّم الإمدادات لطحنون حتى لا تدخل دبي في حوزة سلطان بن صقر. وهرع سلطان من رأس الخيمة إلى الشارقة في جمع من رجاله، وطلب نجدة من البدو فلم ينجدوه، كما طلب دعماً من لنجه لم يصله. وجرت

مناوشات عند حدود الشارقة بين رجال سلطان ورجال طحنون تراجع إثرها الأوائل ولحق بهم الأواخر؛ فأحدثوا خراباً في نخيل الشارقة قبل أن يرتدوا عنها. وتصدى رجال سلطان للحصار الذي ضربه طحنون على الشارقة، وقطعوا إمداداته؛ فاضطر طحنون إلى التراجع. وقام الشيخ شخبوط بالوساطة التي انتهت باعتراف سلطان بن صقر بدبي تابعة لطحنون. وجاء في تعليق للمقيم البريطاني في هذا الخصوص أن اتفاق الصلح الذي ربط بين الطرفين اتفاق هشّ سينقضه أي من الطرفين في أول سانحة. وأشار المقيم في هذا الصدد إلى أن ابن صقر اعترف لطحنون بسيادته على دبي التي كان يتطلع إلى السيطرة عليها "وما ذلك إلا لأن قوّته كانت قد تلقت ضربة قوية؛ فالبدو لم يسعفوه، ولنجه لم تنجده؛ لأن ما يصيبه من هدايا إمام مسقط يكدِّسه في المخازن ولا ينفقه على البدو بينما يقوم طحنون غريمه – كما يقول المقيم البريطاني، بعد أن أحس البدو بالإحباط من تصرف سلطان – بمدِّهم بالأرز."(٣٦) وهنا إشارة أخرى للسياسة النهيانية التي تستهدف الحفاظ على ولاء إنسانها وتكامل أرضه ولا تعتمد لتحقيق ذلك على القوّة فقط، ولكنها تعتمد أيضاً على العطاء والبذل والكرم في تلك البيئة الصحراوية المجدبة لجلب ولاء الرعيّة التي تتصدى بالتالي للدفاع عن أهدافها الإستراتيجية بالولاء والسلاح. لم يكن المال غاية في ذاته لدى شيوخ آل نهيان إنما كان وسيله لتحقيق غاياتهم في العمل على رفاهية رعاياهم ودعم المتحالفين معهم.

عندما بلغ المقيم البريطاني إلى الشارقة في يوم ١٨ يونيو ١٨٢٧م/ ذي القعدة ١٢٤٢هـ لإجراء وساطة بين الطرفين عرف من الملا حسين – الوكيل «الوطني البريطاني» في الشارقة – أنه قد جرى الصلح بين سلطان بن صقر وطحنون بن شخبوط؛ فباتت وساطته التي أزمعها أمراً غير ذي بال. وغادر المقيم في اليوم التالي إلى رأس الخيمة حيث قابل سلطان بن صقر، ولم يكن الأخير متفائلاً بعقد الصلح وذكر للمقيم أنه دخل مع طحنون في فترات سابقة في أربعة عقود للسلم نقضت كلها، وأن طحنون سيهاجم الشارقة بعد انتهاء موسم الغوص، وهو ما لم يوافقه عليه المقيم.

وشكا سلطان بن صقر للمقيم البريطاني أن إمام مسقط يقدم لطحنون المال والأرز والمدافع والذخيرة ليعينه عليه. واعترض المقيم على ما عبّر عنه سلطان بأن الإمام يبذل له العطاء أيضاً فلماذا يتهم الرجل الذي يصل بعطائه الطرفين كليهما؟

ظلّ الاتفاق بين الزعيمين الياسي والقاسمي هشّاً حتى قام إمام مسقط في نوفمبر ١٨٢٧م/ ١٢٤٣هـ بتنفيذ ما كان قد تعهّد به من هدم قلعة ديرة التي أرسل إليها بعضاً من رجال بحريته. ولم يكن هذا الأمر انقلاباً في خريطة المنطقة السياسية بمعنى أن الإمام قد خرج من الحلف الهناوي لدعم الغافري؛ فقد قام الإمام الذي ساند سلطان بتنفيذ ما كان قد تعهّد به سلفاً – باسترضاء طحنون، حليفه التقليدي، بأن أهدى له بعض الذخيرة مع مدافعها، كما حثّ أهل دبي على التزام الولاء لطحنون وعدم الخروج على سلطته.

تحسّنت العلاقات بين الشيخين طحنون وسلطان فترة وجيزة بعد زوال أسباب التوتر، غير أن سعي الشيخ طحنون لمعاقبة بعض القبائل في الظهير أفسد هذا التقارب الذي كان سلطان مسقط يخشى مغبّة نتائجه. وازداد الأمر تعقيداً حين قام خليفة بن دميثر من مواطني دبي الموالية في هذه الفترة لأبوظبي بمصادرة بعض قوارب الشارقة في سواحل اللؤلؤ. وقد تمكنت إحدى السفن البريطانية التي كانت تراقب تلك السواحل من التدخل وردّ تلك القوارب وبضاعتها لأصحابها. ولم يعترض طحنون صراحة على هذا الأمر الذي زاد في تعميق هوّة الخلاف بين القوتين الجارتين في الشارقة وأبوظبي، ولكنه – في الوقت نفسه – يكشف عن أن إمارة أبوظبي قد طوّرت من قدرات أتباعها العسكرية في البحر حتى أصبحت قادرة على أن تعارض قوّة القواسم ذات الخبرات الطويلة المجيدة في حروب البحار. وقد قام المقيم البريطاني في أبريل ١٨٢٨م/ شوال ١٢٤٣هـ بتوجيه اللوم إلى الشيخ طحنون، وأكّد له أن تكرار هذه الحوادث سيودي بأمن الخليج، وستقابله الحكومة البريطانية بشدّة. ومما

يؤكد أن قوّة أبوظبي البحرية قد تنامت في هذه المرحلة كثيراً استعانة سلطان مسقط* بها في حملته ضد عتوب البحرين في عام ١٨٢٩م، والحادث الوحيد الذي سجلته الوثائق البريطانية في ١٨٢٨م كان قيام فريق من بني ياس بمصادرة بغلة للبحرين و بتيل للكويت.[٣٧]

وكانت العلاقة بين طحنون وعبد الله بن أحمد شيخ البحرين، قد ساءت منذ عام ١٨٢٦م؛ فقد هرب في ذلك العام المدعو عبيد بن سويدان أحد أتباع سويدان بن زعل الذي كان قد خرج على سلطة أبوظبي منذ عام ١٨٢٢م، ولجأ إلى البحرين بعد أن ارتكب عدّة جرائم في البحر ضد قوارب أبوظبي بمعاونة المدعو سيف بن ثيخان، وحماه الشيخ عبد الله بن أحمد. وكان لطحنون – في هذه الفترة – قوّة بحرية تمكّنه من التصدي للبحرين لردّ أولئك الرجال الخارجين عن دائرة الولاء له وردعهم. و لم يتمكن الشيخ طحنون في تلك الفترة من القيام بحملته لاعتراض المقيم البريطاني عليها في ذلك الوقت. ولمّا وجد طحنون الفرصة سانحة بتغاضي السلطات البريطانية عن حملة سلطان مسقط ضد البحرين اهتبل الفرصة لتسوية حساباته القديمة مع البحرين وتأديب أتباعه الخارجين عليه، وردع محاولات الخروج على السلطة حتى لا تتكرر وتضعف روح الولاء التقليدي في منطقته. ولكنه مع ذلك ظلّ متردداً؛ فقوّة البحرين البحرية قوّة مؤثّلة موروثة لا تقارن بقوّة أبوظبي البحرية المتصاعدة بدعم من سلطان مسقط؛ فعمد طحنون إلى الحصول على موافقة أعيان بني ياس على هذه الحرب[٣٨]؛ فالعمل العسكري وراء الحدود، خاصة البحري، كان عنصراً جديداً في سياسة أبوظبي، أما الشورى وإشراك المواطنين في تدبر أمورهم فكان إرثاً مؤصلاً في شيوخ آل نهيان.

خرج طحنون في أكتوبر من عام ١٨٢٨م / ربيع الثاني ١٢٤٤هـ متحالفاً مع السلطان العماني الذي كان يسعى لضمّ البحرين إلى دولته – في حملة بحرية كانت

الأولى التي تشارك فيها أبوظبي خارج حدودها. وقد منيت تلك الحملة بالفشل نتيجة لتقاعس الشيخ طحنون الذي يبدو أنه قد وصل إلى اتفاق سرّي أو معلن مع عبد الله بن أحمد، شيخ البحرين، تراجع بموجبه عن المشاركة في تلك الحملة وكان من نتائج تراجعه أن سويدان بن زعل والآخرين من أمثال سيف بن ثيخان من الذين غادروا أبوظبي إلى البحرين منذ عام ١٨٢٢م وما بعده مغاضبين لشيخهم – أدركوا أن دائرة قوّة ونفوذ طحنون قد اتسعت حتى إن الملاجئ التي راحوا يتخذونها خارج الإمارة لم تعد آمنة؛ فعادوا إلى مساكنهم في أبوظبي مستفيدين من عفوّ طحنون عنهم؛ انطلاقاً من ثوابت شيوخ آل نهيان في ضرورة إرساخ الوحدة القبلية بكافة الوسائل والسبل وتجنب المواجهات المسلحة ما أمكن.

دخل طحنون بعد ذلك مع شيخ البحرين في علاقات صداقة بعد أن سويت المشكلات بين الرجلين. وجرى من ناحية أخرى التوقيع في ديسمبر عام ١٨٢٩م/ رجب ١٢٤٥هـ على اتفاق سلام بين سلطان مسقط وشيخ البحرين أنهى الوضع المتأزم بين القوّتين. وقد وقّع الشيخ طحنون على هذا الاتفاق أيضاً بصفته حليفاً لسلطان مسقط وليس طرفاً مباشراً في النزاع. فمشكلته مع البحرين كان مشكلة عارضة سويت في حينها ولم تعد تستدعي إبرام اتفاق. واتسعت دائرة علاقات الصداقة بين البحرين وأبوظبي ما أدى في هذه الفترة إلى الفتور في التحالف التقليدي بين أبوظبي ومسقط التي كان لها في البحرين مطامح تاريخية لا تستجيب طواعية لشروط الاتفاقات. وقد استبان لسلطان مسقط – بعد أن أمن في هذه المرحلة خطر المدّ السعودي إلى عمان من البريمي، ذلك المدّ الذي كانت تتصدّى أبوظبي له – أن طحنون قد أصبح زاهداً في مساندة خططه الطموح في السيادة على الخليج؛ فقرّر تجاهل روابط تحالفه التقليدي مع شيوخ آل نهيان. وعلى الرغم من النشاط الحربي المتواصل للشيخ طحنون بن شخبوط إلا أنه كان يدرك أن الحرب – في غير ضرورة ما – لا معنى لها، وأن السلام بين الفرقاء هو من الأسس اللازمة للتنمية والإعمار،

ورعاية المصالح المشتركة في البحر والبرّ. وكان والده الشيخ شخبوط من ورائه يبصرّه بفوائد الجنوح للسلم، كما كان العاملون من أتباعه في سواحل اللؤلؤ يدركون أن المصلحة العامة تقتضي التعامل السلمي خاصة مع القواسم شركاء الأرض والمنفعة المشتركة، وأن خسارة موسم صيد واحد ستؤدي ضرراً كبيراً إلى الفريقين اللّذين أصبح نشاطهما في صيد اللؤلؤ مصدر دخلهما الرئيس. فحين قام سلطان بن صقر في فبراير ١٨٢٩م/ شعبان ١٢٤٤هـ بمحاصرة أبوظبي لتسوية بعض الحسابات معها تدارك الوالد الشيخ شخبوط الحرب ودرأها بدعوة إلى السلام. وقد تمّ بوساطة الشيخ محمد بن قضيب، شيخ لنجه القاسمي، اجتماع في دبي في يونيو ١٨٢٩م ضمّ إلى جانب محمد بن قضيب، طحنون ووالده، وسلطان بن صقر. وصيغت في هذا اللقاء وثيقة صلح حددت الحدود بين الجارين درأً للاحتكاك.[٣٩] وتقرّر في هذا الاتفاق أن تمتد سيادة الشيخ سلطان في المنطقة من الرمس إلى ديرة، وسيادة الشيخ طحنون في المنطقة الممّتدة من دبي إلى البدع.[٤٠] وزاد هذا التفاهم الجديد بين بني ياس والقواسم في تعقيد العلاقة بين مسقط وأبوظبي. وفترت علاقة التحالف التقليدية بين هاتين القوّتين حتى رفض سلطان مسقط في عام ١٨٣١م مساندة بني ياس له في حملته المزمعة ضد صحار لردّ حمود بن عزّان إلى طاعته.[٤١] وانعكس هذا الأمر بعدئذ سلباً على العلاقات بين طحنون بن شخبوط وسلطان بن صقر أيضاً إذ لجأ إمام مسقط إلى شيخ القواسم، في طلب المساندة التي رفض قبولها من طحنون، وعمل طحنون من جانبه على إعاقة هذا التعاون الناشئ بين سلطان عمان وشيخ القواسم وشغل الأخير عن تقديم الدعم للسلطان في حملته لتأديب شيخ صحار. وساءت العلاقات بين الشيخين سلطان بن صقر وطحنون بن شخبوط إذ اتجه الأول لمحاصرة أبوظبي. وحالت قوّة المصلحة المشتركة دون قيام هذا الحصار إذ وجد القواسم وبنو ياس كلاهما أن النتائج المحتملة للعمليات العسكرية، خاصة في موسم صيد اللؤلؤ، ستعود بنتائج وخيمة على الجميع. ولجأ الفريقان مرّة أخرى إلى وساطة الشيخ محمد بن

قضيب، شيخ لنجه، وسوّي أمر الخلاف في مباحثات لم تستغرق وقتاً طويلاً إذ عقد اتفاق سلام في يوليو ١٨٣١م/ ١٢٤٧هـ تمكّن الفريقان بعده من استئناف موسم الغوص الذي لم تقع فيه إلا بعض مشكلات صغيرة لم تستعص على الحل. ومن هذه المشكلات ما قام به بعض أهل الشارقة في ديسمبر ١٨٣١م/ رجب ١٢٤٧هـ، من اعتداء على مركبين من مراكب الغوص تابعين لبني ياس. وردّ طحنون على ذلك بفرض حظر على أربع عشرة سفينة قاسمية كانت في ميناء أبوظبي. وتمت تسوية هذه المشكلة بتدخل جديد من شيخ لنجه الشاهد على اتفاق السلام بين القواسم وبني ياس السابق ذكره(٤٢). وثارت مشكلة أخرى في مايو ١٨٣٢م/ ذي الحجة ١٢٤٧هـ حين لجأ ثلاثة من سكان الخان الواقع تحت سلطة الشيخ سلطان إلى طحنون ليجيرهم من البريطانيين الذين كانوا يلاحقونهم؛ لأنهم هاجموا مركباً تابعاً لأحد الرعايا البريطانيين بالقرب من الساحل الفارسي. وأجار طحنون اللاجئين إليه ما أغضب السلطات البريطانية في الخليج التي طلبت إلى طحنون تحمل المسؤولية كاملة وطالبته أيضاً بالتعويض عما وقع من خسائر. وماطل طحنون فترة من الوقت في أداء مبلغ الغرامة الذي فرضته عليه سلطات الخليج البريطانية، ولكنه اضطر أخيراً مع بدايات عام ١٨٣٣م حين وفّرت حكومة الهند للمقيم من السفن الحربية ووسائل القسر لفرض إرادته إلى أداء مبلغ ١٥٠٠ كرونة ألمانية لسلطات الخليج البريطانية تجنباً لتعقيدات بدت مع تهديد المقيم البريطاني وشيكة(٤٣).

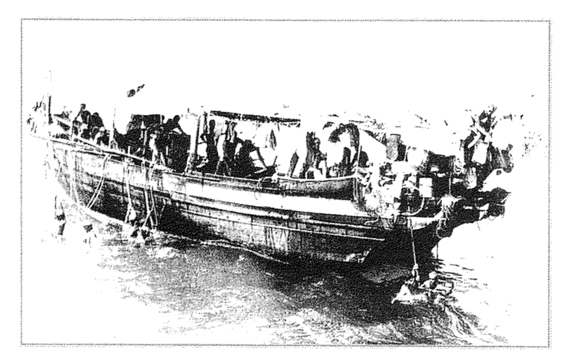
لقيت إمارة أبوظبي في عهد الشيخ طحنون وضعاً إقليمياً ممتازاً وأضحت قوّة إقليمية ذات وزن انعكس تأثيره على سياسة الخليج؛ فقد باتت كافة القوى فيه تضع في حسبانها قوّة هذه الإمارة الناشئة. وحين ظهر القائد السعودي عمر بن عفيصان في عام ١٨٣٣م في البريمي – بعد أن استعاد السعوديون سلطتهم في نجد بقيام دولتهم الوسطى (الثانية)، وبعد أن أظهر السلطان السيد سعيد سلطان عمان زهداً في مقارعتهم واتجه لتطوير الشقّ الإفريقي لسلطنته وهجر عاصمته مسقط – لم يكن ثمّة

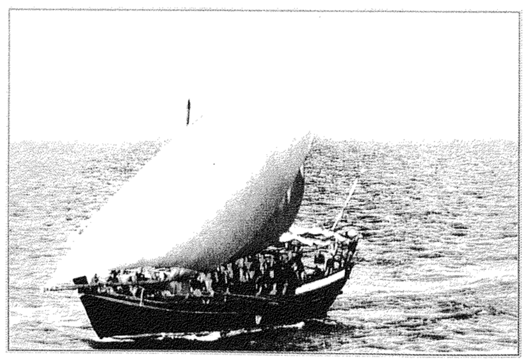
عائق في أن يجتاح ابن عفيصان عمان إلا خوفه من القوّة التي تمثلها إمارة أبوظبي وشيخها طحنون الذي كان القائد السعودي يخشى منه أن يقطع عليه خط إمدادته مع الأحساء. وعلى الرغم من أن العديد من شيوخ الساحل العماني المناوئين لطحنون، أوغروا صدر ابن عفيصان عليه واستنفروه ضدّه إلا أن الروح التصالحية التي أظهرها المناصير أحدثت نوعاً من التفاهم بين هذه الأطراف جميعها. وقد اعتقد وكيل الشارقة البريطاني أن السلام سيعمّ المنطقة نتيجة للعلاقات التي ستتوطّد بين طحنون وابن عفيصان خاصة في ظل سياسة الإمام السعودي تركي بن سعود الذي تمكن من استرداد سلطته على نجد كلها دون أن يهرق نقطة دم واحدة.

أما في المجال الاقتصادي فقد ترسّخت – في عهد طحنون – أقدام إمارة أبوظبي في الإسهام الجاد في استثمار نشاط الغوص والحرف التقليدية المرتبطة به، كما تطوّرت مراكبها البحرية، وامتلكت الإمارة منها ما يصلح لحمل الرجال في مهمات تجارية خارجية بعد أن كانت في فترة تأسيسها صغيرة تحمل عدداً محدوداً من الرجال لا تستطيع أن تتجاوز بهم منطقة الساحل وجزره المجاورة. وفاق في هذه الفترة النمو الاقتصادي لإمارة أبوظبي مثيله عند القواسم. وذكر تقرير بريطاني كتب في عام ١٨٣٣م أن شيخي أبوظبي ودبي يبدوان أكثر بداوة من الشيوخ الآخرين في الساحل المهادن، وأن لشيخ أبوظبي عدداً كبيراً من السوائم وعدداً كبيراً من مراكب الغوص. وكانت مسقط تمدّ أبوظبي في فترات التحالف بالخبرة التي تتطلبها الصناعة البحرية وصناعات الغوص عامة[٤٤].

كتب ولستد – أحد المساحين الذين عملوا في عام ١٨٢٨م/ ١٢٤٤هـ في فريق للمسح البحري لساحل الإمارات– عن الشيخ طحنون أنه يعرفه جيداً بحكم لقاءاته المتعددة معه،[٤٥] ووصفه بأنه ذو شخصية مؤثّرة، له قوّة جند نظامية قوامها أربعمائة رجل، جهزت وسلّحت تسليحاً جيداً. ويضيف ولستد أن هذا العدد من الرجال قد

مراكب الغوص





يبدو ضئيلاً إلا أنه يكفي لفرض نفوذ هذا الشيخ على منافسيه، بالإضافة إلى أنه يستطيع – في حالة إعلانه التعبئة – أن يجمع في الميدان أربعة آلاف مقاتل. ويضيف ولستد عن طحنون أنه كان قصير القامة نشيطاً، يتدفق حيوية ويتألق مرحاً، وكان يسعد بمشاركة العاملين في فريق المسح في ألعابهم بمشاعر صادقة وروح مرحة. ويستطرد ولستد في الحديث عن السلطة التي يمارسها شيوخ هذا الساحل على قبائلهم، بما عرفه عن طحنون، فيذكر أن سلطاتهم هي بالضرورة أبوية ولكنهم يضعون وزناً أكبر لآراء كبار السنّ في القبيلة في المسائل الخاصة بتسوية المشكلات وتسيير المصالح العامة. وأشار ولستد إلى أن أفراد القبيلة لا يسعون في العديد من الحالات إلى طلب تدخل الشيخ بشكل مباشر، «ولا توجد عقوبات كثيرة في حكومة القبيلة؛ فالعلاقات في شبه الجزيرة العربية بسيطة ومحدّدة ولا تقع الجرائم ضد المجتمع إلا نادراً». ويثير الانتباه ما أورده ولستد في هذا الصدد حين قال: «والحقيقة الغريبة حقّاً أن هؤلاء الشيوخ يراعون في أنماط حياتهم، وفي مأكلهم بساطة شيوخ البدو الآخرين مع أنهم ليسوا أمثالهم؛ فهؤلاء الشيوخ لهم اتصالات دائمة بالهنود والفرس وغيرهم، فهم ليسوا كغيرهم منغلقين في رمال الصحراء. هم أوفر ثراء، وأبلغ نفوذاً من شيوخ الصحراء الآخرين، ويمكنهم أن يتمتعوا بمباهج الحياة الأجنبية بدون قيود ولكنهم لا يفعلون! فإنكار الذات عند هؤلاء الشيوخ يحفظهم في إطار التقاليد الوطنية. ويمكن أن ينظر إلى هذا السلوك على أنه سلوك طوعي خالص».

أجمعت مصادرنا البريطانية أن طحنون كان شخصية قيادية يحترمها جيرانه أو يهابونها، وأنه كان دائماً في طليعة قومه في سوح المعارك فارساً لا يشقّ له غبار، كما أشادت هذه المصادر بقوّته الجسدية وبصفاته الأخلاقية.

الشيخ خليفة بن شخبوط (١٨٣٣– ١٨٤٥ م)

ورث خليفة بن شخبوط عن أخيه طحنون إمارة شبّت عن الطوق بعد اكتسبت وضعاً إقليمياً ممتازاً في وسط مضطرب تسيطر عليه بريطانيا من ساحل الخليج، ويقوم

في الداخل على موازنات دقيقة بين دولتين إقليميتين جارتين، هما: السعودية وعمان اللتان كان لكل منهما فلسفة مختلفة عن جارتها في أساليب الحكم وفي نظم الإدارة. وكان على شيوخ آل نهيان في هذه الفترة أن يعملوا على تطوير إماراتهم الوليدة في أبوظبي بالتعامل إقليمياً ومحلياً مع عدّة مناقضات في وقت واحد.

كان طحنون رغم الروح التصالحية التي أبداها حاسماً في موقفه من المدّ السعودي الذي بدأ ينشط قبيل وفاته بفترة وجيزة. وقد استقبل أهل نجد نبأ وفاته بارتياح كبير؛ إذ كان عقبة كداء تعترض طريق امتدادهم في المنطقة.(٤٦) ومع وصول الشيخ خليفة بن شخبوط إلى سدّة الحكم خشي والده الشيخ شخبوط أن يتدخل عمر بن عفيصان – القائد السعودي – في شؤون المنطقة التي لم يكن الحكم قد استقر فيها بعد تماماً لابنه الشيخ خليفة. وأسرع شخبوط إلى أبوظبي وجمع زكاتها التي بلغت نحو ثمانمائة ريال، وأرسلها طواعية إلى ابن عفيصان؛ فكسب بذلك انتقالاً هادئاً لحكم الإمارة إلى ابنه خليفة؛ إذ كتب ابن عفيصان إلى الشيخ سلطان بن صقر يطلب إليه عدم التدخل في شؤون أبوظبي.(٤٧) وشعر ابن عفيصان أن قوّة أبوظبي التي كانت تمنع تقدمه إلى الأرض العمانية أصبحت قوّة موالية ما دعاه لاعتماد خليفة بن شخبوط شيخاً لمشايخ القبائل العمانية. وبهذه الخطوة التكتيكية ضمن الشيخ شخبوط هدوء الأحوال في إمارة أبوظبي، وحمايتها من أية خطط معادية تفدها من محيطها المضطرب، وعمل وابنه خليفة – في الوقت ذاته – على توثيق علاقة أبوظبي مع البحرين، تلك العلاقة التي كانت قد اكتسبت قوة في عهد الشيخ طحنون، فأرسلا خطاباً إلى عبد الله بن أحمد شيخ البحرين يبلغانه بوفاة طحنون وتطلعهما إلى تحسين العلاقات مع البحرين، فاستجاب له الشيخ عبد الله(٤٨). أما مسقط الحليف التقليدي لأبوظبي، فقد وفد إليها الشيخ شخبوط بشخصه؛ ليؤكد لحاكمها باسم حكومة أبوظبي روابط الصداقة الدائمة.

وسرعان ما واجهت حكومة الشيخ خليفة تمرداً داخلياً في أغسطس - سبتمبر ١٨٣٣م/ ربيع الثاني ١٢٤٩هـ قاده بعض رجال بني ياس البارزين بمؤازرة بعض التجار الذين أصبح لهم في مجتمع أبوظبي مكانة مرموقة. وتعامل خليفة مع التمرد بكل الحسم اللازم ما أغضب البوفلاسة والرميثات[٤٩]. وهاجر البوفلاسة إلى دبي التي اضطر خليفة إلى التنازل لهم عنها بعد تردد. وقد ترك البوفلاسة المهاجرون إلى دبي أموالهم وممتلكاتهم في أبوظبي، وحجرها عنهم خليفة[٥٠].

ويبدو أن البوفلاسة والرميثات استعانوا بسلطان بن صقر - شيخ القواسم - في المطالبة بممتلكاتهم التي تركوها في أبوظبي. وخطط سلطان للنزول على أبوظبي في موسم الغوص على حين غرّة إذ كان يعتقد أنها ستؤول إليه بسهولة ويسر في فترة غياب رجالها في سواحل الصيد، و لم يصغ إلى نصائح المحيطين به الذين أخبروه أن هذا العمل سيثير عليه - في الوقت ذاته - البريطانيين الذين يهمهم استقرار الأحوال في مواسم صيد اللؤلؤ، بالإضافة إلى أن توقف الرجال عن العمل في الغوص للهجوم على أبوظبي أو الدفاع عنها سيورث المنطقة برمّتها وضعاً اقتصادياً مأساوياً يعود أثره على كلا القوّتين.

و لم يهتم الشيخ سلطان بن صقر إلا أن ينتصر لمن استعان به وفقاً للتقاليد العربية، بالإضافة إلى رغبته الكامنة منذ أمد في تسوية حسابات قديمة مع شيوخ بني ياس. وفي ٧ سبتمبر ١٨٣٣م اجتمعت قوّة متحدة تحت لواء سلطان بن صقر وحسين بن رحمة من نحو سبعمائة رجل من البوفلاسة والرميثات، بالإضافة إلى خمسمائة وعشرين آخرين جمعهم سلطان من رجاله. وتحركت هاتان القوتان في أكثر من خمسين قارباً إلى أبوظبي التي ظنّوا أن أهلها غافلون عن حراستها في هذا الوقت من العام حيث يعمل الجميع في المغاصات. ونزلوا في عصر يوم ١٠ سبتمبر عند خور لا يبعد سوى أربعة أميال عن أبوظبي ليقضوا الليل هناك ويداهموا

المدينة فجراً. وما إن أشرقت الشمس حتى استبانوا خطأ تقديرهم؛ فقد جمع لهم خليفة ووالده نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من المناصير وبني ياس من راكبي الهجن، فارتاع القوم وتدافعوا إلى قواربهم التي كان المد قد تركها فوق اليابسة. وانكسرت حملة القواسم وخسرت جلّ قواربها(٥١). أما الرجال الذين وقعوا في الأسر من المعارضين لخليفة الذين كانوا في صفوف سلطان فأعادهم خليفة – وفق الأعراف – إلى ديارهم في أبوظبي غير مروعين.

كان لهذا الحادث ذيوله المروّعة حيث عمّ الاضطراب المنطقة فترة قام فيها الشيخ خليفة بالإغارة على البدو الذين ساندوا انفصال دبي، وقطعوا الإمدادات عن أبوظبي. وانتهت عمليات ترويع البدو إلى استقرار الأحوال في الداخل حيث سكنت حركات البدو المعارضين تماماً، وانقطعت اعتداءاتهم. أمّا حركات بدو المناصير الموالين لخليفة فاستمرت في أرض القواسم إلى حين في عام ١٨٣٤م دون رادع حتى قام خليفة بوازع من الشعور بالمسؤولية بوقف تجاوزاتهم، غير أن دائرة التعديات كانت قد انتقلت إلى المغاصات، وكان موسم الغوص في أوجه(٥٢). واستشعر الفريقان خطر الوضع إذ كان الغوص مصدر الدخل الأساس لكليهما. ورحل الشيخ شخبوط إلى الشارقة حيث التقى الشيخ سلطان، وتمخّض اللقاء عن اتفاق للسلام بين الجانبين(٥٣). وقد أقرّ الشيخ شخبوط بنداً من بنود هذا الاتفاق بأن يدخل البوفلاسة، وهم عشيرة بني ياس الذين رحلوا إلى دبي، تحت سلطة شيخ القواسم في الشارقة(٥٤).

شعرت قبيلة بني ياس بثقة مفرطة في القيام بالعمليات الحربية بحراً، خاصة بعد أن أثبتت هذه القبيلة تفوّقها في هذه الحروب في العراك الذي شبّ في نوفمبر ١٨٣٤م/ رجب ١٢٥٠هـ بين حمود بن عزّان، حاكم الرستاق، وهلال بن سعيد، والتي استعان فيها الأخير على الأول بقوات بحرية للشيخين خليفة بن شخبوط وسلطان بن صقر يؤازرهما شيوخ عمان. وأكدّت سفن بني ياس تفوّقها حين أحاطت بصحار وحاصرتها فلا تدع سفينة تدخل أو تخرج منها إلا أخذتها.

تدخل المقيم هنيل وحذّر شيخ أبوظبي في يناير عام ١٨٣٥م/ رمضان ١٢٥٠هـ من خطر ما تقوم به قوّاته بحراً. وشعرت بني ياس بأنها أصبحت قوة بحرية ذات شأن وراحوا يتحدّون المقيم البريطاني ومؤسسته العسكرية ذات التقنية العالية. وخرجت سفن بني ياس إلى مدخل الخليج وأصابت في الفترة من أوائل فبراير حتى منتصف أبريل سبع عشرة سفينة، أكثرها فارسية، وغنموا مركبين كانا يرفعان العلم البريطاني. وأرسل بنو ياس إلى قائد أسطول الخليج البريطاني في باسيدور يتحدّونه ويطلبون إليه الخروج من قاعدته للقائهم في البحر؛ فأمر المقيم هنيل القائد جون صوير أن يقبل التحدّي فخرج إليهم على السفينة الحربية إلفنستون التي تقدمت السفن الحربية الأخرى للقوة البريطانية.

وقامت في فجر يوم ١٦ أبريل/ ١٧ ذي الحجة ١٢٥٠هـ ملحمة كبرى بين بني ياس بقيادة الشيخ سلطان بن شخبوط، المساعد الأول للشيخ خليفة، وبين القوات البريطانية بقيادة صوير. استمرت المعركة يوماً كاملاً وانتهت في صبيحة اليوم التالي. وقد صوّر صوير – القائد البريطاني – هذه المعركة التي انتهت بانكسار أسطول أبوظبي تصويراً دقيقاً: «في يوم ١٦ ... في الساعة السادسة صباحاً بدأت المعركة مع بغلة القيادة التي كانت تعجّ بالناس. أطلقت تلك السفينة طلقة ثم رفعت علماً أحمر وأنزلته ثلاث مرات متتالية ربما إظهاراً لروح التحدي والمقت ... وأكد لنا الدليل العربي أن مركب القيادة تضمّ الشيخ سلطان بن شخبوط ... واخترقنا تجمع مراكبهم ونحن نطلق النار من كل اتجاه بينما راح بحارة مركب الشيخ يهللون ويكبّرون: الله أكبر على الكفار ... كانوا واثقين من النصر ... وكان (الأسرى) حين تمكنّا منهم يفاخرون بأنهم كانوا قد أعدّوا لنا قدوراً كبيرة ملئت زيتاً حاراً ليغمسوننا فيها».[٥٥]

أعدّ المقيم هنيل عدّته الحربية إلى أبوظبي بعد انتهاء المعركة التي كانت الأقوى والأشرس ضراوة ضدّ البريطانيين في الخليج منذ عام ١٨١٩م، ووصل إلى مياه

أبوظبي في ١٩ أبريل وأطبق عليها الحصار، وطالب شيخها بغرامات مالية باهظة وصلت إلى ٢٤٫٥٩٧ كرونة، كما طالبه بإطلاق سراح الأسرى الذين سبق أن ظفرت بهم سفن بني ياس حين كانت تقوم بعملياتها البحرية، إضافة إلى تسليم أشخاص اتهمهم المقيم البريطاني بممارسة «القرصنة». و لم يجد الشيخ خليفة إلا أن يكلف والده شخبوط بالتفاوض مع المقيم حول هذه الأمور. وانتهى الأمر بالاستجابة لطلبات البريطانيين كلها،[٥٦] والقبول بأداء التعويضات والغرامات التي كانت أكبر من طاقة خزانة أبوظبي. والتزم الشيخ شخبوط بتقديم ما تفي به مصادر تلك الخزانة فوراً على أن يتم دفع ما تبقى من المبالغ المطلوبة لاحقاً. وغادر المقيم هنيل إلى القاعدة الأسطولية في باسيدور تاركاً وراءه ثلاث سفن حربية بريطانية تحاصر سواحل أبوظبي لا تترك سفينة تدخل إليها أو تخرج منها. واستمر هذا الحصار الخانق طيلة شهر مايو حتى أخذت حكومة الشيخ خليفة في دفع الغرامات والتعويضات المطلوبة[٥٧].

أدّت سياسة الشيخ خليفة بن شخبوط الطموح التي تناقضت مع الإستراتيجيات البريطانية في التفرد بالهيمنة في الخليج العربي إلى تملل في أوساط رعاياه الذين كان عليهم أن يسهموا بقدر في أداء هذه الغرامات المفروضة - عقاباً من البريطانيين - على شيخهم، والتي صعبت عليهم. وخرج في إثر هذه الحوادث خادم بن نهيمان بقومه القبيسات تاركين خلفهم ديوناً لم تسدد، وقصدوا منطقة العديد التي استقرّوا فيها. واضطر الشيخ خليفة - ثباتاً على سياسة شيوخ آل نهيان القاضية بالتمسك بوحدة الولاء - إلى القيام في مايو ١٨٣٧م/ صفر ١٢٥٣هـ بحملة على العديد؛ فعاد القبيسات إلى أبوظبي واستقرّوا فيها مرّة أخرى بعد حصولهم على العفو العام، وأعيدت لهم ممتلكاتهم، وعوملوا بالعطف والإحسان.[٥٨]

كان الشيخ شخبوط في هذه الفترة يتصل بالبريطانيين كثيراً نيابة عن ابنه خليفة. وقد احتج شخبوط مراراً - عندما كان يطالبه الإنجليز بسداد ما تبقى من ديون جراء

العقوبات البريطانية – بأن خزانة أبوظبي لن تستطيع الوفاء بكل تلك المطالب، ورعاياها مشتتون، وأرضها غير موحّدة. وكان ذلك إشارة من الشيخ إلى خروج البوفلاسة إلى دبي، وتخليهم عن الولاء لأبوظبي. واستعمل الشيخ خليفة بعدئذ الحجّة ذاتها حين طالبته السلطات البريطانية في الخليج بضبط تصرفات قبيلة بني ياس في البحر إذ أفاد أن قبيلة بني ياس غدت مشتّتة في موانئ الخليج المختلفة في دبي والشارقة ولنجه، والبدع، وأن سلطته باتت تقصر عن المناطق المذكورة، فكيف لهم أن يعتبروه مسؤولاً عن تحركات أفراد قبيلته الذين لا يقعون بشكل مباشر تحت إدارته؟[٥٩] وعلى الرغم من التشدد الذي أبدته السلطات البريطانية في هذا الصدد إلا أنها درست هذه المسألة على ضوء إستراتيجياتها في المنطقة، وخلصت إلى ضرورة بقاء دبي منفصلة عن أبوظبي لتبقى منطقة عازلة بين قوتي القواسم وبني ياس بحجة أن ذلك يخفف الاحتكاك بين القوتين، رغم صدور بعض الآراء من العسكريين البريطانيين في المنطقة بأن اعتبار دبي من مسؤولية أبوظبي أوفق لأغراضهم من الناحية العسكرية؛ فالطرق البحرية التي تؤدي إلى أبوظبي صعبة المسالك ما يجعل إنزال العقوبة السريعة الناجعة بها أمراً صعباً، أما مسالك دبي فهي سالكة يمكن الوصول عبرها بسهولة، وردع حكومة بني ياس من دبي.

لم توافق الإدارة البريطانية على آراء الخبراء العسكريين فيما يخص دبي وثبتت عند مبدأ «فَرِّقْ تسدْ»، ولكنها اعتمدت آراءهم فيما يخص رعايا أبوظبي الآخرين الذين هاجروا إلى العديد ومناحيها؛ فقد كانت الطرق البحرية في تلك المناطق تستعصي على سفن البريطانيين، ونتج من غياب قوة الشيخ الضابطة في تلك الفجاج انفلات حقيقي في الأمن لم يستطع البريطانيون أن يتعاملوا معه فألقوا تبعته على حكومة أبوظبي، ولذلك وافقوا على قيام الشيخ خليفة بحملته التي أعادت – كما رأينا – القبيسات إلى ديارهم في أبوظبي مرّة أخرى. واستمرت العلاقات بين الشيخين خليفة ومكتوم – شيخ دبي – متأرجحة بين الجفاء والصفاء. وكان مكتوم، كثيراً ما يستغل الموقع

الوسطي لدبي بين أبوظبي والشارقة ليظفر بنوع من الاستقلالية؛ فيعتمد على هذه الجهة أو تلك ضد تطلعات أخرى[٦٠].

وقد أثارت الموافقة البريطانية على عمليات الشيخ خليفة في منطقة العديد توجّس شيخ دبي، وحذر شيخ رأس الخيمة؛ فقد كان بعض القبيسات قد لجأوا إلى دبي التي خشيت أن يقوم خليفة بعمل مماثل ضدهم. وانتهى الأمر بعودة العديد من هذه الجماعات الخارجة عن سلطة خليفة إلى أبوظبي مرّة أخرى طواعية بعد أن رأت المعاملة الكريمة التي لقيها العائدون من العديد.

اعتبرت الإدارة البريطانية الشيخ خليفة – نظراً لعدم معارضتها عملياته الحربية في إعادة المنشقين إلى سلطته – مسؤولاً عن كل تعدٍّ تقوم به الجماعات في البحر، واستغلت ظروف النزاع الذي استشرى في المنطقة برّاً وبحراً في استحداث هدنة بحرية يوقعها الشيوخ كافتهم يتعهدون فيها بوقف كافة العمليات الحربية بحراً مدّة ستة أشهر في فترة الغوص على أن يُعد كل قتال في البحر في هذه الفترة، قرصنة صريحة مهما كانت دواعيه، واحتج المقيم على الشيوخ بأن عراك البحر قد انعكس على ريع مواسم الغوص الماضية. وهكذا تم في ٢١ مايو ١٨٣٥م توقيع هذا الاتفاق الذي تقرر به تجميد كافة الخلافات المحلية للفترة بين ٢١ مايو إلى ٢١ نوفمبر[٦١] وتم تجديد هذه الهدنة في ١٣ أبريل ١٨٣٦م و ١٥ أبريل ١٨٣٧م، ثم مُددت – بناء على طلب بعض الشيوخ – مدّة الحظر إلى ثمانية أشهر في السنة التالية، ثم سنة كاملة بعد ذلك. واقترح المقيم روبرتسون بعدئذ أن يوقّع الشيوخ على سريان ذلك الاتفاق بشكل دائم إلا أن حكومة بومباي طلبت إليه أن يُمدد الفترة إلى عشر سنوات أولاً ثم ينظر بعد ذلك في النتائج. وقد استجاب الشيوخ في ساحل الإمارات – بمن فيهم الشيخ خليفة – لهذا الاقتراح، بعد أن لمسوا الآثار المادية للسلم البحري. وما لبث هذا الاتفاق بعدئذ أن أصبح في عهد الشيخ سعيد بن طحنون (١٨٤٥– ١٨٥٥ م) دائم السريان إذ دخل الشيوخ جميعهم فيما عرف بمعاهدة الصلح الدائمة لعام ١٨٥٣م.

على الرغم من حرص الإدارة البريطانية في الخليج على كبح جماح اضطرابات البحر إلا أنها لم تتدخل في هذه الفترة في الخلافات التي كانت تحدث في هذه الفترة برّاً؛ انطلاقاً من سياستها الاستعمارية التي ترى في استشراء الخلاف والتشرذم ضعفاً للشيوخ كافتهم حتى لا يجتمعوا على قوّة، واعتبرت أن تفرّق كلمة الشيوخ ستجعلهم يلجأون إلى حكمها حتى في المسائل المتصلة بالبر. ولا يعني ذلك أن الإدارة البريطانية كانت زاهدة في التدخل في البر حين يكون ذلك متسقاً مع سياستها، ولكن كانت تعوزها وسائل ذلك التدخل في الصحراء في تلك الفترة. وأصبح همّ السياسة الاستعمارية في الخليج أن تجد من الوسائل ما يجعلها تتدخل بشكل غير مباشر في البر إذا نشأ وضع يقتضي ذلك التدخل. وكان الأمر الوحيد الذي يهم الإدارة البريطانية هو التعامل مع القوّة السعودية التي كان وجودها في بداية فترة الشيخ خليفة مباشراً، ثم أصبح بعدئذ غير مباشر في فترة الحكم المصري التركي لنجد بعد اعتقال الإمام فيصل بن تركي وإرساله أسيراً إلى القاهرة. و لم تلق انتصارات خورشيد وخالد بن سعود ترحيباً في الساحل العماني الذي كان شيوخه لا يتطلعون أبداً لهذا المدّ التركي المصري.(٦٢)

أرسل خورشيد باشا القائد السعودي سعيد بن مطلق المطيري إلى ساحل الإمارات الخليجية لكي يحصل من شيوخه على إعلان بالولاء لخالد بن سعود المتعاون مع سلطة الأتراك المصريين في حكم نجد. وصل المطيري إلى الشارقة، واستقبله شيخ القواسم في بلدته ريثما يصله رد من شيوخ البريمي بالقبول أو الرفض ليتدبر الأمر. وسارع المقيم بالاتصال بشيخ رأس الخيمة فوصل إلى هناك في ٢٧ أبريل ١٨٣٩م/ ١٢ صفر ١٢٥٥هـ، وأطلع شيخها على موقف الحكومة البريطانية المعارض تماماً لوصول النفوذ التركي المصري الذي يمثّله المطيري وخالد بن سعود إلى المنطقة. واحتجّ شيخ القواسم بأنه قد استضاف ابن مطلق خوفاً مما أزمعه الشيخ خليفة بن شخبوط من تحالف مع هذا المبعوث ما قد يكون له مردوده السلبي على الإمارة القاسمية. وأبرز الشيخ سلطان بن

صقر في هذا الصدد رسالة من الشيخ خليفة بن شخبوط كان قد أرسلها إلى ابن مطلق يعده بالدعم والمساندة، ووضع كل إمكانيات قبائله براً وبحراً تحت تصرفه، ويذكّره بأنه ظل فترة طويلة في ضيافة الشيخ سلطان بن صقر و لم يظفر منه بطائل.[٦٣]

أصرّ الشيخ سلطان في خطابه للمقيم البريطاني على أن تحالف الشيخ خليفة مع ابن مطلق يمكن أن يكون له أثره السلبي في السلطة القاسمية في ظل العلاقات المتوترة بينه وبين خليفة. وتدخل المقيم بعدئذ لدى خليفة بن شخبوط الذي وعده بألا يقيم أيّة صلة مع خورشيد باشا أو مع عملائه في المنطقة، وأنه سيعادي أية قوة يمكن أن تعادي الحكومة البريطانية، ولن يتبادل أية رسائل مع أية قوّة ما لم تأذن له الحكومة البريطانية بذلك. وتعهد المقيم البريطاني من جانبه للشيخ خليفة بمدّه بحصة من السلاح والذخيرة في حالة وقوع أي هجوم على المناطق الداخلية من بلاده نتيجة لهذا الاتفاق مع الحكومة البريطانية. وطاف المقيم بعدئذ على شيوخ الساحل كافتهم، وحصل منهم على تعهدات مكتوبة بتأييد السياسة البريطانية «التي تعمل على الحفاظ على استقلالهم، وبمعارضة السياسة المصرية التي تسعى إلى إفساده»*. وكان التعهد الذي حصل عليه المقيم من شيخ أبوظبي أقوى هذه التعهدات، وذلك على ضوء ما أزمعه شيخها من تعامل مع ابن مطلق.

و لم يكن الشيخ خليفة يقوم في هذا المجال إلا بعمل من أعمال السياسة؛ فهو المعتمد من حكومة فيصل بن تركي شيخاً على قبائل عمان، ولا يريد أن يخسر هذا الوضع تحت حكومة خورشيد وخالد بن سعود، بالإضافة إلى أن سياسة آل نهيان كانت قد استقرّت حتى هذه الفترة على التعامل بحذر مع المدّ السعودي إلى المنطقة، ومحاولة عدم استعداء السعوديين، والثبات – في الوقت ذاته – على الحفاظ على استقلال قبائل أبوظبي، وحماية الظهير العماني. لم يكن الشيخ خليفة يرغب حقيقة في التعاون مع ابن مطلق وخالد بن سعود إلا أن العوامل السابقة،

إضافة إلى عدم ثقته في سياسة سلطان بن صقر المؤيِّدة في أغلب الأحيان لكل مدّ نجدي في المنطقة دفعت به للتعامل مع الوضع على هذا النحو.

كان خليفة يدرك في الوقت نفسه عجز البريطانيين عن التعامل مباشرة مع المناطق الداخلية؛ فلم يلتزم بما قاله للمقيم البريطاني، وشنّ حملة على القبائل المعارضة له في دعم ابن مطلق، كما تقول الوثائق البريطانية**. واتصلت لندن بالقاهرة تعترض على وجود المطيري في المنطقة، واستجابت القاهرة وأمر خورشيد قائده بالانسحاب من المنطقة والعودة إلى نجد. ولمّا استبان للشيخ خليفة أن ابن مطلق قد غادر المنطقة ولن يعود مرّة أخرى صالح القبائل التي كان قد هاجمها. وقد قام المقيم البريطاني بعد ذلك بفرض غرامات على الشيخ خليفة لنقضه وعده مع الحكومة البريطانية. وقد أنكر الشيخ ما ادعاه المقيم البريطاني من أن عملياته العسكرية في تلك المنطقة كانت لدعم امتداد خورشيد باشا وخالد بن سعود، وادّعى أنه لم يحدث أبداً أن راسل خورشيد منذ أن ترك ابن مطلق المنطقة إلى الأحساء، واحتجّ بأن ما قام به في البريمي كان لحماية أتباعه الظواهر الذين تجمعهم علاقات وطيدة بوالده الشيخ شخبوط. جاء في رسالة خليفة إلى النعيم دحض لفِرْية تعاونه مع ابن مطلق ضدها، وأكد أنه تعاون مع هذه القبيلة لدرء خطر سيطرة هذا القائد على أي أرض عمانية. وأضاف أنه أمدّ النعيم وقتئذٍ بالرصاص والبارود والدعم الكامل، ولكن ما إن غادر ابن مطلق المنطقة تشتت الأهواء واعتدى النعيم على نخيل الظواهر وحبسوا عنها الماء، و«أرض الظواهر كما تعلم هي في ملكية أبي والنخيل فيها ملكية مشتركة لنا ولهم». ويبرر خليفة هجومه على النعيم بأنه سعى إليهم بالصلح أولاً ليغلق باب الفتنة التي أطلت برأسها، «فلما لم أجد منهم إلا العداء عاملتهم بمقتضى مشيئة الله، فكل من يساند الطغاة لن يحصد إلا ثمار الطغيان».[٦٤] ورغم ذلك الاعتذار الذي تدثّر ثوب الدبلوماسية فقد حقق الشيخ خليفة غرضه من التعاون غير المباشر مع ابن مطلق؛

فقد أدركت قبائل الداخل قوّة سطوته عند البلاء، وصدق عزيمته عند اللقاء، ووافر كرمه حين العطاء، فما عادت تتمرد عليه. وكان لوالدة الشيخ خليفة دورها الأكيد في إرساء السلم وتثبيته بين القبائل في منطقة البريمي في هذه الفترة.(٦٥)

انتهى في نجد المد المصري التركي، وزال في إثره نفوذ خالد بن سعود، وآل الحكم إلى عبدالله بن ثنيان الذي ما إن وصل إلى الحكم في فبراير عام ١٨٤٢م/ محرم ١٢٥٨هـ حتى بدأ محاولاته في استعادة مواقع السعوديين القديمة في عمان، وكتب إلى شيوخ الساحل العماني كلهم بمن فيهم خليفة بن شخبوط يخبرهم بعزمه على إرسال سعد بن مطلق ليكون ممثّلاً له عندهم، ويطلب إليهم أن يتّحدوا يداً واحدة مع قائده، وأن يقدموا له كافة المساعدات الممكنة.

وصل خبر هذه الرسائل إلى روبرتسون – المقيم في الخليج – فأسرع إلى الساحل العماني وصادر أصول هذه الرسائل من كافة الشيوخ في المنطقة ما عدا الخطاب الذي أرسله ابن ثنيان إلى الشيخ خليفة بن شخبوط الذي امتنع عن تسليمه له، واحتجّ بأنه ليس للمقيم البريطاني دخل بهذا الأمر، فالخطاب معنون له وليس للمقيم البريطاني، وأنه سيحتفظ به. غير أن أمر ابن ثنيان لم يستقم كثيراً؛ إذ فقد سلطته في نجد مع وصول فيصل بن تركي إليها في يوليو ١٨٤٣م/ جمادى الثانية ١٢٥٩هـ. وكتب فيصل بدوره في هذه السنة إلى كافة شيوخ الساحل العماني يخبرهم بأنه سيرسل قائده سعد بن مطلق بعد انتهاء فترة القيظ إلى المنطقة. وأبدى الشيوخ الرئيسون في المنطقة – بمن فيهم خليفة – اغتباطهم بهذا الأمر. ويبدو أن سياسة الشيخ خليفة قد استقرّت على توظيف هذا المدّ المتأرجح للقوى السعودية في المنطقة لتأكيد سيطرته فيها، وتثبيت نفوذه بين قبائلها. كانت القوّة السعودية تمتد إلى المنطقة قوية مع بداية كل حاكم جديد في الرياض ثم ما تلبث أن توهن سريعاً تبعاً للتقلبات السياسية في نجد؛ فيعمل خليفة لاستثمار عوائد تلك القوة المتقطعة لمصلحته.

شهدت هذه الفترة التي انحسر فيها المد السعودي مزيداً من حملات بني ياس على البادية كان بعضها بقيادة سلطان بن شخبوط، شقيق الشيخ خليفة وذراعه القوية. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد الحملة التي قادها خليفة بن شخبوط بنفسه في عام ١٨٤١م، والتي كانت من خيالة وهجانة قبائل بني ياس والمناصير والمزاريع، والتي بدأها بالساحل؛ فقد هاجم دبي في ٢٣ ربيع الآخر/ ١٨ يونيو ١٨٤١م، وغادرها قاصداً الخان في الشارقة، وسار من هناك مواصلاً عملياته العسكرية التي طالت تخوم رأس الخيمة في ١٠ جمادى الآخرة/ ٢٩ يوليو. وعرج من ثمّة بجماعاته حتى بلغ البريمي في ١٥ جمادى الآخرة/ ٣ أغسطس، وقام المناصير الذين كانوا معه ببعض عمليات في تلك المناطق، ولجأوا من ثمّة إلى قرى الظواهر التي كانت تتبع الشيخ شخبوط، والد خليفة. وحين عمد بعض شيوخ البريمي إلى مهاجمة تلك القرى تصدى لهم خليفة، وانتهى الأمر بمفاوضات للصلح اشترك فيها سلطان بن صقر [٦٦]. وقد أدت هذه الحملة مفعولها حين أدركت كافة قبائل المنطقة القدرة العسكرية التي حازها الشيخ خليفة؛ فاستقرّت الأمور، وهدأت المنازعات، وانتظم العديد من قبائل ظهير أبوظبي في سلك الطاعة. وقد تواصلت عمليات الشيخ خليفة في الظهير أقل حدّة في عامي ١٨٤٢، ١٨٤٣م. وكان لهذه العمليات دورها الكبير في توثيق سيطرة شيخ أبوظبي على قبائله التي باتت متضامنة تحت لوائه، وغدت منيعة الجانب غير وجلة من تعديات القبائل الأخرى.

انتهى الشيخ خليفة بن شخبوط في بعض حملاته هذه إلى البريمي، واستدعى هناك شيوخ كافة القبائل التي كان قد نازلها سلفاً وصالحهم؛ فدخلوا في حلفه، والتقى في نهاية عام ١٨٤٣م السيد حمود بن عزّان، حاكم صحار الذي سعى إلى البريمي لمقابلته، كما سعى للقائه السيد قحطان بن سيف، حاكم شيناص. ودخل الشيوخ الثلاثة في تحالف كونفدرالي وثّقته الصداقة المتبادلة. وأرسل خليفة بن شخبوط من البريمي إلى مكتوم، شيخ دبي، يطلب إليه – بعبارات الصداقة – أن يأتيه إلى البريمي

للتفاوض حول السبل الكفيلة بإنهاء كافة المشكلات العالقة بينهما وتسويتها، خاصة تلك المشكلات المتصلة بمسألة هجومه على عشائر الغفلة. و لم يتمكن مكتوم شخصياً من تلبية تلك الدعوة؛ فأرسل أخاه سعيداً نيابة عنه، وكان لتلك الزيارة أثرها في تسوية العديد من المشكلات وتوثيق عرى الصداقة التي طالما سعى إليها الشيخ مكتوم. وانتهت مفاوضات مماثلة بين مكتوم وخليفة في عام ١٨٤٢م كان قد دعا لها مكتوم بنفسه، وتعهد فيها بأن يبقى على الحياد في أيّة مشكلة تنشأ بين خليفة ومعارضيه. وقد شهدت تلك السنة نفسها، في أكتوبر، زيارة سيف بن دلموج، خال الشيخ مكتوم، مبعوثاً إلى أبوظبي حيث وجد استقبالاً طيباً وتجاوباً حسناً. وأرسل الشيخ خليفة بهذه المناسبة ذياب بن عيسى، أحد أقربائه، لتسوية كافة المشكلات العالقة بين دبي وأبوظبي وللدخول في علاقة تحالف وطيد. وقد امتدت مهمة هذا المبعوث الظبياني لتشمل الشيخ سلطان بن صقر، الذي رحّب بتصفية الخلافات مع أبوظبي والدخول في علاقات تحالف مع الشيخ خليفة. و لم ينجح المبعوث في إقامة هذا التحالف المنشود إذ اشترط الشيخ خليفة، أن ينصّ في هذا الاتفاق صراحة على عدم وقوع اعتداء من الشيخ سلطان على سلطان مسقط، وعلى عدم التدخل في شؤون ابن عمه حمود بن عزّان، أو التعرض لأتباع أيّ من هذين الحاكمين.[٦٧] وكان الشيخ خليفة بن شخبوط يراعي بذلك مقتضيات التحالف التقليدي مع عمان التي كان للشيخ سلطان بن صقر معها في تلك الفترة مشكلات تستعصي على الحل.

كانت علاقات خليفة مع مكتوم، شيخ دبي، طيبة بشكل عام قبل دعوة الأول للأخير إلى البريمي التي أشرنا إليها. وغدا كلا الرجلين بعد ذلك حريصاً على التشاور الدائم مع نظيره حتى لا تتكرر المشكلات تارة أخرى وتعكر صفو العلاقة. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد البعثة التي أرسلها مكتوم، في مارس ١٨٤٣م/ صفر ١٢٥٩هـ، والتي استجاب لها حاكم أبوظبي استجابة حسنة، وزاد بأن رافق تلك البعثة بنفسه

عند عودتها إلى دبي، واستقبل في قلعة دبي بمظاهر التكريم والحفاوة، وانتهت تلك المفاوضات بين الجانبين إلى: «أن ما فات مات».

تصف بعض الوثائق البريطانية الشيخ خليفة بن شخبوط بأنه رجل طموح، نشيط لا يهدأ ولا يكلّ، وأنه صاحب عزم وتصميم وحكمة، وقد أهّلته هذه الصفات لكي يصبح «أحد أقوى الشيوخ البحريين في الخليج». وتضيف هذه المصادر أنه أظهر رغبة في استثمار التفاهم مع الحكومة البريطانية. ولعلنا حين ننظر في الأسلوب الذي اتبعه الشيخ خليفة لرجوع أتباعه من القبيسات إلى أبوظبي بعد هجرتهم منها إلى العديد ندرك المعنى المقصود من «استثمار التفاهم» الذي جهد خليفة في استثماره في عدد من المناسبات الأخرى، خاصة في وضع حلول لبعض المشكلات التي صادفت رعاياه في الموانئ الفارسية. يضاف إلى هذا أنه قد استثمر مسؤولية أمن سواحل المنطقة التي أخذها البريطانيون على عاتقهم تحقيقاً لاستراتيجياتهم. فقد أمنت سواحل أبوظبي كثيراً خطر الهجمات التي قد تأتيها بحراً ما عدا الهجمات البريطانية التي عمل من جانبه على تداركها ما أمكن له ذلك. وانصرف هذا الشيخ بكل قوّته وفروسيته وحنكته إلى البادية ليوطّد فيها قوّة الإمارة ويؤثّل منعتها. وحين عاد من الداخل إلى عاصمته في أبوظبي في ٧ أكتوبر ١٨٤٤م/ ٢٤ رمضان ١٢٦٠هـ، لم يترك وراءه أية قبيلة من قبائل البدو إلا راضية عن سلوكه معها، لا تعمل على معارضته، ولا تسعى للخروج عن حظيرة الوحدة التي ربطت بين القبائل التي حققها ذلك الشيخ بالجهد والحكمة وبالسيف وببذل المال*؛ فقد أدركت قبائل البدو أن خليفة حينما يفرض عليها رسماً أو يأخذ منها زكاة، فإنه ما يلبث أن يرد تلك الجبايات إليها مضاعفة في أعطيات وهدايا وترضيات إلى القبيلة وفق أعراف شيوخ البادية الكبار العاملين بهدْي من قوانينها وتقاليدها.

الشيخ سعيد بن طحنون (١٨٤٥- ١٨٥٥م)

بوفاة الشيخ خليفة بن شخبوط وأخيه الأصغر وعضده في المهمات الجسيمة – الشيخ سلطان – دخلت إمارة أبوظبي في دوامة اضطرابات، وانتهت تلك الاضطرابات بتدخل بعض عقلاء بني ياس الذين اختاروا سعيد بن طحنون**، الوريث الشرعي للحكم من آل نهيان، ليتربع على سدّة الإمارة. وتقبل سعيد هذا التكليف في تلك الظروف المضطربة لما وجده من تأييد كبير من عشائر بني ياس، ومساندة معنوية ذات أبعاد عملية من المقيم البريطاني في الخليج.[(٦٨)]

برهنت الأحداث التي ميّزت عهد الشيخ سعيد بن طحنون على أنه كان شيخاً براجماتياً يحدد هدفه جيداً، ويسعى لتحقيقه بالوسائل السليمة أو الحربية أو بكلتيهما دونما اعتبار كبير للتحالفات التقليدية أو الخلافات الموروثة. حدّد سعيد هدفه بتوحيد قبائل البادية تحت قيادته، والعمل على استرجاع دبي إلى حظيرة الولاء، وإعادة البوفلاسة إلى مكانها من بني ياس. ولتحقيق هذه الأهداف لم يلتزم في تعامله مع القوى الإقليمية كلها إلا بالوسائل الكفيلة لتحقيقها؛ نراه يحارب الوهابيين ثم يصالحهم وقد يهادنهم أحياناً، بل ربما أصبح في بعض مراحل علاقاته معهم وكأنه الحليف المفاوض لمعارضيهم باسمهم، ولكنه سرعان ما ينحاز عنهم إذا تناقض هذا التقارب مع أهدافه. أما مسقط فقد راعى سعيد بن طحنون ما كان لبني ياس معها من تحالف تقليدي، و لم يخرج عنه خروجاً بيّناً، ولكنه لم يكن في هذا المجال يتّبع سياسات من سبقه من شيوخ آل نهيان الذين وصل تحالفهم مع مسقط في بعض الأحيان إلى درجة الولاء.

وضع الشيخ سعيد بن طحنون تحالفه مع مسقط في قائمة أولوياته السياسية وعمل – في الوقت نفسه– على توظيف هذه العلاقة فيما يحقق هدفه في المكان الأول ثم خدمة أهداف حليفه التي هي مصلحة مشتركة في نهاية الأمر. وما كان لسعيد أن

ينتهج نهجاً آخر مع حليفه إمام عمان الذين كان قد استقرّ في هذه الفترة في الشق الإفريقي من إمبراطوريته، تاركاً الحكم في عمان لابنه ثويني بينما ظهرت في الأقاليم العمانية – في هذه الفترة – حكومات عمانية أخرى تحت بعض فروع أسرة البوسعيد في صحار وغيرها. و لم يكن سعيد يرى في نفسه شيخاً أقل شأناً من السيد الحاكم في مسقط، أو من شيوخ صحار وغيرها من الأراضي العمانية. ولربما كان يدرك أنه أوسع سلطة في البادية من أي من هؤلاء الشيوخ الحاكمين في الأقاليم العمانية وأبعد تأثيراً في المجال الداخلي من الحاكم المكلف بحكم مسقط. أما الدور المسقطي في سياسة بريطانيا تجاه أبوظبي خاصة، والساحل العماني عامة الذي كان العديد من شيوخ آل نهيان يضعون اعتباراً له لتأثيره في ذلك المجال فقد ضعف كثيراً، وأصبح لسعيد بن طحنون علاقات قويّة مباشرة مع المقيم البريطاني تجعله في غنى عن الموقف العماني ومساندته له في هذا الصدد.

تضاربت سياسة الشيخ سعيد بن طحنون القائمة على فرض الوحدة القبلية بكل وسيلة ممكنة، وتأكيد وحدة تراب إمارة أبوظبي في تحدٍ سافر للكثير من العوامل الداخلية والخارجية مع السياسة البريطانية في هذه المنطقة في تلك الفترة؛ فقد كانت تلك السياسة مناهضة لكافة أنماط الوحدة، والوحدة تتعارض مع ما خططت له السياسة البريطانية والبريطانيون من تفرّق ونزاع يستثمرونه بادعاء أنهم يحمون مصالح هذا الإقليم ضد تطلعات غيره من الأقاليم الأخرى في المنطقة.

بدأ الشيخ سعيد باعتماد هدف إستراتيجي محدد وهو إعادة دبي التي خرجت عن سيطرة آل نهيان إلى دائرة حكمه، ورد البوفلاسة إلى الولاء،[٦٩] وسعى إلى سلطان بن صقر –شيخ القواسم– فصالحه، وعقد معه حلفاً دفاعياً هجومياً كان الشيخ سلطان الداعية له، وقد أصاب هذا الاتفاق الذي تمّ فجأة دون مقدمات رجال الإدارة البريطانية في الخليج بالدهشة. ويقول أحد التقارير البريطانية في هذه الفترة «من غير

المفهوم كيف تسنى لسعيد عقد هذا الحلف مع عدوّه التقليدي، وكيف تسنى له أن يقنع قبيلته بذلك!» هذا على الرغم من أن الشيخ مكتوم – شيخ دبي – كان من أبرز الشيوخ المساندين لوصول الشيخ سعيد سدّة الحكم في أبوظبي.[٧٠]

كان من المفهوم تماماً للشيخ سعيد بن طحنون أن الطريق إلى توحيد قبيلة بني ياس مرّة أخرى – بعد التمزق الذي أصابها بالتمرد الذي سبق وصوله إلى الحكم – وتأكيد ولاء القبائل الحليفة لها يمرّ عبر القواسم وشيخهم سلطان بن صقر الذي انحصر همّه أيضاً بتوحيد القواسم واستعادة ولاء الخارجين على حكمه. فإذا عمل شيخ القواسم على تمكين شيخ بني ياس من استرجاع دبي أمكن لهذا لشيخ بني ياس دعمه لاسترجاع عجمان وأم القيوين ومناطق أخرى كانت قبل في حلف القواسم، وكان شيوخها حلفاء لمكتوم بن بطي، شيخ دبي.

بدأ هذا التحالف الظبياني القاسمي قوياً راشداً، ويحقق شيئاً من أهدافه حين قام الشيخ سعيد بن طحنون بتلبية نداء الشيخ سلطان بن صقر لتأديب بعض قبائل الداخل، وأنجز المهمّة كما ينبغي محققاً بها تثبيت سلطانه في الداخل، وتأكيد سطوته فيه بمباركة من شيخ القواسم؛ فقد حقق هذا الإنجاز هدفه الذي رمى إليه من إضعاف الإمارات التي يريد أن يسترجعها إلى سلطته؛ إذ كانت القبائل التي ضربها تناصر تلك الإمارات المعارضة لسلطان بن صقر وتؤازرها ضده.

و لم يثبت هذا الائتلاف بين القواسم وبني ياس إذ جوبه بمعارضة داخلية وخارجية، وظهرت بوادر تصدعه في أواخر عام ١٨٤٦م، ثم انهار تماماً أوائل عام ١٨٤٧م. دبّ الخلاف بين سعيد وسلطان في أولويات العمل العسكري المشترك لإمارتيهما، فبينما رأى الأول أن يستعين بقوّة الثاني المباشرة لاستعادة دبي أولاً، كان رأي الأخير أن يستعين بقوّة سعيد أولاً ليتمكن من أم القيوين. وانتهى الأمر إلى خلاف بيّن حينما تمكن الشيخ مكتوم بن بطي – حاكم دبي – أن يقنع الشيخ سلطان بن صقر بالانحياز

له، وعدم تحقيق تطلعات الشيخ سعيد بن طحنون. واقتنع سلطان بأن شيخ دبي يمكن أن يقدم له قوّة مساندة بديلة لقوّة سعيد الذي كان قد تيسر له استثمار هذا التحالف لتحقيق بعض أهدافه في الداخل ما زاده قوة على قوّته. و لم يكن سلطان القاسمي ليأمن شريكاً أصاب بالتحالف قوّة على قوّته في ظهير الساحل وازداد منعة على منعته.

عقد الشيخان سلطان بن صقر ومكتوم بن بطي في فبراير أو مارس ١٨٤٧م/ ١٢٦٣هـ تحالفاً هجومياً دفاعياً أدرك معه الشيخ سعيد أن خططه لاستعادة بوفلاسة دبي قد غدت بعد قيام هذا الاتفاق بعيدة المنال، بل ربما غدت غير ممكنة. فقد أراد سعيد من التحالف مع سلطان الاستعانة بقوة القواسم على هذه المنطقة العازلة بين قوتيهما، أو على أسوأ الفروض، تغاضي الشيخ القاسمي عن تدخل سعيد في شؤون دبي وعدم مساندتها ضده. و لم يكتب لتحالف سلطان بن صقر ومكتوم أن يستمرّ طويلاً؛ فقد كانت أهداف الأخير من هذا التحالف محصورة في المحافظة على تكامل إماراته، وعدم الدخول في طاعة الشيخ سعيد بن طحنون. ولمّا وجد مكتوم من الشيخ سعيد اعترافاً بما يريده سعياً من الأخير لإجهاض هذا التحالف بين القواسم والبوفلاسة لم يتوان عن الانحياز إليه والدخول في حلفه. وهكذا تمكن الشيخ سعيد في يناير ١٨٤٩م/ صفر ١٢٦٥هـ من إقامة حلف جديد ضمّ دبي إلى جانب مشيخات أخرى كان سلطان يعمل على استعادتها، وذوى بذلك أمل الاتحاد الذي خطط له منذ بداية حكمه لقيام وحدتين سياسيتين في المنطقة ياسية وقاسمية بحلف دفاعي هجومي مشترك.

أدخل هجوم الشيخ سعيد – في فترة تحالفه مع الشيخ سلطان على بعض قبائل الداخل – الوهابيين طرفاً في النزاع؛ فقد طلب نائب الوهابيين في البريمي إلى الشيخ سعيد أن يدفع تعويضات عن الخسائر التي أحدثتها هجماته التي وقعت على بعض القبائل التي كانت تدفع للوهابيين الزكاة، و لم يستحب سعيد لهذا الطلب.[٧١]

عاد المدّ السعودي الذي كان قد انحسر عن المنطقة في الفترة التي سبقت وصول سعيد بن طحنون إلى سدة الحكم في أبوظبي مجدداً، وأخذ في الامتداد إليها مرّة أخرى منذ أوائل عام ١٨٤٥م. وصل سعيد بن مطلق المطيري – القائد السعودي – إلى المنطقة في هذه السنة، ولقي من قبائلها ترحيباً لم يستمر طويلاً؛ فقد كان لتدبيره وسوء إدارته لأموال الزكاة التي اتهم بأنه يستبقيها لنفسه، وسوء معاملته لبعض قبائل المنطقة، خاصة البوخريبان من النعيم – نقمة عامة بلغ من حدّتها استعداء شيخ القواسم – حليف الوهابيين التقليدي في المنطقة – عليه.[٧٢] أما سعيد بن طحنون – شيخ بني ياس – فقد استبان له تماماً أن المطيري والإمام فيصل بن تركي – الحاكم السعودي في الرياض – يضعانه الموضع الذي كان لأسلافه عندهم من محاولة عدم الاستعداء، كما استبان له عمق السخط في المنطقة على سوء تصرفات ابن مطلق الذي بدا واضحاً للجميع بمن فيهم حلفاء الرياض في المنطقة. وكان من الواضح للشيخ سعيد وغيره من أهل المنطقة أن قوّة السعوديين قد تضعضعت، خاصة بعد أن ارتد القائد السعودي من حملته على صحار دون أن يحقق شيئاً.

قرّر الشيخ سعيد – حاكم إمارة أبوظبي – أن يتحالف ضد ابن مطلق مع حاكم صحار؛ فوجّه دعوة إلى الشيخ سيف بن حمود ابن حاكم صحار، وتحالف مع شيخ قبيلة النعيم، وآزره لهذا التحالف عدد من القبائل أبرزها الظواهر فألقت له تلك القلعة بمفاتيحها في ٤ مايو ١٨٤٦م/ ٨ جمادى الأولى ١٢٦٢هـ. وظلّ سعيد في أرض الظواهر يخطط لهجوم شامل على قلاع السعوديين في المنطقة بعد أن تتكامل قوات حلفائه.[٧٣] وفي ١٦ مايو شنّ على رأس حلفائه من قبائل الظواهر والعوامر وقبائل أخرى هجوماً على قلعة الصبارة التي اضطرت حاميتها إلى أن تفرّ في هجعة الليل إلى قصر الخندق ما ضعضع الروح المعنوية للوهابيين المدافعين عنه. و لم تجد قلعة الخندق التي كانت آخر معاقل السعوديين في المنطقة مناصاً من التسليم لسعيد. ودخل الجانبان في مفاوضات في العشرين من يونيو سمح بعدها سعيد للحامية النجدية بالانسحاب

إلى الساحل بسلاحها على أن تترك خيولها ومعداتها ومخازنها غنيمة له ولحلفائه.(٧٤) وهكذا تمّ له السيطرة على ظهير الساحل الذي لم يبق له فيه معارض إقليمي أو محلي. واتحد الظهير بباديته مع الساحل، وحاضرته أبوظبي التي غدت قوتها تبذّ كل قوة محلية أو إقليمية في هذه المنطقة. وبات سعيد شيخاً غير منازع في البريمي، خاصة بعد أن تمكن من أن يصلح بين البوخريبان والبوشامس. ولم تكن هذه المكانة التي أصابها الشيخ سعيد لترضي شيوخ الساحل الآخرين من حلفاء الوهابيين وكذلك الشيوخ الآخرين من غير الموالين للوهابيين الذين رأوا في قوّته معولاً لهدم نفوذهم في المناطق التي يحكمونها.(٧٥) وبدأت بوادر تحالف في المنطقة مضاد لشيخ بني ياس لم يأبه له الشيخ في بداية الأمر؛ فقد تنامت قوّته في هذه الفترة كثيراً ما جعله يستهين بمعارضيه.

اجتمعت تحت راية سعيد، قبائل البادية، وتوافد عليه في البريمي شيوخ بني قتب، وبني كعب، والغفلة، والخواطر والعوامر وغيرهم، باذلين له الولاء. غير أن الشيوخ الآخرين في الساحل باتوا يتوجسون خيفة من قوّته الصاعدة، وبدأت بوادر تشكيل حلف مضاد له بين الشيخين سلطان بن صقر ومكتوم، حاولا أن يدرجا فيها شيخي أم القيوين وعجمان، ولكنهما لم يتحمسا له. وبلغ هذا التوجس ثويني – حاكم مسقط – الذي كان المستفيد الأول من عمليات سعيد الحربية التي انتهت بطرد الوهابيين من المنطقة، ولكنه كان يخشى – في الوقت نفسه – من ازدياد قوة سيف بن حمود، ابن حاكم صحار والحليف الأول لسعيد، خاصة وأن الشيخ سعيد بن طحنون كان قد أوكل إليه ولرجاله قيادة حامية البريمي.(٧٦)

حدث الخلاف المتوقع بين الشيخ سعيد وسيف بن حمود بالوقيعة بينهما، وانتهى بتجريد شيخ أبوظبي للأخير من صلاحياته وطرده من قلعة البريمي، وإحلال قوة من بني ياس والظواهر بقيادة حمود بن سرور الشامسي مكان قوة صحار، وأصبح حمود بن سرور الشامسي نائباً للشيخ سعيد هناك. وترجّح بعض

المصادر أن هذا الأمر قد تمّ بإيعاز من مسقط التي حذّرت سعيد بن طحنون من أنها قد تضطرّ إلى عدم تقديم أية مساعدات لبني ياس إلا إذا أبعدت قوة صحار وانتهى ذلك التحالف.

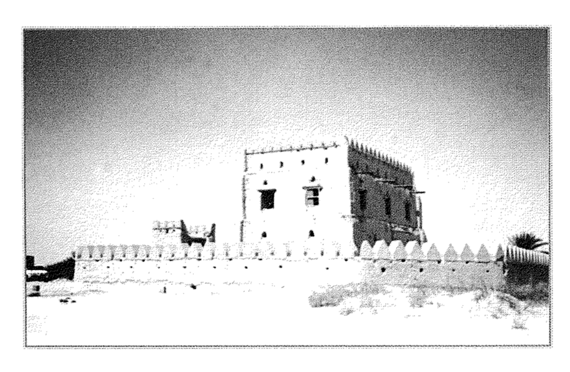
نظّم الشيخ سعيد قواته وأعاد توزيعها، وأغلق طرق القوافل بين رأس الخيمة والشارقة من جهة والبريمي من جهة أخرى بمجموعات من قبائل بني قتب والغفلة والعوامر والمزاريع لقطع الطريق على أية قوّة وهابية مدعومة بحلفائها القواسم من الوصول من تلك الناحية، كما عمل على حراسة الطريق المؤدي من الأحساء إلى كل من أبوظبي والبريمي بمجموعات من بدو المناصير والمزاريع الذين تركّزوا بشكل كبير في جبهات متعددة من أرض الظفرة.

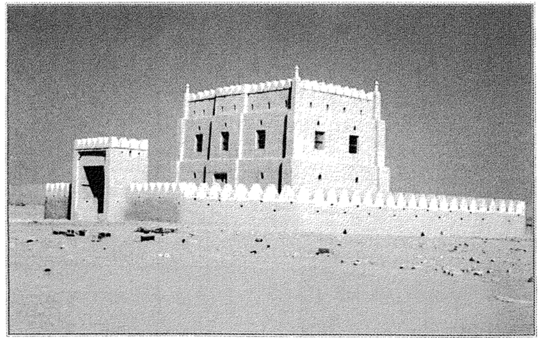
تتابعت هذه الأحداث جميعها في غياب سعيد بن مطلق المطيري – القائد السعودي – عن المنطقة. وتصدّت الرياض – بعد أن استعادت بعض قوّتها – لهذا التحدي لقلاعها في المنطقة؛ فأرسلت قوّة كبيرة تحت قيادة المطيري تحركت من الأحساء في ٢٥ أكتوبر ١٨٤٨م/ ذي القعدة ١٢٦٤هـ بعد تنسيق جهوده مع الشيخين سلطان ومكتوم. وما إن اجتازت تلك القوّة سواحل قطر ودخلت أرض بني ياس في الظفرة حتى تصدّى لها الشيخ سعيد عند ماء العانكة وشتتها في ١٩ نوفمبر ١٨٤٨م/ ذي الحجة ١٢٦٤هـ، وتمكنت فلول هذه القوّة مع قائدها المطيري من الوصول إلى دبي ثم الشارقة للاستعانة بقوّة شيخي هاتين الإمارتين المدعومتيْن بقوّة شيخ عجمان[٧٧] لمواجهة قوة الشيخ سعيد.

اجتمعت قوة شيخ القواسم وشيخ دبي، بالإضافة إلى قوة شيخ عجمان مع قوّة الوهابيين اللاجئين إلى الساحل في تحالف خطر ضد الشيخ سعيد الذي كان قد خسر القوة العسكرية لحليفه الصحاري، و لم يصله الدعم العسكري الموعود من مسقط. وما إن بدأت المناوشات بين الفرقاء في يناير ١٨٤٩م حتى أدرك سعيد خطر الموقف، فقد

العانكة موقع إستراتيجي في دروب نجد







تداعت عليه قوّة كافة إمارات الساحل بتحالف سلطان ومكتوم وسعيد بن مطلق ولكنه – مع ذلك – لم يعمد إلى الاستسلام؛ فقد كان مدعوماً برجال قبيلته، إضافة إلى الظواهر والنعيم والبوشامس.

لجأ الإمام فيصل بن تركي إلى الدبلوماسية لمساندة جهوده الحربية؛ فأرسل يشكو الشيخ سعيداً، «الذي يسكن في جزيرة يصعب الوصول إليها»[٧٨] إلى محمد بن عون – شريف مكة – الذي يمثّل السلطة العثمانية. وأدرك الشريف أن الحرب ضد سعيد بن طحنون دعماً للإمام فيصل الذي كان قد أعلن ولاءه للدولة العثمانية قد لا تكون مضمونة العواقب؛ فأرسل بدلاً من ذلك إلى سعيد وفداً للوساطة برئاسة الشريف علي. وكان الشيخ سعيد بن طحنون الذي أدرك قوّة التحالف التي اجتمعت ضدّه في المنطقة يدرك أيضاً أن الخروج على رأي الشريف، أحد أبرز ممثلي الدولة العثمانية التي تلقت الولاء من فيصل، أمر غير محمود العواقب. فهو – وإن كان الأقوى في المنطقة – لن يستطيع أن يعارض حكام الإمارات كافة الذين اجتمعوا عليه – على اختلاف أهدافهم – مع قوّة الوهابيين الذين اكتسبوا بتدخل الشريف قوة دعم معنوية من الدولة العثمانية في الوقت الذي كانت فيه مسقط ترمقه بعدم الرضى غير المعلن. وانتهى أمر الوساطة التي اضطر سعيد إلى قبولها بعقد صلح في فبراير ١٨٤٩م/ ربيع الأول ١٢٦٥هـ قضى بإعادة تسليم قلاع البريمي إلى سعيد بن مطلق، وبأن كل ما فات مات، وأن على كافة الأطراف أن تعود إلى وضعها السابق قبل قيام هذه المعارك.[٧٩] وهكذا سكنت المعارك إلى حين، ولكن مسبباتها ظلت كامنة إذ لم يحقق عقد هذا الصلح لأي من الفرقاء هدفه الذي يسعى إليه.

عادت القلاع إلى الوهابيين، وإلى قيادة المطيري مرّة أخرى، ولكن المطيري لم يتمكن من الظفر بتلك الهيبة القديمة التي كانت لقواته في المنطقة، بينما احتفظ سعيد بن طحنون بالهيبة والصيت القوي بين القبائل في الداخل، ولكنه خسر هدفه من

الاحتفاظ بتلك القلاع واعتبار نفسه سّيد المنطقة بلا منازع. أما مسقط وشيوخ عمان فقد كانوا الخاسر الأكبر إذ بات الوجود الوهابي يطرق أبوابهم من جديد، وأصبح لزاماً عليهم استئناف دفع الزكاة إلى الرياض مرّة أخرى. أما شيخ القواسم فلم يجن شيئاً من هذه التسوية سوى اضطراره إلى التعاون مرة أخرى مع حلفائه الوهابيين الذين كان يمثلهم المطيري الذي لم يكن ذلك الشيخ القاسمي يرضى بغروره وصلفه، كما لم يحقق شيخ دبي شيئاً؛ إذ ظلت تطلعات الشيخ سعيد بن طحنون في توحيد عشائر بني ياس قائمة، ينتظر تحقيقها برد البوفلاسة إلى حضن القبيلة.

قام الشيخ سعيد بعد عقده هذا الاتفاق بعدة أشهر بزيارة عمان لتنظيم جبهة جديدة لمعارضة الوهابيين، وزار شيناص، كما زار مسقط للتشاور مع ثويني وسيف بن قحطان بشأن التعامل مع الوجود الوهابي، وزار صحار أيضاً لتجديد علاقات الصداقة القديمة مع الشيخ سيف بن حمود وليصل ما انقطع بينهما في السابق، ثم عاد إلى عاصمته في أبوظبي.

أدرك السعوديون خطر ما يقوم به سعيد بن طحنون من اتصالات، كما أدركوا عجزهم عن التقدم إلى عمان مع سيطرته على طريق الإمدادات بين نجد والبريمي، فاضطروا إلى التعامل معه في الشؤون العمانية. طلب المطيري إلى الشيخ سعيد التوسط لدى عمان لأداء الزكاة للرياض طواعية دون قسر، وأغراه بشيء منها إذا تخلى عن عدائه للسعوديين. وتمكن الشيخ سعيد من القيام بمهمته لدرء الخطر السعودي عن عمان. فعلى الرغم من كل ما أشيع أن شيخ أبوظبي قد زهد في التحالف العماني التقليدي إلا أنه – منذ بداية توليه الحكم – أكد للمقيم البريطاني الذي اتهمه بالكيد لمسقط بتحالفه مع سلطان بن صقر، أنه يعتبر قوّته وقوّة مسقط «عظمة واحدة مستقيمة لا عوج فيها»، وأن كسرها يعني أن هذا الجسد الواحد سيفقد قوّته ويضحي هامداً غير قادر على الحراك،[٨٠] غير أن قوّة مسقط كانت قد

انكسرت حدتها في المنطقة بعد رحيل إمامها السيد سعيد بن أحمد إلى زنجبار، وقيام حكومة أخرى في صحار إلى جانب حكومة مسقط، وخروج العديد من القبائل عن الولاء للإمام العماني. وكان لهذا الضعف والتنافس الأسري في عمان أثره في وضع الشيخ سعيد بن طحنون الذي راح يبذل جهداً مضاعفاً للحفاظ على تحالفه مع السلطة الشرعية التي يمثّلها ثويني في مسقط. ولكن حين استجاب سعيد لما أراده ثويني من طرد الحامية الصحارية من البريمي لم يمدّه ثويني برجال ولا بمال، إنما وصلته من السيد سعيد في زنجبار، عن طريق ابنه ثويني، بغلة تحمل «جوالات» من الأرز والملابس.(٨١)

وقد كان السيد سعيد في سعيه للحفاظ على قوّة حليفه الشيخ سعيد عادة ما يلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية. وسعى السيد سعيد في هذه الفترة بالرسائل إلى أن يحدث صلحاً بين الشيخين سعيد ومكتوم، كما حثّ ابنه ثويني على متابعة هذا الأمر مع الشيخين المعنيين. غير أن مكتوماً كان قد وضع نفسه في هذه الفترة في المعسكر الوهابي بعد أن تأكد له أن السعوديين سيرسلون في هذه السنة (١٨٥٠م) حملة إلى البدع ستجد طريقها إلى البريمي.(٨٢) وكان شيخ دبي قد حرّض القبيسات على الهجرة إلى البدع وأبلغهم أنهم سيكونون هنالك تحت حماية الوهابيين الذين بات وصولهم إلى المنطقة – فيما كان يعتقد شيخ دبي – وشيكاً.(٨٣) وقد كان للقبيسات موجدة ضد المحاربة في أبوظبي، واعتقد الأوائل أن الشيخ سعيد بن طحنون قد انحاز إلى المحاربة ضدهم؛ فهاجروا بعد موسم الغوص بكل ما عليهم من ديون وقروض إلى البدع، إلى تلك المناطق التي سبق أن هاجروا إليها في عام ١٨٣٦م. وأعاد الشيخ سعيد القبيسات مرّة أخرى إلى أبوظبي بوسائل كانت في مجملها قاسية(٨٤) وذلك حتى لا تلجأ هذه العشيرة تارة أخرى إلى الهروب الذي استمرأت تكراره.

ظل الشيخ سعيد، وفياً للتحالف العماني الذي أخذ مردوده العملي في معسكر بني ياس يضعف كثيراً. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد أن أحد أبناء الشيخ مبارك آل

خليفة، من الأسرة الحاكمة في البحرين قد زار أبوظبي في هذه الفترة يطلب إلى الشيخ سعيد بن طحنون مساندة والده في الاضطرابات الواقعة في البحرين في أسرة آل خليفة، فاعتذر له سعيد بأن العلاقات مع البحرين - وإن اتصلت بشكل مباشر بالوهابيين - تبقى دائماً في حقيبة السلطان السيد سعيد، وأنه إذا وصلته من السلطان السيد سعيد دعوة للتدخل في البحرين، فسيلبّيها فوراً.[٨٥] ويمكن أيضاً أن نشير في هذا الصدد إلى أن سعيد بن طحنون كان قد أمدّ ثويني في مارس ١٨٥٠م/ ١٢٦٦هـ بأربعمائة رجل من بني ياس والمناصير بقيادة بعض أقاربه وأهل ثقته من أمثال محمد بن سيف وفيصل بن محمد شيخ البوشامس للدفاع عن قلعة شيناص ضد الوهابيين.[٨٦] وقام في هذه الفترة أيضاً ببعض العمليات العسكرية ضد قلاع الوهابيين في البريمي ليشغلهم عن التقدم العسكري في أراضي عمان، إلا أنه عملياته - وإن حققت هدفها في وقف الزحف السعودي تجاه عمان - لم تحقق هدفه في منطقة البريمي؛ فقد وجد عند وصوله إلى البريمي قوّات شيوخ القواسم وأم القيوين وعجمان قد تحالفت كلها في اتحاد القائد السعودي، وذلك نكاية في سعيد بن طحنون ووقوفاً ضد سلطته المتنامية. وكان هذا هو الرابط الوحيد بين قوات الحلفاء المعارضين له؛ فقد كانت أهدافهم في هذا الصدد متعارضة.

وشهدت السنتان ١٨٤٩، ١٨٥٠م عدة نزاعات بين أبوظبي ودبي في الساحل وصلت آثارها إلى البحر، وتم تسوية الأمر بوساطة هنيل، المقيم البريطاني. وحدث بعد ذلك أن استولى بعض بني ياس على قارب لأهل الحمرية، وقتل اثنان من بحارته؛ فتدخل المقيم البريطاني عسكرياً ضد أبوظبي، وهدد بضربها، واستجاب الشيخ سعيد بن طحنون فأطلق سراح القارب ودفع ستمائة ريال ديّة القتيلين.

تحسنت العلاقات في عام ١٨٥١م بين الشيخين سعيد بن طحنون وسلطان بن صقر، وتوجس مكتوم حاكم دبي خيفةً من هذا التقارب الذي قد يقضي على نفوذه الذي حققه بموقع دبي الوسطي بين قوتيهما، وأتاح له ما يحتفظ بموقعه المستقل.

تدخل السعوديون في الاضطرابات الأسرية الواقعة بين آل خليفة في البحرين. ووصل عبد الله بن فيصل من نجد إلى البدع في عام ١٨٥١م، فطلب أهل قطر منه الأمان لأنفسهم وأموالهم فنالوه. ووصل في الفترة ذاتها الشيخ سعيد بن طحنون للانضمام إلى فرع آل خليفة المناهض للسعوديين. ورأى الجانبان السعودي والظبياني تجنب القتال، وأعلنا أن الصلح خير، وجرى لذلك في ١٧ يوليو ١٨٥١م/ ١٨ رمضان ١٢٦٧هـ عقد اتفاق للصلح بين الجانبين. وأدت الوساطة التي قام بها الشيخ سعيد بن طحنون بين البحرين والرياض بعدئذ الصلح بين الجانبين أيضاً، وضمن هذا الصلح للسعوديين مرّة أخرى أداء البحرين للزكاة ودفع متأخراتها وفق مواعيد معلومة. وطلب الشيخ سعيد إلى الإمام فيصل ألا يرسل في هذه السنة جيشاً إلى عمان التي ضمن له عدم انقطاع أداء زكاتها، ووعده بإصلاح الأحوال فيها. وهكذا استعاد الشيخ سعيد بن طحنون، الوضع الذي كان لسلفه الشيخ خليفة في المنطقة الداخلية من الإمارات التي ذاع صيته فيها وسط قبائلها، خاصة بعد أن تبوأ عند كافة القوى الإقليمية دور الوسيط النافذ الكلمة في مجاله الإقليمي في شرق شبه الجزيرة العربية. وكان ذلك باعتماد فيصل – إمام الرياض – الذي اعترف بسعيد حاكماً وحيداً في البريمي وعمان الداخلية، ووعده بالدعم العسكري للحفاظ على موقعه.(٨٧) وقد اعترف سيّد مسقط للشيخ سعيد بن طحنون بالوضع ذاته، وأمده بالمال والأسلحة والذخيرة ليكون حاجزاً منيعاً بينه وبين الوهابيين.(٨٨)

عمل الشيخ سعيد مجدداً على ضمّ دبي، وذلك بعد وفاة شيخها مكتوم بن بطي في ربيع عام ١٨٥٢م. آل الحكم في دبي إلى الشيخ سعيد بن بطي، ونازعه فيه ابنا الشيخ المتوفى؛ فاتجه إلى بني ياس يطلب دعمهم ومعاضدتهم، واتجه ابنا مكتوم إلى الشيخ سلطان بن صقر.(٨٩) وعبّر الشيخ سعيد بن طحنون للمقيم البريطاني الذي كان قد تولى المقيمية لتوّه بأنه سينهي هذا النزاع باسترداد دبي التي كانت تحت سلطان آبائه.

واستمر النزاع على وراثة مكتوم قائمة في دبي حتى حسم أخيراً لصالح سعيد بن بطي لاجتماع كلمته مع سعيد بن طحنون ومساندة أم القيوين له بعد الحلف الذي كان قد عقد بين هذه المجموعة في نوفمبر ١٨٥٢م. ولم يجد سلطان بن صقر وهو يقف بمفرده إلا أن ينفض يده عن هذه المسألة برمّتها، بينما جرّ اتحاد كلمة السعيدين سعيد بن طحنون وسعيد بن بطي الأخير إلى المعسكر العماني، فتحالف مع السيد ثويني ضد معارضيه المحليِّين والإقليميِّين؛ استجابة لرغبة الشيخ سعيد بن طحنون.

وتحسنت العلاقات كثيراً في عام ١٨٥٢م بين الرياض وبين أكبر تجمعين في منطقة ساحل الإمارات: بني ياس التي سوّت مشكلاتها مع الرياض، والقواسم الحلفاء التقليديين للسعوديين؛ ففي أبريل من هذه السنة أوفد الشيخ سعيد بن طحنون أحد إخواته، وأوفد سلطان بن صقر اثنين من أبنائه لزيارة الرياض. وقد لقي هذا الجمع ترحيباً من الأمير فيصل الذي رفدهم وأحسن وفادتهم.(٩٠) ولا نعرف على وجه التحقيق ما تم في تلك المفاوضات، ولكننا نستشف من الأحداث اللاحقة أنها اتصلت بالوجود السعودي في عمان وظهير ساحل الإمارات. فقد وصل بعد هذه الزيارة مباشرة عبد الله، الابن الأكبر لفيصل، إلى الأحساء بهدف تحصيل زكاة البحرين التي تم الاتفاق عليها بواسطة الشيخ سعيد بن طحنون في السنة المنصرمة. وتحرك عبد الله بن فيصل بعدئذ في يناير ١٨٥٣ تجاه البريمي برفقة أحمد السديري، قائد فيصل في الأحساء، ومعه جيش من الهجانة يتراوح عدده بين الثلاثة والخمسة آلاف رجل معضوداً بالفرسان الذين بلغ عددهم بين الثلاثمائة والخمسمائة فارس.

ولم يجد هذا الجيش أية مقاومة وهو يعبر ديار بني ياس الذين يبدو أن شيخهم سعيد بن طحنون كان على تفاهم كامل مع قيادته. ووصلت هذه القوّة إلى البريمي التي أعلنت حينئذ خضوعها فوراً، وأصدر عبد الله بن فيصل بياناً جاء فيه أنه لم يظهر في

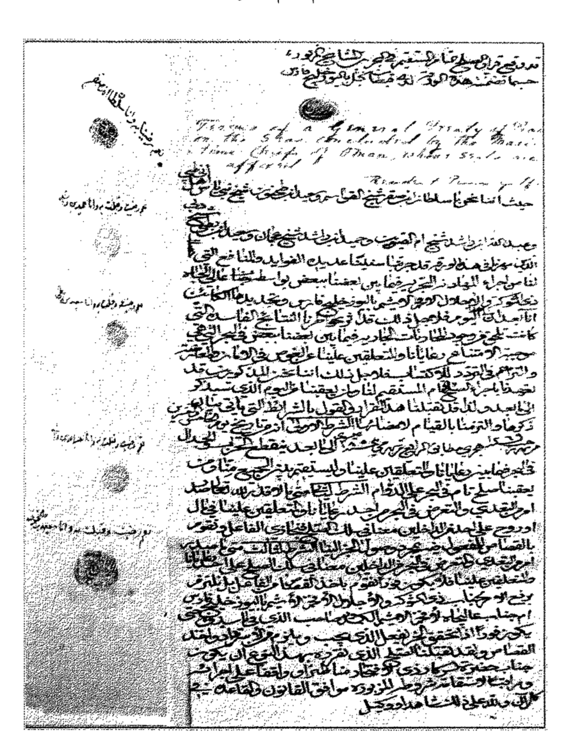
هذه المنطقة إلا ليصلح بين شيوخها ويحقق المصالحة واجتماع الكلمة بين قبائلها[٩١]، وأرسل من البريمي إلى شيوخ الساحل جميعهم يطلب إليهم الشخوص إليه، فاجتمعوا عنده في مقرّه في البريمي.

ذهل المقيم هنيل - عندما وصل إلى الساحل العماني في ١٢ مارس ١٨٥٣م/ ١ جمادى الثاني ١٢٦٩هـ ليفاوض شيوخه في عقد اتفاقية الهدنة الدائمة - حين وجد الشيوخ كلهم مجتمعي الكلمة مع ابن الإمام السعودي؛ فأرسل إلى أولئك الشيوخ يستقدمهم، وانسحب إلى القاعدة البريطانية في باسيدور في انتظار ردودهم. ولم يهتم بالردّ على رسائل المقيم البريطاني إلا سلطان بن صقر، شيخ القواسم،[٩٢] وحميد بن راشد شيخ عجمان. واعتذر الرجلان في رسالتيهما عن لقاء المقيم في الوقت الراهن بينما أهمل الشيوخ الآخرون جميعهم بمن فيهم الشيخ سعيد بن طحنون - شيخ أبوظبي - الردّ على خطابات المقيم. ويكتب المقيم البريطاني إلى رئاسته في بومباي ينعى على الشيوخ كافتهم اجتماع كلمتهم مع القائد السعودي، عبد الله بن فيصل، ويرى في هذا الأمر تعقيداً خطراً للوضع في عمان. وأنه ذهب بهيبته وحطّ من مكانته.

خاطب عبد الله بن فيصل المقيم البريطاني في هذه المناسبة برسالة مؤرخة في ٢٤ مارس ١٨٥٣م/ ١٢ جمادى الثاني ١٢٦٩هـ يبلغه أن الشيوخ الذين وفدوا إلى مقرّه في البريمي لن يستجيبوا لاستدعائه لهم، وأنهم سيظلون في الوقت الراهن في ضيافته؛ «لأنهم منا وتابعون لنا».[٩٣] وأنه يعمل على إصلاح العلاقات بينهم « إذ لا يخفى عليكم ما كان يقع بينهم في السابق، وما اقترفته أيديهم من قتل، وما أحدثته من اضطرابات. ونحن إن شاء الله عازمون على درء كافة هذه المشكلات بما نقوم به من تسوية الأمور بينهم».

غادر الوكيل البريطاني في الشارقة للقاء المقيم في المعسكر البريطاني في باسيدور والتقاه هناك في ٢٩ مارس، وأبلغه أن سلطان بن صقر قد حزم أمره تماماً مع السعوديين لمهاجمة عمان، وأن هذا الأمر سيحقق له هدفين هما: إعادة قيس بن عزّان إلى حكم صحار، وتأكيد السلطة القاسمية على عجمان وأم القيوين، وأفاد الوكيل أيضاً بأن سعيد بن طحنون، شيخ بني ياس قد رفض الانحياز للسعوديين في مخططاتهم تجاه عمان، ولذا غادر معسكر عبد الله بن فيصل ورجع بقواته إلى قاعدته في أبوظبي،(٩٤) وكان هذا مدعاة لأن يتنفس ثويني الصعداء؛ فقوة الإمام فيصل التي يقودها ابنه عبد الله لن تتمكن – مهما بلغت – من تحقيق أهدافها في عمان إلا بتأييد من سعيد بن طحنون الذي تسيطر قبائله على خط التموين السعودي مع الأحساء. ولما كان عبد الله بن فيصل يدرك هذا الأمر تماماً فقد اضطر إلى التراجع عن خططه ليطلب إلى سعيد بن طحنون أن يعمل على تنظيم العلاقة بينه وبين عمان. وتدخل سعيد بالوساطة التي قام بها في أبريل ١٨٥٣م في رحلة بدأها بصحار رافقه فيها أحمد السديري القائد السعودي، ونظّم هذه العلاقة بتحالف بين عبد الله بن فيصل وثويني بن سعيد في ٩ مايو ١٨٥٣م/ ٢٩ رجب ١٢٦٩هـ رغم أن الشروط التي اشترطها على عمان – خاصة ما يتصل بالزكاة – كانت قاسية. وغادر عبد الله بن فيصل المنطقة في هذا الشهر إلى نجد تاركاً في البريمي حامية صغيرة بقيادة أحمد السديري لجمع زكاة المنطقة التي بات فيها اسم الشيخ سعيد بن طحنون المرجع لكافة القبائل والجماعات. و لم يتدخل السديري في سياسة المنطقة بعدئذ إلا في مناسبة عابرة بمساندة سلطان بن صقر ضد تمرد الحمرية، ذلك النزاع الذي سوّي لمصلحة سلطان. وحسنت العلاقات في هذه المرحلة بين دبي وأبوظبي بأواصر الصداقة بين شيخي الإمارتين. وقد لاحظ المقيم البريطاني أن الشيخ سعيد بن طحنون لم يشر له – حينما التقاه لتوقيع اتفاق السلم الدائم في ٤ مايو ١٨٥٣م – إلى خططه القديمة لضمّ دبي، والتي كان دائم التمسك بها.

اتفاق السلم الدائم ٤ مايو ١٨٥٣



كان الشيخ سعيد بن طحنون شاباً يتدفق حيوية ونشاطاً، شجاعاً يقود حملاته بنفسه، ذكياً يدقّق في تحديد مكان معاركه وزمانها، ويدرك متى يهجم ومتى يحجم، كما كان دبلوماسياً قوي الحجة زاد في مكانة أبوظبي الإقليمية. قاد سعيد المفاوضات بين القوى الرئيسة المتصارعة في المنطقة، واستطاع أن ينتصر بالمفاوضات للسلام في الإقليم، ونظم العلاقات بين البحرين والرياض، وبين الأخيرة وعمان. ويبدو أن اعتداد سعيد بنفسه وإدراكه مقدراته الفذّة، بالإضافة إلى فروسيته وشجاعته جعلته يحكم وفق نظريات يؤمن بها، تضع الحق فوق الرحمة، مخالفاً بذلك الأعراف القبلية التي ترى في الرحمة عدلاً. اختلف سعيد بن طحنون مع كبار بني ياس حول عرف «الدخالة» إذ همّ بتسليم أشخاص من الهوامل والمحاربة لجأوا إليه هرباً من المقيم البريطاني الذي اتهمهم بالاعتداء على مركب أحد رعايا البحرين[٩٥]، كما قتل قصاصاً أحد الجناة كان قد عرض عليه «الأمان». وتعارض هذان الحدثان وغيرهما من ممارساته الإدارية مع أعراف القبيلة التي ثارت عليه. وغادر سعيد عاصمته في أبوظبي في ١٨ يونيو ١٨٥٥م/ ٢ شوال ١٢٧١هـ إلى جزيرة قيس انتظاراً – فيما يبدو – لهدوء العاصفة، تاركاً بلاده تحت رعاية أخيه حمدان. واجتمع أهل أبوظبي على حمدان واضطروه إلى أن يلحق بأخيه سعيد في جزيرة قيس ولكنهم لم يحرموه ماله وما لأخيه من متاع ومال. وخاطب أعيان بني ياس بعد ذلك الشيخ زايد بن خليفة على اعتبار أنه أكثر المؤهّلين للحكم من شيوخ آل نهيان، وطلبوا إليه أن يتولى الإمارة.

يذكر الشيخ زايد بن خليفة في أول خطاباته للمقيم البريطاني أنه كان زاهداً في تولي الحكم في أبوظبي وأنه لم يسع إليه ولكنه اضطر إلى أن يلبي نداء أهله في أبوظبي الذين اختاروه شيخاً لبني ياس. وأفاد زايد المقيم أنه اعتذر عن هذه المهمة في البداية؛ فاحتجّ عليه كبار القوم في القبيلة بأنه إذا لم يقبل هذا التكليف فسينزل الدمار بقبيلة بني ياس التي أجمعت عشائرها على اختياره دون غيره من شيوخ آل نهيان شيخاً لها؛ فاضطر

إلى القدوم إلى أبوظبي وتولى الأمر فيها «ليعيد للقبيلة اتحاد لحمتها حتى لا تغدو شيعاً مفرقة شذر مذر»[٩٦].

ولم يكن سعيد بن طحنون ذلك الشاب المقاتل والمفاوض صعب المراس ليرضى بالتسليم الطوعي لسلطته خاصة بعد أن أبلغه المقيم البريطاني أن حكومته لن تعترض على أية حملة يقوم بها ضد زايد بن خليفة بشرط أن يقصر عملياته في البرّ دون البحر.[٩٧] فجمع قوّة من مناصريه سيطر بها في يوليو ١٨٥٦ على أجزاء من مدينة أبوظبي، وهرع الشيخ زايد بن خليفة إلى أبوظبي عائداً من رحلة له في الظفرة في جمع من مناصريه لمعارضة ما أحدثه سعيد، ولقي التأييِّد والدعم من الشيخ سعيد بن بطي وبوفلاسة دبي، ومن أحمد السديري القائد السعودي في منطقة البريمي أيضاً؛ فتمكن بذلك من استعادة حكمه الوليد في أبوظبي، وشرع منذ ذلك الحين في تأكيد قيام كيان إمارة أبوظبي على أساس من الأعراف القبلية وحكمة الشيوخ التي تسعى لتوطيد روح التضامن وروابط الوحدة بين القبائل والحواضر والجماعات فيها.

هوامش وذيول

١- Sirhan ibn Said ibn Sirhan, Kashf al-Ghumma. Translated and annotated by Ross. Published as a monagram entited: Annals of Oman, Calcutta, 1874, p. 82.

٢- Hennell, Historical sketch of the Beniyas Tribe of Arabs from year 1761 to the year 1831 (Henceforth, H.S.B-1761-1831) in Selection from the Records of Bombay XXIV (Hencefarth, SRB, XXIV) p. 461.

* جاء ذلك على النحو التالي: «ولم يزل ناصر بن قطن يغزو عمان بمن معه من الاحساء ويأخذ من بواديها المواشي ويسلب وينهب في كل سنة ويرجع الاحساء: فكتب الإمام للوالي محمد بن سيف الحوقاني أن يتجسس عن قدوم ناصر فإذا علم أنه التقاه بالجيش دون عمان. فجمع الوالي عنده العساكر من البدو والحضر فلم علم بقدوم ناصر تلقاه فلم علم ناصر بجيش الإمام قصد الظفرة ودخل حصنها وتعصب له بنو ياس. ووجه ناصر رسله للوالي يطلب الصلح. وكان قد قل على الوالي الزاد وبعدت عليهم فصالحه على رد ما نهبوه وغرم ما اتلفوه مما اكتبوه ورجع الوالي بمن معه ثم أن ناصر بن قطن أتى إلى عمان...»

راجع:

(المتحف البريطاني BM ‏OR 6568) ، سعيد بن سرحان الازكوي العماني، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة.. ورقة ٥٠٥ .

٣- Sirhan ibn Said ibn Sirhan, op.cit. p. 53.

٤- Tayler, Brief Notes on the Perian Gulf prepared in 18/8, in SRB, XXIV, p. 16-77 .

٥- Lorimer, J. G., Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, Calcutta, 1915, Historical, vol. 1, part 1, p. 762.

٦- ibid., p. 763.

٧- ibid., p. 764.

٨- (IOR) R/15/2/544, Residency Agent (Henceforth RA) Sharjah to Political agent (Henceforth PA) Bahrain, 27 August 1934 = 16 Jamad AlAwal 1353.

ورد أول ذكر لحلف بني ياس في المكتبة البريطانية فيما جاء عند هنيل في مذكرته بعنوان: قبيلة بني ياس العربية في مختارات بومباي رقم ٢٤. ويذكر هنيل عدداً من عشائر بني ياس منها المرر والقمزان، ويقول إنهما ينحدران من بني شكر والسموسات (؟) Sumeesat (لعله يقصد القبيسات) من العبادلة، والرميثات من بني حامد، والمحاربة من بني النعيم، والبومهير من الشبيب، والكلازي (؟) Kalazy، والبوفلاسة وهم من بني ياس (لعله يقصد البوفلاح) وبنوقتب وهم من كعب. ويضيف في هذا الصدد أنه قد جرى العرف أن يكون حاكم هذه الجماعة من أسرة بني ياس (لعله يقصد البوفلاح) كما يُلحظ أنه ينفرد بإضافة بنوقتب إلى عشائر بني ياس. فهل كانت هذه القبيلة في بداية إنشاء الحلف جزءاً منه؟

راجع:

Hennel, H.S.B. 1761 - 1831, in SRB XXIV, p. 462.

٩- (IOR) R/15/2/544, RA Sharjah to PA Bahrain, 27 Aug. 1934.

١٠- Loc., cit.

١١- (IOR) same series & vol., RA Sharjah to PA Bahrain, 19 Sept. 1934.

١٢- راجع:

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، بريطانيا ومشيخات الساحل العماني، مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة، ١٩٧٨م، ص ٨٠ - ٩٢.

١٣- Hennel, H.S.B. 1761 – 1831, in SRB XXIV, p. 461.

١٤- لعل السموسات المذكورة عند هنيل هي القبيسات: راجع

ibid., p. 462.

١٥- ibid., p. 462.

١٦- ibid., p. 463.

١٧- Loc., cit.

١٨- Loc., cit.

* تغفل بعض المراجع – دونما سبب منطقي – فترة حكم هزّاع بن محمد بن زايد (١٧٩٣– ١٧٩٥م) وتؤرخ لبداية عهد الشيخ شخبوط بالعام ١٧٩٣م.

راجع:

(IOR) R/15/2/544, Personalities, Abu Dhabi

١٩– لمعلومات أوفى راجع:

Hurewitz, J.C., the Middle East and North Africa in World Politics, 2nd, ed. Yale, 1975, p.p. 84-86.

٢٠– Kay, J. W., The life and correspondence of Major General Sir John Maclcolm, vol. 1, London, p.p. 130 – 135.

٢١– Historical Sketch of the Whabee Tribes of Arabs, in SRB, XXIV, p. 633.

* ورد في هذا الصدد:

قال الشيخ حمزة حاكم قشم، في تقرير له للسلطات البريطانية في الخليج – إن شخبوط – حاكم أبوظبي – لا شأن له بما يقوم به القواسم أو أية قبيلة أخرى تمارس «القرصنة» في الخليج، وأنه يعمل للحفاظ على أمنه بانتهاج سياسة تصالحية مع الجميع ولكن دون أن يتدخل سلباً وإيجاباً فيما يقوم به أي طرف من ممارسات. وأضاف حمزة أن شخبوط أدرك التفوق الوهابي وتعامل معه حينما كان للوهابيين قوّة معتبرة، ولكنه لم يعمد إلى تبني "معتقداتهم". أما مسقط، فكما يقول التقرير، فإن علاقة شخبوط مع إمامها طيبة، وأنه عمل على مساندته. وانتهى التقرير إلى تقدير نفوس بني ياس بحوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف يعملون بصفة أساسية في الغوص. راجع:

(IOR) I/139, Pol. Dept. 52/49, RAS Al Khyma, 11 Jan. 1820.

٢٢– Buckingham, J.S., Travels in Assyria, Media, Persia, London 1828, p. 442.

٢٣– Board Collections, vol. 192, Seton to Duncan, 25th, July 1805.

٢٤– (Henceforth H.S.J.) Historical Sketch of the Jasmee Tribes of Arabs, SRB, XXIV, p. 363

٢٥– (IOR) R/15/1/14, Bruce Resident to sec. Govt. of Bombay (Henceforth sec. GOB) 15 July 1813.

٢٦- (IOR) same series & vol., Bruce to Chief sec. GOB., 26 May 1814.

* وقد أرسل السيد سعيد خطاباً إلى المقيم بروس في بوشهر ذكر فيه أن شيخ بني ياس قد غدا في هذا صادق العزم في المساندة، وأفاد خطاب الإمام أنه سيتحرك في يوم ٩ جمادى الأولى / ٢٨ أبريل ١٨١٤ ليعيد سلطان بن صقر إلى مشيخة القواسم. راجع:

(IOR) same series & vol., Sayd said to Bruce, Bushire, 19 May 1814.

٢٧- "Rise and Progress of the Govt. of Muscut" in SRB XXXIV, p. 184.

٢٨- (IOR) L/P&S/6/172, Extract of Political consultation, 4 July 1814.

*يقول صاحب كشف الغمة في أكثر من موضوع في مخطوطته (ورقة ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٨، ٥١٩، ٥٣٢) أن بني ياس كانوا منتشرين في ظهير أبوظبي وفي أكثر من موقع في عمان ذلك أنهم كانوا جنداً محاربين كان لهم وقعهم في مجريات الأحداث التي أودت بدولة اليعاربة في عمان. ورد في الورقة ٥٣٢ ما نصه: «وكان محمد بن ناصر (الإمام اليعربي) قد خلصت له جميع صحار ورعاياها من أهل البلد من جميع الطوايف فلم يأخذ على أحد منهم شيء وكان عنده من البدو من بني ياس وبني نعيم ومن اشتمل عليهم». كما يتحدث (ورقة ٥١٩) عن محمد بن ناصر في عام ١١٣٥هـ وهي السنة التي توفي فيها الإمام يعرب بن بلعرب والتي أخذ فيها محمد بن ناصر بلعرب بن ناصر مقيداً حتى نزل مقنيات ... وأرسل إلى قبائل الظاهرة وعمان يستمدهم وبني ياس فجاءت إليه القوم...»

راجع: OR 6568 (BM) ، سرحان بن سعيد الازكوي، سبق ذكره.. ورقة ٥٣٢، ٥١٩.

** لشخبوط سبعة أبناء أشقاء هم على التوالي: طحنون، محمد، هلال، يافور، خليفة، سلطان، وسعيد. وتشير المتواترات إلى أن العلاقة بين بني ياس والقواسم كانت علاقة طيّبة لا يشوبها زغل قبل أن يتولى طحنون الحكم، وأن جلوس الأخير على سدّة المشيخة شكّل بداية للتناقض الحاد بين بني ياس والقواسم.

راجع:

(IOR) R/15/1/32, Stannus E.G. Resident (PR) to Newman, chief sec. GOB., 14 Mar. 1824.

*** عندما أخرج محمد وأتباعه من أبوظبي اضّطروا إلى اللجوء إلى الشارقة عند شيخها سلطان بن صقر. وهدد طحنون باجتياح المكان ما لم يتمّ تسليم اللاجئين إليه وهو ما رفضه سلطان، واستنفر رجاله. وصار الأمر إلى انفراج حين ترك محمد الشارقة مختاراً ولجأ إلى الحويلة حيث نزل هناك تحت حماية عبدالله بن أحمد، شيخ البحرين. راجع:

Hennell, H.S.B., 1761 - 1831 in SRB XXIV, p. 465.

٢٩- بعد أن دمّرت القوة البريطانية رأس الخيمة أقام كير، قائد الحملة، في المكان معسكراً وفد إليه عدد من الشيوخ الذين استجابوا للعفو العام الذي أعلنته قيادة القوة الغازية. مثل أمام كير كل من قضيب بن أحمد، شيخ جزيرة الحمرا، وحسن بن رحمه وسلطان بن صقر شيخي القواسم، ومحمد بن هزّاع عن دبي، ووفد إلى معسكر كير أيضاً شخبوط بن ذياب نيابة عن ابنه الحاكم في أبوظبي، كما وفد إليه أيضاً شيخا عجمان وأم القيوين. وأطلق كير سراح حسن بن علي، شيخ الرمس، الذي استفاد من العفوّ العام أيضاً، ووقّع مع كل واحد من هؤلاء الشيوخ تعهداً انفرادياً، ولا يتطابق أي تعهد من أحدهم مع تعهد الآخر منهم. أخذت صياغة كل تعهد قوّة الشيخ المعني، وموقعه في أهله، ومكانته عند سيّد مسقط.

راجع:

Atchison, C.U., A Collection of Treaties Engagements and Sanads Relating to India and Neighboring Countries, Part II, pp. 245-49.

٣٠- لمواد هذه الاتفاقية راجع:

(IOR) L/P&S 7/155, Pol., Dept., Treaties existing between the British Govt. and the Turcial Chiefs. cf. (IOR) L/P&S 10/606, Treaties –, p. 131-33.

٣١- H.S.J. in SRB XXIV, p. 335.

٣٢- (IOR) R/15/1/30, Report of L. Macleod, 27 Feb. 1823.

٣٣- Loc., cit.

٣٤- (IOR) same series, vol. 34, report, 5 Nov. 1834.

٣٥- (IOR) same series, vol. 45, RA Wilson to W. Newman, Bombay, 6 July 1827.

٣٦- Loc. cit.

* كتب إمام مسقط إلى المقيم هنيل في ١٣ نوفمبر ١٨٢٨م يبلغه أنه سيقوم بحملة ضد البحرين بدعم من الشيخ طحنون، ويطلب إليه عدم الممانعة.

(IOR) same series, vol. 48, H.H. Imam of Muscat to Lt. Hennell, 13 Nov. 1828.

وقد احتجّ عبدالله بن أحمد، شيخ البحرين، لدى المقيم بالمادة الرابعة من اتفاقية الهدنة التي تشل أيدي الشيوخ المتصالحين عن حرب بعضهم بعضاً. ويشير شيخ البحرين إلى أن طحنون ووالده من الموقّعين على هذه الاتفاقية، ومن المشتركين في الحملة المزمعة ضد البحرين.

(IOR) same series & vol., Sk. Abdulla bin Ahman to Wilson, RA, 7 Dec. 1828.

٣٧- (IOR) Bombay Pol. Proceedings, Range 386 vol. 40, cons. 7 of 14 Feb. 1827, Stannus to Newman.

٣٨- (IOR) R/15/1/48, Mullah Hossain, Agent Sharjah to Maj. Wilson, 24 Dec. 1828.

٣٩- جمع سلطان بن صقر في أوائل يونيو قوّة كبيرة في الشارقة لينزل بها على أبوظبي وأرسل إلى محمد بن قضيب، شيخ لنجه، يطلب مساندته في هذا الهجوم؛ فوفد إليه ذلك الشيخ في ثلاثمائة من رجاله، لكنه برهن على أنه كان داعية صلح. أرسل محمد إلى طحنون فجاء إليه مع والده ونزل عند خور غناظة بينما كان سلطان معسّكراً عند خور دبي. واجتمع الفرقاء في معسكر الشيخ محمد في ديرة حيث جرى توقيع اتفاق الصلح الذي فرض تسويات معيّنة. راجع:

(IOR) same series & vol., Mullah Hossainagent at Sharjah to Major Wason, 17 June, 1829.

٤٠- Hennell, H.S.B. in SRB XXIV, p. 468.

٤١- يقول المقيم: إن علاقات الشيخ سلطان بن صقر مع مسقط غدت وثيقة بينما تدهورت علاقات الشيخ طحنون معها، ويعترف بأنه لا يعرف السبب الحقيقي في تردي العلاقة بين مسقط

وأبوظبي، ولكنه يظن أن الإمام يرى في فشل حملة البحرين الذي تسبب فيه طحنون أكثر من «مجرد حادث». أما طحنون فقد قام بدوره بتوثيق علاقاته مع البحرين درءاً لما قد يسببه تحالف سلطان مع سلطان مسقط. وبقي شيوخ البحرين على الاحتفاظ «بصداقة شيخ يحكم قبيلة قوية مثل بني ياس».

راجع:

(IOR) same series, vol. 56, Hennell to GOB., 27 April 1831.

٤٢- H.S.J. in SRB XXIV, p. 338.

٤٣- Kemball, H.S.B. in ibid. p. 470.

٤٤- (IOR) R/15/1/61, Sk. Sultan b. Suggar to PR., 17 Feb. 1833. cf. same series & vol., Mullah Hossain to PR. 14 Mar. 1833.

٤٥- جيمس ريموند ولستد، تاريخ عمان، رحلة في شبه الجزيرة العربية، ترجمة عبد العزيز عبدالغني إبراهيم، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٢، ص ١٦٨- ١٦٩ .

٤٦- (IOR) R/15/1/61, Mullah Hossain to PR. 20 April 1833.

٤٧- (IOR) same series & vol., Mullah Houssain to PR. 13 May 1833.

٤٨- (IOR) same series & vol., Agent Bahrain to PR. 26 May 1833.

٤٩- (IOR) same series & vol., Agent Muscut to PR. 8 Aug. 1833.

٥٠- (IOR) same series & vol., Agent Shrjah to PR. 5 Sept. 1833.

٥١- (IOR) same series & vol., Agent Shrjah to PR. 15 Sept. 1833.

٥٢- (IOR) same series & vol., Agent Shrjah to PR. 23 Sept. 1833.

٥٣- (IOR) same series & vol., Mullah Houssain to PR. 29 Aug. 1833.

٥٤- (IOR) same series & vol., Mullah Houssain to PR. 14 Sept. 1833.

٥٥- (IOR) Board collns, Vol. 596, colln 64725, Sawyer to Commodor Elwan, Basidore 18 April 1835.

٥٦- (IOR) R/15/1/68, Kalifa bin Shakhboot to PR, 13 May 1835.

٥٧- Kembal, R.T.A. in SRB XXIV, p. 477.

٥٨- ibid., p. 480.

٥٩- راجع على سبيل المثال:

(IOR) R/15/1/68, Sk. Shakhboot of Aboothabee to PR, 14 Feb. 1835.

٦٠- (IOR) same series, vol. 94, PR to GOB, 18 Jan 1841.

٦١- حدث أن كان الشيخ سلطان بن صقر في باسيدو ومعه الشيخ شخبوط، والد حاكم أبوظبي وممثله لدى الجهات الخارجية والإقليمية. وانتهز المقيم هنيل هذه الفرصة فأرسل سفينة حربية إلى دبي لدعوة عبيد بن سعيد الذي استجاب للدعوة. كما وصل إلى باسيدو أيضاً راشد بن حميد، شيخ عجمان. ونشأت قناعة لدى الشيوخ بأن الهدنة المقترحة ستخدم المصلحة العامة. وصاغ المقيم البريطاني شروط الهدنة وأرسل نسخة منها لكل شيخ على حدّة فقبلوها. وتمّ بعد ذلك اجتماع عام للشيوخ في المقيمية البريطانية ووقّعت الوثيقة في ٢١ أغسطس ١٨٣٥م، وتفرّقوا بعدها إلى إماراتهم لوضع الهدنة موضع التنفيذ. راجع:

(IOR) Same series vol. 67, Hennell, Assist R to Chief sec. GOI, 26 May 1836. cf. Saldanha J.A. (ed.) selection from the state papers regarding the east India connection with the Persian Gulf with a summary of Events 1600-1800, company's Calcutta, pp. 192-93.

٦٢- (IOR) same series & vol., Mullah Hossian, agent to PR. 14 Jan, 1839.

٦٣- Historical sketch of the whabee in SRB XXIV, p. 447.

* لعل من الطريف أن نلاحظ أن السلطات الهندوبريطانية عملت في هذه الفترة لتوحيد قبائل البريمي ضد المدّ المصري التركي، وتدخلت في الظهير مباشرة. وصل المبعوث البريطاني همرتون إلى الشارقة يوم الأربعاء ٢٧ يونيو ١٨٣٩م، واتصل بشيخ عجمان ليساعده في الوصول إلى البريمي فتملّص الشيخ منه. أما عبد الله بن هويدن، شيخ بني قتب، فاعتذر له صراحة بأنه لن يمدّه لا بالرجال ولا بالإبل، ولن يساعده بحال؛ لأن هذا سيدخله في دائرة غضب شيخ أبوظبي. وعمل شيخ الشارقة أيضاً على عرقلة مهمّة المبعوث البريطاني. وانبرى المطوعون في الشارقة ورأس الخيمة يحرّضون المواطنين على عدم التعامل معه. وبقي الرجل في رأس الخيمة حتى تطوع محمد بن علي الغفلي بتوصيل خطاب المقيم إلى قبائل البريمي لقاء ستة ريالات. ولقي الخطاب استجابة

طيّبة من حمود بن سرور ومحمد بن عبد الله اللذين قدما إلى عجمان. واعتذر محمد بن حمود عن عدم المجيء لاعتلال صحته، ولكنه أرسل ابنيه أحمد وفيصلاً بصلاحيات كاملة، وخرج همرتون إلى عجمان، ولقي استقبالاً حافلاً في الحيرة من حميد بن سرور الشامسي ومحمد بن عبدالله الشامسي ومحمد بن سيف البوخرياني. وفي عجمان التقى هذا المبعوث بالآخرين من شيوخ البريمي (الخميس ١٩ ديسمبر) وممثليهم من أمثال فيصل بن محمد وأحمد بن راشد بن حمدان، وعبد الله عزيز بن راشد، وأحمد بن راشد البوخرياني. والتقى كل هؤلاء الشيوخ المقيم البريطاني الذي حثّهم على اتحاد الكلمة في مواجهة خورشيد، وناقش معهم خلافاتهم، وأمدّهم ببعض المال والمؤون والذخيرة. وسافر همرتون بعدئذ إلى البريمي في صحبتهم. غير أن الاهتمام البريطاني بهذه المنطقة انتهى تماماً بانسحاب رجال خورشيد الذي كان ممثلاً للقوة المصرية التركية في نجد. راجع:

(IOR) Same series, vol. 89, Diaries of Captain Hamerton proceeding at Sharjah 1839-40.

** كان الشيخ شخبوط في هذه الفترة يقيم في منطقة البريمي التي وصلها كل من سلطان بن صقر، ومكتوم بن بطي، وراشد بن حميد، وأسرع خليفة بن شخبوط إلى منطقة الختم على أطراف البريمي بقوّة من بني ياس والمناصير إلا أن الأخيرين اضطروا أن يعودوا إلى بلادهم مسرعين حين سمعوا أن آل مرّة قد تعدّت عليها. وذهب خليفة إلى أبوظبي ليعود بعدد أكبر من الرجال، ولكن بعض أعيان بني ياس من أمثال سلطان بن سلامة، وعيسى بن طريف وآخرين اعترضوا على الحملة واحتجّوا بأن موسم الغوص لمّا يزل في منتصفه بعد. وقد اعتاد الشيخ خليفة الإصغاء لأهل مجالسه والعمل بما يشيرون به فقفل راجعاً إلى الختم في ٣ جمادى الآخرة. و لم يكن معه أكثر من مائتي فرد، وظل من هناك يراقب الموقف. راجع:

(IOR) R/15/1/78, Mullah Houssain, agent to PR., 25 Aug., 1838.

٦٤- (IOR) Same series vol. 80, Annex to Hennell PR, 2600, 1839.

٦٥- (IOR) Same series vol. 85, Agent at Muscut (received. 18 Nov. 1839)

٦٦- (IOR) Same series, vol. 95, Brucks to Hennell, 23 Aug., 1841.
H.S.B. in SRB XXIV, p. 486.

(IOR) R/15/1/105, Hennell to Willoughby Bombay, 19 Oct. 1845. ٦٧-

* عندما عاد الشيخ خليفة في أكتوبر ١٨٤٤م إلى أبوظبي من البريمي دخل في مراسلات مطوّلة مع المقيم البريطاني بشأن بتيل تابع لأبوظبي استولى عليه الشيخ فارس، شيخ بني كعب، بحجّة أن له على حكومة أبوظبي مطالب قديمة ترجع لأكثر من ثلاثين عاماً. وطلب خليفة في خطاباته للمقيم أن يعمل بالسرعة اللازمة على تسوية هذا الأمر، أو لا يعترض عليه حين يسويه بنفسه مع ميناء المحمرة. بذل المقيم البريطاني جهوداً كبيرة مع الشيخ فارس فشلت كلها. وأستصدر شيل، السفير البريطاني لدى فارس، فرماناً من الشاه وحصل على خطاب من الحاجي ميرزا أغاسي، رئيس الوزراء، إلى سليمان خان، الستراب (الوالي) المسؤول عن المحمرة لإطلاق سراح البتيل وحمولته. وقد نجحت هذه الجهود بعد لأيٍ، وأعيد البتيل وذلك في مايو ١٨٤٥. راجع:

H.S.B in SRB XXIV, p. 487.

** اغتيل الشيخ خليفة على يد عيسى بن خالد بمعاونة أبنائه وآخرين في يوليو ١٨٤٥م، ثم اغتيل عيسى بن خالد بدوره على يد ذياب بن عيسى الذي سقط بدوره فريسة الثأر حيث قضى نحبه على يد خالد بن عيسى بن خالد. وهرب الأخير من أبوظبي إلى الشارقة بعد عدّة مناوشات مع بني ياس الذين تمكنوا من الاستيلاء على القلعة وسلّموها إلى سعيد بن طحنون الذي رحّبت به قبيلة بني ياس باعتباره الوريث الشرعي للإمارة . راجع:

ibid., p. 488

(IOR) same series, vol. 108, Hennell to GOB. 23 Nov. 1846. ٦٨-

(IOR) same series, vol. 105, Hennell to Willoughby. 19 Sept. 1845. ٦٩-

H.S.B. in SRB XXIV p. 489. ٧٠-

H.S.J. in ibid., p. 339. ٧١-

Loc. cit. ٧٢-

(IOR) R/15/1/115, cons. 55 of 1848, Pol. Dept. Hennell to Bombay, 11 Aug. 1848. ٧٣-

H.S.B. in SRB XXIV, p. 490. ٧٤-

(IOR) R/15/1/115, cons. 6 of 1848, PR. To GOB. 25 Aug. 1848. ٧٥-

٧٦- (IOR) same series & vol., PA Sharjah to PR, 1 Dec. 1848.

٧٧- (IOR) same series, vol. 117, Hennell to Malet Bombay, 12 Mar. 1849.

٧٨- H.S.B. in SRB XXIV, p. 479.

٧٩- (IOR) R/15/1/108, Sk. Saeed b. Tahanoon to PR, N.D., Rec. 8 Dec. 1846.

٨٠- (IOR) same series, vol. 117, PA Sharjah to Hennell, 1st July 1849.

٨١- كان فيصل بن تركي، إمام الرياض، قد كتب إلى سلطان بن صقر ومكتوم بن بطي وإلى قائده سعيد بن مطلق يشحذ هممهم ويبلغهم بقرب خروجه من الرياض بحملة كبيرة إلى البدع التي سيعمل على إصلاح قلعتها، وأفاد بأنه سيرسل لهم من هناك ألف رجل لدعم تحالفهم. راجع:

(IOR) same series vol. 122, com. Porter to Hennell RP, 24 Jan 1850.

٨٢- (IOR) same series vol. 117, Hennell to Malet, 31 Dec. 1849.

٨٣- H.S.B. in SRB XXIV, p. 492.

٨٤- (IOR) R/15/1/117, PA Sharjah to PR, 25 June 1849.

٨٥- جاء هذا الدعم من الشيخ سعيد بن طحنون – شيخ بني ياس – بعد زيارة قام بها إلى مسقط في يناير ١٨٥٠ التقى فيها السيد ثويني ثم زار صحار بعدئذ لتجديد علاقات الصداقة القديمة مع شيخها سيف بن حمود، وأصلح بينه وبين حاكم مسقط. ثم زار سعيد بن طحنون بعدئذ شيناص لتنظيم مقاومة دفاعاتها ضد الوهابيين ثم عاد إلى أبوظبي حيث وجد رسالة من القائد السعودي -سعيد بن مطلق – يطلب إليه الدخول في علاقات صداقة، ويعده بدعم مالي كبير، ويسأله الوساطة بين نجد ومسقط. راجع:

(IOR) same series vol. 119, Evaluation of Saed b- Mutlak, 20 Jan. 1850.

٨٦- (IOR) same series vol. 125, Trans. Substance of a letter from PA Bahrian to Hennell 2 Aug.

٨٧- (IOR) same series & vol., Atkins Hamerton to Hennell, 14 Aug. 1851.

٨٨- (IOR) same series & vol. 130, Kemball to Matel 27 Oct. 1852.

٨٩- (IOR) same series & vol. 130, PR to Chief Sec. GOB, 1st Feb. 1853.

٩٠- Historical sketch of Muscat in SRB XXIV, p. 218.

٩١- تميز رد سلطان بن صقر للمقيم البريطاني بشيء من الغموض. جاء في هذا الخطاب: «تتطلع إلى مقابلتي وهو أمر أسعى إليه بدوري؛ وذلك لأنني لا أستطيع أن أثبت لكم في هذا الخطاب ما أريد أن أبلغه لكم شفاهة، فقد شاء الله أن أكون في الوقت الراهن مع الشيخ عبد الله بن فيصل في البريمي». راجع:

(IOR) R/15/1/38, Sk. Sultan b. Suggar, to PA, 14 Jamadee Sani, 25 Mar. 1853.

٩٢- (IOR) same series & vol., Abdulla b. Faisal, son of the Whabee Amir to PR, 14 Jamadee Sani, 25 March. 1853.

٩٣- (IOR) L/P&S/20/240, Precis of Nejed Affairs, p. 12

٩٤- (IOR) R/15/1/149, Substance of two letters from Hajee Yacoub to PR,6 Shawal, 21 June, 1 Shawal, 22 June 1855.

٩٥- (IOR) same series & vol., Sk. Zaid b. Kalifa to PR, 3 July 1855.

٩٦- (IOR) same series & vol., PR to Sk. Saeed b. Tahanoon, 15 July 1855.

الفصل الثاني

إمارة أبوظبي بين زايد الأول وزايد الثاني

- المتغيرات السياسية في عهد الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥- ١٩٠٩ م)
- أبوظبي في التوازن المضطرب بين الرياض ومسقط
- أبوظبي في العلاقة البريطانية العثمانية
- العلاقة بين أبوظبي وقطر
- أبوظبي: القوة الكبرى في الظهير العماني
- أبوظبي: التطلع إلى علاقات دولية
- طحنون بن زايد (١٩٠٩- ١٩١٢ م)
- حمدان بن زايد (١٩١٢ - ١٩٢٢ م)
- صقر بن سلطان (١٩٢٢- ١٩٢٦ م)
- سلطان بن زايد (١٩٢٦- ١٩٢٨ م)
- شخبوط بن سلطان (١٩٢٨ - ١٩٦٦ م)

« يُعدّ الشيخ زايد بفضل سنّه التي أضفت عليه مهابة ووقاراً، وبفضل سمعته وشهرته - عميداً لشيوخ الساحل المهادن، وهو سعيد بالاضطّلاع بهذا الدور»

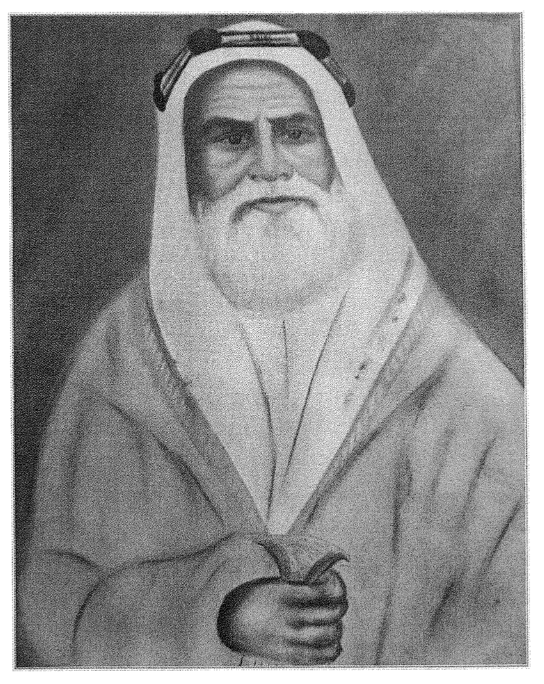
التقرير الإداري للساحل المهادن
١٩٠٥ - ١٩٠٦ م

إمارة أبوظبي بين زايد الأول وزايد الثاني

المتغيرات السياسية في عهد الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥- ١٩٠٩ م)

امتد حكم الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥- ١٩٠٩م) فترة طويلة، توالت على المنطقة فيها أحداث جسام كان على هذا الشيخ أن يتعامل معها بحصافة لا تعوزها الجرأة، وكياسة لا ينقصها التصميم. فالحصافة كانت لازمة لتجنب الآثار السلبية لتلك الأحداث التي واجهت بداية حكمه خاصة، والجرأة كانت ضرورية لاقتناص المكاسب لتوكيد وحدة شعبه وتكامل أرضه، وكان التصميم لازماً للحفاظ على تلك المكتسبات وتوظيفها في توثيق قوّته في بادية إمارته خاصة في منطقة البريمي، ظهير أبوظبي، حيث الاحتكاكات الدائمة بين القوّتين السعودية والعمانية.

شهدت هذه الفترة العديد من الأحداث الكبيرة التي بدلت من سياسات المنطقة، لعل أهمها وفاة السيد سعيد، سلطان عمان، في عام ١٨٥٦م والخلاف الذي حدث بين أبنائه على وراثة الحكم، ثم تدخل حكومة الهند البريطانية للتحكم في هذا الخلاف الذي انتهى في عام ١٨٦١م بقطع شقّي مملكة السيد سعيد في آسيا وأفريقيا بعضهما عن بعض. ودخل بهذا التحكيم الشق الآسيوي من إمبراطورية السيد سعيد المتمثل بعمان في مشكلات سياسية واقتصادية قضت أو كادت أن تقضي على هيبة الحكم العماني في الدواخل العمانية ذات الاتصال الوثيق بأرض مشيخة أبوظبي. أما الدولة السعودية الوسطى (الثانية) – الغريم التقليدي لعمان – فقد شهدها بداية عهد هذا الشيخ في أوّج قوتها، كما شهدها هذا العهد بعدئذ حال وهنها بعد وفاة إمامها فيصل بن تركي في أكتوبر ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ وتنازع ابنيه عبد الله وسعود الحكم، ثم ما كان من انهيار هذه الدولة تماماً ودخول الدولة العثمانية بعدئذٍ طرفاً في هذا النزاع بعد أن تمكنت من الاستيلاء على الأحساء. وعاصر عهد الشيخ زايد بعدئذ محاولات الشيوخ الموالين لدولة الخلافة العثمانية في قطر ونجد مدّ حكمهم إلى عمان



زايد بن خليفة (١٨٥٥ – ١٩٠٩م)

وإلى منطقة الإمارات. وقد امتد عهده ليشهد قيام الدولة السعودية الحديثة (الثالثة)، وتطلع مؤسسها عبد العزيز بن سعود إلى امتداد تلك الدولة إلى مناطق ساحل الإمارات وعمان مرّة أخرى.

أما إذا تجاوزنا هذا الأفق الإقليمي إلى المسرح المحلي فقد شهد عهد الشيخ زايد بن خليفة وفاة الشيخ سلطان بن صقر، شيخ القواسم، الذي أدى غيابه عن الساحة زيادة الوهن إلى الإمارة القاسمية التي بات أثر حكامها المنقسمين على أنفسهم في ظهير الإمارات غير كبير ولا خطر بعد أن وهن دورهم الجهادي منذ فترة في الخليج والبحار المجاورة له *. وقد ورث الشيخ زايد بن خليفة بعلاقاته مع قوى الظهير – هذا النفوذ الذي وثّق به التطلع التقليدي لآل نهيان إلى توحيد القبائل المحلية تحت لوائهم تدريجياً.

وشهد هذا الشيخ على المستوى الدولي ثورة الهند التي أودت بحكومة شركة الهند البريطانية وأقامت حكومة الهند في ١٨٥٨م، وأصبحت سياسة الهند البريطانية تديرها حكومات على رأسها نائب الملك في الهند تخضع سياسته لسياسة بريطانيا الدولية تجاه الدولة العثمانية وروسيا وفرنسا وفارس وكافة القوى الدولية الأخرى التي لها كان في الخليج العربي مصالح دائمة أو مؤقتة. وضبط انتقال السيطرة البحرية التي كان يمارسها الأسطول الهندي في مياه الخليج إلى البحرية الملكية البريطانية إيقاع الأمن في المنطقة وفق إستراتيجية تلك الإمبراطورية لا وفق مقتضيات أمن الهند فقط. واستقرّت سياسة تلك الإمبراطورية في الخليج على تأكيد قطع سواحل الخليج عن ظهيره حتى لا تترك العوامل الداخلية أثراً في الأمن البريطاني في الخليج الذي بات البحر مفتوحاً له، كما باتت جزره – تحت السيطرة البريطانية فراحت تستغلها لتحقيق توجهاتها السياسية في فارس وشبه الجزيرة العربية، وتوجهاتها الإستراتيجية تجاه كافة القوى الدولية عامة، وروسيا خاصة[١].

كان على الشيخ زايد بن خليفة الذي امتدّ عهده أكثر من نصف قرن أن يتعامل مع كافة تلك التغيرات المحلية والإقليمية والدولية التي تضمّ شتاتاً من المتناقضات؛ فعلى الجانب

السعودي كان لموقف أحمد السديري – القائد السعودي في البريمي، المساند في عام ١٨٥٦م للشيخ زايد في تثبيت دعائم حكمه حين جرى تحدّيه في بداية عهده – أثره الطيب في العلاقة بين أبوظبي والرياض رغم ما حفلت به تلك العلاقة عبر تاريخها من متناقضات لم تكن طارئة بل ضرورة تاريخية كان على الطرفين الاعتراف بها حتى يمكن العمل على تلافي نتائجها السالبة.

قصر الشيخ زايد بن خليفة
والقصر في تراث المنطقة يعني القلعة

فبينما كانت أبوظبي تعمل تاريخياً ضمن الإطار التضامني للقبائل الهناوية التي انحدرت في معظمها من قبائل يمنية، كانت الرياض تقليدياً تنحاز إلى القبائل الغافرية التي كانت في معظمها نجدية، ما وضع القوتين على طرفي نقيض في تلك الفترة التاريخية التي تميّزت في بعض فتراتها بحدّة الانقسام بين الغافرية والهناوية. يضاف إلى هذا أن الرياض كانت تتطلع أبداً إلى ضمّ عمان التاريخية، متخذة من البريمي قاعدة حربية متقدمة لتحقيق طموحاتها في تلك الدولة التي أجمع شيوخ آل نهيان السابقين لزايد كلهم على اعتبارها الحليف الأوثق في المنطقة؛ فقد كانت أبوظبي تعتبر الوجود العسكري السعودي في الظهير الذي تمثله البريمي خطراً يتهددها قبل أن يتهدد عمان، بالإضافة إلى أن طريق الإمدادات بين نجد وعمان يمرّ بالظفرة وليوا تلك المناطق التي تمثل مهد بني ياس، والتي كان من اللازم للقوات السعودية أن تسيِّطر عليها حتى تضمن مروراً آمناً لتحقيق أهدافها في عمان، ومن الألزم لقوّة أبوظبي أن تحافظ عليها خالية من كل أثر لأية قوة إقليمية. وإذا اجتمعت هذه العوامل المحلية والإقليمية إلى العامل الدولي الذي فرضته سياسة الإمبراطورية البريطانية إذ حظرت تعامل أهل هذه المنطقة مع البحر المفتوح، وعزلتهم عن المحيط العالمي بما استحدثته من اتفاقيات إذعانية – تبيّن أنه لم يعد لأهل المنطقة بدّ من الانكفاء القسري إلى الداخل، والذي كان يتعارض مع الطموحات السياسية والمادية للرياض في تلك الفترة.

تعامل شيوخ بني ياس مع هذه المتناقضات وفق سياسة ثابتة قديمة لا تفريط فيها، وهو الالتزام بالتحالف مع أئمة عمان، غير أن الثبات الدائم على هذا التحالف لم يكن ينفي المرونة في التعامل مع القوّة الوهابية في هذه المنطقة بحسب مقتضيات المرحلة. ترى شيوخ بني ياس يؤدّون الزكاة إلى الرياض – إذا لم يجدوا بدّاً من تأديتها – كما تجدهم في أحيان أخرى يكتفون بتبادل الهدايا معها دون دفع الزكاة، ويصل حل هذا التناقض – مع الالتزام بالثوابت – في بعض الأحيان إلى نشوب الحرب بين القوتين. و لم تصل الأمور – عبر تلك المرحلة من حل التناقض الظبياني السعودي –بشيوخ بني ياس أبداً إلى التخلي عن الالتزام بالتحالف مع مسقط، ولا بالدخول في حلف الوهابيين أو التبعية لهم مباشرة. وكانت الرياض تستجيب دائماً للحلول التي يقدمها شيوخ بني ياس لهذا التناقض المزمن؛ فقد كانت تدرك أنها لن تتمكن من الأرض العمانية التي دونها قوّة بني ياس وحلفائها إلا بموافقة شيوخ آل نهيان، وكانت الرياض كثيراً ما تكتفي من مسقط بأداء الزكاة، ولكنها كانت تعمل في الوقت ذاته لتفكيك المنطقة من الداخل وجمع ولاء بعض القبائل والزعامات العمانية.

أبوظبي، التوازن المضطرب بين الرياض ومسقط

في اعتقادنا أن الأحداث التي وقعت في عمان في الفترة التي حكم فيها الشيخ زايد بن خليفة إمارة أبوظبي خفّف حدّة التناقض بين أبوظبي والرياض؛ فقد أضعفت وفاة السيد سعيد في عام ١٨٥٦م مركز مسقط في المنطقة عامة، وفي الداخل العماني خاصة. وأدى الخلاف بعد وفاة سعيد بين ابنيه ثويني الذي كان يحكم في مسقط، وأخيه ماجد الذي كان يحكم في زنجبار صراعاً حاداً بينهما على السلطة. وقد أجج هذا الصراع ولاء أخيهما تركي الذي كان يحكم في صحار لأخيه ماجداً في زنجبار، وولاء أخيهما برغش الذي كان ينازع ماجداً حكم زنجبار، لأخيه ثويني في مسقط. وأدى هذا الوضع المتقاطع تطلع ثويني بشكل دائم إلى دعم أبوظبي بينما تطلع محور

ماجد – تركي الأضعف سلطة والأقل نفراً في عمان – بشكل متقطع – إلى دعم الرياض. وتمخّض هذا الأمر عن تقارب بين الشيخ زايد بن خليفة وبين السديري القائد السعودي في المنطقة. وعمل الرجلان كلاهما في هذه الفترة على تحقيق الصلح بين القوتين المتنازعتين في وراثة السيد سعيد، فالصلح بين الفصيلين العمانيين دون الحسم لمصلحة أي منهما يحفظ للسديري جّذوة المعارضة متّقدة في عمان واستجابة ثويني المؤكدة لأداء الزكاة بينما يحفظ الصلح لزايد – شيخ أبوظبي – ما تبقى من سلطة مسقط الشرعية في المنطقة ويمنع سقوطها للقوى العمانية المعارضة لها والموالية للرياض. و لم يكن الشيخ زايد يخفي تعاطفه مع ثويني ولا تأيِّده المعلن له، وقد زار مسقط في بداية عهده معزِّياً في وفاة السيد سعيد ومعبِّراً عن دعمه لابنه ثويني الوريث الشرعي لأبيه.

خرجت صحار في عام ١٨٥٧م على سلطة مسقط، فأسرع الشيخ زايد بن خليفة ومعه سعيد بن بطي – شيخ دبي – لدعم سلطة ثويني الذي لقي في هذه الفترة الدعم العسكري أيضاً من القائد السعودي أحمد السديري. وقامت هذه القوات بحصار صحار برّاً بينما حاصرتها قوات ثويني بحراً. وانتهى الأمر إلى سلام بموجب صلح عقده الشيخ محمد بن سالم – ابن عم ثويني – وارتضته القوى المتصارعة وعادت بموجبه صحار إلى سلطة ثويني مرّة أخرى.[٢]

لم يكن تركي بن سعيد – حاكم صحار – صادق العزم في الثبات على الصلح الذي أبرمه مع أخيه ثويني فنقضه؛ فاستنجد ثويني مرّة أخرى بزايد بن خليفة الذي كان يدرك أن تحالفه معه من ثوابت سياسة البلدين، و لم يتصل في هذه المرة بأحمد السديري الذي كان يدرك أن تحالفه السابق معه كان لدواع سياسية طارئة. زار زايد مسقط وتباحث مع ثويني حول خروج صحار، واتفق معه على دعمه ضد صحار بحراً. ولما كان البحر محكوماً بالأسطول البريطاني، وكان زايد مقيّداً باتفاقيات تحدد تحركاته

العسكرية في البحر طلب إلى الإدارة البريطانية السماح له للتحرك بحراً ضد صحار، ورفضت تلك الإدارة في يونيو ١٨٥٨ / ذي القعدة ١٢٧٤هـ الطلب[٣] فعزم على دعم ثويني براً وخرج على رأس قوته ومعه قوات دبي بقيادة ابن بطي إلى البريمي حيث لقي الدعم من السديري في هذه المرّة أيضاً، وتحركت تلك القوات مجتمعة لضرب ثورة تركي بن سعيد في صحار ومناطق ساحل الباطنة الأخرى[٤]، ثم رأى القائد السعودي أحمد السديري أن يعالج الأمر بالمفاوضات؛ فأحدث صلحاً ارتضته الأطراف جميعها، وكفى الله المؤمنين القتال. وحققت الرياض بقائدها في المنطقة هدفها الذي يقضي بعدم معاداة تركي والحفاظ على قوّته المناوئة لأخيه في مسقط، وكذلك عدم معاداة زايد بن خليفة، شيخ أبوظبي، بالانحياز الصريح إلى تركي، بالإضافة إلى ضمان عدم انقطاع الزكاة التي كان ثويني يؤدّيها للرياض.

تحرك تركي مرّة أخرى ضد أخيه ثويني في عام ١٨٥٩م؛ فاستنجد ثويني تارة أخرى بشيخي أبوظبي ودبي، وسعى زايد بن خليفة مجدّداً للاستعانة بقوّة السديري؛ فاستجاب له الرجل هذه المرّة أيضاً. واستجاب لدعوة زايد الذي أصبح بحكم ضعف سلطة عمان في الداخل وبسياسة المهادنة السعودية في تلك المناطق، أقوى شيوخ الداخل – عدد كبير من شيوخ قبائل المنطقة أيضاً.[٥] وسار هذا التكتل الكبير إلى صحار، ولكنه ارتدّ عنها لتدخل القائد السعودي تركي بن أحمد السديري، لإحداث صلح قبله الجميع بمن فيهم زايد بن خليفة.

كان الشيخ زايد يدرك – مثل السيد ثويني – أن سياسة السلم وعقد معاهدات الصلح بين صحار ومسقط التي اتبعها أحمد السديري وابنه تركي المرّة تلو الأخرى سياسة يصعب الخروج عليها لاتفاقها مع الأعراف العربية، وكانا يدركان أيضاً أن الهدف من تلك السياسة هو الإبقاء على جذّوة المعارضة في عمان مشتعلة. ومع ذلك كانا يعتمدانها لأمر واحد فقط وهو عدم إثارة القاعدة الوهابية في البريمي التي ربما

تؤدّي استثارتها عواقب وخيمة إلى مسقط. و لم يكن تركي بن سعيد في صحار راضياً عن السياسة التي يتبعها القائد السعودي الذي كان يخرج دائماً بقوته متحالفاً مع التجمع الداعم شرعية مسقط، ثم يخرج على التجمع المتحالف بدعوى الصلح. وقد اختار تركي عندما خرج على أخيه مرّة ثانية عام ١٨٥٩م أن يستنجد بالرياض لدعمه ضد ثويني مباشرة. وأصدر إمام الرياض – فيصل بن تركي – أمره إلى قائده في البريمي للاستجابة لذلك الطلب؛ فلم يستصوب القائد هذا القرار وكتب إلى إمامه يبلغه أن سبب تقاعسه عن نصرة تركي في صحار هو ألا يثير غضب صديقه الشيخ زايد بن خليفة وعداء بني ياس؛ لأن القوّة السعودية في المنطقة غير كافية لمواجهة قوّة زايد، وأن على الرياض – إذا كانت عازمة على نصرة تركي ضد ثويني – أن ترسل قوّة كبيرة لضرب بني ياس أولاً وإضعافها، ثم تتفرغ للعمليات في عمان.[٦]

استمرت الخلافات بين تركي في صحار وثويني في مسقط في الفترة ١٨٥٨–١٨٦١م، تخمد تارة وتثور أخرى. وكان الشيخ زايد بن خليفة ثابتاً أبداً في تحالفه مع ثويني بينما كان السديري وابنه وأخوه وكل مسؤول في قيادة البريمي السعودية لا يحاول العمل لنصرة تركي مباشرة خشية إثارة زايد بن خليفة الذي كان تحالفه مع ثويني صادقاً، وقوّته القبلية والتحالفية في المنطقة تبذّ كل قوّة أخرى بما فيها السعودية والعمانية.

تمكن السيد ثويني في ١٥ يوليو ١٨٦١ / ٦ محرم ١٢٧٨هـ من الإحاطة بسلطة السيد تركي في صحار وعيّن ابنه سالماً والياً عليها وذلك بعد أن استدرج تركي إلى السيب بواسطة الوكيل البريطاني في مسقط وتمكن ثويني من اعتقاله وإيداعه قلعة الجلالي في مسقط إلى حين إرساله إلى أخيه ماجد في زنجبار. ومن الطريف أن الرياض هي التي جنت ثمار انتصار السيد ثويني في صحار؛ فقد كان سالم بن ثويني الذي حلّ والياً في صحار أصدق تعاطفاً مع الوهابيين من عمه تركي. وازداد النفوذ السعودي

في هذا الوقت في عمان الداخلية قوّة حين استشرى التمرد في منطقة الباطنة، وقام المتمردون هنالك بالاستيلاء على الخابورة والسويق بعد أن لقوا الدعم من قيس بن عزّان، زعيم فرع أسرة البوسعيد المناوئ للسيد ثويني وأبيه من قبله. وكان قيس حاكماً لصحار حتى عام ١٨٤٩م، ولكنه تمرد على سلطة مسقط فأجلاه السيد سعيد عن قلعته في عام ١٨٥١م وأناط الحكم هناك بابنه تركي بن سعيد، أما قيس فقد استقرّ في السويق. وفي التحرك الأخير دفع قيس حياته ثمناً لهذا الدعم المناوئ لمسقط، غير أن الثورة لم يهدأ لها أوار إذ رفع رايتها ابنه عزّان بن قيس.

استنجد السيد ثويني – كما هو دأبه دائماً في مواجهة المشكلات في هذه المناطق – بشيخ بني ياس في أبوظبي وكذلك بشيخ دبي، وبعدد من الشيوخ الآخرين حتى يتمّ له وأد التمرد الذي استشرى في عام ١٨٦١م في مهده. وتدخل الوكيل البريطاني في مسقط – غير مأذون من حكومته – فأبلغ هذين الشيخين في أبوظبي ودبي، وبعض شيوخ الساحل الآخرين في ٦ نوفمبر ١٨٦١م/ ٢ جمادى الأولى ١٢٧٨هـ أن حكومته لن تعترض على دعم ثويني بقوّات تفد عن طريق البحر، إذا أمكن لهم ذلك[٧]. ويبدو أن ذلك الوكيل لم يكن يعي تماماً أبعاد سياسة حكومته التي لم تكن تمنع أن تتمزق المناطق الداخلية بالحروب، وأن تعمّها المشاحنات، على أن يبقى البحر أبداً محظوراً على المراكب الوطنية المسلحة، ومقصوراً على سفن الأسطول البريطاني الذي حمل لواء «الأمن» في ذلك البحر بموجب اتفاق ١٨٥٣م والتعهدات التي ارتبط بها شيوخ الساحل المتصالح منذ عام ١٨٢٠م. ولم يكن هدف هذا الأسطول البريطاني – بطبيعة الحال – حماية قوّة محلية ضد تعدّيات قوّة وطنية أخرى بل كان ذريعة لحماية الأمن البريطاني في المنطقة وتحقيق أهدافه الإستراتيجية.

ازدادت حدّة تمرد عزّان بن قيس في عام ١٨٦٤م حين أعلن أنه يتطلع إلى الدعم السعودي المباشر للسويق التي يحكمها، والتي يريد لها أن يؤدي زكاتها إلى الخزينة

Copy of Circular letter to Sheikh Zeid bin Khalifa at Abothubee; Sheikh Hasher bin Mooktoom at Debai; and Ibraheem bin Sultan bin Suggur at Ras el Khymah

Dated Muscat 6th November 186[illegible]

بعونه تعالى

من ولطر بيلي جناب وكيل دولة الانكليز في مسقط

الى حضرة جناب الجليل الاكرم الافخم الشيخ

سلمه الله تعالى وابقاه وحفظه ورعاه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وثم الباعث لتحرير الكتاب
هو السؤال عن حالكم الشريف ومحبكم من كرم الله تعالى بخير وعافية لو ذلتم كذلك وثم غير خافي
الى جنابكم العالي قد عرفني جناب المعظم السيد ثويني انه كتب لكم ان تمدونه بعسكر
لساعده على العاصيين في عمان وان اردتم بارسال عسكر لمساعدة المشار اليه فيكون من طريق
البر لانه اسهل لكم وارخص ولو عليكم خوف من طرف مراكب الانكليز واني قد عرفت
جناب القبطان جونس بالبوشهر ابو شهر وجناب يعقوب بشاير وكيل الدولة في الشارقة
في هذه المادة ولكن اعرفكم الحذر ثم الحذر لو يكون تعملون اغتشاشات في البحر ولو في البر
لي وصول لكم مساعدة وان صار منكم خلوف فتراكم تحت الحكم واني اعرفكم بان الدولة
الانكليز من بعد ما يخلص شغل جناب المعظم السيد ثويني يكون ترجعون الى بلادكم بالسلامة
والكلام صار بينكم وبين جناب السيد ثويني مجادلة في حال من الاحوال فبعد ما ترجعون
الى بلادكم عرفونا عنه وانا انشاء الله تعالى اكون مناظر بينكم بالحق وانا اظن انشاء الله
ابد ما يصير منكم خلوف لجناب السيد ثويني هذا ما لزم حرر في [illegible] جمادى الاول [illegible]

True copy
[illegible signature]
British Agent Muscat

العلاقة بين زايد وثويني والتدخل البريطاني فيها

السعودية في الرياض مباشرة، لا عن طريق حكومة مسقط التي نزع ولاءه لها وحوّله للسعوديين. ولمّا أراد السيد ثويني أن يردع عزّان عن تمرده، وأرسل حملة لتردعه تصدى السعوديون في البريمي لها فاضطرت إلى التراجع دون أن تحقق شيئاً. وأدرك الشيخ زايد بن خليفة وقتئذٍ أن الرياض قد أخذت تتخلى عن سياساتها السابقة من عدم معاداته بالتدخل المباشر ضد حليفه السيد ثويني الذي كان يمثل السلطة الشرعية في مسقط. وكانت الرياض قد بدأت تعارض علناً السيد ثويني وتؤيّد عزّان كما جاء في تقرير بيلي – المقيم البريطاني – بتاريخ ١٥ مارس بعد عودته من زيارته الإمام فيصل بن تركي في الرياض. واقترح بيلي في هذه المناسبة أن تسمح الحكومة للسيد ثويني بالتحرك بحراً لحصار الموانئ السعودية حتى ينشغل السعوديون عن مهاجمته برّاً.

ازداد المدّ السعودي في عمان منعة حين خرجت على ثويني قبائل بني علي والجنبة ومناطق صور والجعلان وطلبوا إلى الحامية السعودية في البريمي نصرتهم؛ فأغار عبد العزيز السديري – أحد القادة السعوديين في البريمي – على صور وحاصر حاميتها التي استسلمت له بعد حصار لم يدم طويلاً. وأضيرت في هذا الهجوم بعض ممتلكات الرعايا البريطانيين ما أدخل سلطات الخليج البريطانية طرفاً في النزاع.[٨]

وهكذا يمكن القول: إن سياسة تفكيك عمان التي اتبعها السديري بسياسة الصلح والسلام بين حكومة مسقط، ومعارضيها أخذت تؤتي أكلها؛ فقد أخذت القبائل والمناطق تخرج الواحدة تلو الأخرى عن سلطة مسقط وتلقى التأييد والدعم من الحامية السعودية في البريمي دون أن تعمد إلى عمل هجومي مباشر يثير حفيظة الشيخ زايد بن خليفة الذي كان بحكم موقع بلاده بين نجد وعمان الأصلية، وبحكم قوّة بني ياس وبحكم موالاة الكثير من قبائل البادية له – القوّة الأساسية التي يحسب السعوديون لها حساباً في سياساتهم تجاه عمان غير أن سياسة السديري قد خرجت في الفترة الأخيرة خطوة عن مسارها القديم؛ فقد كان في الفترات السابقة يحمي المعارضة

العمانية بالصلح بموافقة زايد بن خليفة صراحة أو ضمناً، ولكنه راح يحميها الآن بتقديم الدعم المباشر لها. وعلى الرغم من أن السديري لم يقم بعمل عسكري مباشر ضد مسقط إلا أن هذا الدعم للمعارضة كان يتعارض مع سياسة الشيخ زايد بن خليفة، الحليف التقليدي للسلطة الشرعية في عمان.

وافقت حكومة الهند البريطانية – بعد أن أضيرت مصالح بعض رعاياها في عمان – على أن تقدّم الدعم لثويني ضد الوهابيين، وفوضت مقيمها بيلي أن يتولى القيام بهذه المهمة. ورسم المقيم بيلي خطته التي أرسلها لحكومة بومباي في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥م/ ٥ رجب ١٢٨٢هـ. ذكر فيها: من الثابت أن التهديد الوهابي لأراضي سلطان عمان ينطلق من الوجود الوهابي في البريمي، تلك المنطقة الإستراتيجية ذات الأثر البعيد في سياسة المنطقة والتي هي أساس قوّتهم. ينطلقون منها، لا لتهديد أراضي مسقط فحسب، ولكن لتهديد كافة المناطق الساحلية الممتدّة بين رأس الخيمة وأبوظبي. وأضاف المقيم أن حل مشكلة التوغّل الوهابي في عمان تماماً يستلزم إجلاء الوهابيين عن منطقة البريمي؛ (٩) وعلى ضوء ذلك فقد وضع المقيم خطة قضت بأن يقوم السيد ثويني بتجميع قواته وقوات حلفائه في صحار أو أية منطقة ساحلية أخرى، على أن ينزل بها بعد أن يستكمل التعبئة على معاقل الوهابيين في البريمي. وأوصى بأن تتخذ الإجراءات اللازمة قبل قيام هذه الحملة بتحذير شيوخ رأس الخيمة والآخرين الذي قد ينحازون إلى الوهابيين لمساندة تلك المعاقل. ويشير بيلي في هذا الصدد إلى أن زايد بن خليفة – شيخ أبوظبي الذي تربطه صلات طيبة بالبريطانيين ومن الحكام الأقوياء، وتتصل حدود بلاده بحدود البلاد الوهابية – يمكن أن يساند الهجوم الذي يقوم به سلطان مسقط ويعرّقل الخطوط الخلفية للوهابيين ويربك صفوفهم ويشغلهم بذلك عن الزحف الذي يقوم به سلطان مسقط تجاه البريمي*. فإذا تمت هزيمة الوهابيين في البريمي وحاولوا التراجع إلى نجد أمكن للشيخ زايد أن ينقضّ على فلولهم المنسحبة ويستأصل شأفتها.

أُقرّت هذه الخطة لدى زيارة المقيم البريطاني بيلي مسقط في ٤ ديسمبر ١٨٦٥م بعد أن أضيف إليها خطة دعم بحري ومساندة من البحرين؛ فقد وافق الشيخ محمد بن خليفة حاكم البحرين على طلب تقدم به إليه ثويني بتقديم دعم بحري له لحصار الموانئ السعودية وذلك لفتح جبهة أخرى تشغل الرياض عن تقديم المدد إلى البريمي، كما تمّ أيضاً استرضاء السيد تركي بن سعيد باختياره قائداً للأسطول العماني المتوجه لحصار الموانئ السعودية[١٠]. وقد تقرر أن يخرج هذا الأسطول العماني في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر بالتنسيق مع المقيم البريطاني.

غادر بيلي مسقط بعد انتهاء هذه الزيارة إلى الساحل العماني وأبلغ شيوخه أن الحكومة البريطانية «تدعم استقلالهم» ولا ترضى بأن تحتوزهم القوّة السعودية في البريمي إليها وحذّرهم من تقديم العون للسعوديين، وشجعّهم للتعاون مع الحملة المسقطية. وتمّ للمقيم بيلي بعدئذ تنسيق الخطة المزمعة للحملة مع الشيخ زايد بن خليفة في أبوظبي الذي أقرّها وأيّدها.[١١]

خرج الأسطول العماني في موعده المقرّر يعاضده المقيم البريطاني في الخليج بسفينته الحربية لحصار الموانئ السعودية. وفي يناير ١٨٦٦ انضمّ الشيخ زايد بن خليفة مع قوّاته وقوّات شيخ دبي إلى قوّات السيد ثويني التي دخلت في طور التعبئة هناك.

لم تنفذ هذه الخطة؛ فقد تراجع أسطول مسقط قبل أن يبلغ إلى الساحل السعودي وذلك بعد أن تنصل محمد بن خليفة، شيخ البحرين، عن وعده السابق بالمساندة والدعم. أما خطّة الهجوم البرّي فقد كانت كل المؤشرات تؤكد نجاحها؛ فوفاة فيصل – إمام الوهابيين المسنّ في الرياض – حديثاً أظهرت خلافاً بين أبنائه شغلهم عن الشأن العماني، أما على الجانب العماني فقد ظهر إجماع من القبائل الهناوية لمساندة السيد ثويني خاصة بعد أن ظفر بتأييّد الشيخ صالح بن علي، شيخ قبيلة الحرث وزعيم القبائل الهناوية في الشرقية، وبمساندة الشيخ خليفة بن زايد أقوى شيوخ البادية، بالإضافة إلى

دعم عدد آخر من الشيوخ المرموقين في المنطقة. وحين انتظمت كافة هذه القبائل الهناوية تحت لواء ثويني بدت الحامية السعودية في البريمي وكأنها تستعد لتلفظ أنفاسها. ومن الطريف أن يلفظ السيد ثويني أنفاسه في تلك اللحظات الحاسمة؛ ففي ١١ فبراير ١٨٦٦م/ رمضان ١٢٨٢هـ، انتهت مؤامرة في المعسكر العماني باغتيال ثويني وتولي ابنه سالم الحكم بدلاً منه. وانفضّ ذلك الجمع العسكري العماني، واستردت الحامية السعودية في البريمي أنفاسها إلى حين، فقد كان الحاكم الجديد لعمان موالياً للسعوديين.(١٢)

وعلى الرغم من موالاة السيد سالم للسعوديين إلا أن وضع حامية البريمي في السعودية ظل حرجاً؛ فلم يظفر السيد سالم بدعم القبائل في الظهير العماني خاصة بعد ما تردد من اتهامه بالتآمر مع قائد الحامية الوهابية في البريمي على قتل أبيه. وزادت حدّة الانشقاق في البيت العماني الحاكم فخرج على سالم عمه تركي، كما دخل سالم في دائرة سخط عمه ماجد في زنجبار. وباتت جميع القوى المتنازعة في منطقة البريمي من سعودية وعمانية ومحلّية تدرك تماماً أن الشيخ زايد بن خليفة قد غدا السلطة الكبرى نفوذاً وسيطرة في المنطقة؛ فالنزاع في الأسرة الحاكمة في مسقط قد استشرى، والنزاع في الأسرة الحاكمة في الرياض قد تعالى أواره بعد وفاة الإمام فيصل في أكتوبر ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ، وتنازع أبنائه على خلافته، إضافة إلى أن وفاة الشيخ سلطان بن صقر عام ١٨٦٦م. الذي كانت سياسته الغافرية تتعارض دائماً مع سياسة شيوخ البوفلاح الهناوية تجاه السعوديين وأئمة عمان، واختلاف أبناء هذا الشيخ بعد وفاته، قد أوهنا قوّة القواسم في الظهير العماني تماماً. وعلى الرغم من أن الشيخ سلطان بن صقر لم يكن في أواخر سني حكمه يتمتع بولاء كبير من بدّو الدواخل إلا أن ارتباطاته مع بعض مناطق الاستقرار في الداخل، ودعمه – في أغلب الأحيان – للحامية السعودية في البريمي، بالإضافة إلى قوّة شخصيته وتاريخه الطويل عبر عمره المديد، كان يكسبه بعض النفوذ الذي كان يعارض به – في الغالب – مواقف آل نهيان من

المدّ السعودي إلى البريمي وهكذا فقدت أكبر قوّتين إقليميتين في المنطقة – جرّاء هذا النزاع – المقدرة على السيطرة والتعامل مع الأحداث.

وأدرك السيد سالم نفسه هذا الأمر الذي كانت الحامية السعودية ذاتها تدركه منذ أمد؛ فسعى لاسترضاء الشيخ زايد، بالهدايا، وتقرّب إليه ببذل المال، وأمدّه الذخيرة والسلاح، في حين عمل السعوديون في البريمي على عدم معاداته. أما زايد فقد ثبت على سياسة شيوخ آل نهيان التقليدية في موالاة السلطة الحاكمة في مسقط ودعمها، وحماية الأرض العمانية من كل طارق يأتيها عن طريق البريمي، وذلك بسيطرة بني ياس على الطرق المؤدية إليها من نجد كما استخدم تأثيره في مجريات الأحداث في المنطقة برمّتها، وتعاظم سلطانه فيها لدعم الشأن العماني.

ونلاحظ أن حدّة المعارك التي كانت تقع بين الفينة والأخرى بين القواسم وبني ياس خفّت في عهد الشيخ زايد بن خليفة. ويمكن أن نرد ذلك إلى خروج الشيخ سلطان بن صقر شيخ القواسم عن دائرة الأحداث في هذه الفترة؛ إذ تراجع عن دعم الحامية السعودية في البريمي، بعد أن هرب من الدرعية التي احتجزه السعوديون فيها زمناً، ثم ما لبث أن أنهكه الكبر وظل في أواخر حياته يعاني التحديات من أسرته وبعض العشائر التابعة له حتى أدركته الوفاة. وتراجعت بوفاة سلطان بن صقر واختلاف أبنائه بعدئذ قوّة السياسة الغافرية في هذه المنطقة. ولا نجد في عهد الشيخ زايد بن خليفة – حتى هذه الفترة من عام ١٨٦٦م – ما يدل على وقوع معارك كبيرة بين هذين التجمعين الكبيرين اللهم إلا تلك الغارات السريعة التي بدأ بها الشيخ زايد بن خليفة عهده لتسوية بعض المشكلات التي أحدثها تحالف الشيخ سلطان بن صقر مع القوى المناهضة لحكم الشيخ زايد في بدايته. وتحفظ لنا الوثائق أخبار معركة أخرى وقعت بين الجانبين في عام ١٨٥٦م حينما هاجم شيخ أبو هيل التابع للشيخ سلطان بن صقر بعض مزاريع بني ياس

المقيمين في منطقة الخوانيج من أعمال دبي. وقد انتهت تلك المعركة بقتل الشيخ فارس بن علي وثلاثة من أتباعه المزاريع، وتمكنت جماعة أبو هيل أيضاً من أن تغنم من المزاريع ثلاثين بعيراً وحصانين وبعض المتاع. وكتب سعيد بن بطي – شيخ دبي – إلى محمد بن صقر – الشيخ المعيّن في الشارقة – يستنكر سلوك أتباعه ويطالبه بالترضيات اللازمة. واتصل شيخ الشارقة بأخيه سلطان بن صقر يستعديه على دبي، بينما سارع شيخ دبي للاستنجاد بالشيخ خليفة بن زايد شيخ أبوظبي، وتمكن تجمع أبوظبي – دبي من هزيمة تجمع رأس الخيمة – الشارقة.

آل الحكم في الشارقة بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر إلى ابنه خالد الذي انتهج سياسة أبيه في الانتصار للوهابيين. وبنى – في فترة الصراع الأخير بين السيد ثويني والوهابيين – قلعة في منطقة الزوراء الواقعة بين عجمان والحمرية لردع شيخ عجمان الذي كان في هذه الفترة من الموالين للشيخ زايد بن خليفة والمتحالفين مع السيد ثويني. وقد هدمت هذه القلعة حين قامت القوات البريطانية في يناير ١٨٦٦م بمهاجمتها ضمن ما هاجمته من المواقع الوهابية والمناطق الأخرى المتحالفة معها والتي شملت القطيف والدمام وصور. وقد استرعت هذه المنطقة بموقعها انتباه الشيخ زايد بن خليفة الذي قررّ الاستيلاء عليها رغم أنها في قلب المنطقة التي يسيطر عليها التحالف الغافري.

يمكن أن نؤرخ خروج القواسم من دائرة التأثير البيّن في الظهير الساحلي لمنطقة الإمارات وسيطرة إمارة أبوظبي شبه الكاملة على تلك المناطق بحدثين بارزين: الأول: مقتل الشيخ خالد بن سلطان على مشارف الشارقة في أبريل ١٨٦٨ في معركة جرت بين القواسم وبني ياس، والثاني: اغتيال تركي السديري القائد السعودي في الشارقة في ٧ أبريل ١٨٦٩م/ ذي الحجة ١٢٨٥هـ، وكان قد سار إليها لحشد تأييد القواسم لسالم بن ثويني، وتدخل هناك في الخلافات الأسرية بين القواسم حيث عمل

على إقالة الشيخ سالم بن سلطان*. وبمقتل السديري انهار التحالف بين قوّة القواسم الواهنة أساساً في الداخل وقوّة الوهابيين التي كانت في تلك الفترة تتحين نهايتها في المنطقة. و لم تعد هنالك قوة أخرى ذات بأس في المنطقة الداخلية إلا قوّة الشيخ زايد بن خليفة. ويمكن القول: إن هذه الحادثة كانت بداية النهاية للوجود الوهابي المؤثّر في البريمي، وبداية وراثة الشيخ زايد بن خليفة للنفوذ والسيطرة في تلك المنطقة.

لم يكتب لعهد السيد سالم بن ثويني أن يستمر طويلاً؛ فقد تسبب عداء السيد ماجد في زنجبار له في حرمانه من المنحة المالية المقرّرة من زنجبار؛ فأفلست خزانة مسقط التي كانت الحشود الحربية قد أرهقتها كثيراً. وكان اختلافه مع الشيخ صالح بن علي ومجموعة القبائل الهناوية، واعتماده على السعوديين – حتى إنه أوكل حراسته الشخصية إليهم – سبباً في أن يفقد دعم قبائل المنطقة. وكانت هذه القبائل قد كرهت منه تآمره مع الحامية الوهابية ضد أبيه القتيل، بالإضافة إلى أن هذه الحامية أصبحت في عهده تتدخل مباشرة لدعمه، ومن ذلك قيام القائد السعودي عبد العزيز السديري بقوّة عسكرية إلى صور تأييداً له، وقامت هذه الحملة بنهب المدينة. ولّما قامت مجموعة القبائل الهناوية بمحاصرة السيد سالم في الأول من أكتوبر ١٨٦٨م و لم تتمكن القوّة الوهابية التي قامت بقيادة تركي بن أحمد السديري من نجدته اضّطر في ٣ أكتوبر ١٨٦٨م إلى الهرب، ولجأ إلى بومباي، وآل الحكم في عمان إلى عزّان بن قيس، ومجموعة صالح بن علي – زعيم القبائل الهناوية – وسعيد بن خلفان شيخ المطاوعة.

وهكذا دخلت الحامية الوهابية في البريمي في عزلة تامة بعد هروب السيد سالم الذي كان موالياً وداعماً لها**. وزادت حدّة هذه العزلة بعد مقتل قائدها في ٧ أبريل ١٨٦٩م بأيدي حلفائه في الشارقة. وخشيت قبائل البريمي وما جاورها، خاصة قبيلة النعيم التي كانت تتوجس من انتقام سعودي وشيك لمقتل قائد الحامية في البريمي، فكتبت إلى عزّان بن قيس تناشده الحماية، وتطلب إليه طرد الحامية الوهابية من البريمي.[١٣]

وكانت المجموعة الحاكمة في مسقط تخطط سلفاً لهذه الغاية ذاتها بعد أن استبان ضعف تلك الحامية، وبعد أن تأكد لها دعم الشيخ خليفة بن زايد شيخ بني ياس لهذا المشروع الذي لم تكن السلطات البريطانية في الخليج لتعترض عليه[١٤]. ووجدت مسقط فرصتها لوضع خطتها لطرد تلك الحامية السعودية حينما كتب عبد الله بن فيصل إمام الرياض في ٩ يونيو ١٨٦٩م/ صفر ١٢٨٦هـ إلى الإمام عزّان بن قيس، حاكم مسقط، يطالبه بأداء الزكاة التي حان أوانها[١٥]. ولم تستجب مسقط لأداء الزكاة بطبيعة الحال، وزادت في تحدّيها للرياض حين اعتقلت سلطاتها في ٤ يونيو ١٨٦٩ أحد مبعوثي السيد ماجد كان قد وفد من زنجبار يحمل دعماً مالياً للحامية السعودية في البريمي[١٦]. وبعد تبادل خطابات التهديد بين قائد الحامية السعودية في البريمي وبين الإمام عزّان سار الأخير على رأس قواته إلى البريمي واستولى عليها في ٤ يوليو ١٨٦٩م/ ربيع أول ١٢٨٦هـ وأقام فيها حامية عمانية بديلة*. غير أن البريمي لم تكن في مقدمة اهتمامات الإمام عزّان بن قيس الذي راحت تواجهه مشكلات متلاحقة في أرض عمان الأصلية فأناط حماية منطقة البريمي طواعية بالشيخ زايد بن خليفة، حاكم أبوظبي، وكلفه بإدارتها، كما أناط به أيضاً حماية الحدود الشمالية لعمان. وتعهد الإمام عزّان بن قيس في مقابل ذلك للشيخ زايد بأن يدفع له قسطاً من المال الذي كانت مسقط تؤديه زكاة للرياض التي منيت خططها لاسترجاع البريمي بالفشل الذريع. وقد تأكدت سيطرة الشيخ زايد بن خليفة على هذه المنطقة حينما زاره الإمام عزّان في البريمي في فبراير ١٨٧٠م/ ذي القعدة ١٢٨١هـ وكان معه سعود بن فيصل، المعارض لحكم أخيه عبد الله في الرياض. وكان لهذه الزيارة دورها في قيام صداقة بين سعود وزايد بن خليفة، ولها أثرها في تاريخ المنطقة بعدئذ؛ فقد رحّب الشيخ زايد – حين أطاح سعود بأخيه عبد الله في الرياض – بقدوم القائد السعودي محبوب بن جوهر إلى المنطقة في ١٨٧١م وسلّمه قصر الخندق[١٧].

لم يرق لشيوخ الساحل العماني الآخرين ما أصاب الشيخ زايد بن خليفة من سلطة في منطقة البريمي اتسعت دائرتها بعد حملة عزّان بن قيس حتى بلغت حدود عمان الشمالية. وعلى الرغم من أن هذه السلطة كانت – في حقيقة الأمر – في محلها، بحكم الموقع الجغرافي لأرض الشيخ زايد، وبحكم تنامي قوّته التحالفية – قام في المنطقة تحالف ضد زايد جمع أولئك الشيوخ جميعهم ما عدا شيخ الشارقة. غير أن الجهود الهجومية التي بذلها هذا التحالف المناوئ لم تكن ناجحة لا وناجعة.

تمكن السيد تركي بن سعيد من أن يفلت من ملجئه في بوباي ووصل إلى الخليج، وطوّف ببعض موانئ الخليج في الساحلين العربي والفارسي، وانتهى به المطاف إلى ساحل الإمارات في مارس ١٨٧٠م. واستطاع في محاولته مناهضة حكم الإمام عزّان أن يحصل في هذه الفترة على الدعم المالي من السيد ماجد في زنجبار، واتفق في خطته مع الإمام عبد الله بن فيصل في العقير. وتمكن السيد تركي بعد جولة قصيرة في الساحل الفارسي من أن يعود إلى ساحل الإمارات مرّة أخرى في أغسطس ١٨٧٠م ومعه قوّة مرتزقة من الفرس والبلوش، والتقى في خورفكان بوفد من شيوخ النعيم الذين وفدوا إليه من البريمي للتنسيق والمناصرة. وقامت قوّته المؤيدة بقوات شيوخ دبي وعجمان، ورأس الخيمة، بحملتها على البريمي، وقصر الخندق وسار الشيخ زايد بن خليفة من أبوظبي لنجدة تلك الحامية. واستطاع – بالتعاون مع قبيلة الظواهر – أن يصد الخطر عن الحامية التي سرعان ما تراجع عنها ذلك التحالف. وكان عزّان عندما بلغه نزول تركي على البريمي قد خرج هو الآخر على رأس حملة لنجدتها ولكنه عاد أدراجه قبل أن يبلغ المنطقة حين علم بأن زايد بن خليفة قد سوّى الأمر هناك. وقد أكد هذا الحادث القوّة المتنامية لشيخ أبوظبي في هذه المنطقة، ووثّق تحالفه مع قبيلة الظواهر.

يئس السيد تركي من أن ينال البريمي ولكنه لم ييأس من دحر عزّان، فقد تمكن من هزيمته في أكتوبر ١٨٧٠م في معركة حاسمة دارت في ضنك، وتمكن في ٣٠ يناير

١٨٧١ م/ ٨ ذي القعدة ١٢٨٧هـ بعد أن فقد السيد عزّان حياته في المجابهات من أن يجلس على كرسي الحكم في مسقط. وقصد الشيخ زايد بن خليفة إلى مسقط لتسوية خلافاته السابقة مع تركي، فقد كان زايد يحرص على التعامل مع الشرعية الحاكمة في مسقط دونما اعتبار لشخص الحاكم هناك. وفي مسقط لقي زايد ترحيباً من تركي، فقد كان الأخير يدرك عملياً مدى قوّة نفوذ زايد ومقدراته العسكرية؛ فلم يعمد إلى إثارة الخلافات القديمة معه إنما أكرمه وأقرّه على وضعه في إدارة منطقة البريمي. أما زايد فقد كان دائماً حليفاً صادقاً للسلطة الشرعية التي تمثلها أسرة البوسعيد في مسقط، دونما اعتبار لشخص السلطان الحاكم؛ ففي حماية ظهر السلطة في مسقط – أياً كان من يمثلها – في منطقة البريمي، حماية لظهير أبوظبي وتأكيداً لنفوذ شيخها في باديتها. ومع ذلك فقد تعرّضت العلاقة العمانية الظبيانية إلى انتكاسة عابرة في يونيو ١٨٧١م حين اتهم السيد تركي الشيخ زايداً بمساندة إبراهيم بن قيس في صحار ضد مسقط فسارع زايد لإزالة سوء التفاهم قبل أن يستفحل.(١٨)

أما على الجانب السعودي فقد كان لسقوط حامية البريمي لعزّان بن قيس وقع قاسٍ على عبد الله بن فيصل الذي قرّر استردادها. وتفيد الأخبار التي أوردها أحد شيوخ قبيلة النعيم أن عبد الله بن فيصل قد أعدّ في العقير قوّة يتراوح عددها بين الألفين والخمسة آلاف رجل، وأنه يخطط للزحف بها على البريمي، وأضاف هذا الشيخ أن شيوخ المنطقة الممتدة بين رأس الخيمة ودبي لن يعارضوا هذا الزحف. أما زايد – شيخ أبوظبي – فإنه لم يعلن عن موقفه بوضوح إذ كان يتنسم رياح النصر ليملأ بها شراعه. غير أن التقارير اللاحقة جميعها تنفي هذا الموقف الحيادي الذي وضع فيه شيخ النعيم هذا الشيخ. يقول تقرير للمقيم البريطاني في الخليج بتاريخ ٢٩ يناير ١٨٧٠ أن بني ياس، لم تكن في تاريخها الطويل من القبائل التابعة للوهابيين أو المتحالفة معهم. وأن شيوخها من آل نهيان كانوا دائماً على علاقة طيّبة مع فرع أسرة البوسعيد الحاكم في مسقط، ويحظون بنفوذ كبير في البادية لا يدانيه أي نفوذ آخر لأية قوّة محلية أخرى في المنطقة.

ويشير خطاب آخر للمقيم البريطاني بتاريخ ٢٣ مارس ١٨٧٠م/ ١٩ ذي الحجة ١٢٨٦هـ إلى أن الإمام عبد الله بن فيصل لا يزال قابعاً في قلعته في العقير متردداً في الإقدام على القيام بحملته المزمعة على البريمي وذلك لعدّة أسباب أهمها خشيته من أن يقوم الشيخ زايد بن خليفة، بقطع الطريق عليه. ويفيد خطاب آخر للمقيم البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨ أبريل أن عبد الله الذي أمضى شهوراً في العقير يعدّ القوّة لغزو البريمي، قد كتب إلى شيوخ الساحل يطلب إليهم دعمه في تنفيذ خطته أو أن يظلوا على الحياد، وأنه تلقى من كافة هؤلاء الشيوخ – عدا شيخ أبوظبي – ردوداً مشجعة[١٩].

وأثار هذا الأمر الأخير توجس حكومة الهند البريطانية التي لم تكن تهتم بنزاعات البرّ، ولكنها كانت تقف بقوّة ضد وصول هذه النزاعات إلى البحر. وكان على هذه الحكومة أن تمنع أية عمليات، يقوم بها الإمام عبد الله بحراً حتى وإن اقتصرت تلك العمليات على نقل جنوده إلى الموانئ الحليفة لذلك الإمام على ساحل الإمارات. واطمأنت السلطات البريطانية حينما علمت أن عبد الله قد عاد من العقير إلى الرياض بعد أن تأكد له أن تحالف زايد بن خليفة شيخ أبوظبي مع مسقط سوف يحول بينه وبين النصر، ويمنعه عبور هذه الصحراء التي أصابها الجفاف لانحباس الأمطار في تلك السنة، بالإضافة إلى أن مشكلات عبدالله كانت قد تفاقمت مع بعض أقاربه في نجد[٢٠].

أبوظبي في العلاقة البريطانية العثمانية

لم يكن الساحل السعودي مصدر خطر لأبوظبي خاصة بعد أن قيدت السلطات البريطانية حرية الملاحة لكافة القوى العربية في الخليج، إلا أن هذا الساحل قد أصبح خاصة بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي أحد المنافذ النشيطة في اتجاه عمان ومنطقة الإمارات. ومن الطريف أن الخطوة الأولى في هذا المنفذ الساحلي كانت من أبوظبي

وذلك لما قام به القبيسات في عهد الشيخ خليفة بن شخبوط في عام ١٨٣٥م ثم تكررت هذه الخطوة مرّة أخرى في عهد الشيخ سعيد بن طحنون في ١٨٤٩م ومرّة ثالثة في عهد الشيخ زايد بن خليفة في عام ١٨٦٩م.[٢١]

أدت وفاة الإمام فيصل أن يتنصل محمد بن خليفة – شيخ البحرين – من أداء الزكاة لعبد الله بن فيصل بحجّة أن الأخير لم يلتزم بما التزم به والده من قبله بعدم التدخل في شؤون قطر مادامت البحرين تؤدّي زكاتها إلى الرياض. ودون أن ندخل في تداعيات هذا الأمر في قطر التي لا تهمنا في هذا المقام، نشير إلى قيام ثورة في قطر ضد حكم البحرين، قرر الشيخ محمد بن خليفة مجابهتها بالقوّة لإعادة قطر إلى سلطته المباشرة. وطلب إلى شيخ أبوظبي، وشيخ دبي أيضاً دعمه في حملته تلك، فوافق الأول وتقاعس الثاني.

قام الشيخ زايد بن خليفة، شيخ بني ياس، في أكتوبر ١٨٦٧ على رأس حملة قوامها ألفا رجل في سبعين مركباً ما أثار الذعر بين سكان السواحل. ولّما اكتملت هذه الحملة مع حملة البحرين نزلت على الدوحة ووكره وغيرهما من المستقرات الساحلية ودمّرتها، وعادت منها بغنائم كثيرة، ورجع أسطول أبوظبي بقسط وافر منها. ورأى المقيم البريطاني في الخليج في هذا الهجوم نقضاً صريحاً لاتفاقية الهدنة البحرية لعام ١٨٥٣م، وحصل على موافقة حكومة بومباي على أن يتحمل شيخا البحرين وأبوظبي مسؤولية خرق الهدنة، وأن يؤديا غرامة لذلك مع رد الغنائم كاملة.[٢٢] ولّما خاطب المقيم زايد بن خليفة، في هذا الصدد تلقى منه رداً غليظاً، فلم يسارع المقيم البريطاني إلى الضغط عليه لافتقاره في تلك الفترة إلى القوة الأسطولية الكافية[٢٣] التي ما إن اكتملت لديه في سبتمبر ١٨٦٨م حتى خرج على رأسها إلى أبوظبي. ورفض الشيخ زايد الانقياد إلى حكم المقيم البريطاني، واتهم الحكومة البريطانية بمساندة الوهابيين ومداهنتهم، وبرّر حملته على قطر بضبط الأمن في المنطقة. وبعد يومين من

٤٤ — 293

سواد خط جناب الأفخم البالبوز صاحب للشيخ زايد ابن خليفه بتاريخ ٧ جمادي الأول سنة ١٢٨٥
مطابق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٦٨

ولا يخفى أن كونهم ماضي من الوقت الذي يجب حكم الدولة لنفي امرنا منك أن تسد لأجل
تعويض خسارات الأموال الذي صرف سبباً لأحوال القرصنة بقطر فانت لا علمت على ذلك الأملاك
وعلى ذلك الوكيل الذي انت بعد ارسلته الى بندر ابي شهر قال ما عندك تستعد على أن ياتي مطالبات
بالعمل لأن الدولة ارادوا منا ان اصل الى ابي ظبي ويكرر انطلب ذلك المطالبات لهذا السبب
نعرفك بذلك لتعرف ان تصل الى المركب بالعهد والامان الذي يعطى اليك بهذا الكتاب بحسب
ما ملك خمسة وعشرين الف ريال الذي قبل صار المطالبة منه علاوة على ذلك ينبغي منك أن
تسلم كل خشب الحربية اللتي كانوا مشغولين في هجوم قطر ونرتب لأولئك لأجل اجمال امنية البحر بعد
هذا ما سفيني فهذا تكليفنا ان نعلمك ان كان من تاريخه لا تقبل او تعمل تطويل في اتمام مطالبات
مذكوره لعلا نود ابصر مجبور وفي ذلك الوقت يصير لك كل اقدام الذي تراه مناسباً للاشتغال
لهؤلاء الذي لا هم من اهل الحرب من اجل القلعة ومحل الذي طارحين اختيارهم فاعلمنا تعود على
الهنود رعايا دولة البهية الانكليسية حتى يجون الى المركب فالمراد منك أن يكون تعرض على
ذلك لا تؤذي احد منهم هذا ما لزم بيانه

حصار أبوظبي ومطالبة المقيم لشيخها بإداء غرامات وتسليم مراكبه الحربية

٢٢ — 295

سواد كتاب جناب الأفخم البالبوز صاحب للبانيان والهنود وغيرهم رعايا دولة البهية الأنكليسية
بتاريخ ٢٧ جمادي الاول سنة ١٢٨٥ مطابق ٢٥ سبتمبر ١٨٦٨

ولا يخفى بحيث ان الدولة طالبين بعض من الأمور على حاكم ابي ظبي من جهة تكسير امنية البحر
الذي جديداً حصل منه لهذا السبب يجرونه اذا ان كان ما يؤدي ذلك المطالبات ونخبركم
بهذا ان يجون الى المركب وان كان تبقون في البر فالخطر عليكم هذا ما لزم بيانه

طلب المقيم البريطاني للتجار الهنود من رعايا الإمبراطورية الخروج من أبوظبي
المحاصرة واللجوء إلى السفينة الحربية البريطانية تمهيداً لقذف المدينة بالقنابل

المفاوضات بين الشيخ والمقيم البريطاني أذعن الشيخ لطلبات المقيم بعد أن رأى مدافع السفن البريطانية تتأهب لصبّ حمم مدافعها على مدينته، وأدى قسطاً من الغرامة التي فرضت عليه.

تغيّرت بعدئذ العلاقة بن قطر وأبوظبي بوصول الحملة العثمانية إلى الأحساء في يوليو ١٨٧١م. التي جاءت إلى المنطقة لأسباب دولية تخص الحكومة العثمانية، ولتحقيق بعض طموحات ولاتها، استجابة مباشرة لاستنجاد الإمام عبد الله بن فيصل بالعثمانيين لكبح جماح أخيه سعود الخارج على سلطته. وأقامت هذه الحملة لها قلاعاً وحاميات على طول الساحل الممتد حتى قطر، ولكنها عجزت عن أن تتدخل مباشرة لحسم الخلاف بين ابني فيصل في نجد، تلك المنطقة التي استعصمت عن قوة الحملة بقيّظها وبرمالها وبانفلات حبل الأمن فيها. كما لم تتمكن هذه الحملة العثمانية بحامياتها وبقلاعها التي استحدثتها على الساحل من التدخل في إدارة شؤون البحر في الخليج الذي كانت السلطات البريطانية تضبط كل حركة فيه بموجب بعض التعهدات والمعاهدات التي ربطت بها الشيوخ المحليين. وقد حرصت السياسة البريطانية في هذه الفترة على جعل قطر منطقة عازلة حتى لا يتعداها النفوذ العثماني إلى البحرين، كما جهدت في قطع قطر عن أراضي منطقة الساحل العماني للسبب ذاته. وإذا كان للوجود البريطاني في الخليج من الوسائل والقوة الأسطولية ما يمكّنه من قطع البحرين عن قطر إلا أنه كان يقف عاجزاً دون ذلك في البرّ حين يتصدى لقطعه في الساحل عن أراضي أبوظبي، وذلك لعدّة أسباب:

فطبيعة الوجود العثماني في المنطقة تختلف أيديولوجياً عن طبيعة الوجود الاستعماري لبريطانيا. فبينما كان شيوخ المنطقة جميعهم - بمن فيهم الشيخ زايد بن خليفة - وأهل الرأي فيها يعتبرون الإنجليز أمة «كفر» وافدة للهيمنة على المنطقة بالقوّة الصريحة، فإنهم كانوا ينظرون إلى القوّة العثمانية في إطار من الرابطة الإسلامية

بحسبانها دولة الخلافة. ويمكن أن نقول: إن هذا الاعتبار النبيل – في إطاره النظري – كان اعتباراً وبيلاً في إطاره العملي. فقد دحض الوجود العثماني في المنطقة هذا المنظور بخروجه على مبادئ العدالة الإسلامية وبضعفه وقلّة حيلته عالمياً وإقليمياً. وثبت لأهل المنطقة عملياً أن ذلك الوجود كان من الأسباب التي استغلتها بريطانيا لتأكيد أهدافها وتوثيق مصالحها في المنطقة، تلك الأهداف والمصالح التي كانت تتعارض أبداً مع أهداف أهل المنطقة ومصالحهم ولا تتفق معها إلا مرحلياً أحياناً.

اعتمد الشيخ زايد – في تعامله مع هاتين القوّتين الدوليتين – سياسة توازن مرنة للحفاظ على وحدة إمارته، مستغلاً هامش المناورة التي قد تتيحها له الظروف الدولية من جانب، وعلاقة الدولتين البريطانية والعثمانية بعضهما ببعض من جانب آخر. عمد زايد إلى توظّيف المد العثماني في الخليج بما يحمل من مؤثرات إسلامية لتخفيف قيود الهيمنة البريطانية على بلاده، كما عمل على تعارض أهداف القوّتين المذكورتين في الخليج لخدمة أهدافه في تحقيق التكامل والاستقلال الوطني، وإعادة ربط القبائل والجماعات والمناطق التي تخرج عن سلطته إلى سابق عهدها من الولاء. وقد أفلحت سياسته في هذا المجال، رغم ضيق حيّز التحرك المتاح له، ولاقت نجاحاً ملحوظاً في تحقيق غاياتها.

كانت السياسة البريطانية قبل دخول العثمانيين العسكري إلى الأحساء تعارض أية تحركات عسكرية بحرية لأي من الشيوخ، ولكنها وجدت أن الثبات على هذه السياسة في وجه التقدم العثماني تجاه منطقة الإمارات وعمان قد يورث إستراتيجياتها الفساد إلا أن تصغي إلى ما أراده زايد بن خليفة وأن تتبنى خطته، وأدركت أنها حين تعارض خطط الشيخ زايد في محاولاتها الدائبة لتحقيق وحدة أرضه فإنه ربما ينحاز إلى العثمانيين. وعلى الرغم من أن العثمانيين ما كان يمكن لهم أن يحققوا لزايد أهدافه ولا دعمه في حملاته البحرية لرد المنشقين من أتباعه ولكن كان يمكن أن يعينوه عسكرياً

ومعنوياً في تحقيق هذه الغاية برّاً. وخشي البريطانيون أيضاً من أن تقوم هذه العشائر والجماعات والمناطق التي كان زايد يعمل لردها إلى الطاعة بالدخول في الدولة العثمانية لحماية تطلعاتها فيمتدّ التوغل السياسي والعسكري العثماني في أعالي الخليج إلى الأراضي العمانية في أسفله. وكان على سلطات الخليج البريطانية أن تواجه هذا الوضع الطارئ في أي من الحالتين المذكورتين، وكان عليها أن تنحاز إلى رغبة زايد في التصدي للمنشقين عليه.

كان الشيخ زايد بن خليفة، أسبق شيوخ الساحل العماني اتصالاً بالعثمانيين في الأحساء فبادر بالكتابة إليهم منذ أوائل سبتمبر ١٨٧٢/ رجب ١٢٨٩هـ مرحّباً بظهورهم في المنطقة. وعبّرت سلطات الخليج البريطانية حين علمت بهذا الاتصال عن خوفها من أن يخترق العثمانيون منطقة الساحل العماني ويهيئوا لهم جسراً قد يفضي بهم إلى عمان، ثم إلى مدخل الخليج الذي يعدّونه أحد الركائز الأساسية في إستراتيجية أمن الهند البريطانية. وعلينا أن نشير هنا بأن زايد بن خليفة على الرغم من أنه مدّ يده بالصداقة للعثمانيين إلا أنه لم يصافحهم؛ فهو يدرك أن هناك ثوابت أساسية في توثيق العلاقات مع عمان فكان عليه ألا يعرّض علاقة أبوظبي بالسلطة الشرعية في مسقط إلى اضطراب مهما كانت الدوافع والأسباب. واقتضى هذا الخط السياسي الثابت في سياسة شيوخ آل نهيان تجاه سادة مسقط مراعاة أسس السياسة البريطانية في مسقط التي تحرس بوابة الخليج العربي. وكان على زايد – إن اختار أن يقيم علاقة مع العثمانيين – ألا يفعل ذلك إلا بعد تدبّر الأمر مع صاحب مسقط في هذا الشأن. وقد عمدت السياسة البريطانية في الخليج في هذا الوقت إلى تأليب السيد تركي في مسقط ضد الشيخ زايد في أبوظبي فاضطر الأخير إلى أن يتوقف مؤقتاً عن التراسل مع سلطات الإدارة العثمانية في المنطقة، وإن لم يتوقف عن التلويح بضرورة التعامل معهم. وقد رضي السيد تركي في مسقط منه هذا الخط السياسي المرن، واتصل بالسلطات البريطانية في الخليج ليبلغهم أن العلاقات المسقطية الظبيانية التي كانت قد

خرجت من مسارها قليلاً خاصة ما يتعلق بعلاقات زايد بجيرانه في دبي وغيرها – قد عادت إلى مجاريها، وأن ما فات مات.

وهناك سبب آخر يجعل وصول العثمانيين إلى أراضي أبوظبي سهلاً ميسوراً وهو أن منطقة العديد في مجاورة قطر ظلت منطقة تفكك سياسي وتسيّب إداري ما سهل للسلطة العثمانية أو ممثليها التغلغل فيها. فقد كانت العديد دوماً مأوى للخارجين على سلطة شيوخ أبوظبي؛ فقد قصد القبيسات، من بني ياس، هذه المنطقة متمردين على شيوخهم من آل نهيان في عامي ١٨٣٥ و ١٨٤٩م بقيادة كبيرهم خادم بن نهيمان القبيسي، وخرجوا أيضاً على الشيخ زايد بن خليفة عام ١٨٦٩م بقيادة كبيرهم بطي بن خادم بن نهيمان. وقد تطلع ابن نهيمان في هذه الفترة إلى تلقي الدعم من ابن ثاني شيخ قطر، الذي كانت علاقته قد توتّرت في فترات سابقة مع الشيخ خليفة بن زايد. وقد درجت سلطات الخليج البريطانية قبل وصول العثمانيين إلى المنطقة على منع شيخ أبوظبي من العمل العسكري بحراً لتأديب أتباعه في تلك المنطقة وردّهم إلى الطاعة.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر وهو أن السلطة الوطنية في قطر قد أخذت في هذه الفترة تتكوّن، خاصة في عهد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، وذلك بعد خروج قطر تماماً عن عباءة البحرين واعتراف السلطات البريطانية بهذه السلطة المحلية بموجب اتفاق ١٨٦٨م مع قطر.[٢٤] وكان على قاسم – وهو شيخ صاحب عزم وتصميم – أن يزيد في رقعة هذه السلطة في البر بعد أن أرتجّ البريطانيون أمامه مغالق البحر، وأن يوسع من دائرة نفوذها في محيطها برّاً. فإذا لم يمكن لقطر أن تضمّ إليه شقّها الآخر في البحرين عبر البحر أو أن تتمدد في المناطق المتصلة بها بالنفوذ العثماني المباشر أو غير المباشر لم يبق أمام شيخ قطر إلا أن يتجه للمناطق المجاورة له من أراضي أبوظبي التي لم تكن قد دخلت بعد تحت النفوذ العثماني ليحكمها باسم العثمانيين الذين يعدّ نفسه تابعاً لهم. و لم يكن لبريطانيا من وسيلة مباشرة لكبح جماح الشيخ قاسم ومنعه

من تحقيق طموحاته في أوساط قبائل المنطقة في البرّ إلا بالتعامل بالوسائل الدبلوماسية مع العثمانيين. كما لم يكن لسلطات بريطانيا في الخليج من وسيلة مباشرة لوقف هذا العمل إلا بالتجسس وبالعمل الأسطولي المحدود؛ فمنطقة العديد منطقة ساحلية متصلة ببرّ قطر جغرافياً وهي التي تزوِّد القبيسات وغيرهم من أهل جزيرة دلما بالماء، وهي التي توفر الملجأ للقبائل التي تعمل في صيد البحر في تلك المنطقة إذا داهمهم البريطانيون أو غيرهم. فهل يجوز للإستراتيجية البريطانية أن تقطع تأثير البرّ عن البحر في البحرين ثم تغمض العين عنه في دلما؟

تشير التقارير البريطانية إلى أن إدارة الهند البريطانية بدأت النظر إلى موضوع العديد بجدية منذ النصف الثاني من عام ١٨٧٣م رغم أن خروج قبيسات أبوظبي إلى العديد كان منذ ١٨٦٩م. بدأ هذا الاهتمام البريطاني منذ أوائل أغسطس ١٨٧٣م عندما علم روث – مقيم الخليج بالإنابة – أن العثمانيين أخذوا يعملون على تأكيد نفوذهم في قطر، وأعدوا خطط الانطلاق منها إلى إمارات الساحل المهادن. أرسل روث مساعده شارلس جرانت إلى العديد والسواحل المجاورة لها ليتحرّى الأمر ويستقصي الحقائق. وعرف جرانت في العديد أن موظفاً عثمانياً قد جاء في يوليو ١٨٧٣م موفداً من الأحساء إلى هذه المنطقة على رأس مائة جندي لإقناع شيخ الزبارة في قطر بالاعتراف بتبعيته للأحساء العثمانية[٢٥]، كما أوفد العثمانيون من الدوحة أحد مبعوثيهم إلى شيخي أبوظبي ودبي يطلب إليهما زيارة الأحساء لمقابلة القائد العثماني هناك. وأبدي جرانت – في هذا التقرير – تخوفه من أن هذه الفكرة ربما تستهوي الشيخ زايد بن خليفة، شيخ بني ياس الذي كانت له –في هذه الفترة– خلافات مع نعيم البريمي الذين كانوا قد طلبوا إلى شيخ الشارقة أن يناصرهم ضده. وأشار التقرير إلى أن السلطات العثمانية تسعى بدورها إلى ضمّ البريمي التي تعدّها جزءاً من لواء نجد، ولذلك يمكن أن يجد الشيخ زايد بن خليفة في العثمانيين حليفاً طبيعياً يحقق به إخضاع المنطقة تماماً لنفوذه وسلطانه.[٢٦] وأشار جرانت أيضاً إلى سبب آخر رأى أنه قد يدفع بالشيخ زايد

بن خليفة إلى دائرة العثمانيين وهو أن القبيسات، قد تركوا تلك البلدة وهجروها في ١٨٦٨م إلى العديد. وبعد أن يشير التقرير إلى هجرات القبيسات السابقة إلى هذه المنطقة يخلص إلى أن شيخ أبوظبي قد يركن للعثمانيين إذا قدموا له الدعم ضد القبيسات، وأن قبوله بسلطتهم سيؤكّد تبعية القبيسات في تلك المنطقة له إذ سيرفض العثمانيون إدراج شيخ العديد تحت الحماية العثمانية في حال اعترافهم بسلطة الشيخ زايد هنالك[٢٧].

في الحقيقة لم يكن الشيخ زايد بن خليفة في هذه المرحلة يحتاج إلى دعم العثمانيين أو البريطانيين لتأديب بعض قومه المنشقين عن طاعته، ولكنه كان يحتاج فقط إلى «عدم ممانعة» البريطانيين من أن يسير بحراً لردع القبيسات في العديد وإجبارهم على العودة إلى ديارهم في أبوظبي. وكما تشير الوثائق، فقد كتب الشيخ زايد بن خليفة في ١٣ ديسمبر ١٨٧٠م/ ١٩ رمضان ١٢٨٧هـ إلى المقيم البريطاني شاكياً أن خروج القبيسات عن طاعته يحرمه قدراً كبيراً من الدخل المادي، وأن منطقة العديد التي هاجر إليها أولئك القوم ستصبح ملجأ للقراصنة والخارجين على القانون؛ لأنها قد خرجت فعلاً عن نطاق طاعته. ولم تتحمس حكومة الهند البريطانية في تلك الفترة الباكرة من عمر المشكلة للقيام بمعالجتها حين أثارها الشيخ زايد خشية أن تجرّ في ذيولها تعقيدات مع العثمانيين كان من رأي الساسة البريطانيين أن لا ضرورة لها. ورغم ذلك قام سميث – مساعد المقيم البريطاني في الخليج، منذ عام ١٨٧١ – بالتحقيق مع الشيخ بطي – شيخ القبيسات– في هذا الأمر. واعترف بطي لسميث بخروجه على الشيخ زايد بن خليفة ليستقرّ في «ديرته» القديمة في العديد، وجادل بأن ديرة القبيسات تمتد قديماً من منطقة رأس الحالة بين العديد ووكرة لتنتهي عند نقطة في الساحل في مواجهة جزيرة بني ياس. وفي تلك المفاوضات أصرّ بطي بن خادم على موقفه الرافض للصلح مع زايد، وطلب إلى سميث أن يعترف له بالاستقلال بالعديد، وأن يسمح له برفع راية الساحل المهادن، وإلا فإنه سيجد نفسه مضطّراً إلى قبول الراية

العثمانية التي سبق أن عرضت عليه ولكنه – فيما يقول – رفض قبولها. ولم يحقق سميث من بعثته تلك شيئاً فقد أفشلها تعنّت الشيخ بطي رغم الجهود التي بذلها لإقناعه بضرورة المصالحة مع حاكم أبوظبي والدخول مرّة أخرى في طاعته.[٢٨]

كتب المقيم بيلي في ١ أكتوبر إلى حكومة الهند بنتائج بعثة مساعده إلى العديد، وتلقى منها الرد في ٢ مايو ١٨٧٢م/ صفر ١٢٨٩هـ بألا يتدخل في العلاقة بين العديد وأبوظبي ما لم يقم شيخ العديد بالإخلال بأمن البحر. وكان المقيم بيلي مقتنعاً بما أشارت به حكومته، ومع قناعته التامة بأن القبيسات هم من رعايا شيخ بني ياس، وأن العديد هي أرض تابعة له، إلا أن منح هذا الشيخ الإذن للقيام بأعباء الأمن في سواحله وفي أوساط رعاياه من شأنه أن يحرك من جديد عمليات «القرصنة» التي قلّت منذ زمن بعيد. وكان على المقيم بيلي أن يؤكد مجدّداً للشيخ خليفة بن زايد رفضه البات تحرك ضد القبيسات في العديد.

ولم يلبث البريطانيون في الخليج أن تأكدوا من صدق ما أشار إليه الشيخ زايد بن خليفة من أن منعه من ردّ تلك المنطقة للطاعة سيقود إلى انفراط عقد الأمن في نواحيها. فقد قام بعض بدو بني هاجر وآل مرّة في يوليو ١٨٧٦م/ جمادى الثانية ١٢٩٣هـ بالاعتداء على مركب لأبوظبي عند العديد، وقتلوا ناخوذته واستولوا على المركب وما عليه، كما استولى آل مرّة أيضاً عند ساحل العديد على مركب آخر ترجع ملكيته لبعض أهل عمان[٢٩]. واستولى بنو هاجر أيضاً في المنطقة ذاتها في أغسطس على مركب آخر لأبوظبي. وتحرّى المقيم البريطاني شكوى الشيخ زايد الذي كان قد نفد صبره من تحدّي تلك القبائل لسلطته بتلك التجاوزات التي تمنعه الإدارة البريطانية من وقفها. ويشير تقرير المقيم بالإنابة إلى أن هاتين القبيلتين اللتين تعكران صفو أمن المنطقة عند خور العديد تابعتان رسمياً للباب العالي، ولكنهما تقومان بعملياتهما في منطقة لا تتبع مناطق السيطرة العثمانية. ويمضي تقرير بيردوكس – المقيم البريطاني

بالإنابة – إلى القول: إن كبح هذه التجاوزات كان أمراً سهلاً قبل وصول العثمانيين إلى سواحل الخليج إذ كان يمكن للبريطانيين التعامل معها بالقوة المجردة، «أما الآن وقد تعقد الوضع» فما دمنا نغلّ أيدي الشيوخ المتهادنين من التعامل مع هذه الأحداث بحراً فعلينا أن نحميهم من القرصنة التي يقوم بها الآخرون من الذين لا تربطهم بنا علاقات اتفاقات مماثلة.(٣٠) وأشار هذا التقرير أول مرّة إلى ضرورة الاستجابة لطلب الشيخ زايد بالسماح له للعمل ضدّ قبيسات العديد. ومع ذلك فقد عبّر المقيم عن خشيته أن تتعقد المشكلة أكثر إذا استعان الشيخ بطي بن خادم، من جانبه، بالعثمانيين. وانتهى التقرير إلى توصيات لم تستجب لما طلبه الشيخ زايد بن خليفة؛ فقد خلص المقيم إلى ضرورة الاتصال بالعثمانيين لإقناعهم بأن البدع ووكرة والعديد مناطق مجدبة وفقيرة لا نفع يرتجى منها، وأن محاولاتهم للسيطرة عليها تعرقل سير التجارة البريطانية في الخليج.

أحدثت بعض التغييرات الإدارية في هذه الفترة في الهند تبدلاً نوعياً في نمط السياسة البريطانية في الخليج؛ فقد كان ليتون الذي خلف نورث بروك في نيابة الملك في الهند في أبريل ١٨٧٦م/ ربيع الأول ١٢٩٣هـ رجلاً لا يؤمن بالحلول الدبلوماسية للمشكلات الأمنية، ويرى في المواجهة – بكافة أشكالها – حلاً أمثل لها. وأبلغ حكومته في لندن أن المدّ العثماني في سواحل قطر «سيقلل من هيبة بريطانيا في الخليج ولن نتمكن من تثبيت الأمن فيه إلا باجتثاث الوجود التركي في تلك الأرجاء تماماً». وأيّد السكرتير السياسي والسري لحكومة الهند هذا الرأي في مذكرة طويلة تناول فيها طبيعة الاتفاقيات البريطانية مع القبائل العربية التي أقيم بموجبها ما سُمي بالنظام التهادني، وخلص إلى ضرورة صياغة سياسة جديدة لمجابهة المدّ العثماني وذلك «بأن نقيم له متراساً لا يمكن أن يتعداه». وانتهت تلك المذكرة إلى بعض الحلول التي اعتمدت في معظمها على ضرورة استخدام دبلوماسية التلويح باستعمال القوّة، أو اللجوء إلى استخدامها إذا لم يكن من ذلك بدّ. وجاء الرد من حكومة لندن منافياً لما

تريده حكومة الهند البريطانية مؤكداً «ضرورة التعامل سلمياً مع هذا الأمر الذي سيقود حتماً إلى مشكلات مع كل من تركيا وفارس».(٣١)

فوّضت حكومة الهند مقيمها في الخليج أن يعالج أمر العديد بما يراه مناسباً. وأرسل المقيم الكابتن جوثيري – قائد فيلق الأسطول في الخليج – على سفينته الحربية إلى الدوحة والعديد برسالتين إلى شيخي هاتين المنطقتين، وطلب إليه أن يتحرى الأمر بدقة ثم يبدي رأيه بالحلول التي يراها مناسبة. زار جوثيري الدوحة أولاً ثم ذهب إلى العديد التي بلغها في ١٨ أكتوبر ١٨٧٦م/ ٢٨ رمضان ١٢٩٣هـ. وقد قدّم جوثيري في تقريره وصفاً للعديد قال فيه: إنها منطقة موحشة مجدبة بائسة تضمّ حوالي مائتي أسرة ويملك رجالها ثلاثين مركباً يعملون بها في صيد البحر، وأشار إلى أن الشيخ بطي بن خادم يرفع في المنطقة علم الساحل المهادن ولكنه يؤدّي في نفس الوقت قدراً ضئيلاً من المال للعثمانيين بوساطة الشيخ قاسم آل ثاني في قطر، وأنه عرف من بطي أنه ليس في العديد أي موظف عثماني مقيم، فالعثمانيون قوم «عقلاء» رحلوا عن المنطقة فمياهها مرة (٣٢) وانتهى التقرير إلى اقتراح الحلول التي رآها مناسبة. وكتب المقيم في ضوء ذلك إلى حكومته بأن تفوّض الأمر إليه بعقد صلح بين الشيخ زايد بن خليفة وبين بطي بوساطة الوكيل «الوطني». أما إذا انتهت مساعي الوكيل «الوطني» إلى الفشل فيرى المقيم أن على الإدارة البريطانية أن تدعم الشيخ زايد بن خليفة في حملة عسكرية تمكنه من رد بطي بن خادم إلى الطاعة. وقد حصل هذا الحل في ٧ مايو ١٨٧٧م على موافقة ليتون – نائب الملك في الهند – وعلى موافقة حكومة لندن بعد عدّة مداولات.(٣٣)

مهدت لندن للحملة التي سيقوم بها الشيخ زايد بن خليفة على العديد بالاتصال بالآستانة وفوّضت سفيرها هناك أن يسترعي نظر الباب العالي «بكل شدة وحزم» إلى أن الحكومة البريطانية لن تتهاون أبداً في التعامل مع «القراصنة» الذين يقومون

بعملياتهم من الموانئ التابعة لتركيا أو تلك العمليات التي تقوم بها بحراً القبائل التي تدين لها بالولاء. وسلّم السفير إلى وزير الخارجية العثماني مذكرة في ذلك أجاب عنها الأخير بأنه لا يرى أساساً لهذه الشكوى البريطانية؛ فالأمن في سواحل المنطقة التي تسيطر عليها الدولة العثمانية في سواحل الخليج مستتب.[٣٤]

أبلغ المقيم المساعد في الخليج – بعد أن مهدت حكومة لندن دبلوماسياً للعمل العسكري – الشيخ زايد بن خليفة في يونيو ١٨٧٧م أن حكومة الهند البريطانية قد قررّت إعادة منطقة العديد إلى سيادة أبوظبي، وأنها ستساندة. وطلب المقيم المساعد من حكومته إرسال بارجة حربية كبيرة لتعينه على الإنجاز السليم لهذه المهمة. واستجابت له الحكومة فأرسلت البارجة تسر Teaser إلى بوشهر. واتصل المقيم بواسطة الوكيل «الوطني» بالشيخ زايد بن خليفة يطلب إليه حشد أكبر قوّة ممكنة من رجاله والخروج بهم إلى جزيرة كافاي Kafai على بعد نحو اثني عشر ميلاً إلى الشرق من العديد على أن ينتظر هناك وصول المقيم البريطاني ودعمه الحربي الذي سيكتمل في يوم ٢٨ مارس ١٨٧٨م/ ٢٤ ربيع الأول ١٢٩٥هـ، ثم القيام إلى العديد لإنجاز المهمة. وكان الغرض من هذا الحشد الكبير – كما تقول المصادر البريطانية – أن يدرك بطي أن المقاومة غير ممكنة فيستسلم دون قتال[٣٥].

قام الشيخ زايد بن خليفة من أبوظبي في ألف رجل ومائة مركب ووصل إلى كافاي في يوم ٢٦ مارس، أي قبل يومين من الموعد المضروب، وانتظر هناك يوماً خرج بعده، دون انتظار القوّة البريطانية الموعودة، ووصل إلى العديد فوجدها خاوية على عروشها. فقد رحل القبيسات عنها بعد أن دمروا أكواخهم فيها وهربوا بكل ممتلكاتهم حين سمعوا بأن زايداً يقصدهم بقوته الحربية الكبيرة المؤيّدة بالقوّة البريطانية. أما المقيم روث فإنه لم يصل إلى كافاي إلا في ٣٠ مارس بسبب أحوال جوية غير مواتية، ولم يشارك بطبيعة الحال في أي عمل ضد العديد. وفي المحادثات

التالية بين الشيخ زايد والمقيم سلّم الأول للثاني تعهداً مكتوباً يقرّ فيه بتحمله مسؤولية كافة ما تقوم به قبيلة بني ياس من أعمال في المنطقة الممتدة من خور جنيزة إلى خور العديد. ولذلك يمكن القول: إن زايد بن خليفة كان أول شيخ في الساحل يحدّد الحدود الساحلية لإمارة أبوظبي، ويعلن مسؤوليته عن كافة ما يمكن أن يقع داخل هذه الحدود التي اعتمدتها الإدارة البريطانية.

احتجّت الآستانة على ما قام به شيخ أبوظبي «والقنصل البريطاني في بوشهر» في منطقة العديد التي ادّعت المذكرة العثمانية أنها تابعة لقطر. وجاء رد حكومة الهند البريطانية بأن «العديد من توابع شيخ أبوظبي الذي تربطنا به علاقات تعاهدية منذ بضع سنين. ومع اعترافنا بأن الشيخ بطي كان في بعض الأحيان يرفع العلم التركي، ويدّعي الحماية التركية، ويدفع الضرائب للبدع، إلا أننا لم نعترف له بذلك أبداً. فإعلان الحماية التركية على هذه المنطقة التابعة لأبوظبي فيه اعتداء على حقوقها، وانتقاص لأرضها. أما إذا سلّمنا بوضع شيخ العديد وقبلنا بإسباغ الحماية التركية عليه فسنجد أن هناك شيوخاً عديدين سيعتبرون أن من مصلحتهم الخروج على حكامهم».[٣٦]

وتستطرد هذه المذكرة لتؤكد أن العديد ظلت «أكثر من قرن من ممتلكات أبوظبي يمارس شيخها فيها حقوق السيادة، وقد اعترف له – في هذه الفترة – ضباط السفن البريطانية بهذه الحقوق... ونحن حين نتجاوز حقوق شيخ أبوظبي في السيادة على العديد، فإننا نرى أنه ليس من السياسة في شيء أن تصبح العديد عثمانية إذ سيدّعي العثمانيون إدعاءات أخرى على جزر ساحل خور العديد».

أكد نائب الملك في الهند أن سياسة الخليج البريطانية يجب أن تقوم على الهيمنة الشاملة على مياه الخليج بواسطة سفن الأسطول البريطاني، وأشار إلى أن أي تدخل للعثمانيين في هذا الأمر، أو التسليم لهم باقتسام النفوذ في السواحل مع البريطانيين،

سيفسد هذه السياسة، بالإضافة إلى أنه قد يروّع الفرس الذين لا يملكون قوّة بحرية في الخليج، ولن يقبلوا بوجود قوّة عثمانية في تلك الأرجاء تسبب إرباكاً للسياسة البريطانية.[٣٧]

في الحقيقة كانت مشكلة العديد فصلاً مهماً في السياسة العثمانية البريطانية، ولا يعنينا هنا إلا ما يخصّ علاقة الدوحة بأبوظبي التي ازدادت تعقيداً لثبات زايد بن خليفة على سياسة الحفاظ على وحدة أرض إماراته، وثبات قاسم آل ثاني على توسيع حدود سلطته إلى العديد خاصة، وكافة أراضي عمان والساحل العماني عامة؛ فقد كان يرى نفسه عاملاً من عمال دولة الخلافة عليه أن يعمل على تثبيت سلطتها في نجد، وكانت هذه المناطق – في تقديره، وفي تقدير السلطات العثمانية – تابعة لنجد. كان قاسم يرى أنه أقرب عمال الدولة العثمانية جغرافياً وعشائرياً لهذه المناطق، ولذا فمن حقّه أن يسيطر عليها باسم تلك الدولة، غير أنه أدرك بعد تسوية النزاع بين الشيخ زايد وبطي بن خادم أن العثمانيين لن يستطيعوا أن يمكّنوه من تحقيق أهدافه في العديد وما جاورها بجهد دبلوماسي أو عسكري ضد البريطانيين الذين التقت مصلحتهم الإستراتيجية مع المصالح الوطنية للشيخ زايد بن خليفة؛ فثبتوا إلى جانبه في تأكيد ملكيته للعديد؛ وقرر قاسم – لهذا – أن يخاطب البريطانيين في هذه المسألة؛ فأخبر المقيم روث في مايو ١٨٨١م/ جمادى الثانية ١٢٩٨هـ بأنه قد قرّر «تعمير قرية العديد ليسكنها بعض أتباعي وذلك بهدف حماية المناطق التابعة لي من هجمات اللصوص والقراصنة برّاً وبحراً، ولذلك فإني أرجو تحذير أهل عمان من القيام بعمليات بحرية ضد رجالنا الذي يرغبون في سكنى العديد. فنحن نعلم سلفاً أن شؤون البحر لله ثم بعد ذلك لكم. وأتعهد من جانبي تحمّل المسؤولية عن كافة الأعمال التي يقوم بها رجالي في العديد».[٣٨]

حاول الشيخ قاسم – في هذه المرة – تحقيق أهدافه في توسيع حدود قطر بالبريطانيين فحرّض إداراتهم في الخليج ضد «أهل عمان» مشيراً بذلك إلى الشيخ زايد

ورجاله. و لم يأبه البريطانيون لهذا الطلب؛ فقد كانوا يدركون مدى التعقيدات التي يمكن أن يتمخض عنها هذا الأمر خاصة في ظل تبعية الشيخ قاسم للعثمانيين، وما قد يجرّه أي اعتراف بتوسيع دائرة الأراضي العثمانية على سواحل الخليج، من زيادة في النفوذ العثماني والنفوذ الدولي الحليف لتلك الدولة العجوز في الخليج الذي يمثل النطاق الأمني للهند. ويضاف إلى ذلك أن البريطانيين قد استوثقوا فيما يتصل بعلاقاتهم مع الشيخ زايد بن خليفة الذي تأكد لهم بشهادة السيد تركي – سلطان عمان – أنه قد تخلى عن العثمانيين، وأن علاقته بمسقط وسلطانها قد ازدادت في الفترة الأخيرة رسوخاً ولكنه – رغم ذلك – قد يعيد حساباته مرّة أخرى إذا أضرّ البريطانيون بمصالحه؛ ولذلك قامت إدارة الخليج البريطانية بإبلاغ الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني بموجب خطابها في ١٩ يوليو ١٨٨١م/ ٢١ شعبان ١٢٩٨هـ «أن الحكومة البريطانية قد وصلت سلفاً إلى قرار يقضي بأن العديد من توابع شيخ أبوظبي، لذا فمن المستحيل علينا أن نسمح لرجالكم بالسكنى فيها، وعليك أن تطرد من ذهنك أي هاجس في هذا الصدد»[٣٩].

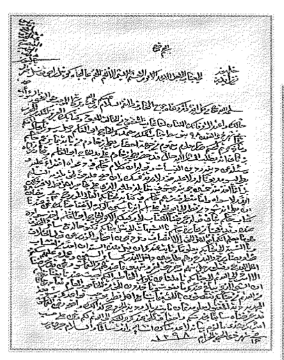
العلاقة بين أبوظبي وقطر

ازدادت العلاقات بين زايد وقاسم تعقيداً بالغارات والغارات المضادة التي تشنها القبائل الموالية لهذا الشيخ أو ذاك برّاً، والتي كانت قد اتخذت طابعاً عنيفاً منذ نهاية عام ١٨٨٠م. فبعد عودة القبيسات إلى أبوظبي كان لقاسم دين على بطي بن خادم تعهد الشيخ زايد بن خليفة أداءه له، بيد أن غارات قاسم على أراضي أبوظبي كان يؤجل أداء هذا الدين إلى حين الاتفاق على حسم استحقاقات قبائل زايد والقبائل الحليفة لها نتيجة الهجوم عليها. وتمكن بنو هاجر وغيرهم من بدو قطر في عام ١٨٨١م من الإغارة على تخوم أبوظبي واستولوا هناك على عدّة أباعر رجعوا بها إلى قطر. وقام زايد من جانبه بالرّد على هذه الغارة.

كان على كل من الشيخين زايد وقاسم أن ينصر القبائل التابعة له أو المتحالفة معه. وكثيراً ما عمل زايد على تدارك هذه المشكلات القبلية دون اللجوء إلى القتال إلا أن قاسماً الذي أدرك أن حرب البحر غير ممكنة لضمان البريطانيين الأمن فيه، راح يسعى بالحرب براً لإخضاع ساحل عمان لسلطته، ثم لسيادة دولة الخلافة. وازداد النزاع بين الدوحة وأبوظبي. وعلى الرغم من أن حكومة الهند البريطانية كانت تخشى أن يؤدّي ظهور قاسم على زايد اجتياحاً عثمانياً إلى أرض عمان إلا أن حكومة لندن طلبت إلى حكومتها في الهند بموجب خطاب وزير الهند في ٢٠ يناير ١٨٨٢م/ ٢٩ صفر ١٢٩٩هـ عدم التدخل في العلاقات بين قاسم آل ثاني وزايد بن خليفة في البر «فنحن لا نتدخل في علاقات شؤون البرّ إلا بالقدر الذي يستوجبه حظر الاعتداءات في البحر». واستشرى النزاع بين الجانبين القطري والظبياني، وتواترت الغارات بين المنطقتين نتيجة هذه السياسة البريطانية التي أعلنت عدم تدخلها في البر صراحة، ونتيجة السياسة العثمانية التي تدعم طموحات شيخ قطر، وعملت السياسة البريطانية بعدئذ على تجريد هذا النزاع من صفته الدولية واعتباره نزاعاً محلّياً صرفاً حينما أنكرت لندن صراحة في مايو ١٨٨٣م تبعية قطر للدولة العثمانية، وأبلغت الآستانة أنها لا تعترف بوجودها في نواحي قطر.

وكان هجوم فرع البوشعر من المناصير في عام ١٨٨٥م على نعيجة في مجاورة الدوحة ورجوعهم من هناك بعدد من الماشية وبعض جواري أقارب الشيخ قاسم مدعاة لهذا الشيخ أن يكتب إلى المقيم البريطاني بأخبار هذا الحادث، وأضاف في رسالته للمقيم أن زايداً لم يؤد له حتى هذه اللحظة دين بطي بن خادم الذي ضمنه. و لم يكتف بالشكوى إنما أتبعها بغزوة على أراضي أبوظبي.

وخاطب الشيخ قاسم في صيف ١٨٨٦م الشيخ زايد بأنه قد تلقى توجيهات من الإدارة العثمانية لتعمير العديد وحذّره من التدخل لعرقلة هذا الأمر السلطاني. وقدم





زايد أيضاً شكوى في هذا الصدد إلى السلطات البريطانية في الخليج التي تحرّت من السلطات العثمانية صحّة هذا الأمر وأنكرت تلك السلطات أيّة صلة لها به.

قطع المقيم البريطاني كافة المراسلات بين شيوخ الإمارات والعثمانيين لتأكيد فكرة المحلّية في النزاع، وحجب تدخل أية قوة إقليمية أو دولية فيه، واستصدر تعهدات حصل عليها من الشيوخ حين زار المنطقة في الفترة من ٩ إلى ١٤ ديسمبر ١٨٨٧م/ ربيع الأول ١٣٠٥هـ أقرّوا فيها بألا يدخلوا في أية مراسلات، وألا يعقدوا أية اتفاقات مع أية حكومة سوى الحكومة البريطانية، وألا يسمحوا بوجود أي وكيل لأية دولة أخرى في أراضيهم. وقد وقّع الشيخ زايد بن خليفة على هذا التعهد، وكل من الشيخ حميد بن عبد الله بن سلطان، شيخ رأس الخيمة، والشيخ صقر بن محمد بن خالد بن سلطان، شيخ الشارقة، والشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان، والشيخ أحمد بن عبد الله شيخ أم القيوين.(٤٠)

ضمنت الحكومة البريطانية باتصالاتها الدبلوماسية مع الآستانة وباتصالاتها مع شيوخ المنطقة إبعاد الدولة العثمانية عن التدخل بين شيخي أبوظبي وقطر، ولم تهتم بتلك الغارات التي تجري براً بين الجانبين؛ فالحرب تنهك هؤلاء وهؤلاء، وهي بعد تؤكد الشقاق في هذه المنطقة التي أرادت لها السياسة البريطانية أن تظل نهباً للخلافات لتعكّر صفو العلاقة بين قاسم وزايد. وراحت الغارات تترى مرّة هنا وأخرى هناك. وأدت إحدى هذه الغارات اللاحقة التي شنّتها قبائل أبوظبي بقيادة خليفة بن زايد على البدع في مايو من نفس العام، إلى قتل أحد أبناء قاسم، وكانت تلك ضربة قاصمة للعلاقات بين الجارتين؛ فقد عمد قاسم إلى شنّ هجوم كاسح على مناطق زايد للثأر، ومهد لحملته بعدة إجراءات؛ فكتب إلى المقيم البريطاني يعدد خسائره في الولد والمال ليحيِّد الإدارة البريطانية في الأمر.(٤١)

كتب قاسم إلى الباب العالي، وإلى متصرف الأحساء محرِّضاً على الشيخ زايد بن خليفة الذي اتهمه بأنه انتهك السيادة العثمانية، وكتب أيضاً إلى المقيم البريطاني يشكو إليه موالاة السياسة البريطانية لزايد بن خليفة، كما أرسل خطاباً إلى عبدالله باشا بن ثنيان بن سعود يطلب إليه أن يكون لسانه وينوب عنه في شرح قضيته لرجال الدولة في الآستانة، وأشار في ذلك الخطاب إلى أنه قد أخلص وأتباعه الولاء للدولة العثمانية: «فقد أطعناها وبذلنا لها الولاء وقمنا بخدمتها دون مقابل، في وقت لم يخدمها الآخرون إلا بمقابل. وتوليت مسؤولية قائم مقام نواحي قطر، وضحيت من أجل ذلك بكل شؤوني الخاصة، ودخلت في خدمة الحكومة السامية، و لم أطلب من الدولة راتباً فقد عملت على خدمتها من منطلق الرابطة الإسلامية...» وبعد أن يشير الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني إلى أن عمان وسكانها تابعون لحكومة نجد، وأنها كانت تؤدّي خراجاً إلى حكومة نجد يفوق مدخولات نجد كلها يقول: إن الدولة العثمانية قد أهملت شؤون عمان: «ولا يخفي عليكم أن زايد بن خليفة أحد ساكني عمان كان أول الذين يدفعون الزكاة لكم ولآل سعود، ولكن حينما انتهت دولة آل سعود و لم تهتم الدولة بشؤون عمان تبع زايد أهواءه التي قادته إلى الاعتقاد بأنه قد أصبح سيداً للخلق، فجمع الأموال وطغى وبغى، و لم يعد للخلق حول يقاومونه به ولا طول إلا بمعونة الله ثم بالدولة العثمانية ...» ويستطرد قاسم في هذا الخطاب بأن البعض قد استجاروا به لعلاقته بالدولة العثمانية ليخرجهم من دوامة سلطة زايد، ولإدخال المناطق التي يعمرونها ضمن سلطة وإدارة نجد. ويشكو قاسم أن السلطة العثمانية لم تناصره ضد زايد الذي «حينما علم بمحاولاتي أضمر لي العداء وأرسل قبائله تغير على أطراف بلادنا ... ولما علم زايد أن الحكومة لا تعمل على معارضته، وأدرك أنه لا شرف لها يدفعها للذبّ عن أراضيها أو الدفع عن رعاياها فكرّ في ضمّ قطر إلى عمان، وأعدّ حملة بقيادة ابنه خليفة وصهره محمد بن سيف... إن ما قام به زايد لن تجرؤ على القيام به دولة كبرى؛ فهذه المدينة تستظل بحماية علم الدولة العثمانية». وانتهى خطاب

قاسم إلى أنه سيقوم «بحملة للقبض على زايد، وعندها سنكون أنا وهو رهن مشيئة الحكومة العلّية».

وتوالت الغارات بين قبائل أبوظبي من جهة وقبائل قطر من جهة أخرى؛ فقد أغار البوشعر من المناصير في فبراير ١٨٨٨م على أطراف الدوحة وعادوا بعدد من الماشية والرقيق. وقام قاسم من جانبه في ٢٠ مارس بالردّ على تلك الغارة وهاجم مناطق متعدّدة في ليوا، ودمّر عدداً من قراها وعاد بالغنائم.[٤٢]

وخاطب قاسم في هذه المناسبة أيضاً محمد بن رشيد، شيخ جبل شمّر، الذي غدا في هذه الفترة مسؤولاً عن حكم نجد، يطلب إليه أن يدعمه ضد زايد، كما خاطب شيخ دبي يطلب إليه «أن يكون مطمئن الخاطر من طرفه ومن طرف دولة الروم»، ويحثّه على التحالف معه. واتصل أيضاً بشيخ البحرين يبلغه أخبار هذه المعركة التي وقعت في الدوحة في ٣٠ مايو ١٨٨٨م/ ١٩ رمضان ١٣٠٥هـ، والتي كانت بقيادة خليفة بن زايد. ويبدو أن قاسماً كان يريد تحييد شيخ البحرين عن التدخل في النزاع وذلك «بحكم صداقتنا معكم».

لم تثمر خطابات الشيخ قاسم* التي أرسلها في هذا الصدد إلى عدد من الشخصيات والحكومات بعد الهجوم الكبير الذي شنّته جماعات زايد على منطقة الخُرّ بالقرب من سوق خارج البدع،[٤٣] ولم تتمخض عن أية إجراءات عملية. ولربما كانت استجابة عبد الله بن ثنيان بإرسال ابنه إبراهيم إلى المنطقة لإصلاح ذات البين بين رجالها هي أبرز نتائج تلك الاتصالات. وكان إبراهيم قد أوفده والده لتقديم العزاء للسيد فيصل وإخوته في وفاة والدهم السلطان تركي، وسافر من مسقط بعدئذ إلى البريمي حيث التقى الشيخ زايداً ثم إلى البحرين والتقى شيخها كذلك، وانتهى به المطاف إلى قطر. ولم يتمكن إبراهيم من إحداث الصلح المنشود؛ لأن قاسماً كان قد صمم على عدم إسقاط هذا الأمر ما لم يدرك مبتغاه. أما ابن رشيد فلم يدعم قاسماً إلا بالوعود والنيّات

الطيبة؛ فقد كتب في أغسطس ١٨٨٨م لأبرز شيوخ بني هاجر يطلب إليهم الثبات لنصرة قاسم: «اليوم صار حالنا وحاله واحدة، وصار بينه وبين زايد ها جرا فيه، فالمستهيب صداقتنا يساعد قاسم على عوده ويفزع له، وحنّا بدورنا متوجهين لتلك الديارات، وكل يجازي على قدر فعله اللي يفعل زين ويساعد قاسم فهو صديق، واللي ما يفزع مع قاسم فلا هو صديق». و لم يتبع محمد بن رشيد وعوده ونياته بعمل جاد لنصرة قاسم وتحقيق طموحاته. فقد كان له من مشكلاته في شمال نجد ما يشغله عن العلاقات المتوترة بين قاسم وزايد. أما اتصال قاسم بالمقيم البريطاني فقد أثمر زيارة المقيم روث إلى الدوحة في ٥ أكتوبر ١٨٨٨م. ويشير تقرير المقيم إلى الشكوى المُرّة التي يكررها قاسم من أنه قد اتصل في موضوع علاقته مع زايد بإدارة الخليج البريطانية مراراً ولكنه لم يجد منها إنصافاً. ويضيف المقيم البريطاني في الخليج أنه قد عمل من جانبه على تهدئة الصراع بين قطر وأبوظبي حتى لا يحمل في طياته مدّاً عثمانياً في اتجاه عمان، وأشار إلى أن دعم الحاميات العثمانية في الدوحة قد يشير إلى تحرك عثماني وشيك في اتجاه عمان. ولعل المقيم يؤكد في خطابه هذا ما كان قد كتبه لحكومته في خطاب سابق بتاريخ ٨ أغسطس ١٨٨٨ من أن القوّة العسكرية التي أرسلها العثمانيون إلى قطر، والوضع القوي الذي آل إليه شيخ جبل شمر، قد عززا الموقف العثماني في الأحساء ما قد يتيح للدولة العثمانية فرصة للتوسع في عمان. وطلب المقيم البريطاني إلى حكومته ضرورة أن تتصل بالآستانة وتبلغ الباب العالي أنها لن تحتمل تدخلاً نجدياً في مناطق عمان[٤٤]. وقام بتحذير الشيوخ المتهادنين من الدخول طرفاً في هذه الأحداث التي تجري بين قطر وأبوظبي ومناصرتهم قاسماً ضد زايد. و لم يثمر اتصال قاسم بشيخ دبي فقد أشار المقيم على الأخير أن يطلب من قاسم «المسامحة بأسلوب مناسب وألا يتدخل في هذا الأمر البتة». ويسترعي الانتباه هنا موقف أحمد بن عبد الله، شيخ أم القيوين، الذي كان شديد الحماس لمؤازرة زايد الذي يعتبره – كما جاء في أحد خطاباته بتاريخ أكتوبر ١٨٨٨ للسيد فيصل بن تركي الذي تولى الحكم

لتوّه بعد وفاة والده - : «درع عمان وحارس بوابتها»[٤٥] والذي يتحتم على سيد عمان أن يدعمه ضد قطر، وأن ينصره على أي تحرك «وهابي» ضد عمان.

ولما لم تغن قاسماً اتصالاته المتعددة شيئاً خطّط للقيام بحملة كبرى على أراضي أبوظبي، وجمع من أجل ذلك حشداً من القبائل الموالية له، وخاض بهم في ٢٦ ديسمبر ١٨٨٨م/ ٢٢ ربيع الثاني ١٣٠٦هـ معركة ضد بني ياس والمناصير في الظفرة وليوا، فقطع النخيل وهدم أكواخ السكان، وهاجم القلعة وتمكن منها. وهرب أهل المنطقة من بدو بني ياس والمناصير إلى الساحل وجلوا إلى منطقة تقع بين الجبيل وأبوظبي، كما هرب عدد من البدو واعتصموا بالجبال الواقعة بالقرب من رأس الخيمة. وغنم قاسم كل ما وجده في تلك المناطق التي دمر كافة قراها. ويفيد خطاب للمقيم في ١٣ يناير ١٨٨٩م أن الشيخ زايد بن خليفة حين بلغه ما أحدثه الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني في تلك المناطق التي كانت مهد قوّة بني ياس وحلفائها أرسل الرسل إلى قبائل البادية من بني قتب، والعوامر والدروع وشيوخ الظواهر والبوشامس وغيرهم، كما أرسل إلى شيخي دبي وأم القيوين، وطلب إلى الجميع أن يحشدوا قواتهم بالقرب من أبوظبي في تعبئة عامة للتقدم لمنازلة الشيخ قاسم. وجهز زايد بن خليفة عدداً من رجاله بالقوارب والذخائر ليخرجوا بحراً إلى السلع لدعم التحرك البرِّي لقواته، ولكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك وألغى الحملة البحرية المزمعة خشية أن يثير تحركه بحراً معارضة الحكومة البريطانية فتنقلب عليه.

ويفيد خطاب آخر أرسله وكيل المقيمية في الشارقة في ١٣ يناير ١٨٨٩م/ ١٠ جمادى الأولى ١٣٠٦هـ أن قاسماً قد قام بمعركته في الظفرة وليوا بتأييّد من عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وابن السبهان، وكيل ابن رشيد على الرياض. ويضيف الوكيل أن المذكورَيْن قد رافقاه في الخروج إلى هذه المناطق، وأن قادة هذه المعركة في الظفرة قد التقوا إبراهيم بن علي، رئيس قبيلة النعيم، وأبلغوه أن ابن رشيد سيرسل

رجاله لمساندة الجهود ضد الشيخ زايد. ويذهب كاتب هذا الخطاب إلى أن شيخ أبوظبي يعتقد أن قاسماً ما كان له أن يصل إلى الظفرة ويقوم بما قام به إلا بمعاضدة ابن رشيد في هذه الحرب وتأييده، وأن الشيخ زايداً يرى في تدخل ابن رشيد شيخ نجد في النزاع تطوراً بالغ الخطر، وأنه لا يزال يتدبر أموره لمواجهة هذا الوضع الطارئ. ويضيف خطاب آخر للوكيل البريطاني في الشارقة بتاريخ ٢٥ يناير ١٨٨٩ أن العديد من عرب البادية قد آثر السلامة على القتال، وتفرّقوا عن معسكر زايد، وأن شيوخ البريمي كانوا وجلين من هذه التحركات العسكرية الضخمة، وأنهم لا يدركون كيف يعملون إذا تحركت ضدهم نجد بقضّها وقضيضها بتأييد من دولة الخلافة، وأن الشيوخ المهادنين قد سألوه عن موقف الحكومة البريطانية من هذه الأحداث فأجابهم بأنها ستلتزم الحياد، وأنها لن تتدخل في الأمر ما اقتصر النزاع بين قاسم وزايد، أما إذا تدخلت في النزاع أطراف أخرى فإن هذا التدخل لن يرضي تلك الحكومة.[٤٦]

وكتب الوكيل في الشارقة إلى المقيم البريطاني مرة أخرى في ٢٧ يناير بتفاصيل أخرى عن المعركة التي خاضها قاسم في الظفرة وعن استيلائه على قلعة بني ياس هناك. ويفيد خطاب آخر من هذا الوكيل إلى المقيم البريطاني بتاريخ ٣١ يناير ١٨٨٩م أن قاسماً قد خرق الهدنة البحرية في حربه ضد زايد باستخدامه مركباً للمدعو ابن عطيش لنقل المؤن والذخائر إلى الكفرية.[٤٧] وحسب رواية ابن عطيش لهذا الوكيل فإن حملة قاسم قد تكونت بالإضافة إلى رجال قبيلته من عدد من القبائل المتحالفة منها النعيم (قطر) برئاسة ناصر بن جبر وراشد بن جبر اللّذين أسهما في الحملة بنحو خمسين فارساً، ومن قبيلة بني هاجر، وعدد من هجانة آل مرّة وبعض فرسانهم، وعدد من فرسان البوعينين وبعض الكوارة. وبعد أن يستقصي الخطاب ذكر القبائل المشاركة تحت لواء قاسم في تلك الحملة وأعداد فرسانها وهجائنها يشير إلى أن قسماً من المزاريع – أتباع الشيخ زايد – وقسماً من المناصير بقيادة حميد بن مانع قد انحازوا لقاسم في حملته التي سوى فيها قلعة بني ياس في المنطقة بالأرض، وأن حميد بن مانع

قد توسط لدى قاسم للعفو عن المناصير الذين كانوا في تلك القلعة، وأن قاسماً قد استجاب لوساطته وأطلق سراحهم.

أدرك قاسم أن حملته ضد قبائل زايد قد فتحت للحرب بين بلديهما باباً لن تستطيع الوساطة سدّه فأخذ يعدّ العدّة لمجابهة الوضع الطارئ بالدبلوماسية وبالإعداد للحرب مرة أخرى. بدأ قاسم بإرسال الرسل بالخطابات إلى شيوخ الشارقة وعجمان وأم القيوين يستعين بهم على زايد. وعبّر الوكيل البريطاني في الشارقة عن رأيه بأن هؤلاء الشيوخ لن يستجيبوا لقاسم ولكنهم في ذات الوقت لن يناصروا زايداً. أما شيخ دبي فقد كان قلباً وقالباً مع زايد، وازداد ثباتاً على موقفه بدعم سيد مسقط فردّ على خطاب قاسم ردّاً قاسياً وجد أيضاً رداً مماثلاً. وأفاد خطاب الوكيل أن شيخ دبي سيتقدم عن طريق البحر إلى خور جنيزة ثم يسير برجاله بعد ذلك برّاً ليلتقي بالشيخ زايد وينسّق معه الخطط والجهود وكذلك مع شيوخ المناصير والمزاريع المؤيدين لزايد، والذين كانوا قد وفدوا من المناطق الغربية واستقروا في مجاورة دبي انتظاراً لخروج الحملة.[٤٨]

ويفيد هذا الخطاب أيضاً أن عبد الرحمن الفيصل وابن سبهان لم يشاركا قاسماً في حملته السابقة، وأنه قد أشاع هذا الأمر لإشاعة الخوف في البادية. ومن الجدير بالذكر أن قاسماً كان قد حقق غرضه من تلك الإشاعة. ويؤكد هذا الخطاب أن الشيخ زايداً وأبناءه وأخاه وكافة أعيان البو فلاح في أبوظبي والبوفلاسة في دبي، قد أبدوا تصميماً تاماً وأظهروا عزماً لا تراجع عنه بضرورة مهاجمة قطر، وعدم الرجوع عنها إلا بعد أن يحققوا أغراضهم فيها. أما من الناحية الأخرى فقد اتسعت جهود قاسم الدبلوماسية وهو يرى هذا الحشد المتعاظم في معسكر زايد فوصلت خطاباته إلى شيوخ القبائل العمانية تتوعّد من يساند زايد بن خليفة منهم بما يمكن أن يحلّ به، ومحذّراً إياهم – في حال عدم مساعدتهم ومساندتهم له – ضرورة أن يلتزموا الحياد وألا يدخلوا في معسكر زايد.[٤٩]

أرسل قاسم مرّة أخرى إلى ابن رشيد شيخ نجد، يطلب إليه أن يمدّه بالسلاح وبالعتاد والرجال. وأشاع أن ابن رشيد سيدعمه بقوّة كبيرة. ويعتقد الوكيل بالشارقة أن قاسماً يقوم بذلك «ليرفع من الروح المعنوية في أوساط رجاله». ولم يهمل الشيخ قاسم جبهة البريطانيين في الخليج التي كان يدرك أنها أقوى الجبهات في المنطقة، كما كان يدرك أيضاً أنها الجبهة الخاسرة تماماً له، ولكنه على أي حال، بذل جهده لتحييدها. كتب قاسم إلى المقيم البريطاني في ٧ فبراير يخبره بعملياته السابقة التي يصفها بالناجحة في ليوا وبأنه قام بها ضد المناصير ومن يناصرهم؛ لأنهم – كما يقول – يقومون بأعمال عدوانية وينهبون المسافرين برّاً وبحراً، وبأنه لا يزال على صداقته مع السلطات البريطانية، محافظاً على الأمن في المناطق التي تحت إدارته.[٥٠] وينتهي خطاب قاسم إلى المقيم بملحق يطلب منه عدم التدخل من قبله أو من قبل رعاياه ووكلائه في عمان فيما سيقوم به من عمل ضد الشيخ زايد بن خليفة. وفي الحقيقة فإن أمر نزاعات البرّ بين الشيوخ واقتتال القبائل والعشائر لم يكن من الأمور التي تعيرها سلطات الحكومة البريطانية أدنى اعتبار ما لم ينعكس أثرها على أمن البحر الذي تقوم عليه اعتبارات الإستراتيجية البريطانية في منطقة الخليج برمّته.

أما على الجبهة الداخلية فقد قام الشيخ قاسم بن ثاني بترميم أسوار البدع، وتشييد أبراج جديدة أعدّ لها حراساً يسهرون على حراستها ليلاً، ووضع خطة ضمنت له التعبئة السريعة لقبائل البادية، وزاد في توثيق العلاقات مع قبيلة النعيم بزواجه بابنة شيخها ناصر بن جبر. ولم تفد قاسماً اتصالاته التي أجراها برجال الدولة العثمانية في الآستانة وولاية البصرة والتي أشار فيها أن تحركات زايد باتجاه قطر التي تعدّ من أراضي الدولة العثمانية، تحط من كرامة الدولة، كما لم تسعفه اتصالاته مع قائد الحملة العثمانية في البدع. وكان هذا القائد يحمّل قاسماً مسؤولية ما آل إليه الوضع؛ إذ يذكر في رسالتين أرسلهما إلى والي البصرة وإلى متصرف الأحساء أن قاسماً قد شنّ هذه الاعتداءات التي دمّرت المنطقة حتى لم يعد باستطاعة الحامية شراء حاجاتها من السوق

المحلي. «فالكل هنا قد هجر حياته العادية وأخذ يقوي الدفاعات، وأصبح هاجس الحرب يسيطر على الجميع». وقد أبلغ قائد الحامية العثمانية الشيخ قاسماً أنه لن يشارك في دفع زايد بن خليفة إذا جاءه محارباً، وسيعمل فقط على حماية مصدر المياه في مدينة البدع.(٥١) وقد أضعف هذا الموقف الذي أعلنه هذا القائد حماسة رجال قاسم للحرب التي تيقّنوا أنهم سيخسرونها في حالة تقاعس الحامية عن الاشتراك في الدفاع عنهم.

ومن الجانب الآخر لقيت دبلوماسية الشيخ زايد بن خليفة قبولاً من الأطراف التي اتصل بها؛ فقد كتب إلى قائد حامية البدع يطلب إليه عدم التدخل في النزاع القائم بين الطرفين، وتعهد له أنه لن يقوم بأية عمليات عسكرية ضد الحامية، ومؤكداً أنه لن يحارب في المنطقة التي فيها الحامية بأي حال من الأحوال، كما وعد - فيما يبدو - ذلك القائد بأنه سيمده بكل الضرورات التي تحتاج إليها الحامية من المناطق المجاورة من البدع من ماء وحطب وقود وغير ذلك. وقد تلقى الشيخ زايد من قائد الحامية رفضاً لهذه العروض مبيّناً أن واجبه يحتم عليه حماية المدينة وسكانها، وأن تقصيره في واجب كهذا يعرّضه للمساءلة(٥٢) ومن الغريب حقاً أننا لا نجد في خطاب هذا القائد ما يدل على تشجيعه لهذا النزاع بين الشيخين، كما لا نجد فيه إشارة للعمل على فضّ الاشتباك بينهما.

بدأ الشيخ زايد بن خليفة الإعداد للمعركة بالخروج إلى السميح حيث التقى هناك الشيخ راشداً، شيخ دبي ورجاله. وأوفدا مبعوثين إلى السيد فيصل - سلطان عمان - وعادا بدعم مالي ووعود بالإمداد بالتموينات والذخائر، كما قدم بنو قتب دعمهم لهذه الحملة بالرجال. ويبدو أن موقف قائد الحامية العثمانية قد قلب خطط زايد لهذه الحرب ووجهتها، كما تبدلت خطط قاسم نتيجة لذلك أيضاً؛ فقد نصح شيوخ النعيم الشيخ قاسماً بأن يترك معسكره الذي أعدّه في مسيمير ليقيمه في مشيرب، قرب البدع، حتى يستطيع في حالة اندحاره أن يلجأ إلى القلعة العثمانية لحمايته. كما قرّر

مجلس الحرب الذي عقده زايد في سبخة من شيوخ القبائل الموالية له عدم مهاجمة معسكر قاسم في مشيرب لمتاخمته للحامية العثمانية. ويضاف إلى هذا أيضاً أن أرض قطر كانت مجدبة في هذا الوقت من العام ولا تفي بالكلأ لسوائم الحملة. وقامت الخطّة الجديدة التي أقرّها هذا المجلس برئاسة الشيخ زايد بن خليفة على تعديل مسار الحملة والعمل على مهاجمة القبائل التي كانت قد ساندت قاسماً في حملته السابقة على أرض المشيخة. وعلى ضوء ذلك تقرّر أن تسير الحملة إلى قارة في الأحساء القريبة من العقير. وهناك تمكن زايد ورجاله من تحقيق انتصار هرب على أثره البدو يحتمون بالحامية العثمانية في القطيف، و لم يلحقهم زايد إلى هناك إذ كان قد قرّر مع حلفائه منذ البداية تحييد القوة العثمانية حتى لا تتدخل في النزاع. وهكذا أجهضت خطة الشيخ قاسم التي كانت تسعى لكي يتورط الشيخ زايد في عمل مباشر ضد الحاميات العثمانية. ورجع زايد إلى أبوظبي من قارة بغنائم كثيرة من الإبل كانت في أعمّها تخصّ أهل قطر كانوا قد تركوها ترعى عند آل مرّة.[٥٣]

علم قاسم بأن زايداً قد بدأ انسحابه من مجاورة قطر، وبلغ السلع في طريقه إلى أبوظبي فاقتفى أثره في عدد من الهجانة والفرسان ولكنه لم يدركه فتراجع ليعد العدة للقاء آخر. وعمد قاسم إلى الأساليب الدبلوماسية التي كان غالباً ما يمهد لها لقيامه بأي عمل عسكري ضد أبوظبي؛ فأبرق إلى شعبان باشا والي البصرة شاكياً ما قام به الشيخ زايد بن خليفة، واتصل شعبان في هذا الشأن بالآستانة التي فوضت إليه النظر في أمر الشكوى. وقبل أن يصل شعبان إلى قرار في هذا الصدد، عزلته الدولة وعيّنت آخر بدلاً منه.[٥٤] وانتهى أمر شكوى قاسم ضد زايد بأن كتب عاكف باشا – متصرف الأحساء– خطاباً إلى الشيخ زايد بن خليفة يهدده فيه بأنه سيرد فوراً على أية حركة حربية يقوم بها مستقبلاً في نواحي قطر التي هي مقاطعة عثمانية. وحين وصل خطاب عاكف إلى قاسم لإرساله إلى زايد أعاده قاسم إلى عاكف مع مرفق جاء فيه أنه في تعامله

مع زايد لا يسعى للحصول على خطابات، فهو ليس في حاجة إليها، بالإضافة إلى أنه «يدرك كيف يتعامل مع زايد».[٥٥]

أما زايد بن خليفة فقد تركزت دبلوماسيته في عدم معاداة السلطات العثمانية التي لها حاميات بالقرب من أراضيه، كما تركزت في محاولة كسب القوة البريطانية في المنطقة إلى جانبه؛ فقد كان لهذه القوّة من هيمنة أسطولية في البحر تعجز الدولة العثمانية عن تحديها. كان زايد أكثر إدراكاً لحقيقة الوضع الدولي في الخليج؛ فحاول جرّ الإدارة البريطانية في الخليج إلى جانبه طرفاً في النزاع ضد قاسم، وتمكن من القيام بذلك. كتب زايد إلى المقيم البريطاني بوساطة وكيل الشارقة في ١٣ يناير ١٨٨٩ يشكو أن قاسماً قد اعتدى على أرضه بإرساله عدداً من الرجال المسلحين وكميّة من الذخائر بحراً إلى السلع العائدة إلى ملكية أبوظبي.[٥٦] وأرسل مرّة أخرى في ٢٣ يناير إلى المقيم البريطاني يتهم قاسماً بأنه أرسل عدداً من القوارب إلى خليج الكفرية التابع لأبوظبي، وأنه قد انتهك بذلك أرض المشيخة التي دأبت على احترام التعهدات التهادنية، والتي باتت حريصة على عدم إثارة الاضطرابات في البحر. وقام الوكيل البريطاني بالتحقيق مع بعض ملاّك المراكب البحرية ناقلي رجال قاسم وتمويناته إلى تلك المناطق وتأكد له صحّة الاتهام بشهادات أولئك الناقلين، وتحرّى بعدئذ وكيل مقيمية البحرين البريطانية الشكوى التي أجاب عليها قاسم مؤكداً أن تحركاته كانت بريّة، وأنها لم تخرج عن دائرة المناطق التابعة له. وجاء في خطاب قاسم للمقيم بتاريخ ١٧ أبريل: «إن سبخة هي المنطقة التي تفصل قطر عن الظاهرة، ولذلك فإن كل المناطق التي تلي سبخة في اتجاه قطر تدخل في حدود قطر».[٥٧] «وأجد أن من واجبي العمل – حتى باستخدام الوسائل المسلحة – لردع أي تدخل في سلع والمناطق الأخرى التابعة لي»، وطلب إلى المقيم البريطاني أن يكون حَكَماً عدْلاً، وأن يسأل العُدول من الذين يعرفون حقائق الأمور، «وستجد أنه لن يستقيم عقلاً قول بعضهم: إن من يسكن سلع هو من سكان الظاهرة، وأن زايداً هو الذي غزا أرضي، وقتل أهلي».

وأشار قاسم – في عرضه للمشكلة – إلى أنها تكمن في قيام بدو الظاهرة بجرائم في حقّ أهل المناطق التابعة له في قطر، وأنه كان قد اتصل سابقاً بزايد بن خليفة في هذا الشأن يطلب إليه معالجة هذا الأمر، وأن زايداً قد كتب إليه «ليتولى معالجة الأمر بنفسه».

في الحقيقة لم يكن من الممكن للمقيم البريطاني أن يقبل ما ورد في خطاب قاسم، فقد سبق للإدارة البريطانية أن اعترفت بأن العديد من أملاك شيخ أبوظبي. ولما كانت السلع وراء العديد «بمسيرة يوم كامل»، في اتجاه أبوظبي فكيف يمكن أن تكون هذه المنطقة تابعة لقاسم؟ ويستطرد المقيم البريطاني في تفنيده حجج قاسم فيورد عدة تساؤلات منها:«إذا كانت السلع تابعة فعلاً للشيخ قاسم، فلماذا ينكر أنه بعث بالقوارب إلى تلك المنطقة؟»

عملت السياسة البريطانية أخيراً إلى دفع السلطات العثمانية للتدخل بالصلح بين الجانبين الظبياني والقطري حتى لا ينفرط عقد «الأمن» في البحر بعد أن بلغ ذروة التوتر في البرّ. كتب والي البصرة في نهاية عام ١٨٨٩م إلى زايد مذكِّراً بالروابط الإسلامية، ومحذِّراً من استشراء الخلاف بين المسلمين، وداعياً إلى ضرورة الجنوح للسلم، فالصلح خير. وقد أجاب الشيخ زايد بن خليفة عليه بأن ما يقوم به من عمل ضد قاسم لا يعدّ اعتداء؛ فهو لم يزد عن قيامه بالدفاع عن أرضه وقبائله.[٥٨]

لم يفتر قاسم، رغم كل محاولاته غير المجدية لفرض سلطانه على منطقة العديد، ولربما كان وراء القرار العثماني الصادر في عام ١٨٩٠م بتعمير العديد مرّة أخرى؛ فهو قرار طالما تمناه ذلك الشيخ وسعى للظفر به وتحقيق فحواه، ولكنه رفض الفقرة الثانية من القرار الخاصة بتعيين مدير عثماني لهذه الناحية، وسعى إلى الالتفاف عليه ما أدخله في دائرة غضب الإدارة العثمانية، وهو الداخل أصلاً في عدم رضى الإدارة البريطانية التي قاومت القرار العثماني الخاص بالعديد.

كتب المقيم البريطاني في الخليج عندما عرف بفحوى القرار العثماني الخاص بالعديد إلى حكومته في الهند يطلب إليها ضرورة الإسراع في الاتصال بالآستانة لإلغاء هذا القرار؛ لأن بقاء العديد ضمن مشيخة زايد بن خليفة ضرورة أساسية للنفوذ البريطاني في تلك الإمارة؛ فقد أصبح الشيخ زايد بن خليفة – في هذا الوقت – أقوى شيوخ الخليج. ورأى المقيم البريطاني أن معاداة زايد سيقلل من هذا النفوذ، وأن استيلاء العثمانيين على العديد سيفتح للعثمانيين باباً ربما يقودهم إلى أرض الإمارات المتصالحة، وإلى عمان أيضاً.

وخاطبت لندن الآستانة بشأن العديد؛ إذ نقل السفير البريطاني في الآستانة رسالة عاجلة إلى وزارة الخارجية العثمانية لاتخاذ إجراء عاجل بعدم إدراج العديد ضمن السيادة العثمانية، فهي منطقة تابعة لأبوظبي. ومن الطريف أن الآستانة اتخذت موقفاً حازماً هذه المرّة وراحت تؤكد أن العديد هي من المناطق التي تقع تحت الإدارة العثمانية، وأنها ستمضي قدماً في إجراءات إقامة مركز عثماني في تلك المنطقة. وعلى الرغم من هذا الإصرار فإنها لم تتبع قولها بالعمل.

عمل قاسم من جانبه على تنفيذ قرار إلحاق العديد بالإدارة العثمانية، كما عمل في ذات الوقت – كما سبق أن ألمحنا – على الالتفاف حول البند الثاني من القرار، ورفض تعيّين مدير عثماني للمنطقة من خارجها، وعمل على استبدال أحد أبنائه به. وكان هذا التناقض بين الآستانة والدوحة من الأسباب التي قادت إلى فشل المخطط.

وردت في فبراير ١٨٩١م أخبار من وكالة البحرين بحدوث خلاف كبير بين الشيخ قاسم والسلطات العثمانية؛ فقد طلب قاسم إلى جماعة القبيسات الذين كانوا قد استقرّوا في فترات سابقة في وكرة، وعددهم نحو أربعين أسرة – العودة إلى العديد لإعادة إعمارها. واستجابت هذه الجماعة التي عاهدها قاسم بأن يكون معها يداً واحدة في الخير والشر، ولكنها اشترطت عليه أن يعيّن أحد أبنائه شيخاً على المنطقة، وألا يكل أمرهم إلى موظف عثماني.

توالت في هذه الفترة الخلافات بين الشيخ قاسم – قائم مقام قطر – وبين والي البصرة حول مسائل إدارية وجمركية، إضافة إلى خلافات أخرى حول مسائل خاصة بالبدع. وكان رفض قاسم تعيّين ضابط عثماني لإدارة العديد في مقدمة هذه الخلافات. وقرر بعد فشله في إقناع الإدارة العثمانية بوجهة نظره أن يقدم استقالته من منصبه قائم مقاماً مسؤولاً عن نواحي قطر؛ فاتصل بالمقيم البريطاني في بوشهر يطلب إليه إدراجه في سلك الشيوخ المتهادنين، والعمل على إسباغ الحماية البريطانية على قطر. وربما لا يهمنا هنا تطور العلاقة بين قاسم وأي من السلطتين البريطانية أو العثمانية في الخليج إلا في الإشارة إلى أن هذا النزاع القطري العثماني أوقف حملات قاسم على قبائل أبوظبي في الفترة ١٨٩٠ – أوائل ١٨٩١م، تلك الحملات التي كان بعضها قد وصل إلى تخوم أبوظبي. وكان الشيخ زايد بن خليفة يرد على تلك الحملات بالمثل، ولكنه كان دائماً يتجنب أن تمتدّ الغارات التي يقوم بها والقبائل المتحالفة معه إلى منطقة البدع حتى لا يدخله ذلك في عداء مباشر مع الحامية العثمانية. وحين سئم الشيخ قاسم آل ثاني من بلادة العثمانيين، ويئس من التعامل مع عنجهية البريطانيين اتجه في عام ١٨٩٣م إلى طريق آخر؛ فكتب مباشرة للشيخ زايد بن خليفة يطلب إليه أن يطوي صفحة الخلاف، وأن يقطعه أرضاً يستقرّ فيها بعد أن ترك منصبه قائم مقاماً للعثمانيين في قطر، مشيراً بذلك إلى العديد – فيما نعتقد. وسارت الأمور بسياسة قطر بعدئذ إلى وجهة أخرى قبل أن يرد زايد على هذا الطلب سلباً أو إيجاباً. وانتهى إثر هذه الفترة كل خلاف بين الزعيمين، ولم تعرف الفترة التالية إلا بعض الحوادث الصغيرة التي عادة ما تنشأ من احتكاك قبائل البدو بعضهم ببعض، أما مشكلة العديد فقد دخلت بعدئذ إلى كواليس الدبلوماسية البريطانية العثمانية. وأحدثت تحركات العثمانيين في تلك المنطقة في الفترة من عام ١٩٠٢م إلى ١٩١٣م احتجاجات مضادة انتهت بالاتفاقية التي عقدت في عام ١٩١٣م بين القوّتين والتي سوّت مشكلة الحدود بين مناطق نفوذهما في منطقة الخليج العربي بصفة شاملة.[٥٩]

From Zaeed bin Khaleefah
To the Pol: Resident
Bushire
Dated [illegible] April [illegible]

A.C. Perhaps you are not unaware of the doings of Jasim bin Ali bin Thani in the month of Rajab 1305. He got ready a dhow and placed in it armed men, ammunition and provisions and ordered them to be conveyed by sea, to [illegible] by sea, where [illegible] frontier of our territory in that direction. There they landed, and Jasim received them here by land and he [illegible] all these [illegible] tribesmen at [illegible] and carried away all their property, leaving them nothing. He considered himself [illegible] by sea, in accordance [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الى جناب [illegible] الجناب عالي الجناب الاجل الاكرم الافخم عالي جاه كرنل [illegible]

[illegible] السؤال عن صحة حالك [illegible]

[illegible] لا يخفى عليك بحوادث الذي جرت من جاسم بن ثاني في شهر رجب سنة ١٣٠٥ قد جهز [illegible]

[illegible] من طريق البحر [illegible] لنا [illegible]

[illegible] من طريق البر [illegible]

[illegible] من طريق البحر [illegible] الجناب [illegible]

[illegible] من جناب الدولة البهية [illegible]

[illegible] هذا الحال [illegible]

[illegible] شعبان ١٣٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من قاسم بن محمد إلى الجناب صاحب كرنل راس باليوز وقونسل جنرال الدولة البهية القيصرية في خليج فارس

ام ملحوظا بعد إهداء وافر التحية والتسليم انه قد تقرر انكم وضعتم حمايتكم على البحر لكون جنابكم

مارعى ميل مع احد دون احد هذا الشيخ زايد عنده جملة بادية للنواصر والزعاب ومنهم في بلدان

جماعة وكل سنة ينهبون في البر مبالغ فاذا بلغكم ذلك عن المشار إليه هؤلاء بدو وقتنا فلتم عنه وهم رجا

بيله وتحت يده وفي هذه السنة غزاهم وغاروا على الغنم البلدين وصول مجهرنا فلن اش وشاهد ذلك

نسب ونهبوا جملة منها العرب الاحرار واستملكوهم ورفعنا قلنا لعلنا نلحقهم نفكك هؤلاء الاحرار

هم وصار لحوقنا لقدر صفت ابيات بادية منهم ولحقنا الذين وجدنا عندهم لنا شيئا الذي قد نهبوه منا

ذي ماهرب لنا ارجعناه اليهم و[illegible] ٨ [illegible] فقط جمع الشيخ زايد لي غزو [illegible] عيالي وباقيهم وغيب على

[illegible] البدو الذين اليهم رائسهم ولد عليهم وولد اخيه ذياب ومحمد بن سيف وصبحو البلاد

في طلوع الفجر ورزع عليهم بعض اهل الدين في الظلام وهم مستخفين لهم وذبح الذين فزعوا عليهم في

ط الدين وقتل منهم جملة ناس و[illegible] واستعبدوهم وهم احرار وقسم [illegible] الولد [illegible] بينهما [illegible]

[illegible] وتملوا في [illegible] والبحر مدة ما هم يجمعون الغزو وخذوا جميع ما فيه من السفن مقدار عشر سفين

محجوزهم ونهبوا منهم الذين ينهبون صلى لهم سفن لطارد في البحر كلهم زاروه اخذوه ولا علم

هذه رخصة من جنابكم عام ام خاصة للشيخ زايد لاجل الافادة عن ذلك ودمتم

بوفقتي والسلام [illegible] رمضان [illegible]

حوفي نمرة [illegible]

جـ تاريخ صفر ٦ - ١٣٠
١٩
مطابق جـ اكتوبر ١٨٨٨
٢٥

الجناب عالي الجاه الاجل الافخم الكولونل وقونل جنرال الدولة البهية القيصرية في خليج فارس المعظم

بعد السلام ولا يخفى سعادتكم لينا ان بتاريخه وصلت خطوط من جاسم بن ثاني [illegible]

الى العزيز عبد الرحمن بن عيسان ومحمد الذكير والى اهالي يبشرهم فيها برجوعه من غزوه الاولى

والثانية في داخله الحساء وانه اخذ وخيل كثير من بني الهاجري قبل ان يحل بينهم اهل

الحساء وذلك نحو ستماية ثمانماية من الركاب وخيل [illegible] وغيره وذبحوا نحو عشرين انفار

واحرق [illegible] بيوت وحلف في كتابه ان هذا الكلام صحيح سمعه من سيف الهاجري

الرئيس الاول في غزوه ويخبرون ان الغزو المذكور الذي كان نحو مايه تقريبا

خيال وركاب وقيل انه [illegible] هذا الآن يذكرون ان جاسم ابن يجمع العربان ويريد

لهم الدراهم والارزاق وغيره وهو متوقف بحال الخاطر عن الشي من الناس يقول سوف

يجيء القوم [illegible] ثاني ونحن لنا [illegible] يقول انه منتظر [illegible] وسيمشي هو بنفسه

مع كافة اهل قطر وان جاسم اعطا خبر لاهل قطر كافة ان كلهم ياخذ لوازمهم

على كل حال [illegible] وانهم [illegible] ويخبرنا ربيعه من محمد بتاريخه وصل من فوير [illegible]

سبع [illegible] نحو اثنا عشر ثلاثة عشر بيت من آل بوكواره ساكنا للكتبية

الجاسم حسب ارادته [illegible] ويقول ربيعه هؤلاء

الذين يخليهم للغوص وان كل آل بوكواره يتحولون الى الكتبية الى الآن اذا

يصير منه [illegible] لهم ام [illegible] ان يمشي على عمان سوف ياتوه كل عربان قطر

واما العمان يقول كلهم سيجيء [illegible] وايضا [illegible]

ان جاسم [illegible] من جميع البوكواره [illegible] ابو ظبي [illegible]

يتحول سوف [illegible] ان كل اهل قطر سوف يمشون

معه [illegible] الذي ما يكلمون [illegible] من حالهم ولوازمهم

[illegible] هذا ما لزم عرضه ودمتم سالمين والسلام [illegible]

أبوظبي، القوة الكبرى في الظهير العماني

لم يعد للشيخ زايد بن خليفة منذ بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر من منافس في منطقة الإمارات التي بذل جهوده لضمّ أطراف بعضها إلى بعض، وسعى للعمل على تنميتها وتعميرها، خاصة تلك المناطق التي كانت تحت سلطته المباشرة. وقد اعتمد سياسة حكيمة لتنفيذ أهدافه اعتمدت على عدة أسس: الأساس الأول هو ابتداعه سياسة التوازن النشيط في علاقاته مع البريطانيين والعثمانيين كليهما؛ فلم يسمح لتعارض السياسات الدولية بينهما من التأثير سلباً في مجريات سياسته، و لم يعتمد على أي منهما ضد الآخر، وراح يمد يده للبريطانيين في البحر لتحقيق المصالح المشتركة الطارئة، ويمدّ الأخرى بالسلام للعثمانيين؛ فلم يعمد إلى مهاجمة حامياتهم على أطراف إمارته، أو يعاديها، أما عمان فقد كان الثبات على علاقته التحالفية مع مسقط أهم تلك الأسس؛ فلم يعمد إلى إثارة الخلاف مع حاكم مسقط وإن تعمد الأخير – غيرة من تزايد قوّة زايد في المنطقة وثبات أمره فيها – أن يخرج على هذا التحالف؛ فقد أدرك زايد أن اتصال أرض إماراته بالأرض العمانية اتصال غير منفصم، وأن اتصال قبائل المنطقتين مسيراً ومصيراً أمر لامراء فيه، كما أدرك أن مسقط هي حجر الزاوية في إستراتيجية الخليج البريطانية، وأن سلامة الأراضي الساحلية التي تحكمها مسقط أمر تضمنه الإمبراطورية البريطانية بواسطة قوّتها الأسطولية في الخليج، ولذلك حرص على استرضاء حاكم مسقط تقديراً للعلاقات الأزلية والتاريخية، ومراعاة منه لمعطيات المرحلة التاريخية، على الرغم من أنه كان في هذه الفترة من منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر – كما جاء في تقرير مايلز – الشيخ الوحيد الذي يتمتع بالسلطة الحقيقية في الظهير العماني [٦٠]. وقد تنامت هذه السيطرة وترسخت مع الزمن حتى إننا نجد – في تقدير آخر للمقيم كوكس – نفوذ زايد في الظاهرة في عام ١٩٠٢م كان يفوق نفوذ سلطان عمان. [٦١] وكان زايد كثير التردد على عمان لتوثيق علاقته الشخصية مع إمامها، ولتسوية أية خلافات طارئة قد تعكر

صفوّ تلك العلاقات، وكان يوفد بعض أبنائه أحياناً إلى مسقط، وتمتد إقامته هناك فترات طويلة.

سرت في ١٨٨٦م إشاعة في أوساط القبائل العمانية بأن الشيخ زايد بن خليفة ينوي الإغارة على الباطنة للاستيلاء عليها وذلك حسبما ورد في خطاب للوكيل «الوطني البريطاني» بتاريخ ١٥ مايو ١٨٨٦م من أن زايد قد توسط لمعالجة الخصام بين تركي وأخيه عبدالعزيز وأنه أكثر انحيازاً للأخير؛ فسارع زايد بالاتصال بالسيد تركي - سلطان عمان - يدحض هذه الإشاعة ويؤكد له أنه لا يزال مقيماً على صداقته التي «لن يفسدها كيد الكائدين» الذين يرون فيما يقوم به من تدخل بالوساطة بينه وبين أخيه عبدالعزيز انتقاصاً من سيادة تركي على المنطقة في حين أنه - في حقيقة الأمر - يعمل على تثبيتها.[٦٢] وحين خرج الظواهر في البريمي عام ١٨٨٧م، وأعلنوا الحرب على بني ياس وشيخهم في أبوظبي شجّع السيد تركي هذا التمرد وأمدّه بالمال والذخيرة؛ إذ لم يكن ليطمئن إلى ازدياد سلطة زايد وسلطانه في المنطقة. أخمد زايد تلك الثورة وأعاد المنطقة إلى الولاء الذي وثقه بعدئذ بالتصالح وبزواج ابنه بحفيدة شيخ الظواهر ثم بتعيِّين أحمد بن هلال الظاهري بعدئذٍ لإدارة شؤون البريمي، وأكد للسلطان العماني أن الخلافات العابرة لن تنال من أواصر الصداقة الباقية. وحين توفي السيد تركي سارع زايد بالسفر إلى مسقط لتقديم العزاء وللتعبير عن استمرار العلاقة الوطيدة مع ابنه فيصل، وعمل بعدئذٍ بصدق للحفاظ عليها. ودخل فيصل مع زايد في علاقة تعاهد أقرّ بموجبها أن يدفع لزايد فريضة سنوية مقطوعة من المال لاضطلاعه بحماية حدود عمان الداخلية.

وعلى هذه الوتيرة من الصدق وإخلاص النيّة ارتكزت سياسة زايد أيضاً تجاه دبي تقديراً لموقف شيوخ البوفلاسة الذين ثبتوا على عهده في كافة المشكلات التي واجهها. فالبوفلاسة هم من بني ياس، وهم أهل رحم، وامتداد قديم للسياسات

٨٢

سواد كتاب وكيل [illegible]

سنة ١٠ شعبان ١٣٠٣ — ١٥ مي ١٨٨٦

المعروض بخدمتكم اولاً الاحوال [illegible] بأن لما توجهنا مع الشيخ زايد في دبي ذكر لنا بأن قبل

هذا الحين بايام [illegible] كتاب عن السيد عبدالعزيز بن سعيد وذا الكتاب [illegible] الشيخ [illegible] ان يقوموا باعانة

جناب السيد تركي بن سعيد ونفسه سوف يلقي عنده جميعه ويصل صوب الباطنة [illegible]

يهجمون ويتعشون في اطراف جناب السلطان المعظم اليه حيث انه ما بقي له [illegible]

عنده قوت كذلك طروش [illegible] يترددون بكتب ان يتحدون مع السيد عبدالعزيز

فبعد عرض الشيخ زايد انما [illegible] من باب المصلحة والصداقة عرف جناب السيد تركي بن سعيد

على باب المحبة تشفق عليه [illegible] بن عمر الشيخ زايد بأن [illegible] جناب السلطان

الذي [illegible] بلفظ [illegible] فيكون جنابه ما [illegible] اعتراض في هذا الشأن والشيخ زايد يقول

ما عرض في هذا الشأن الا من باب [illegible] المودة والصداقة مع جناب السلطان هذا [illegible]

وحرر

الهنائية. و لم يحدث لشيوخ آل مكتوم في دبي أن تحالفوا مع أي من الشيوخ الآخرين ضد زايد. وكان زايد إذا رأى من بعض هؤلاء الشيوخ تقاعساً عن نصرته – خاصة في مشكلاته مع قطر – استعان عليهم بأئمّة شيوخ المؤسسة الهناوية. وقد أثبتت تلك الوساطات نجاحها. وكانت سلطات الهند البريطانية في الخليج تخشى اجتماع كلمة هذين الشيخين وتحاول دائماً باستعراض قوى «المناور»* Man of War أن تفرق بينهما. هذا بالرغم من أن شيخ دبي كان يستغل قوة علاقته مع زايد في الوساطات لإحداث السلم بين حكام المشيخات الأصغر من أمثال أم القيوين وعجمان على سبيل المثال، كما ظل هذا الشيخ أبداً إلى جانب زايد في محاولاته الدائبة لرفع لواء السلم في المنطقة وإقامة أطيب العلاقات مع شيوخ القواسم.

كان إرساء العدل في التعامل مع سكان البادية وضبط الأمن في تلك المناطق قاعدة ثابتة من مرتكزات زايد بن خليفة الذي كان رجل دولة بحق لا يعمد إلى الانتقام من الخارجين عليه بل يستأنس بهم حين يتمكن منهم، يرد الشيوخ الخارجين عليه بالقوّة أو التلويح باستخدامها، ولكنه كان حين ينتصر عليهم بالسيف أو بالكلمة يحسن إليهم، ويضعهم في مراتب الرئاسة والحكم، ويتزوج فيهم أو يزوج بعض أبنائه إليهم. وكان لهذا الزواج السياسي الموروث عن تقاليد الحكم العربية القديمة أثره في تثبيت سلطة زايد واستتباب أمنه في البادية وفي الحضر؛ فحين رجع شيوخ القبيسات إلى أبوظبي بعد خروجهم منها زاد لهم زايد في سلطتهم السابقة، ثم ما لبث ابنه سلطان أن تزوج بسلامة بنت بطي ابنة ذلك الشيخ الذي كان قد خرج عليه. وكان لهذه السيدة أثرها في تعليم أبنائها بعدئذ – بمن فيهم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – معاني التسامح والمؤازرة ونبذ الشقاق. وحين أخمد ثورة الظواهر وردّهم إلى الطاعة في عام ١٨٨٧م، زوج أحد أبنائه بإحدى حفيدات شيخ الظواهر كما أسلفنا القول، وعيّن أحمد بن محمد بن هلال الظاهري ممثلاً معتمداً له لإدارة شؤون البريمي منذ ١٨٩٦م. وقد ظل ابن هلال يشغل هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٣٦م. و لم يعمد زايد إلى الإطاحة بالسلطة الإدارية لذلك الشيخ أو لغيره من الشيوخ المسؤولين بالإنابة

العلاقة بين إمارات المنطقة وتدخل «الوكلاء المحليين» لبريطانيا فيها للحيلولة دون اجتماع الكلمة
(أوائل عام ١٨٨٧م)

P/163

S.N 81

في ٣ ٨ ... ٨٧

في كمال الاحترام اعرض محبتكم لاجل اطلاعكم بان وصلنا تعريف من حاكم
ابوظبي بانه سوف يصل الى دبي في هذه الايام ومراده ملاقاتنا هناك
وعلى ما نرى من حركات مشايخ عمان اقترب للقاء ذكر امنية البحر
ونحنا واجهنا حاكم دبي وغيرهم وحذرناهم وأمرناهم عليهم في بقاء
السلم وامنية البحر كما كان وعطيناهم اطمينان ولكن قلوبهم غير
لسانهم والى الان ما بان لنا حقيقة ارتكاب وانهم بان ايش ينتج
من هذا اجتماعهم فلهذا استوجب علينا ان نعرض بخدمتكم قبل صدور
الاقدامات منهم فان جنابكم ترون المصلحة بارسال نفر من كبار ولو لبروز
هذا الساحل احيانا ليرون بيرق الدولة القيصرية لينصرف عنهم تلك
الخيالات وكذا اجيف الذي استشاع في هذا الساحل وبعض المواجهة
جناب قنصلية اباهم وذلك لاطمينان خواطرهم
ومن جهة وقفت سفر الوهاب الى نجد من طرفنا اولا من سبب اضداد
الهوى والسابب غير فلهذا نحنا ارسلنا شبه مخصوصة لاجل نخبر بعد رجوعنا
الى نجد والرأي عند جنابكم هذا والسلام صحيح

SN/102 P/174

٢٢ فبراير ٨٨

See P/183 for translation

الجناب حضرة شوكة والجلال الأجل الأمجد فخر عالي الجاه باليوز وقونسل جنرال الدولة البهية القيصرية فخامة دام علاه

بعد السلام ——— بالنسبة بعد ما بنا المستر الوي ١٤ فبروري ٨٨ من جهة حاكم الشارقة وأم القيوين

بعد شوفتهم أحطنا على إرادتهم أن يطلبوا عليهم أو على أملاكهم أمان دولة إيران فهلا حصلوا

من منافع من دولة البهية القيصرية حد المقدمة بقاء موقفهم ظاهراً على نهج الصلح وانحلوا

على هذا حاكم أم القيوين عنده مكن هذه دفع من دافع قديم ... ما لم ... فكلفته الذي انعم إلى

سلطان قديم ... عازم أن ينصبهم ... الحجران ... من أراد ...

ومشورة أخرى تناظروا هولاء الحكام المذكورين على جهة عجمان حيث حاكم عجمان يعمل في مواد

الحقوق على الشارقة وحاكم أم القيوين ... القوانين في ذلك ومن حيث حاكم دبي حليفهم في حليف

عجمان بأنهم يخصون منا إنما أصلح بينهم ومنحنا على باب المصلحة وتحصيله في هذا الرأي لما أنه

انصاههم بأن السلم والإجماع أنفع من حربيات وزوال الحال والمال ولما رأينا من باب الحصافة من حاكم

دبي بالصلح بينهم وبين القبائل جوابهم حاكم دبي لنا هو ما ينصح القبائل ويبعد ... يكون

أن ما أفاد بأي فهم بعد من بينهم هذا الكلام ... ودم ... صح ...

عنه في تلك المناطق. وحين اجتاح الشيخ زايد في أبريل ١٨٩١م قرية العين بموازرة شيخ دبي ومساندته وتمكن من الاستيلاء عليها من ابن عرار، وعقد بعد ذلك صلحاً مع البوخريبان من نعيم البريمي تزوج بابنة الشيخ النعيمي الذي كان يسيطر على قلاع تلك الواحة. وكان لهذه العلاقة الطيبة كما كانت للمعاملة الكريمة لقبيلة النعيم أثرها في جذب قبيلتيّ بني قتب وبني كعب اللتين كانتا في حلف القواسم للدخول في حلف زايد بن خليفة وموالاته. وكان زايد يعمل دائماً على استجلاب قلوب شيوخ البادية بالكرم وحسن الرفادة، وقد تميّزت علاقاته مع النعيم والدروع – القبيلتين اللتين كانتا تسيطران على المنطقة في سفوح جبال عمان – بالسماحة والكرم ما كان له أثر في توطيد الأمن في تلك الأرجاء.

الشيخ زايد بن خليفة في مجلسه أمام قصره

كان الشيخ زايد بن خليفة أسبق شيوخ الإمارات تطلعاً إلى الاتحاد السياسي الشامل بين إمارات الساحل، وقد حاول إنجازه بكافة السبل الممكنة، وكان يدرك أنه أقوى شيوخ الإمارات سلطة وأوفرهم مالاً، وأعزهم نفراً، وأكثرهم كراعاً، وكان عليه بصفته هذه أن يعمل على جمع أولئك الشيوخ في بوتقة واحدة للتشاور والجلوس معاً لتدبّر أمور البوادي التي يعود استتباب الأمن فيها وتنظيم شؤونها بالفائدة على جميع الشيوخ وأهلهم ورعاياهم، ولكن قد تتعارض مقتضيات قيام الاتحاد الشامل مع بعض التقاليد القبلية والموروثات التاريخية في البادية أحياناً. وبرز زايد كأحد أسبق الشيوخ الخارجين على تقاليد البادية في التفرق والتحزّب، والعاملين لتأكيد أعرافها في النصرة والإيثار «والدخالة» وفيض الكرم ونصرة المظلوم. وقد برهن بهذه السياسة على أنه حضري الفكر والمفاهيم، بدوي الأصالة والأعراف.

استنفر بنو قتب في عام ١٨٩٥م شيخي أبوظبي ودبي على الهجمات التي شنّتها

عليهم قبائل المناصير وآل مرّة وأنزلت بهم خسائر فادحة، وهب الشيخان زايد بن خليفة شيخ أبوظبي، ومكتوم بن حشر شيخ دبي، لرد هذا الاعتداء دونما اعتبار كبير لتحالف المناصير مع بني ياس؛ ففي الخروج على سياسة العدل للجميع التي انتهجها زايد خروج على التحالف الرشيد. أما التحالف الأعمى الذي تعتدّ به البادية فلم يكن له لتأثير في سياسات الشيخ زايد. قدّم الشيخان زايد ومكتوم الحماية لبني قتب الذين كانوا استقرّوا منذ عام ١٨٩٥م تحت حماية زايد في منطقة الزوراء وهي شريط رملي يمتد في محاذاة المنطقة الواقعة بين الحمرية وعجمان. وكانت هذه الجزيرة تتصل بالبرّ عبر معبرين يؤديان إلى الساحل، وكان موقعها منه أشبه بموقع جزيرة أبوظبي من ساحلها. ولما كانت الزوراء منطقة ساحلية أو قريبة من الساحل كان على حاكم أبوظبي أن يستصدر إذناً من المقيم البريطاني بعدم منع السلطات البريطانية من تحريك قواربه بحراً بالإمدادات لحماية قبائله، وقد سمح له المقيم بذلك. وما لبث زايد أن رأى في تلك المنطقة منتجعاً طيباً لسوائمه وسوائم حلفائه، وملاذاً آمناً يفصل البحر غير العميق بينه وبين اليابسة من أرض القواسم؛ فعمل على ضمّ ذلك الموقع إلى سلطة أبوظبي. هذا بالإضافة إلى ما كان يدركه زايد من أن التحرك من الزوراء إلى ظهير إمارة أبوظبي عبر أرض القواسم، أيسر من التحرك من أبوظبي التي تفصلها عن تلك المناطق تلال من الكثبان الرملية الهائلة، فأراد أن يتخذ هذه المنطقة موقعاً حربياً متقدماً مسانداً لتحركاته من أبوظبي في اتجاه الداخل. وكان لهذا الموقع المميز للزوراء أثره في العلاقات العمانية السعودية؛ إذ كان خالد بن سلطان بن صقر حاكم الشارقة قد بنى في تلك المنطقة قلعة لمساندة الزحف الوهابي تجاه عمان، دمرها البريطانيون منذ عام ١٨٨٦م، وظل الموقع غير مأهول منذ ذلك الحين حتى عام ١٨٩٥م.[٦٣]

تقدم عام ١٨٩٧م بعض السودان برئاسة تاجر ثري هو سلطان بن ناصر بطلب إلى المقيم للسماح لهم بالإقامة في الزوراء. وحصل سلطان على الإذن هناك بعد فترة تنقل فيها بين عجمان والشارقة ودبي، كما حصل شيخ أبوظبي – لعلاقته الخاصة بالسودان

– على إذن من المقيم البريطاني في ١٣ مايو ١٩٠٠/ ١٤ محرم ١٣١٨هـ بحماية تلك الجزيرة والمقيمين فيها وكان ذلك استجابة لخطابه الذي أرسله إلى المقيم في ٢٦ ديسمبر ١٨٩٩م/ ٢٣ شعبان ١٣١٧هـ. وقد أكد هذا الاعتماد البريطاني الجديد الاعتماد القديم الذي سبق لزايد أن حازه قبل سنتين حينما أرسل في عام ١٨٩٥م رجاله إلى تلك المنطقة بالإمدادات لحماية أنصاره من بني قتب. وجدير بالذكر أن علاقة السودان التقليدية ببني ياس كانت أكثر رسوخاً لدى الشيخ خليفة بن زايد؛ فالسودان هم أخواله المباشرون، بالإضافة إلى أن إحدى زوجاته كانت منهم.[٦٤] ولم يجد شيخ أبوظبي في حيازته الزوراء قبولاً من شيخي الشارقة وعجمان؛ فقام الأخير ببناء حصن عند إحدى نقطتي العبور بين الزوراء والساحل، أما شيخ الشارقة فقد سارع للاتصال بالمقيم البريطاني في الخليج وخاطبه محتجّاً بأنه لا يجوز السماح لغير القواسم بإقامة قاعدة في أرض القواسم، فالزوراء – حسب تعبير ذلك الشيخ – كالقلب في جسد الأرض الغافرية.[٦٥] فتراجع المقيم البريطاني عما أبرمه سابقاً لزايد الذي كان من جانبه حريصاً على تحقيق أمله في زيادة نفوذه بهذا الموقع في عمان المتصالحة، ورؤوس الجبال الشمالية عامة، وتوثيق وجوده في البريمي والظهير خاصة. واعترض زايد في خطابه بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٠٣م/ ٢٨ رجب ١٣٢١هـ على تراجع الإدارة البريطانية في الخليج عن مواقفها السابقة بينما راح الشيخ عبد العزيز النعيمي – حاكم عجمان – يتصل بشيوخ النعيم في البريمي يحثّهم على الوقوف ضد مخططات الشيخ زايد بن خليفة في تلك المنطقة، ودفعها إلى التمرد ردّاً منه على إصرار زايد على حيازة الزوراء.

وراحت المذكرات تجري بين زايد بن خليفة والمقيم البريطاني حول الخسائر التي تكبدها زايد وسلطان السويدي في بناء مستوطنة الزوراء. وتدخل شيخا دبي وأم القيوين بالوساطة بين الفريقين. وفي مارس ١٩٠٥م وقف المقيم بنفسه على الزوراء وأصدر قراره – بعد زيارتها – بعدم منع زايد بن خليفة حماية المستوطنة في الزوراء

بسم الله الرحمن الرحيم

زاد مجده
في بنجر
القنصل الدولة
الهند
جنرال الدولة

من زايد بن خليفه

الى جناب عالي الجاه الاجل الامجد الأفخم الأكرم ذوي الشوكة والاقتدار البالوز عبد قنصل

سلمه الله تعالى وبقا البقاء الجميل امين الباعث تحرير الكتاب ابلاغ جنابكم جزيل السلام ورحمة الله وبركاته

ثم السؤال عن صحة حالكم الشريفه ثم نعرف جنابكم الشريف قبل هذا باربع سنين صار لنا

لازم نجعل كم نفر من طرفنا في بر الزوراء لتحفظ اصحابنا البدوان في البر عن اللصوص

وحيث الأنفار المذكوره يحتاجون الى مأكول من عيش وتمر وشعير للخيل طلبنا رخصه

من الوكيل الدوله في الشارجه لأجل ايصال الزاد من طريق البحر لأن طريق البر بعيد

فالوكيل راجع جناب عالي الجاه البالوز كورنل ولس وجناب البالوز ما قصر من طرفنا ولاكن في

ذا البين حصل الخلل مع اصحابنا المذكورين وسدينا الباب لأن ما كان لنا مقصد

غير المحافظه بهذه الأيام صار اتحاد كلي بيننا وبين البدوان وطلبوا منا الأعانه عند ما

يصير لهم لازم في البر وكذلك جانا سلطان بن ناصر السويدي وعرض علينا ورقه من شيخ

بيمان عال انه رخصه على سكون الزوراء وطلب منا الأذن على تمام الصلح داخل البر

Translation attached

بسم الله تعالى

الجناب العالي الجناب حضرة السلطان المطاع الأفخم والهمام المعظم ذو المجد والافتخار [illegible] كنيباز [illegible]

جناب الدولة البهية المتصرفية سلمه الله تعالى ورعاه وأعز شأنه وأعلاه وحرس ذاته وتولاه آمين [illegible] السلام عليكم

ورحمة الله وبركاته بلغنا تحرير الكتاب [illegible] جنابكم العالي بأجمل السلام والتفحص عن صحة حالكم لا زلتم بعافية

العمر [illegible] وكتابكم الشريف العالي المنيف المؤرخ بالعشرون من جمادى الثاني في [illegible] ساعة وسعد الأوقات ساعة

[illegible] حاكم [illegible] حمدنا الله وشكرناه [illegible] من الأقدام من طرف الزوراء

[illegible] حاكم خالية عثمان [illegible] الاجازة التي أعطيتمونا إياها فقط [illegible]

[illegible] بشرط أن [illegible] من جنابكم [illegible] بحق نظركم المبارك [illegible]

[illegible] جنابكم [illegible] وذلك [illegible] حاكم خالية عثمان بعد [illegible]

الذي [illegible] ما [illegible] وطلب الاجازة من جنابكم [illegible]

وقفنا على كتاب [illegible] حاكم [illegible] وجنابكم أدام الله مجدكم [illegible] وتحن [illegible]

[illegible] الذي يكون [illegible] قبل أن يتولى حاكم خالية عثمان [illegible]

[illegible] خالية و[illegible] بعد هذا [illegible]

بأسباب [illegible] تحملنا مصارف [illegible] من طريق البر و[illegible] البحر [illegible]

[illegible] والدوان [illegible] على حكومتنا [illegible] حاكم خالية عثمان [illegible]

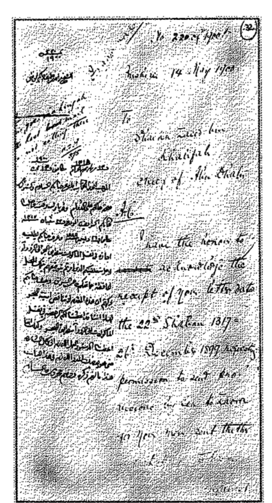
[illegible] من التعدي من جانبنا [illegible]

29(a)

بها اعانة سلطان المذكور موفقاً لمهامنا وصلاح امرنا لأن اذا اسكن سلطان في الزوره اوادمنا يأوي
ولان سلطان رجل معتبر صاحب طائفة وهم السودان فاحببنا اخذ الرخصه من جنابكم على
انه سلطان وحصول مرادنا من طرف البدوان وانا نلتزم لجنابكم حفظاً بين البحر وكف اذى
بيران الى هذ المحل لان جميع مشايخ الساحل معاهدين الدولة القيصرية وعندنا يقين ان
اترضى بالمنافسة فيما بيننا ووكيل الدولة القيصرية في الشارجه منتظر علينا ولا يصدر منا
خلاف هذا مالزم بيانه والسلام حرر في ٢٢ شعبان ١٣١٧

From Sheikh Zaeed bin Khalifah
Chief of Abu Dhabi
To The Pol. Resdt. Pers. Gulf
d/ 22nd Shaban 1317
26 Decr. 1899.

A.C.
Four years ago I had to keep some men at Zouran to protect the Bedouins subject to my jurisdiction against robbers. B provisions were required by these men & as bringing them overland took a long time on acc of the distance, I had requested the Residency Agent Shargah to obtain permission for me to send the same by sea. The Agent wrote to the Resident Col. Wilson, who did all he could for me. Soon after this [illegible] [illegible] sprang up



32

No 220 of 1900

14 May 1900

To

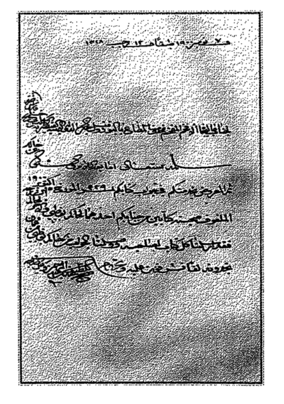
Khalifah

A.C.

I have the honour to acknowledge the receipt of your letter dated the 22nd Shaban 1317 =

December 1899

permission to



شريطة أن يحظى هذا الأمر بموافقة حكام الإمارات كافتهم. ولما لم يكن هذا الأمر ممكن التحقيق فقد تراجع زايد عن إصراره السابق، واشترى رضى الشيخ صقر بن خالد القاسمي – حاكم الشارقة – بأن أوفد إليه بعثة برئاسة ابنه خليفة بن زايد، وآخرين منهم بطي بن خادم القبيسي، يبارك له حمايته للزوراء والسودان الذي يقيمون بها. وتمكن زايد بذلك التنازل أن يوثّق عرى التعاون بينه وبين صقر، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن استنفد كافة السبل السلمية لتحقيق هدفه من حيازة الزوراء ثم استبان له أن شراء رضى صقر يحقق له هدفه في تقوية عرى التآلف والتآزر، وزيادة نفوذه بطريق آخر.

ثارت في هذا الوقت من عام ١٩٠٥م مشكلة داخلية أخرى حين قام نزاع في أعالي وادي حتا بين الحجاريين ومصفوت. وكان أهالي مصفوت قد وضعوا أنفسهم في حماية بني كعب ونعيم البريمي. وقد قام السيد تركي – سلطان عمان – بعدئذ بإناطة حكم القريتين بشيخ دبي؛ وذلك لعجزه عن حماية مصفوت من تعدّيات النعيم. وقام بنو قتب باحتلال بعض التلال عند أعالي وادي حتا وبناء حصن في جبيل استطاعوا أن يعملوا به على مضايقة القوافل التي تعبر المنطقة. ووجد بنو قتب الدعم من بعض أهل مصفوت الذين أرادوا أن يكيدوا للنعيم. وتقدم شيخ النعيم إلى الشيخ خليفة بن زايد طالباً دعمه. واتجه زايد لحل هذا الإشكال ذي الأطراف المتعددة التي تشمل سلطان عمان، وشيخ دبي والنعيم والشيخ راشد بن أحمد شيخ أم القيوين، وشيخ الشارقة، بالإضافة إلى أن هذه المنطقة كانت في إطارها العام، ضمن دائرة نفوذ الشيخ زايد بن خليفة.

دعا زايد حكام الإمارات إلى مؤتمر عام يتم فيه التداول حول القضية وحلها سلماً. وكان هذا المجلس الذي اجتمع في ديسمبر من عام ١٩٠٥م أول مجلس لحكام الإمارات مجتمعين يعقد لمعالجة أمر يهمّ جميع حكام الإمارات الخمس: أبوظبي، ودبي، وأم القيوين، وعجمان، والشارقة التي كان شيخها قد ورث الحكم في إمارة



فارس
القيصرية في الخليج
الدولة البهية

بسم الله الرحمن الرحيم

الجناب الأجل الأكرم الأفخم ذا الشوكة والاقتدار الصاحب كرنيل الجبال

A 23.11.03

From Sheikh Zaeed.

بسم الله الرحمن الرحيم

خليفة بن زايد

الى جناب المستطاب عاليجاه الاجل الافخم حميد الشيم المكرم المحترم كبتان باليوز صاحب
دام بقاه وعلاه ونجاه من جميع المكاره وفاه امين انشاء الله الموجب لتحرير الكتاب ابلاغ جنابكم
جزيل السلام والتفحص بالسؤال عن صحة حالكم الشريفة لا زلتما على جنابكم الشريف
من طرف مادية الزورا او الجاذبة التي وصلت من جناب حضرة الدولة البهية القيصرية
في [illegible] الشيخ سلطان بن ناصر السويدي بيعها والجاذبة التي لم تزل ولا [illegible] عند الشيخ [illegible]
حاكم بلد عجمان ولمن تحقق عندنا اثبات ما ارخص به صاحب جناب عاليجاه الافخم
باليوز اقمنا وصرفنا المصاريف الذي لا تخفيه على جناب حضرة الدولة وقد
قبضنا من المشار اليه جملة دراهم على كمال الاثنيا و[illegible] في ذلك
سلطان بن ناصر المذكور طالبنا في الذي له علينا وهذا الحال ليس يخفى عليكم
لانا ليس معنا وجه فالذي له علينا فالحافظ نلتمس من الكرام من جنابكم الشريف
رفع نظرتكم الينا اما بتمام الجاذبة او بمعاوضة بما صرفناه في هذه المادة
من المعترضين للمنع من جنابكم من غير سبب واضحاً ومعروفكم لم ننساه من
قديم عالكم واحترامكم لنا فما هو شيء نابه من قديم فضلكم واحسانكم علينا لا انكم
كنتم اهلاً لذلك ولم نزل ضنا بالكرم بجناب حضرة الدولة البهية القيصرية جميل
انشاء الله هذا ما لزم عرضه والسلام في ٢٨ شهر رجب ١٣٢١

الى الشيخ زايد بن خليفه حاكم ابوظبي

~~[illegible] رجب سنة ١٣٢٠ مطابق [illegible] شهر [illegible] ١٩٠٢~~

اما بعد فالباعث لتحرير كتاب المودة ابلاغ جنابكم [illegible]
[illegible] حاكم [illegible] وغير ذلك
[illegible] انا قد ارسلنا كتابكم المورخ
٢٢ ربيع الاخر الى جناب [illegible] كبتان [illegible]
[illegible] في [illegible] وجناب [illegible] امرنا ان نخبر
جنابكم بالجواب بانه صار مسرور من ملاحظة كتابكم
[illegible] تفاق فيما بين جنابكم و
حاكم [illegible] [illegible]
[illegible] وكذلك جناب [illegible]
امرنا ايضا [illegible] جنابكم [illegible] الحق
[illegible] في مسئلة الزورا ليس [illegible] وانه
[illegible] بهذا القرب [illegible] مالكم

Sheikh Zaeed bin Khalifah
Chief of Abu Dhabi

A.C

I sent up your letter of 22nd Rabiul Akhar 1320 / 28 July 1902 to Col. Kemball at Shiraz who has directed me to reply to you. That he has read your letter & was glad to hear what you had to say with reference to the under-standing between you & the Chief of Shargah being intended only as a guarantee of peace & for the general benefit.

Col. Kemball desires me to inform you that his views as regards the Jowa Question remain unaltered. He trusts soon to have an opportun-ity of seeing you again.

[illegible]

To. The Resident

d/ 16th Shaaban 13[illegible]
21st November 19[illegible]

A.C.

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

خليفة
بن [illegible]

الى جناب الأجل الأكرم الأمجد المحترم [illegible] الأفخم [illegible]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible] بجميع [illegible] وعافاه [illegible] ما بقاه دائم

وهنا محبكم بحمد الله بخير [illegible] بحال الخير [illegible] طيبه والامور بالحال

جميله ولا زاد [illegible] الا بالخير لاسيما قد عرفناكم بعدم رد الجواب الا

من جنابكم وقد اعتذرتم لنا ان العارض لذلك من كثرة الاشتغال

والسير وما من جنابكم تقصير وغير ذلك كما لا يخفى على جنابكم الشريف

قد عرفنا جنابكم عن جاه حضرة السركار الافخم [illegible] بجملة كتب تتضمن

اجازة التي صادره منهم الينا من طرف الزوراء و بما حصل بعد الامر

من المنع من جناب صاحب [illegible] بعد ما تكلفنا من المصاريف على

الجازه و لم نزل عليه الحال الجميل من جناب حضرة الدولة البهية [illegible]

من احد الوجهين اما تمام الاجازه او رجوع المصاريف الذي صرفناها على

هذي الاسباب و لم يصل الينا من المشار اليهم افاده في ذلك

ولا قد جرت بها عاده منهم عدم رد الجواب حتى نعرف بما يجري فيه وعليه

اطلب لنا رد الجواب الكافي ولعلنا بالتمام ثم تسرنا بما هو الحسن الجميل

وعلى الدوام لا تقاطعنا بخطابكم [illegible] مع [illegible] من لديكم [illegible]

بسلم لنا على الولد [illegible] ومن الدار [illegible] والسلام

حرر في ١٦ شعبان المعظم ١٣١٩

رأس الخيمة عقب وفاة حاكمها حميد بن عبدالله عام ١٩٠٠م؛ فاجتمعت في شخصه وحدة رموز الإمارة القاسمية السابقة. وتقرّر في هذا المجلس الأعلى تدمير القلعة التي استحدثها بنو قتب في جبيل، واسترجاع قرية مصفوت لشيخ النعيم. وقد تمكن زايد من الحصول على وعد قاطع من شيخ دبي بعدم مساندة حركات بني قتب ضد الآخرين من جيرانهم.

كان النزاع قد تجدد في الداخل قبل ذلك في يوليو ١٩٠٥م/ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ حينما قام بنو قتب بالإساءة إلى البلوش وحاولوا الاستيلاء على حصنهم في مأزم في منطقة الظاهرة، واستنجد البلوش بزايد بن خليفة بحكم أنه المسؤول مباشرة عن إدارة هذه المنطقة بتفويض من سلطان عمان. وحاول الشيخ زايد بداية منع بني قتب المقيمين في مناطق الذيد وغيرها من اللحاق ببني قتب الظاهرة، ومشايعتهم في عدوانهم على البلوش وحصن مأزم ولكنه فشل في ذلك. أما بنو قتب فقد استنصروا بدورهم شيوخ أم القيوين والشارقة وعجمان الذين وعدوهم بمناصرتهم ضد زايد. وحكم الشيخ زايد بن خليفة على بني قتب بدفع ديات البلوش. كانت المبالغ المحكوم بها باهظة إلا أنه أصرّ على أن يؤدّوها لمستحقيها كاملة. ولما لم يتمثل بنو قتب خرج زايد بن خليفة في أبريل ١٩٠٦م/ صفر ١٣٢٤هـ لردعهم فاستنجدوا بشيخ دبي أولاً ولكنه لم ينجدهم؛ فبالإضافة إلى مساندة دبي التقليدية لأبوظبي كان شيخ دبي يعتقد ضرورة أن يفي هؤلاء القوم بما التزموا به أمام زايد بن خليفة. و لم يجد بنو قتب إلا أن يستنجدوا بشيخي الشارقة وأم القيوين فرفض الأول أن يعينهم واستجاب الثاني لدعوتهم؛ فقد كان راشد بن أحمد – شيخ أم القيوين – أكثر حكام الإمارات في تلك الفترة تحدّياً لسلطة زايد الذي كان حريصاً على تحمّل تحديات كافة إخوانه حكام الإمارات خاصة المتحمسون من صغار السن منهم مثل الشيخ راشد بن أحمد؛ فقد كان زايد في هذه المرحلة – بعد سلسلة التجارب التي مرّت به والأعوام التي سلخها من عمره في الحرب والسلم – يعدّ نفسه المقدم بين زملائه حكام الإمارات، ويدرك

أنه كبير القوم الذي ينصح برفق، ويزجر برفق أيضاً، ولكنه كان يقف دائماً – ناصحاً ورادعاً – عند حدود الحق والعدل لا يتجاوزهما مهما بلغت حدّة التحدّيات.

عالج الشيخ زايد هذا الأمر بالرفق حتى لا تتسع رقعة الخلاف في البادية التي يدين أغلب قبائلها له بالولاء، بينما كانت قبائل أخرى في تلك البادية تدين بالولاء لهذا الشيخ أو ذاك من شيوخ الإمارات، بالإضافة إلى أن تلك البادية كانت تضمّ قبائل تدين بالولاء لسيّد مسقط مباشرة، وكان بعضها تحت إدارة زايد بتفويض من سيد عمان، وبعضها خارج تلك الإدارة. لجأ زايد إلى سماع آراء زملائه الحكام بمن فيهم راشد بن أحمد المعلا، واجتمع مجلس حكام الإمارات في الخوانيج، من أعمال دبي، في أبريل ١٩٠٦م، وسعى زايد بمجلس الحكام لتحديد مناطق النفوذ في الإمارات، وتحديد مسؤولية كل شيخ عن قبائله والقبائل المتحالفة معه أو التابعة له. واتفق كافة الحكام على أن تكون قبائل بني قتب والغفلة وبني كعب في تبعية الشيخ راشد بن أحمد المعلا، وأن حلفاء شيخ أبوظبي والتابعين له هم: سلطان بن محمد شيخ بني النعيم في البريمي، ومحمد بن سليمان شيخ دريز في الظاهرة، ومحمد بن عبد الله شيخ الفجيرة في الشميلية، إلى جانب حلفائه الرئيسيين من قبائل أخرى.[٦٦] ولم يعترض على هذا الإجراء الأخير الشيخ صقر بن خالد – شيخ الشارقة – الذي كان يحترم في الشيخ زايد بن خليفة مقدرته وكفاءته وسنّه. وقد أكد اجتماع الخوانيج أن اجتماع شيوخ المنطقة واتحاد كلمتهم في حل مشكلاتها يجنبها ويلات الحرب، وينشر الأمن في ربوعها، كما أشار هذا الاجتماع – في جانب منه – إلى فتور النعرة الغافرية الهناوية القديمة في هذه المنطقة.

لم تستقم الأمور بين الشيخين راشد بن أحمد المعلا وزايد بن خليفة، خاصة وأن بني قتب لم تستجب طواعية لدفع الديّة المقررة. وسارت الوشايات بين الرجلين وعزم زايد على حسم الأمر بعمل عسكري ضد أم القيوين؛ فكوّن قوة في نوفمبر ١٩٠٦م

من قبائل أبوظبي ومن المناصير وبني هاجر خرج على رأسها بعد أن ضمن مساندة شيخي الشارقة ودبي، وجعل معسكره بالقرب من فلج آل علي، تلك الواحة التي كانت تمدّ أم القيوين بحاجتها من ماء الشرب. واستنجد راشد بالمقيم البريطاني كوكس، وطلب إليه أن يمدّه بسلاح وذخيرة. وتدخل المقيم البريطاني الذي بات يخشى اتساع دائرة نفوذ زايد وتطلعه سلماً وحرباً لتوحيد الإمارات تحت لوائه؛ فأرسل إنذاراً إلى كل من الشيخين ثبّط من همة زايد في الهجوم على أم القيوين. فعلى الرغم مما كان يعرفه زايد من أن سلطات الخليج البريطانية كانت تعارض خطته الطموح لربط الإمارات جميعها باتحاد فيدرالي من مجلس حكامها تحت رئاسته، وعلى الرغم من إدراكه أن بريطانيا لن تغامر بدخول الصحراء لمنازلته برّاً، فقد كان يدرك أيضاً مدى طغيان القوّة البريطانية وهيمنتها على البحر الذي ترقد أبوظبي – عاصمة إماراته – عند سواحله، كما كان يدرك أن سكان عاصمته والمتعلقين بهم يكسبون معيشهم من صيد اللؤلؤ والأسماك فكان عليه أن يصيخ – على مضض منه – لما يشير به المقيم، ممثل القوّة البريطانية التي يدرك زايد أن قوّته ليست ندّاً لها.

ظل الوضع متأزماً بين الشيخين راشد وزايد حتى أقدم الأول في أوائل يناير ١٩٠٧م على الذهاب إلى معسكر زايد للدخول معه في مفاوضات لحسم الموقف؛ فاستجاب له زايد وأكرمه ووقّره. وحين تعثّرت المفاوضات مع إصرار زايد على أن يسلّم راشد إليه فلج المعلا أمر بشد وثاق راشد أو يستجيب. وحين علم المقيم البريطاني بهذا الحادث أرسل يطلب إلى زايد أن يطلق سراح راشد فوراً. وفي يوم ١٧ فبراير/ ٣ محرم ١٣٢٥هـ اعتلى المقيم البريطاني كوكس سفينته لورانس، وخرج بها إلى الشارقة ليقابل الوكيل البريطاني هناك. وعلم أن شيوخ الشارقة ودبي وعجمان أقرّوا الشيخ زايداً على تصرفه تجاه راشد، وأشاروا عليه بإبقائه في أغلاله حتى يتم لهذا الحلف الهجوم على الفلج وأخذه. و لم يتمكن كوكس من أن يصل إلى اتفاق مع زايد لإطلاق سراح راشد إلا بعد مفاوضات متعثّرة دامت أسبوعاً.[٦٧] وقضى كوكس – بعد إطلاق

سراح راشد – يومين في مفاوضات مع شيخ الشارقة الذي كان يفاوض عن نفسه وإنابة عن شيخ عجمان، ومع شيخ دبي الذي كان يفاوض عن نفسه وإنابة عن شيخ أبوظبي. وتمّت بهذه الاجتماعات تسوية هذه المشكلات بأن يلتزم راشد بن أحمد، بهدم تحصينات فلج آل علي، وبإعادة الإبل التي استولى عليها في أثناء هذا النزاع من شيخ عجمان، بالإضافة إلى ضرورة أن يلتزم بعدم التدخل في العلاقات بين شيخ الشارقة وشيوخ الحمرية والفجيرة. وقد التزم زايد بن خليفة من جانبه بما تعهّد به شيخ دبي نيابة عنه بألا يهاجم بني قتب في فلج آل علي أو المعلا ما لم ينضموا إلى حلف أقربائهم في منطقة أفلاج بني قتب، جنوب الظاهرة في عمان. ورغم موافقة الشيخ زايد بن خليفة على هذا الاتفاق، إلا أنه لم يتابع تنفيذ الأمر بتهديم حصن الفلج.

لم يكن زايد بن خليفة آل نهيان ميالاً للحرب وكان دائماً يقوم بكل ما في وسعه لتداركها. ولم يكن هذا الأمر بالسهل في مجتمع قبلي صحراوي تتنازعه العديد من عوامل الفرقة التقليدية، إضافة إلى أن السياسة البريطانية في الخليج كانت قد أغلقت أمامه كل اتصال بالعالم الحديث، وحرصت على رعاية مؤثرات الفرقة فيه، وعدم اجتماع حكامه على كلمة سواء. وعلى الرغم من ذلك كانت سياسات زايد المكتسبة من تجربته الطويلة في التعامل مع قبائل البادية ومراكز الحضر تحضّه على السعي للاتحاد ونبذ عوامل الخلاف، هذا بالإضافة إلى الورع والتقوى والإيمان التي ميّزت شخصيته. ويشهد تقرير بريطاني أن رحلة زايد إلى الحج في ١٨٨٠م قد أضافت إلى سمعته وأكسبت شخصيته قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير.[٦٨] وكان كثيراً ما يسير بالوساطة بين الشيوخ الآخرين ورعاياهم. وقد برهنت حوادث النزاع بين الشارقة والفجيرة عام ١٩٠١ – ١٩٠٢م، واستنجاد حمد بن عبد الله الشرقي به، وبحشر بن مكتوم شيخ دبي، على صقر بن خالد حاكم الشارقة، وتدخله بالوساطة بين الرجلين. وما قام به من منع البوشامس الذين يقيمون في الطرف الغربي من وادي الجزي في أبريل ١٩٠٣م من الدخول في الخلافات بين الشرقيين والقواسم – ما يؤكد أنه كان يسعى

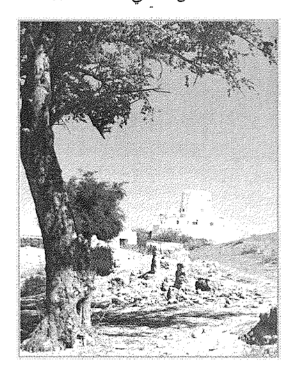
بالسلم بين الأطراف المتنافرة، ويعمل لما يحقق وحدة الكلمة والاجتماع ويعود بالأمن والاستقرار للمنطقة.

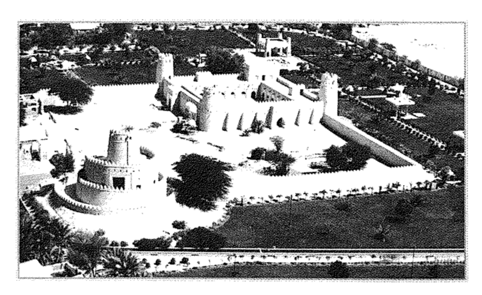
كان زايد بن خليفة مهتماً بالتنمية، وقد كانت العمارة أحد المرتكزات الأساسية في سياسته المحلية. وعلى الرغم من الفوائد المادية المتنامية التي أخذت تجد طريقها إلى الدخل القومي في أبوظبي نتيجة التعامل في صيد اللؤلؤ إلا أن مدينة أبوظبي التي ازداد فيها عدد السكان لم تمسّها يد العمران. ويشير تقرير المنصِّر الأمريكي زويمر في ١٩٠١م أن منازل أبوظبي التي تمتد نحو ميلين على أرض الساحل شيدت من سعف النخيل، وأن البناء الحجري اقتصر فقط على القلعة ونحو اثني عشر منزلاً؛[٦٩] فقد أدرك زايد كما أدرك من سبقه من آل نهيان أن أبوظبي التي في مرمى مدافع الأسطول البريطاني، والتي كان البريطانيون يهدّدون بقصفها في كل سانحة تختلف فيها سياسة أولئك الشيوخ مع السياسات البريطانية – يجب أن تبقى معسكر عمل يمكن لبني ياس وحلفائهم والانسحاب منه عند اللزوم إلى المناطق الداخلية مهد القوة الحقيقية لشيوخ آل نهيان.

أما منطقة العين فقد شهدت في عهد زايد بن خليفة العديد من مشاريع التنمية الحقيقية؛ فقد امتدت يده بالعمران منذ ١٨٩٧م للجاهلي، النهاية الجنوبية الغربية للأرض الخصبة في المنطقة، وقام ابنه خليفة بعمارة المسعودي في الحدود الشمالية الغربية لتلك المنطقة. واشترى زايد بن خليفة وأبناؤه العديد من الأراضي الصالحة للزراعة في منطقة العين وعمروها. وكان لتدفق ماله المستخلص من المنطقة الصحراوية وللسياسة الزراعية التي اعتمدت على استحداث الأفلاج وإعادة ترميمها أثرها في زيادة الدخل القومي في المنطقة، وزيادة ارتباط المواطنين به وبأبنائه. ويمكن لنا بنظرة واحدة إلى خريطة منطقة العين في تلك الأيام أن نحكم بأن سياسة التنمية الزراعية التي ابتدعها في العين لم ترم إلى الإعمار فقط، ولكنها استهدفت فوق ذلك بعداً أمنياً وإستراتيجياً؛ فالجاهلي والمسعودي هما الطرف الأقصى لهذه المنطقة لمن يأتيهما من

أبوظبي، والسيطرة عليهما سيطرة على منطقة الواحة برّمتها. وقد بنى زايد في عام ١٨٩٨م قلعة في الجاهلي لحراسة هذه المنطقة الزراعية المهمة من أية تعديات تأتيها من الصحراء. وزاد هذا الوجود الاقتصادي الذي ازدهر بحكم الوجود الشخصي للشيخ زايد وأبنائه الذين كثيراً ما كانوا يقضون فصل الصيف في الواحة ويتعاملون مباشرة مع مواطنيها - النفوذ السياسي لآل نهيان في هذه المنطقة، إضافة إلى النفوذ الإداري المعترف لهم به سلفاً من كافة القوى المحيطة بالواحة. وساد نفوذه المباشر قرى العين، والجيمي، وهيلي، والقطارة، والمعترض والمويجعي، إضافة إلى المسعودي والجاهلي. وقد ارتبطت هذه المناطق كلها ارتباطاً وثيقاً بشيوخ آل نهيان بعدئذ. واتخذ الشيخ زايد من شيوخ هذه الواحة وشيوخ القبائل المجاورة لها، ومن شيوخ المناصير وغيرهم أصدقاء اعتمد عليهم إدارياً، وأوكل إليهم إدارة شؤون المناطق مباشرة. ويمكن في هذا الصدد أن نذكر من هؤلاء الرجال أحمد بن هلال الظاهري، وسلطان بن محمد بن سرور الظاهري، وحمد بن حم العامري، ومحمد بن سالمين المنصوري، ومحمد بن شيبان الياسي، وسالم بن فارس الياسي، وغيرهم من الذين أخلصوا للشيخ زايد بن خليفة الولاء. واعتمد زايد على أبنائه أيضاً، خاصة ابنه البكر خليفة الذي قاد رجال قبيلته من بني ياس ورجال المناصير أخواله - حلفاء بني ياس - في بعض المعارك التي خاضتها أبوظبي في عهد أبيه. وكثيراً ما أوكل إلى ابنه خليفة القيام بمهام سياسته في مسقط وغيرها. وقد تمكن الشيخ زايد بفضل حصافته وفروسيته وثبات حكمه فترة طويلة أن يكسب من النفوذ في البادية ما لم يتيسر لغيره في هذه الفترة من شيوخ الخليج. ويشهد السير بيرسي كوكس - المقيم السياسي البريطاني في الخليج، الذي قام برحلة في عام ١٩٠١م من أبوظبي عبر البريمي إلى مسقط عن طريق وادي سمايل - أنه ظل طوال هذه الرحلة يتمتع في المنطقة الممتدّة من أبوظبي حتى عبري برعاية الشيخ زايد بن خليفة وعنايته. فقد كان ذكر اسمه في تلك الأرجاء جميعها يهيئ له ما يعجز عنه أي جواز سفر آخر في تلك البادية التي باتت تحترمه وتهابه. ويؤكد كوكس مرة أخرى في تقريرة الخاص بزيارته السنوية لمنطقة ساحل الإمارات في عام ١٩٠٢م أن قوّة زايد بن خليفة ونفوذه باتا تفوقان قوّة ونفوذ سلطان مسقط في منطقة الظاهرة.

حصن الجاهلي – منطقة العين





وقد ضمنت له السلطات العمانية في السنوات العشر الأخيرة مبلغاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف ريال على أن يقوم بضبط الأمن في قبائل البريمي والظاهرة، ويمنعها من التوغل في إقليم الباطنة. وترى السلطات البريطانية في عام ١٩٠٦م أن هناك من الأسباب ما يجعلها ترجّح أن نفوذ زايد بن خليفة – شيخ أبوظبي – كان أقوى من نفوذ السيد فيصل بن تركي – سلطان عمان – في المنطقة التي تمتدّ شرقاً حتى عبري في الظاهرة، وربما كان هذا حاله أيضاً في بعض مناطق رؤوس الجبال، برغم أن جلّ هذه المناطق كانت تابعة رسمياً لسيادة سلطان مسقط.

صورة لزايد بن خليفة وأولاده وبعض الشيوخ



أبوظبي، التطلع إلى علاقات دولية

كانت نجد الأصلية – على مدى فترة طويلة من عهد الشيخ زايد بن خليفة في حكم إمارة أبوظبي – تلعق جراحها جراء حروبها الأهلية، وخلافاتها الأسرية، وانبرى عبد العزيز بن سعود مع بداية القرن الماضي لتوحيدها مرّة أخرى، وقامت إستراتيجيته في مرحلته الأولى لاسترداد ملك آبائه على السيطرة على المناطق الجنوبية من نجد خلف خطوط غريمه ابن رشيد، وعلى العمل في أوساط قبائل الأحساء. وقد كان لذلك اتصالات سعودية ببعض شيوخ الساحل المهادن أزعجت الشيخ زايد بن خليفة الذي كان قد فرغ من فرض سلطانه الفعلي على العديد من القبائل الغافرية والعديد من المناطق التي كانت في سياساتها الغافرية تتبع السياسة السعودية. وخشي زايد بن خليفة مغبّة أن تعيد الأحداث سيرتها الأولى من تفكك وتناحر وتحزب؛ فاتصل بالسيد فيصل بن تركي، بأن أرسل ابنيه خليفة وسلطان إلى مسقط للتشاور والتخطيط لمجابهة هذا الأمر قبل استفحاله، ثم لم يلبث أن قام بنفسه بزيارة رسمية لسلطان عمان في نوفمبر

١٩٠٥م ردّ عليها السلطان بزيارة أبوظبي في الشهر التالي. وتأكد لهذين العاهلين بعد التشاور والتنسيق والمتابعة الجادة أن الأمر أيسر مما كانا يتوقعان؛ فقد اتصل مقيم الخليج البريطاني – بوساطة مبارك الصباح شيخ الكويت – بابن سعود يطلب إليه عدم التدخل في شؤون الساحل، أو التطلع إلى عمان. ولما كان ابن سعود في هذه الفترة يسعى لاسترضاء سلطات الخليج البريطانية لجرّها للتعامل السياسي معه، فقد أنكر كل نيّة له في التعامل مع شيوخ الساحل، وأفاد أن اتصالاته بهم: «ما هي والله عن قصد».[٧٠] وقد التزم ابن سعود في هذه الفترة سياسة عدم التدخل في ساحل عمان، خاصة بعد أن شجع زايد كل ما يجمع الصف في الساحل العماني. وبارك الشيخ زايد بن خليفة المصالحة التي تمت في ١٩٠٦م – بجهود حمود بن عبد الله – شيخ الفجيرة، بين الشويهبين الذين يسكنون في بيا وبين راشد بن أحمد شيخ دبا، وبعث في أوائل أغسطس الشيخ أحمد بن هلال الظاهري إلى دبي لعقد اتفاقية دفاعية هجومية مع شيخ الشارقة الذي استجاب للدعوة، وتم عقد الاتفاق المنشود الذي انتظم فيه أيضاً حلفاء شيخ الشارقة من أمثال شيخ عجمان وكل شيوخ البريمي؛ فتكوّنت بذلك جبهة متحدة عمل زايد على تنميتها بمصالحة بين شيخي الشارقة والفجيرة اللذين كانا على علاقة طيّبة به. وعلى الرغم من أن الشيخ زايداً قصد بذلك مجابهة أي تقدم محتمل لابن سعود إلا أننا نستطيع القول: إن جذور دولة الاتحاد في الإمارات قد وجدت لها تربة صالحة منذ ذلك التاريخ[٧١].

ظلت سلطة زايد بن خليفة في البرّ سلطة يصعب تحديها، أما سلطته في البحر فقد كانت – شأنها شأن سلطات كل حكام الخليج – ناقصة بفعل التسلط والهيمنة البريطانية. ومع ذلك فكثيراً ما عمد إلى تحدي تلك القوة تحقيقاً لأهدافه في وحدة أرضه واستقلال شعبه، ولكنه كان يتراجع في كل مرّة يرى فيها فوّهات مدافع السفن البريطانية موجهة إلى أبوظبي؛ إذ لم يكن يملك من العدة أو العتاد ما يحمي به عاصمته من ويلات حممها. وكثيراً ما أدت الغرامات الباهظة التي كان المقيم

البريطاني يفرضها على الشيخ زايد في مثل هذه المناسبات إلى هروب بعض عشائره من أهل البحر والسواحل إلى مناطق أخرى إما لعجزها عن أداء حصتها في الغرامات المقررة أو لرفضها الوفاء بها. أما البحارة العاملون في «الهيرات» من الإمارات المختلفة الذين كانوا يعتمدون في تمويل مواسم الغوص على القروض فكانوا عادة ما يهربون بديونهم إلى مناطق غير التي خرجوا منها إذا لم يصادفوا في تلك المناطق رزقاً يفي بسداد القروض. كما تضاعف أيضاً عدد الرقيق العاملين في الغوص الهاربين من سادتهم المفلسين. وأدى هذا الهروب المتكرر في هذه الرقعة الضيقة من الساحل وجزره التي قصر البريطانيون نشاط إنسان المنطقة فيها على صيد اللؤلؤ والأسماك – بعد أن حظروا عليهم بالقوة المجردة ثم بسلسلة من التعهدات الاذعانية منذ عام ١٨٢٠م التعامل مع البحر المفتوح ودروبه الشاسعة – إلى سلسلة من الاضطرابات. وراح المقيم البريطاني، خاصة بعد توقيع تعهد ١٨٥٣م يلزم كل شيخ على حدة بسداد ديون اللاجئين إليه ويزيد فيها وفق ما يراه. فاضطر شيوخ الساحل كافتهم في يونيو ١٨٧٩ للتوافق على توقيع تعهد يحظر هروب الغاصة*. ولا مندوحة من القول بأن هذا التعهد قد أضاف للمقيم قوة جديدة لأنه كان الأول في سلسلة التعهدات التي فرضتها بريطانيا «لتقنن» تدخل مقيمها في سياسات الشيوخ في البر. وكان الشيخ زايد في تطلعه المشروع للتعامل الحر مع العالم الخارجي خارج نطاق الحظر البريطاني المفروض منذ عام ١٨٢٠م على سواحله يعمل على معارضة تلك السياسة ويسعى – في حدود إمكاناته – للخروج من دوامة العزلة. مد زايد يده إلى محيطه الإقليمي تتقوى به وتتلمس طريقاً للتعامل مع العالم الذي حجبه عن بلاده ظل الإمبراطورية البريطانية.

استجاب زايد بن خليفة في النصف الثاني من عام ١٨٨٧م لدعوة أطلقتها السلطات الفارسية للتضامن مع أبوظبي لمعارضة السيطرة البريطانية في الخليج؛ فاستقبل المبعوث الفارسي، الحاج أحمد خان في أبوظبي، كما استقبله أيضاً راشد بن

مسألة هروب الغاصة التي انتهت بتوقيع تعهد ١٨٧٩م

بلادنا اللواتي عليه هو انه قد صار كما حضرة جناب بالبوز رحولنا البحرية الانكليزية ان بعض من الرعايا
الذي مشغولين في الغوص يأخذون دراهم تقدماً من احد من حكام البلدان ويسيرون في البحر
بعد ذلك عوضاً من يرجع الى ذلك الحاكم الذي اخذ واهمين الدراهم يهربون الى بلدان
سيوخ نائبة بلا ملاحظة خلاص انفسهم برجوع ذلك الدراهم المتقدم فهذا خلاف العدالة
لهذا السبب كل وقت احدى من الشيوخ يثبت ذلك للباليوز صاحب ان كل داعي دين هكذا
هرب في البوز صاحب يطلب ذلك السارق الهارب من الحاكم الذي الغافي بلاده ان يسلمه
ان يبذل كمال السعي حتى يحصل ذلك الوجه فاذا صار قصور في ذلك بالبيوز صاحب
يرى ذلك الحاكم الذي لف السارق انه يحاوب لاجل حسابه الذي حصل التقصير الذي جرى
معلوم

حرر في يوم الثاني العشرين من شهر جمادى الاول سنة ١٢٨٥ مطابق ١٦ سبتمبر ١٨٦٨

(ختم: [illegible] صاحب)

[illegible]
[illegible]
[illegible]

الى جناب [illegible] الاكرم [illegible] كرنل [illegible]

في خليج فارس [illegible] [illegible] بعد اهداء السلام

انه قد وصلنا [illegible] تلا قينا الشيخ حاكم الشارقة [illegible]
كتابكم [illegible] في اجراء هذه المعاهدة كذلك [illegible]
[illegible] لاجل حضور الحكام او وكلائهم للمناظرة [illegible]
[illegible] لاجل الاتفاق هو استحسن الراي [illegible] حاكم [illegible]
[illegible] ام القيوين [illegible] كما ينبغي [illegible]
[illegible] المطلب كما ينبغي [illegible] كما يليق [illegible]
[illegible] ذلك [illegible] الى [illegible] ان نوصل الى بلدانهم
[illegible] الشيخ [illegible] في [illegible] المعاهدة [illegible]
الى عجمان الشيخ [illegible] في ذلك ايضا [illegible]
[illegible] الشيخ [illegible] الشيخ [illegible]
[illegible] الشيخ [illegible]
[illegible] حكام [illegible] ان [illegible]
[illegible] عمان [illegible]
[illegible] هذا المعاهدة [illegible] المعاهدة
[illegible] ان [illegible] حتى [illegible]
[illegible] في ذلك المعاهدة [illegible] الشيخ
[illegible] ام القيوين [illegible]
في تلك المعاهدة [illegible] الشيخ [illegible]
[illegible]

مسألة هروب الغاصة التي انتهت بتوقيع تعهد ١٨٧٩م



مكتوم – شيخ دبي – في دار ابن دلموك، زوج أخته، وتباحثا حول خطط التعاون التي نوقشت مع شيخ أبوظبي ضمن إطار الأخوة الإسلامية لدرء أخطار الهيمنة الأجنبية في الخليج. وعاد الحاج أحمد خان من دبي إلى أبوظبي مرّة أخرى ثم غادرها إلى بلاده بعد أن تعاهد وزايد على أن تبقى محادثاتهما طي الكتمان حتى يحين موعد تنفيذها. ولم يكن – في حقيقة الأمر – سرّ يخفى على السلطات البريطانية التي كان لها العديد من العيون الرسمية وغير الرسمية[٧٢]. وتعاونت البعثة البريطانية في طهران مع المقيم البريطاني روث في بوشهر، ومع سفن الأسطول البريطاني التي راحت تقوم باستعراضات قتالية قبالة سواحل أبوظبي. وأسفر هذا التعاون البريطاني في النهاية عن صدور تصريح من وزير الخارجية الفارسي ينفي فيه كل علم له بمهمة الحاج أحمد خان، كما أسفر أيضاً عن تصريح صدر من الحاج أحمد خان جاء فيه أن زيارته لشيوخ المنطقة كانت شخصية محضة، ولا تتصل أبداً بالمجريات السياسية الخاصة بمنطقة الخليج.

واستحدثت حكومة الهند البريطانية بهذه المناسبة تعهداً أجبرت كافة شيوخ الإمارات –بمن فيهم الشيخ زايد بن خليفة – على توقيعه. وقد نصّ ذلك التعهد الذي بعثت حكومة الهند به إلى حكومة لندن في ٢٤ أبريل ١٨٨٨م/ ١٢ شعبان ١٣٠٥هـ[٧٣] بألا يدخل الشيوخ الموقعون على هذا التعهد في أية علاقات خارجية إلا مع الحكومة البريطانية، وألا يسمحوا لوكيل أية دولة – عدا البريطانية – بأن يقيم في أراضيهم ما لم توافق الحكومة البريطانية على ذلك. وقد أكدت الحكومة البريطانية بعدئذ هذا التعهد بتعهد آخر وقّع عليه جميع شيوخ الإمارات – بمن فيهم زايد بن خليفة – في عام ١٨٩٢م، أكد الاتفاق السابق الصادر في عام ١٨٨٨م، ووثقه، وأضاف إليه: «أن يكون هذا الاتفاق مقيّداً للشيوخ ولورثتهم ولمن يخلفهم»[٧٤]. وقد جاء هذا التأكيد للتعهد السابق* لمواجهة الأثر الفرنسي في المنطقة؛ فقد خشيت السلطات البريطانية أن تؤدّي الزيارات المتكررة التي قام بها أحد تجار السلاح

في ١٤ محرم ١٣٠٥ ٢ اكتوبر ٨٧

الفرنسيين إلى إمارة أم القيوين إلى قيام علاقة فرنسية مع سائر الإمارات. وعلى الرغم من أن الشيخ زايد بن خليفة – الذي كان ضجراً من الهيمنة البريطانية التي تحظر عليه التعامل المباشر مع كافة القوى الأخرى في العالم – كان قد اضطر إلى توقيع هذا التعهد للبريطانيين إلا أنه كثيراً ما حاول الخروج عليه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً؛ فقد كان الرجل دائب السعي للاتصال بالسياسة العالمية التي جهدت السياسة الهندوبريطانية إلى حجبها عنه. اتصل زايد في أوائل عام ١٨٩٦م بالقنصل الفرنسي في مسقط يحثّه على قيام علاقات بين بلديهما، وقدم دعوة صريحة لشركة المساجيري البحرية الفرنسية للتعامل مع ميناء أبوظبي. وأشارت رسالة أخرى كتبها أوتافي – القنصل الفرنسي في مسقط – إلى أن الشيخ زايد بن خليفة سبق أن أبدى رغبة صريحة في قيام علاقة وطيدة بين أبوظبي وباريس تتكفل فيه الأخيرة بتقديم الحماية لبلاده ضد التسلط البريطاني.

ولعلنا نلاحظ هنا أن اتصالات الشيخ زايد بن خليفة بالفرنسيين قد تمّت في الفترة التي كانت فيها العلاقات المسقطية الفرنسية في أوّج قوتها. ولا مندوحة عن أن تنامي العلاقات الدولية بين مسقط وباريس كان محاولة قصد بها السيد فيصل – إمام عمان – الخروج من دائرة الهيمنة البريطانية، وقد انعكست على إمارة أبوظبي التي كان شيخها يشارك سيد عمان طموحاته المستعصية. عمد الشيخ زايد إلى استغلال رابطة التحالف الوثيقة التي ربطته بحكومة فيصل في عمان لتحييد الهيمنة البريطانية التي كانت كثيراً ما تتعارض مع أهدافه الطموح في تحقيق السيادة الكاملة لمنطقة الساحل العماني برمّته.

لم تتوقف تطلعات زايد للخروج من ربقة السيطرة البريطانية بقطع السيد فيصل بن تركي علاقاته مع فرنسا في أوائل عام ١٨٩٩م بعد أن تمكنت بريطانيا من التفاهم مع فرنسا في هذا الصدد، ثم الضغط الصريح على إمام عمان بعد ذلك.

تطلع زايد إلى محيطه الإقليمي ومدّ يده لجيرانه الإيرانيين. وفي محاولة صريحة منه – رغم أنها كانت في تقديرنا رمزية – تبنى في عام ١٩٠٠م نشر علم جديد لبلاده بدلاً من علم الهدنة الذي كان مفروضاً عليها؛ فنشر فوق سارية حصنه علماً أخضر اللون لدلالته الإسلامية وتطلعه إلى شكل من أشكال الرابطة الإسلامية، وتخلى بذلك عن العلم الأحمر الذي يتوسطه المربع الأبيض الذي كان البريطانيون قد فرضوه على كافة حكام الإمارات بموجب التعهد الذي ختموه برسومهم أو بتوقيعاتهم بعد حملة البريطانيين على المنطقة في ١٨١٩– ١٨٢٠م.

كان الشيخ زايد على علاقة حميمة في هذه الفترة مع داريا بيجي، حاكم الموانئ الإيرانية على الخليج. وقد ربطت الشائعات السياسية بين هذه العلاقة الظبيانية الإيرانية التي سعى الجانبان إلى توثيقها، وبين جهود روسيا القيصرية في هذه الفترة للحصول على قاعدة بحرية لها في الخليج. ولا نجد في الوثائق ما يؤيد هذه الشائعات التي تكن سوى انعكاسات لمخاوف بريطانية من وجود قوّة دولية أخرى في الخليج تقاسمها الهيمنة والنفوذ. وقد توجت هذه العلاقات الطيبة بين أبوظبي وفارس بتبادل الهدايا بين الجانبين؛ فتلقى الشيخ زايد من شاه فارس سيفاً هدية، مشفوعاً بخطاب مجاملة يحمل الختم الشاهنشاهي. وقد احتفل الشيخ زايد بهذا الخطاب واحتفى به، وقرئ في احتفال رسمي شهدته جموع المواطنين في أبوظبي، وأظهروا ابتهاجهم بما جاء فيه، وتطلعهم إلى الجامعة الإسلامية بنشرهم الأعلام الخضراء فوق دورهم. ولم يكن من الممكن للسياسة البريطانية أن تغمض العين عن تطلعات زايد التي عمدت إلى مدّ جسور الاتصال فوق حواجز الإستراتيجية البريطانية في الخليج، ولوجاً بأبوظبي إلى العالم الخارجي، واعتماد التعاون الإقليمي، وتوثيق أواصر الرابطة الإسلامية.

حرّمت السياسة البريطانية على كافة شيوخ هذا الساحل بموجب تعهد ١٨٩٢م وما سبقه من إجراءات مماثلة التعامل مع أية قوّة أخرى عدا القوة البريطانية. فقد تمكنت الفرانكوفوبيا في هذا الوقت من أزّمة الساسة البريطانيين في هوايتهول

وسملا، وبلغ خوفهم من وصول روسيا إلى المياه الدافئة في الخليج وتهديد إمبراطوريتهم في الهند درجة الهوس، خاصة في فترة تولي كيرزن منصب نائب الملك في الهند. وكان على سلطات الخليج البريطاني أن تتعامل بالحزم اللازم مع سياسة الشيخ زايد بن خليفة الذي حرّكته روح الرابطة الإسلامية الموثّقة برابطة الجوار الإقليمي والمصالح المشتركة.

أثارت هذه المؤشرات الاستقلالية التي بدت قوية واضحة وعملية في سياسة زايد، وأيدّه فيها شعبه في أبوظبي، واحتفوا بها - ثائرة سلطات الخليج البريطانية؛ فسارعت إلى إرسال أسطولها إلى مياه أبوظبي في أكتوبر ١٩٠٠م. وهددت السفن البريطانية بصبّ حمم نيرانها على تلك المدينة المسالمة التي استظلت بالعلم الأخضر، ما لم ينزل شيخها ذلك العلم عن سارية قصره، ويأمر مواطنيه بطي الأعلام الخضراء التي راحت ترفرف على منازلهم، ورفع علم الهدنة مرّة أخرى. وطلبت قيادة سفن الحرب البريطانية إلى الشيخ زايد أن يصدر إعلاناً صريحاً بقطع علاقاته تماماً مع إيران وفرنسا.(٧٥)

لم يكن للشيخ زايد - حفاظاً على أرواح شعبه وممتلكاتهم - إلا أن يصيخ لإرادة القوّة التي يمثلها ذلك الأسطول، خاصة بعد أن تراجع المدّ الفرنسي الضعيف في المنطقة، و لم يتمكن من أن يثبت في وجه التفرد البريطاني في مياه الخليج وفوق سواحله، وأدرك الضعف البيّن للقوة الإيرانية التي تتطلع للتعاون معها، خاصة بعد أن بلغه أن حكومة طهران قد تنصلت رسمياً من وعودها السابقة له بالدعم والمساندة والتأييد، وراحت بدلاً من هذا تنكر صراحة أية اتصالات معه، وتعتذر للندن عما حدث. و لم يجد الشيخ بداً - لدرء خطر تلك القوة الطاغية - إلا أن يتراجع؛ فقد كان - وهو يحقق طموحاته الداخلية والخارجية بالفرق على تناقضات السياسة الدولية - يدرك تماماً أن السياسة الناجحة والناجعة تتركز في الأخذ بما هو ممكن. كانت الحكومة البريطانية وحكومة الهند من ورائها بالمرصاد لكل فكر تحرري لشيوخ أقوياء مثل زايد يمكن تحقيق فكرهم في أرض الواقع إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً، و لم تكن تخشى منافسة فرنسا

انا زايد بن خليفه حاكم ابوظبي في حضور كرنيل ايه سي تالبت ... الباليوز في خليج فارس

قد التزمت بهذه الورقه وقبلت لنفسي ولورثتي ولخلفائي الشروط الذيل

اني لا ادخل ابدا في قرار ما ولا معاهده مع احد من الدول سوى الدولة

البهية الانكليس

بغير رضاء دولة البهية الانكليس لا اقبل ان يسكن في حوزة ملكي وكيل من دولة

غير الدولة البهية الانكليس

ابدا لا اسلم ولا ابيع ولا ارهن ولا اعطي للتصرف او للتبوء بنوع ما

شيئا من املاكي الا لاحد الا للدولة البهية الانكليس حرر ذلك في اليوم

السادس من شهر شعبان المعظم سنة الف وثلاثماة وتسع من الهجرة

مطابق ليوم الخامس من شهر مارچ سنة الف وثمانماة واثنين وتسعين المسيحي

صحيح الفقير زايد بن خليفه حاكم ابوظبي ... شعبان ١٣٠٩

A. C. Talbot
Lt.-Col.
Resident, Persian Gulf

Lansdowne

Viceroy and Governor General of India.

Abu Dhabi

I, Zaeed bin Khalifah, Chief of Abu Dhabi, in the presence of Lieut-Colonel A. C. Talbot, C.I.E. Political Resident, Persian Gulf, do hereby solemnly bind myself and agree, on behalf of myself, my heirs and successors, to the following conditions viz:-

1st. That I will on no account enter into any agreement or correspondence with any power other than the British Government.

2nd. That without the assent of the British Government I will not consent to the residence within my territory of the agent of any other Government.

3rd. That I will on no account cede, sell, mortgage or otherwise give for occupation any part of my territory save to the British Government.

Dated Abu Dhabi 6th March 1892 corresponding to 5th Shaaban 1309 Hijri.

صحيح الفقير زايد بن خليفه حاكم ابوظبي ...

A. C. Talbot
Lt.-Col.
Resident, Persian Gulf.

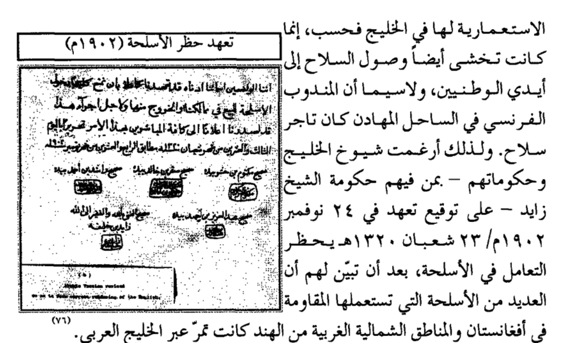
Ratified by His Excellency the Viceroy and Governor General of India at Simla on the Twelfth day of May 1892.

H. M. Durand
Secretary to the Government of India, Foreign Department

تعهد عام ١٨٩٢م/ ١٣٠٩هـ

الاستعمارية لها في الخليج فحسب، إنما كانت تخشى أيضاً وصول السلاح إلى أيدي الوطنيين، ولاسيما أن المندوب الفرنسي في الساحل المهادن كان تاجر سلاح. ولذلك أرغمت شيوخ الخليج وحكوماتهم - بمن فيهم حكومة الشيخ زايد - على توقيع تعهد في ٢٤ نوفمبر ١٩٠٢م/ ٢٣ شعبان ١٣٢٠هـ يحظر التعامل في الأسلحة، بعد أن تبيّن لهم أن العديد من الأسلحة التي تستعملها المقاومة في أفغانستان والمناطق الشمالية الغربية من الهند كانت تمرّ عبر الخليج العربي.[٧٦]

تعهد حظر الأسلحة (١٩٠٢م)



اننا الواضعين اسمائنا ادناه قد تعهدنا [illegible] بان نمنع [illegible]
الأسلحة للبيع في ممالكنا والخروج منها ولأجل اجراء هذا
قد اصدرنا اعلاننا الى كافة المباشرين بهذا الأمر تحريراً باليوم
الثالث والعشرين من شهر شعبان ١٣٢٠ المطابق الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ١٩٠٢

صحيح مكتوم بن حشر بيده — صحيح صقر بن خالد بيده — صحيح راشد بن أحمد بيده

صحيح عبد العزيز بن حميد بيده — صحيح الفقير إلى الله زايد بن خليفة

توفي الشيخ زايد بن خليفة عام ١٩٠٩م تاركاً خلفه إمارة عزيزة الجانب مهابة في مجالها المحلي، وإرثاً مؤثلاً من الحكم المشيخي الأبوي القائم على التراث العربي الأصيل في الإدارة والحكم. وظّف الشيخ زايد تقاليد البادية وأعرافها بعد أن ثقفها لخدمة مجتمع الإمارة، وجمع أطراف الإمارة ووحّد بين قبائلها بالسيف يتبعه النّدى والكرم، وبالشورى التي تحققت بقيام المؤتمرات، وبالروح الإسلامية التي ألزمته حدود العدل وحماية الأعراض والأموال، وبالسياسات الخارجية في الحدود الممكنة التي أتاحت له هامش المناورة بين القوى المختلفة، والتي كثيراً ما أرغمت بريطانيا على إعادة النظر في أسس سياستها في الخليج برمّته، وأحياناً في محظوراتها الأمنية لتحقيق أهداف زايد في وحدة أرضه وولاء إنسانها لولي الأمر؛ فقد أدركت أن معاداة الشيوخ الأقوياء مثل زايد قد يعود على سياساتها في الخليج العربي بالخذلان ويورثها الخسران.

ويمكن أن نقول: إذا كان لشيوخ آل نهيان الأوائل الذين ورث زايد عنهم الحكم فضل تأسيس إمارة أبوظبي وتوحيد قبائلها، فيمكن أن يحسب لهذا الشيخ فضل إعلاء بنيانها، وتثبيت أركانها، وتوطيد سلطانها. وقد تضافرت عدّة عوامل مكّنت للشيخ زايد القيام بهذه المهام: حصافة أكدها تمرّسه فترة طويلة في مجالات الإدارة وشؤون

الحكم، وكرم وطدته الظروف المادية التي تحسنت بانتهاجه نمطاً من أنماط الانفتاح الاقتصادي، وفروسية ساندتها قوّة جسد زاده الله بسطة ومنعة، وروح تحضّر مكّنته من استكشاف تراث أمته وتوظيفه لجمع كلمة القبائل على السلام الاجتماعي، وقوّة إيمان أيدتها زيارته بيت الله الحرام وجلوسه إلى علمائه وفقهائه. أهّلته هذه الصفات الشخصية التي أثرتها الممارسات والخبرات المعرفية لأن يظفر باحترام دوائر الحكم في مناطق الخليج كافة وتقدير مواطنيه الذين راحوا يوقّرونه في الحضر بعد أن أمنت المدينة والقرية العاديات التي كانت تطرقها برّاً، وأضفت عليه هيبة في أوساط البادية التي باتت تخشى سطوته، وانقطاع نواله؛ فانتظمت في طاعته وما عادت تتمرد عليه إلا نادراً. وتحقق له ما أراده من الوحدة التي ربطت بين قبائله، وروح التضامن التي سادت أوساط الإمارات المجاورة له، والتعاون الذي بات يرفرف على مجاله الإقليمي.

طحنون بن زايد (١٩٠٩– ١٩١٢م)



دخلت إمارة أبوظبي في الفترة الممتدة من وفاة الشيخ زايد بن خليفة في يوم الأربعاء التاسع عشر من مايو ١٩٠٩م/ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ إلى الفترة التي اعتلى فيها الشيخ زايد بن سلطان بن خليفة آل نهيان في يوم السبت السادس من أغسطس ١٩٦٦م/ ١٨ ربيع الثاني ١٣٨٦هـ في سلسلة من الأزمات المتلاحقة ذات دوافع وأسباب مختلفة.

آل الحكم في أبوظبي إلى طحنون – ثاني أبناء زايد – بعد أن اعتذر خليفة الابن الأكبر عن عدم قبول منصب الإمارة؛ فقد كان شغفه بحياة البادية أكبر من اهتمامه بشؤون الإدارة والحكم، وكان قد شارك في عهد والده بالعديد من المهام القيادية خاصة ما يتصل بتعبئة البادية وقيادة عشائرها، فلا ريب أن شغلته البادية عن الحضر. ومع ذلك فقد ظل ركيزة قوّية من ركائز سلطة أبوظبي في البوادي، خاصة ليوا التي

اجتمعت ببني ياسها ومناصيرها وعشائرها الأخرى، قلباً وقالباً، مع آل نهيان لوجود أكبر أبناء زايد في أوساطهم. وعلى الرغم من سلسلة الإنهيارات المتلاحقة التي أصابت الإمارة منذ وفاة زايد بن خليفة حتى عهد حفيده زايد بن سلطان فإن البادية لم تخرج خروجاً بيّناً على سلطة آل نهيان التي راحت الأحداث الداخلية والخارجية التي أحاطت بالإمارة توهنها، بينما كانت سيرة شيوخ آل نهيان السابقين تحدّ من هذا الوهن، وتحضّ على الطاعة والولاء.

كان طحنون الذي ورث الحكم عن أبيه كما ورث عنه العديد من ميزاته الأخلاقية رجلاً مريضاً مقعداً، لم تشهد البادية في عهده صولات كصولات أبيه، ولا جولات كجولاته، ولا حضوراً دائماً في المجالس يعمل فيها بالكلمة الطيّبة والرأي الحاسم لكفّ أيدي شيوخ البادية بعضهم عن بعض، ويوظّف التاريخ والتراث والأعراف لحل المشكلات التي غالباً ما كانت تطرأ بين عشائرهم. ولعلنا نلاحظ منذ بداية عهد طحنون تصرّماً وانفلاتاً في عقد الأمن القبلي في إمارة أبوظبي، خاصة وفي منطقة الإمارات عامة.

بدأ طحنون عهده بإرسال مبعوث إلى كافة إمارات الساحل يخبرهم بأنه قد تولى الحكم في أبوظبي خلفاً لوالده، ويطلب إلى شيوخها أن تستمر العلاقات الطيبة التي ربطت بينهم وبين أبيه في النماء والازدهار، ويقرّ في الوقت ذاته بكل ما أبرمه أبوه معهم من تعهدات[٧٧]. وعلى الرغم من ذلك توتّرت العلاقات في عام ١٩١١م بين أبوظبي من جهة ودبي وأم القيوين من جهة أخرى؛ فقد اتهم شيخ دبي شيخ أبوظبي بأنه تنكّر لاتفاق أبرمه معه قبل نحو عام يقضي بعدم دعم شيوخ بني قتب ضد شيوخ أم القيوين . وأرسلت دبي مندوباً إلى أبوظبي للتشاور ثم أسدل الستار على ذلك الخلاف بعد أن تحرّاه ذلك المندوب، وتبيّن له أن الاتفاق المعقود بين طحنون وبين عبد الله بن علي – رئيس بني قتب – لا يخرج في مضمونه عن الاتفاقات المتعارف عليها

التي كان يعقدها الشيوخ الكبار مع رؤساء العشائر والقبائل للتعايش السلمي في البادية وأداء المطالب المتعارف عليها[٧٨]. وبعد أن تغلّبت الروح الوحدوية التي كانت تحرك كلاً من شيخي أبوظبي ودبي على الخلاف، جددت مرّة أخرى بروتوكولات التفاهم وحسن الجوار التي كانت تربط بين المشيختين، وطوي سوء التفاهم بين أبوظبي وأم القيوين أيضاً بعد تدخل دبي، الحليف المعتمد لدى كل من الإمارتين. ودخلت أم القيوين في حلف أبوظبي دبي، وبات هذا الحلف مفتوحاً أمام الإمارات كافة لم يستثن منه إلا شيوخ العشائر الذين استقرّ الرأي على أن يمثلهم حكام إماراتهم فقط. وهنا إشارة أخرى واضحة إلى فكرة الاتحاد الدافعة للشيخ طحنون، شأنه شأن أسلافه، فبدلاً من تفتيت الولاء العشائري للإمارات الأخرى أقرّ دعم ولاء العشائر لأمرائهم، ويمكن بعد ذلك أن ينتظموا طواعية في الحلف. ولابد من الإشارة هنا إلى أن حلف أبوظبي دبي قد آتى ثماره في عهد طحنون نفسه؛ فعندما واجه الأخير نهاية عام ١٩١١م تمرداً من بعض أطراف البادية رماهم بأخويه حمدان وسلطان اللذين لقيا في حملتها هذه دعماً مباشراً من شيخ دبي، كما هرع شيخ بني قتب لمعاونتهما.

حمدان بن زايد (١٩١٢– ١٩٢٢م)

شهد عهد حمدان بن زايد حدثين: أحدهما إقليمي، والآخر عالمي، وكان لكليهما أثره السلبي في أبوظبي. فمن الناحية الإقليمية ثبت أمر عبد العزيز بن سعود في نجد ثم امتد إلى الأحساء، وضمّها إلى مشيخته في ١٩١٣م، وكان لذلك أثره في السياسة البريطانية في الخليج خاصة بعد أن عقدت بريطانيا في ١٩١٥م اتفاقية دارين مع ابن سعود. أما الحدث العالمي الذي كان له أثره في المنطقة فهو مرتبط بذلك الحدث الإقليمي، وأحد ذيوله في المنطقة؛ فقد كانت اتفاقية دارين نتيجة مباشرة لمجريات الحرب العالمية الأولى في شرق الجزيرة العربية إذ سعت بريطانيا – عشية دخول تركيا العثمانية الحرب – إلى استرضاء ابن سعود سيّد نجد فقدمت له دارين التي ضمنت بها – فيما ضمنت– عدم تدخل ابن سعود في سياسات الساحل المهادن أو معارضة

شيوخه. وكان على حمدان بن زايد الذي اعتلى سدّة الإمارة في يوم الجمعة ١١ أكتوبر ١٩١٢م/ ٢٩ شوال ١٣٣٠هـ أن يتعامل مع الحدثين الإقليمي والعالمي.

أدّت الحرب العالمية الأولى الكساد إلى أسواق اللؤلؤ؛ فأخذ اقتصاد أبوظبي يعاني ذلك إذ كان اللؤلؤ هو الغلّة الأولى في هذا الاقتصاد. ولم يعمل حمدان لمواجهة هذه النازلة في اقتصاد بلاده باللجوء إلى أية إجراءات. وظل يتبنى اقتصاد السوق الذي تبناه شيوخ أبوظبي في الفترات السابقة بحسبانه الأجلب للثراء، رغم كل الظروف التي دفعت بكافة الدول الرأسمالية الكبرى إلى مواجهة الحرب باقتصاد موجه. وعلى الرغم من أن إمارة أبوظبي ظلت – من حيث الشكل على الأقل – إمارة حضرية أكثر من كونها إمارة بدوية إذ كان سكان حاضرة أبوظبي في هذه الفترة أكثر من ثلثي مواطني الإمارة إلا أن الاقتصاد الظبياني ظل بيد الفرس والهندوس الذين كانوا يشكّلون نحو ٨٣٪ من المتعاملين بالتجارة. هذا بالإضافة إلى أن الشيخ حمدان وقّع مع البريطانيين عقداً في ٣ مايو ١٩٢٢م/ ٥ رمضان ١٣٤٠هـ احتكروا به الاستثمارات البترولية المزمعة في إمارته، وذلك بعد أن خبر البريطانيون في الحرب العالمية الأولى عملياً قيمة البترول ولاسيما أنهم حوّلوا وقود أسطولهم إبان الحرب العالمية الأولى من الفحم إلى النفط.

بين حمدان بن زايد والمقيم البريطاني

أما المشكلة الإقليمية الطارئة فقد عمل حمدان على حلها باللجوء إلى القوّة المجردة أولاً ثم مالبث أن تراجع عن ذلك نتيجة مستجدات عالمية ومحلية، وأصبح أقرب إلى ابن سعود ولاءً. فما إن بلغه تغلب عبد العزيز بن سعود على الأحساء وأخذها حتى استدعى شيخ دبي للتشاور في أمثل السبل لمواجهة هذا الوضع الطارئ، وأخذ يحشد العشائر ويجمع الأسلحة والذخائر(٧٩). وتدخلت السلطات البريطانية في الخليج لتغلّ يده عن الوصول إلى ابن سعود، وأخبرته بأن لهم اتصالات وثيقة مع ابن سعود

وتفاهماً يقضي بعدم تدخله في شؤون مشيخات ساحل عمان. وعلى الرغم من ذلك لم يطمئن حمدان في هذه الفترة الباكرة من وصول ابن سعود إلى الأحساء إلى السياسة السعودية. وكان ابن سعود يعاني في هذه الفترة من عام ١٩١٥م تمرّداً في الأحساء قاده العرايف – وهم بعض أبناء عمومته الخارجين عليه – وبعض القادة المحرِّضين عليه. وحدث أن فرّ سلمان – أحد هؤلاء العرايف، بعد أن أسكت ابن سعود في أكتوبر ١٩١٥م الشغب الذي أحدثته بعض قبائل الأحساء – من منطقة القطيف إلى وكرة ثم إلى أبوظبي حيث استقرّ فترة في ضيافة الشيخ حمدان بن زايد. وقد وردت – ضمن خطاب طويل كتبه ابن سعود للمقيم البريطاني في الخليج يشرح فيه ما آل إليه الوضع السعودي في الأحساء ونجد من قوة منعة – شكوى ضد الشيخ حمدان بن زايد الذي أسبغ حمايته على سلمان. ويضيف خطاب ابن سعود: «لمّا كان حمدان من الشيوخ المشمولين بالحماية البريطانية ولآصرة الصداقة التي تربط بيني وبين الحكومة المذكورة فإني لن أهاجمه ولكن لا يخامرني شك في أنكم ستقومون بما يلزم في هذا الصدد»[٨٠]. وطلب في نهاية رسالته إلى المقيم القبض على سلمان. و لم ترض السلطات البريطانية لجوء سلمان إلى حمدان فأرسل المقيم البريطاني رسالة إلى الشيخ حمدان تحضّه على عدم مساندة العرايف أو دعمهم بما يمكّنهم من الانطلاق من أرضه ضد ابن سعود؛ لأن العرايف «أعداء لأصدقاء الحكومة البريطانية».[٨١] كما أرسل ابن سعود طيّ رسالة لاحقة إلى المقيم البريطاني عدداً من أصول خطابات تمكنّ من الحصول عليها كان الشيخ حمدان بن زايد قد أرسلها إلى ابن رشيد – غريم ابن سعود في نجد – وإلى العرايف: فهد بن سعود آل سعود، وسلمان بن محمد بن سعود، وغيرهما، وبعث إليه أيضاً عدداً من الخطابات كان الشيخ حمدان قد بعث بها إلى شيوخ آل مرّة يدعوهم فيها إلى شقّ عصا طاعة ابن سعود وتنسيق جهودهم لمساندة العرايف ضده. هذا بالإضافة إلى أن خطابات الشيخ حمدان بن زايد إلى الشيوخ المتمردين على ابن سعود في الأحساء كانت متوالية، لم تنقطع. وعلى الرغم من حثّ السلطات البريطانية في الخليج الشيخ حمدان على عدم الاهتمام بأمر امتداد ابن سعود في الأحساء بزعم أنهم

قادرون على الإمساك بزمامه حتى لا يرد الظهير العماني إلا أن الشيخ حمدان بدا حتى هذه الفترة وجلاً من مخططات ابن سعود، واحتجّ بأنه كان قد بعث برسالة إليه يطلب فيها تجديد العلاقات الودية التي تربط بين أسرتي آل سعود وآل نهيان ويخبره بنيّته زيارة الرياض من أجل هذا الهدف، فجاءه رد شفهي من ابن سعود – على لسان أحد مبعوثيه – بأنه يرحِّب بعرضه في تجديد العلاقات الطيبة، ويطلب إليه إرجاء أمر الزيارة لتتم في عمان بدلاً من الرياض.

كانت معارضة حمدان للامتداد السعودي – الذي بدا مؤكداً بعد أن ضمّ ابن سعود الأحساء – صادقة؛ فقد اتخذ هذا الشيخ في مجال المعارضة الصريحة لابن سعود ما سردنا طرفاً منه، وعمل على تثبيت موقفه المحلي بإسكات الشغب في قبائله، وردها إلى حظيرة الوحدة ضمن إمارة أبوظبي التي أخذت وحدة قبائلها – خاصة تلك التي تسكن على مقربة من واحات البريمي – في التصرم[٨٢]. هذا بالإضافة إلى مراعاة وحدة الكلمة واتحاد الهدف مع شيخ دبي. وعمد في مجاله الإقليمي إلى تأييّد السلطة الشرعية في مسقط ومساندتها بالرجال؛ مراعاة منه للتحالف التقليدي الطويل الأمد الذي ربط بين أسرتي آل نهيان والبوسعيد، إضافة إلى الاستجابة للمصلحة المشتركة؛ فقد برهنت كل حوادث التاريخ الماضية على أن كل طارق يطرق ظهير أبوظبي يجد له صدى مباشراً في مسقط وعمان.

عمل الشيخ حمدان منذ عام ١٩١٣م لاستحداث صلح بين إمام مسقط ورؤساء القبائل الخارجة عليه، ولما لم تتقيّد هذه العشائر العمانية بما كان يسعى إليه من هدوء الأحوال في المنطقة أزمع في عام ١٩١٤م على القيام بحملة ضدها يشدّ بها من أزر السلطان[٨٣]، واستنصر شيخ دبي الذي اعتذر عن المشاركة في هذه الحملة بسوء الأحوال الجوية والقيظ التي يردي الإنسان ولا يستبقي الحيوان وبظروف انشغال المواطنين في هذه الفترة بصيد اللؤلؤ. و لم يهدأ حمدان أو يقعد

عن تحقيق هدفه؛ فقد تحرك إلى البريمي ليقوم بالتعبئة من هناك وينزل على صحار، ثم يركب البحر منها إلى مسقط، غير أن السلطان سعيد بن تيمور الذي يبدو أنه أصبح واثقاً من قوّة التعهدات البريطانية بشأن الأوضاع في المنطقة طلب إليه أن يتخلى عن هذه الحملة؛ فعاد حمدان حينئذ أدراجه إلى مركز إمارته في أبوظبي[٨٤].

كانت معارضة الشيخ حمدان لابن سعود في بداية ظهور الأخير في الأحساء معارضة صادقة واجهها بهذه الإجراءات في مجاله الإقليمي، أما في المجال المحلي فبالإضافة إلى ما قام به من توثيق علاقات وحدة المصير والمسير بينه وبين شيخ دبي فقد زار أم القيوين عام ١٩١٤م، وعقد مع شيخها راشد بن أحمد بن علي حلفاً قام على الأسس نفسها التي ربطت بين أسلافهما. كما زار الأخير أبوظبي وعمل على تفعيل هذا الاتفاق مع الشيخ حمدان ضد بني قتب، ولكنه لم يجد استجابة من شيخ أبوظبي الذي طلب إلى شيخ أم القيوين تحقيق أهدافه بلا حرب، وذلك باستخدام المساعي الحميدة لشيوخ دبي والشارقة ورأس الخيمة وتأثيرهم في بني قتب. وازدادت علاقات الصداقة بين شيخي أبوظبي وأم القيوين، وبدأت بوادر خلاف بين هذا المعسكر وبين القواسم، وما ذلك إلا لمساندة حمدان الدائمة لشيخ أم القيوين[٨٥] إلا أن حمدان أكد للمقيم البريطاني في الخليج أن علاقته مع القواسم علاقة طيبة.

اضطر الشيخ حمدان منذ عام ١٩١٧م – بعد أن استبان أن السلطات البريطانية قد اشترت من ابن سعود أمن مناطق الشيوخ الواقعين تحت الحماية البريطانية باتفاقية دارين (١٩١٥م) – أن يعمل على تحسين علاقاته مع ابن سعود؛ فبعث إليه في هذه السنة بخطابين وديّن مع بعض الهدايا التي رد عليها ابن سعود بالمثل.

أوقفت بريطانيا بتفاهمها مع ابن سعود إلى حين المدّ السعودي الرسمي إلى البريمي وظهير أبوظبي، ولكن هذه السياسة ظلت عاجزة عن تحصين قبائل المنطقة ضد المدّ السعودي غير الرسمي؛ فقد راح ابن سعود – بفضل سياسته المرنة – يسعى سعياً حثيثاً

لجمع ولاء القبائل في الجنوب والجنوب الغربي من الأحساء دون أن يثير ريبة السلطات البريطانية في الخليج و لم يعمد إلى مهاجمة هذه القبائل، ولكنه أقام علاقات صداقة تربط بينه والشيوخ(٨٦). كان الوضع القبلي في ظهير الساحل العماني يعاني اضطرابات في عام ١٩١٨م للخلاف الذي شبّ بين المناصير والمزاريع وبني ياس من جهة، وبين البوشامس والدروع من جهة أخرى(٨٧). وقد استمرت هذه الاضطرابات فترة ما حتى تمكن الشيخ حمدان بن زايد أخيراً من إخمادها بالصلح بين الفرقاء. ومع الإقرار بهذا الدور البالغ الأهمية الذي اضطلع به حمدان إلا أن توالي تلك الحوادث أكد انفراط عقد الأمن في ظهير أبوظبي ما خلخل ولاء بعض قبائل المنطقة وتسرُّب المد السعودي إلى بوادي أبوظبي؛ فقد قام الشيخ محمد بن سالمين، شيخ البوشامس، والشيخ محمد بن سعيد بن حامد شيخ الدروع، وحامد بن سالم بن رزق شيخ العوامر، وشيوخ آخرون من القبائل التابعة لزايد بن خليفة بالاتصال بعبد الله بن جلوي، أمير الأحساء من قبل ابن سعود فكساهم وبادلهم الهدايا. واستقرّ العديد من بطون عشائر المناصير في الأحساء التي استقرّ فيها أيضاً في هذه الفترة بعض المزاريع. أما قبائل الهوامل والقبيسات والبومهير والمرر فقد هجروا في فترة الاضطرابات المناطق الداخلية واستقرّوا في أبوظبي. وعلى الرغم من زيارة حمدان بن زايد البريمي في ١٩٢٠م – حيث ورث أسلافه نفوذاً كبيراً – لتسوية الأمور بين القبائل، ولردّ العوامر بالقوّة إلى الطاعة، وعودة العديد من العشائر إلى سيرتها الأولى حين ساد الوئام الجميع فترة لاحقة، فإن نفوذه قد أخذ يتضعضع في تلك النواحي ما دفع بابن جلوي لإرسال جامع زكاته إلى بوادي أبوظبي. وعلى الرغم من أن جامع الزكاة السعودي لم يرجع بقدر كبير من المال يدلّ على طاعة هذه القبائل السعوديين إلا أن وصوله إلى البريمي ينبئ عن تحول في ولاء القبائل، بالإضافة إلى أن راشد بن مانع – أكبر شيوخ المناصير كان قد قصد ابن جلوي في فترة الاضطراب – استقرّ في الأحساء بعد أن ربطت الصداقة بينه وبين الوكيل السعودي(٨٨). ويمكن القول: إن وضع السيادة في ظهير أبوظبي قد اضطرب في عهد حمدان بن زايد جداً؛ فقد كانت الأطراف المتقاتلة

جميعها تلجأ إلى ابن جلوي وتسعى لحمايته. وقبلت بعض هذه الأطراف في بعض الفترات وساطة شيخ أبوظبي، وسعت إليها وصاخت لحكمة فيها. ويمكن أن نأخذ في هذا المجال بشهادة المنصِّر الأمريكي بول هاريسون، وكان الرجل واحداً من مجموعة صغيرة من الذين يعودون إلى رئاستهم في البحرين حاملين لسلطات الإدارة البريطانية من أخبار الساحل أكثر مما حملوه في جعبتهم إلى ذلك الساحل من الأدوية والعلاج، قال بول هاريسون: إن الشيخ حمدان بن زايد لا يزال أقوى الشيوخ في منطقة الساحل العماني(٨٩).

سلطان بن زايد (١٩٢٢- ١٩٢٦م)

حسنت علاقة الشيخ حمدان بن زايد منذ عام ١٩١٧م مع ابن سعود وواليه في الأحساء ولم تكن مسألة السيادة على هذه القبائل في الظهير موضع تفكير لدى هذا الجانب أو ذاك، فالحدود السياسية لم تكن في هذه الفترة هاجساً سياسياً لدى أي من الجانبين. ويبدو أن سلطان لم يكن يقر السياسة التصالحية اللينة من أخيه حمدان تجاه السعوديين ورأى فيها خروجاً سافراً عن سياسة آل نهيان الذين كانوا في فترات ضعفهم يهادنون ولكنهم لا يتهاونون. كان ظهير أبوظبي الذي تطلع له السعوديون - في تقدير سلطان - قلب الإمارة الذي يمد أبوظبي باحتياجاتها الحيوية ومهد شيوخها الذين انطلقوا منه لحكم الساحل ومكن قوتها في البر بعد أن أوهن البريطانيون في البحر كل قوة عربية. ولعل كل هذا هو الذي دفع سلطان أن يقيم قلعة في مناطق العين منذ عام ١٩١٠ في عهد أخيه طحنون لدعم القلاع الظبيانية الأقدم في درء أي خطر محدق بالمناطق الداخلية من أبوظبي. وقد أحدث مجيء سلطان بن زايد إلى الحكم في اضطرابات سياسية؛ لأن سلطة الأحساء السعودية كانت ترى في حمدان - خاصة بعد عام ١٩١٧م- حليفاً لها في المنطقة. وعلى الرغم من تراجع

ولاء المناصير – خاصة – للشيخ سلطان إلا أن بني ياس ظلت على ولائها التقليدي المقيم لشيوخ آل نهيان، خاصة أولئك المقيمون بينهم[٩٠]. ودخلت مناطق أبوظبي الداخلية في خلافات قبلية. وأدت هذه الاضطرابات القبلية المتوترة في تلك المناطق رحيل عدد من الهوامل والمحاربة والمرر إلى مدينة أبوظبي وبعض الجزر القريبة من ساحلها تاركين إبلهم ترعى المناطق الجنوبية من الظفرة وفي منطقة البريمي. أما المناصير فكانوا – في أعمِّهم– على عاداتهم السابقة في الهجرة السنوية يقضون الشتاء في الأحساء ويصيفون في الظفرة، و لم يحبّذ إلا القليل منهم البقاء في الأحساء دائماً[٩١].

جاء في تقرير للمقيم البريطاني في الخليج لعام ١٩٢٦م أن الظفرة التابعة لمشيخة أبوظبي هي الهدف الذي يتجه إليه السعوديون لتحقيق سيطرتهم على شرق شبه الجزيرة العربية، وأضاف التقرير أن أبوظبي ودبي تعارضان هذا الامتداد السعودي بينما تقف إمارات الساحل الأخرى – ربما باستثناء الشارقة ورأس الخيمة – على الحياد. فالإمارتان الأخيرتان – كما يقول التقرير – أقرب ولاء للسعودية لارتباطاتهما الوهابية. ويستعرض المقيم ولاء قبائل البريمي فيقول: إن عشائر النعيم – عدا البوشامس – قبائل معادية للامتداد السعودي[٩٢]. وراح سلطان يحرّض القبائل على الثبات في معارضتها للمدّ السعودي وعدم أداء الزكاة للجباة السعوديين.[٩٣]

عمل الشيخ سلطان على معارضة السعوديين في المنطقة بكافة الوسائل سراً وكان يظهر للرياض خلاف ما يبطن. وتحفظ ملفات المقيم البريطاني عدداً من الرسائل التي أرسلها الشيخ سلطان بن زايد يعبر فيها للعرايف تعاطفه معهم ضد عبد العزيز بن سعود. وعلى الرغم من ذلك استمرّ المد السعودي في عهد سلطان في الظهير حتى وصل إلى البريمي؛ فقد وفد إلى المنطقة سعيد آل عرفة لجمع الزكاة بمساندة بعض شيوخ العوامر والدروع، و لم تستجب عشائر الظواهر وبعض عشائر النعيم، بينما أدى بعض البوشامس زكاتهم إلى صاحب الزكاة السعودي. وكتب ابن جلوي في هذه الفترة إلى حاكم دبيّ يشكو له مقاومة الشيخ سلطان لعامل الزكاة ويقول: إن سلطان ليس بالندّ الذي يقف معارضاً للقوّة السعودية.

بسم الله الرحمن الرحيم

من سلطان بن زايد — إلى جناب الأجل الأكرم [illegible] المحترم [illegible]

البهية القيصرية أدام الله مجدها بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته [illegible] بخير لا زلتم [illegible] من [illegible] ولا [illegible] فينا

زيادة علم [illegible] الأخ حمدان بن زايد توفي إلى رحمة الله والواقع ما له دافع وإن محبكم صرنا في منصب الحكومة

من بعده وجميع ما بين بينكم وبين الأخ المذكور من المعاهدات بمحض المودة والصفوة فهو مع محبكم ما بث

مثل الأول وزيادة [illegible] في ذلك تبديل والفرق معدوم [illegible] وكتابكم الذي بيد إبراهيم رجب المكتوب باسم

الأخ المرحوم [illegible] فهمنا [illegible] ذكرتم من طرف [illegible] أعلم [illegible] أحمد بن راشد [illegible] البلد [illegible] إنما

هو في الغوص وعائلته توجهوا إلى القبيض [illegible] مع رجوعهم إلى منازلهم تحصل المذاكرة [illegible] من

جنابكم بخصوص هذه المادة كذلك من طرف [illegible] المقرر [illegible] المذكور [illegible] السند [illegible]

توجه إلى القبيض مع رجوع [illegible] وأم [illegible] كذلك [illegible] في رجوعهما مهما أمكن

إن شاء الله [illegible] في انفصال [illegible] المواد المعوقة ويكون [illegible] بالحالة

[illegible] بالسلامة [illegible] والعافية [illegible] انفصال [illegible] الكريمة مهما أراد

علما [illegible] والسلام [illegible]

[illegible] حرر [illegible] ١٣٤٠

No. 252 of 1922. 191

British Residency & Consulate-General,

Bushire, 2nd October 1922
10th Safar 1341.

To

Shaikh Soltan ben Zaid,

Chief of Abu Dhabi.

p. 95

A.C.,

I have received your letter dated 5th Moharram 1341, announcing your assumption of the chiefship of Abu Dhabi in succession to your late brother Shaikh Hamdan ben Zaid.

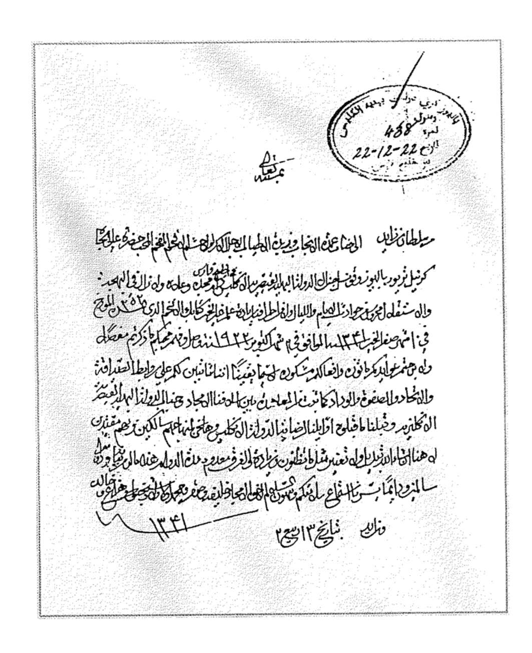
I note that you are prepared to maintain the friendly relations and to abide by all the treaties and agreements in force with the British Government. I presume the copy of the Book of Treaties given to your late brother Shaikh Hamdan in 1912 is with you.

Sd/-. A.P.Trevor. Lt-Colonel,
Political Resident, Persian Gulf.

P.C.

ترجمة

بعد ما وصل لنا كتابكم الكريم المؤرخ ٥ محرم ١٣٤١ [illegible] السلام [illegible] بالتحرير كتاب المؤرخ [illegible]
المبني بانتصابكم مشيخة ابو ظبي خلفاً لأخيكم المرحوم الشيخ حمدان بن زايد انا فهمنا بأن جنابكم حاضرين تستقيمون
على روابط الصداقة والاتحاد وثابتين على جميع المعاهدات والمقاولات الحاصلة بينكم وبين الدولة البهية الانكليزية
انا نظن بأن نسخة كتاب المعاهدات المعطى الى اخيكم المرحوم الشيخ حمدان بن زايد في سنة ١٩١٢ الموافق سنة ١٣٣٠
يكون موجود عندكم هذا ما لزم بيانه لجنابكم ولا زلتم محروسين والسلام حرر في شهر اكتوبر ١٩٢٢



438

22-12-22

بسم تعالى

من سلطان بن زايد الى جناب عمدة النجباء وزينة الصلاب الجليل الاكرم [illegible] المفخم المحب حضرة علي جناب

كرنيل تريور باليوز وقونسل جنرال الدولة البهية القيصرية الانكليزية في الخليج الفارسي [illegible] وبعده ولا زال في [illegible]

والا [illegible] عن حوادث الايام والليالي [illegible] كتابكم الكريم الذي [illegible] ٢٥ من الموخ

في ١ شهر صفر الخير سنة ١٣٤١ الموافق في شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ وصل وفهمنا ما ذكرتم مفصلا

ولا [illegible] وانعامكم مشكورة [illegible] انما نبين لكم على روابط الصداقة

والاتحاد والصفوة والوداد كما كانت من المعاهدة بين الاجداد جناب الدولة البهية القيصرية

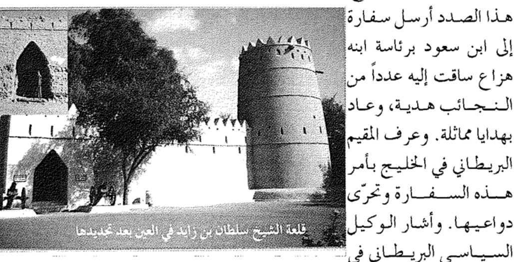
الانكليزية وقبلنا ما فعلوه اوائلنا [illegible] الدولة الانكليزية [illegible] مقتدين

لا هنا ان شاء الله [illegible] ولا تغيير [illegible] زيادة [illegible] الدولة [illegible]

[illegible] دائما [illegible] والسلام

بتاريخ ١٣ ربيع ٢ ١٣٤١

اضطر الشيخ سلطان إلى أن يتعامل مع الوضع الطارئ في ظهير بلاده بطريقة مغايرة فلجأ إلى سياسة جديدة مع ابن سعود قوامها التظاهر بالصداقة بدل مظاهر الجفاء. وفي هذا الصدد أرسل سفارة إلى ابن سعود برئاسة ابنه هزاع ساقت إليه عدداً من النجائب هدية، وعاد بهدايا مماثلة. وعرف المقيم البريطاني في الخليج بأمر هذه السفارة وتحرّى دواعيها. وأشار الوكيل السياسي البريطاني في


قلعة الشيخ سلطان بن زايد في العين بعد تجديدها

اتصال له مع الشيخ سلطان إلى ضرورة مراعاة التعهدات التي تحظر على أبوظبي التعامل مع أية قوّة دولية سوى الحكومة البريطانية، واعتذر سلطان بأن ما قام به يعود إلى مراعاته الأعراف التي سار عليها أسلافه بإرسال الهدايا إلى السعوديين حين يتولى أي منهم الحكم.[٩٤] هذا بالإضافة إلى أن شيوخ آل نهيان أنفسهم كان يعدّون الخلافات بينهم وبين القوى التي تحكم نجداً من المشكلات القبلية الداخلية الخاصة بهم. يعالجونها وفق منظورهم[٩٥] وقد قام البريطانيون في هذه الفترة بدراسة أمر الانتشار السعودي في ظهير أبوظبي وخلصوا إلى أن قوّة ابن سعود قد تمتدّ في هذه المنطقة دون أية عوائق جغرافية أو عقبات طبيعية، إضافة إلى أن ابن سعود وشيوخ الساحل العماني كلهم عرب ونتاج بلاد العرب، ويجتمعون على صلات قوّية إذ تجمعهم صلات الدم والدين. وهذا مما يجعل صدّ ابن سعود عن المنطقة أمراً بالغ الصعوبة. وأشار الساسة البريطانيون إلى أن الضمان الوحيد لحجب المنطقة عن تأثير ابن سعود هو أن يتقيّد الأخير بمراعاة روابط الصداقة مع البريطانيين.

كتبت وزارة الهند في ٩ مايو ١٩٢٦م/ ٢٦ شوال ١٣٤٤هـ إلى وزارة المستعمرات تطلب مشورتها في معالجة أمر وصول ابن سعود إلى الظهير العماني،

فلم تتحمس لعمل حاسم ضد ابن سعود وأجابت بأن اجتماع المصالح الحكومية المعنية بدراسة أمر ابن سعود لوضع اتفاق جدة يرى ضرورة عدم معاداته فيما لا طائل تحته، وذكروا أنهم سيقدِّمون له حين يوقّع الاتفاق المزمع نسخاً من معاهداتهم مع شيوخ الساحل، وأنه سيراعيها. ولم تقبل وزارة الهند من وزارة المستعمرات هذا الرأي وذكرت أنه ليس في الاتفاقات المذكورة ما يشير إلى أن بريطانيا تتعهد بحماية أراضي هؤلاء الشيوخ.[٩٦]

بين صقر بن زايد والمقيم البريطاني

صقر بن زايد (١٩٢٦- ١٩٢٨م)

كان الشيخ صقر يظاهر ابن سعود علناً؛ فعمل على جمع الزكاة بنفسه وتقديمها للأمير السعودي ولحاكم الأحساء خشية أن يقوم السعوديون بمناصرة أبناء الشيخ سلطان ضده. فلم يعمل على منع وصول الجباة السعوديين إلى البريمي. وقد وصل في هذه الفترة التي اتسمت بالفوضى والانفراط الأمني في إمارة أبوظبي بعض شرطة السعوديين التابعين لابن جلوي إلى الشارقة لمطاردة بعض النجديين المطلوبين، كما وصل بعض المسؤولين السعوديين إلى عمان ورأس الخيمة دون أن يلقوا أدنى مقاومة من شيخ أبوظبي. وقد أدت سياسة صقر بن زايد في بذل المال للسعوديين، وتخليه عن دعم القبائل المعارضة للامتداد السعودي في الظهير إلى نقص الأعطيات التي اعتادت تلك القبائل تلقيها من شيوخ آل نهيان؛ فأخذت المعارضة القبلية ضده تتنامى، خاصة في أوساط المناصير ثم تجمعت بجلاء حول خليفة بن زايد، أخيه الأكبر، الذي كان مصاهراً للمناصير. وقد أودت هذه المعارضة أخيراً بحياة الشيخ صقر بن زايد.

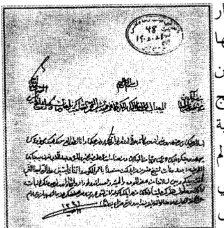
شخبوط بن سلطان (١٩٢٨ -١٩٦٦ م)

من تقرير عيسى عبداللطيف (١٩٣٤م)

تسلّم الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان في أوائل عام ١٩٢٨م/ شعبان ١٣٤٦هـ زمام الحكم في إمارة أبوظبي بإجماع أسرة آل نهيان وكبيرهم خليفة بن زايد وأهل الرأي من بني ياس. وعمل منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء عهده في ١٩٦٦م على قيادة إمارته في لجّة خضم مشكلات متتابعة بعضها إثر بعض. وقد عمل على معالجة هذه المشكلات كافة ومقابلة كل المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية ذات الأبعاد السياسية والأمنية والاقتصادية بأسلوب واحد فقط لم يتغيّر في فترة حكمه كلها، ولم يتبدل في هذه الفترة قط لتحقيق هدف واحد فقط. كان أسلوب شخبوط المعتمد هو إغلاق أبواب إمارته إغلاقاً محكماً في وجه كافة المتغيرات، أما هدفه فكان العمل الجاد لتحقيق وحدة أرضه واتحاد قبائلها والحفاظ عليها بعيدة عن كل تأثير خارجي. ولم يكن له من المرونة السياسية بأن إدارة التغيير لا تعالج إلا بتغيير الوسائل وتعديل الأهداف بالقدر الذي لا يخلّ بأسسها. وقد برهنت هذه الإرادة التي اجتاحت العالم المعمور بأسره أن المزاليج التي استحدثها هذا الشيخ لإغلاق أبوظبي لا تحول دون التحديث المتسارع الذي كان يخشى مغبّة عقابيله على النسيج الاجتماعي في بلاده؛ لأنه أقوى من كل المتاريس التي أقامها.

تولى شخبوط الحكم في أبوظبي ولما يمض عقد على نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد شهد عهده كافة المتغيرات الناجمة عن تلك الحرب وآثارها القريبة والبعيدة من بداية الشرخ الذي حدث في صرح الإمبراطوريات الاستعمارية التقليدية منذراً بذهاب ريحها، وبروز الاتحاد السوفييتي من عباءة روسيا القيصرية قوّة دولية ذات أيديولوجية محددة. وعاصر شخبوط أيضاً الحرب العالمية الثانية التي كان من نتائجها السياسية أفول نجم الاستعمار القديم، خاصة البريطاني والفرنسي، بالتدريج. وانفتحت أبواب العالم بعد الحرب العالمية الثانية على مصاريعها للولايات المتحدة الأمريكية التي نفضت عن نفسها

سياسة «العزلة المجيدة»؛ لتدلف إلى مجال الاستثمارات العالمية التي ما عادت حكراً على الأوروبيين. وشهد عهد الشيخ شخبوط أيضاً انهيار عصبة الأمم، وقيام مؤسسة الأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة، ودخول إسرائيل في الجسد العربي بتأييد من تلك المؤسسة. وعاصر عهده أيضاً تبدّل وظيفة الخليج في الإستراتيجية البريطانية، وبروز إستراتيجيات عالمية مغايرة بعد أن أصبح الخليج ضرعاً لطاقة «العالم الحر». وأنشئت في الدمام على مشارف إمارة أبوظبي قاعدة جوّية انطلقت منها الطائرات الأمريكية إلى الشرق الأقصى لتحقيق التطلعات الإمبريالية هناك.


بين شخبوط بن سلطان والمقيم البريطاني

اقتصرت وظيفة الخليج في الإستراتيجية البريطانية قبل دخول الاستثمارات الأمريكية فيه على حماية أمن الهند؛ فقد اتخذ البريطانيون - منذ أن أنشئت إمبراطوريتهم في الهند عام ١٨٥٨م - الخليج العربي حدوداً أمنية أغلقوها أمام كل قوّة أخرى، غير أن الخليج كان قد اكتسب بعد الحرب العالمية الثانية - قبل أن تخرج شبه القارة الهندية من ربقة الاستعمار البريطاني - بُعداً إستراتيجياً أمنياً لقوى دولية أخرى، وبُعداً اقتصادياً مستحدثاً.

لم يكن كل هذه التحولات والتبدلات العالمية ذات التأثيرات المباشرة وغير المباشرة، السلبية منها والإيجابية، تعني للشيخ شخبوط شيئاً كثيراً. اقتصر همّه على إمارة أبوظبي التي جهد أن يبقيها خارج دوامة التغيير. ولربما رأى هذا الشيخ الشغوف بتاريخ قومه المشوق بتراثهم، أن أبوظبي ظلت محافظة على هويتها أكثر من قرن ونصف سيطر فيها البريطانيون على المنطقة، وحجبوا عنها كل مؤثر خارجي يمكن أن يقود إلى تغيير. وكان من إيجابيات حظر البريطانيين لتعامل المنطقة مع العالم - إن كان ثمّة إيجابيات لذلك - أن حافظت الإمارة بالإغلاق على قيمّها وتقاليدها واحتضنت تراثها و لم تفقد شيئاً من أصالتها. و لم يحاول الشيخ شخبوط أن يفهم - وهو في هذا

المجال مثل ساسة لندن في بداية الأمر – أن الحربين العالميتين والأولى والثانية قد بدلتا من هيئة التاريخ الذي أضحى يدور في فلك جديد، بعد أن توشّح سلبيات نتائج هذه الأحداث وإيجابياتها!

الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان

أفرزت هذه المتغيرات – فيما أفرزت – نظريات سياسية جديدة راجت في المنطقة المجاورة للإمارات، وأيقظت في الجوار الإقليمي لأبوظبي حركات دينية وقومية كانت خامدة؛ فقد استشعرت إيران قوميتها تحت الأسرة البهلوية، وأكدت ملكيتها لما حازته سابقاً من جزر عربية في الخليج، وتطلعت إلى المزيد، ولم تكتف بإدعاء السيادة على الجزر العربية فقط بل زادت في عام ١٩٢٨م في مذكرة لها للحكومة البريطانية عدم الاعتراف بكافة شيوخ العرب على ساحل الخليج، وادّعت أن أهل الكويت وقطر والساحل المهادن ومسقط كلهم إيرانيون، وستصدر جوازات سفر إيرانية لهم.(٩٧) وبدأت في هذه الفترة خطوات تأسيس المملكة العربية السعودية على مبادئ الفكر الوهابي، وشهدت عمان تأسيس الإمامة على مبادئ الفكر الإباضي، ثم كان بعدئذ عقد اتفاقية السيب بين السلطنة والإمامة في ١٩٢٠م.(٩٨) وباتت الأرض العمانية نهباً للخلافات، وتوارى سيد مسقط – الحليف التقليدي لشيوخ آل نهيان – في عاصمته مسقط وراح يغلق أبواب أسوارها مع مغيب شمس كل يوم ويحتفظ بمفاتيحها!. وعلى الرغم من كل هذه التيارات المتناقضة التي اعتورت أفق الجوار الإقليمي لأبوظبي، وكانت كلها حبلى بأوخم العواقب فقد اعتقد شخبوط أنه يستطيع أن يتداركها بأن يوصد أبواب إمارته أمام تيارات هذه الحركات القومية والدينية والاشتراكية بل والشيوعية، وأن يحجب كافة تلك المبادئ بالتجاهل النشيط وإغلاق إماراته دون تأثيراتها!

لم يستبن ساسة بريطانيا في هذا الوقت – وهي في ذلك مثل سياسة الشيخ شخبوط – أن الزمان قد استدار على هيئة جديدة، وأن مقدمات التحوّل بعد الحرب العالمية الأولى أخذت تشير إلى مولد عالم جديد، و لم يغيّروا أسس سياستهم العتيقة في الخليج بعد الحرب العالمية الأولى، ولكنهم تبنوا أساليب جديدة لتنفيذ هذه السياسة التي قرروّا في هذه الفترة أن يطبّقوها بإحكام؛ ليشددوا من قبضتهم على منطقة الساحل المهادن خاصة. أقرّت إحدى اللجان المنبثقة عن لجنة الدفاع عن الإمبراطورية في تقريرها بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٢٨م بشأن الوضع في الساحل المهادن – ضرورة شدّ هذه المنطقة بإحكام إلى عجلة حكومة الهند البريطانية، وأوصت بعدّة إجراءات لتحقيق ذلك،[٩٩] كما أوصت أن ينسِّق المقيم البريطاني جهوده مع قائد سلاح الجوّ الملكي البريطاني في العراق، وأن يستعمل الطيران في رحلاته إلى الساحل المهادن. و لم يكن شخبوط – ذلك الحاكم الشاب في بداية عهده – ليرضى بمزيد من التدخل البريطاني في إمارته، خاصة في البرّ الذي جعل اكتشاف الطيران التدخل البريطاني فيه ممكناً؛ فحاول منذ تلك الفترة الباكرة إغلاق الظهير عن كل تدخل أجنبي، رغم أن مجلس الطيران الملكي قد تبنى في بعض رسائله إلى حكومة الهند البريطانية ضرورة أن تتدخل بريطانيا جواً في ظهير الساحل العماني، وأن تعلن ذلك صراحة لشيوخ المنطقة؛ لأن هذه المنطقة منطقة حيوية للطريق الجوي إلى الشرق الأقصى.[١٠٠] وتنامى الخلاف بين شخبوط وبين البريطانيين؛ فأورثه شكّاً عميقاً في سياستهم كلها.

واجه شخبوط ضغطاً عنيفاً من بريطانيا في سعيها لمزيد من السيطرة على إمارته. فكلما وجدت بريطانيا ضغطاً دولياً أو أحسّت رأياً عاماً مناهضاً لسياستها في الخليج عامة وفي الإمارات خاصة، زادت من تدخلها في الإمارات التي كان شخبوط من أبرز شيوخها، وأكثرهم حرصاً على عدم وصول النفوذ البريطاني إلى البادية.

يقول المقيم البريطاني في الخليج: إن وسائل تنفيذ السياسة البريطانية في الخليج كانت قديماً تعتمد على «القسوة على الشيوخ وأتباعهم، ومحاصرتهم بحراً، ومصادرة

قوارب صيد اللؤلو». و لم تعدّ تلك السياسة مجدية؛ لأنها باتت «تجلب علينا غضب الرأي العام العالمي المناهض لاتجاهات الإمبراطورية البريطانية». ويرى المقيم أنه يمكن في هذه المرحلة تحقيق أهداف هذه السياسة «بإثارة الخلاف القبلي بين الهناوية والغافرية»(١٠١) وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن رجال السياسة البريطانية ظلوا حتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي يراهنون على سياستهم التي قضت بإغلاق أبواب الإمارات في وجه كل تأثير دولي أو إقليمي عدا البريطاني الذي راحوا ينظرون في سبل تقويته والوصول إلى البرّ للتعامل مع القبائل بشكل مباشر رغم اعتراف المقيم البريطاني بالمستجدات المتمثلة بالرأي العام الدولي، ورغم تطور وسائل المواصلات ودخول الطيران الذي مكن لبريطانيا التعامل مع البرّ الذي كان مستعصياً عليها، ورغم التطورات في سبل الاتصالات العالمية والبث الإذاعي وغير ذلك من وسائل الإعلام والمعرفة. لم يكن الشيخ شخبوط يأبه للتوجه البريطاني الموروث في تصريف علاقات إمارته مع العالم الخارجي الذي لم يكن يهتم بالتعامل معه، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على إغلاق برّ إماراته أمام كل سيطرة أجنبية يمكن أن تضعف من سيطرة الشيوخ على مقدرات قبائلهم وتمسّ أعرافها وتقاليدها، بالإضافة إلى أن هذه القبائل ذاتها كانت تنظر إلى كل تدخل خارجي بكثير من الريبة والتوجس، وقد لقيت المنشآت الضرورية لبريطانيا مثل مهابط الطائرات رفضاً ومقاومة شعبية في هذه المناطق حتى في السواحل. ولمّا عمدت بريطانيا في عام ١٩٣٤م إلى عقد اتفاق جوّي مع إمارة أبوظبي رفض الشيخ شخبوط في بداية الأمر رفضاً باتاً هذا الأمر، واضطر بعدئذ مع زيادة الضغط البريطاني عليه إلى أن يمنحهم تصريحاً لإقامة مهبط طائرات في جزيرة صير بني ياس، و لم يوافق – رغم الضغط المتواصل – على إنشاء هذا المهبط في أبوظبي(١٠٢).

أقام المقيم البريطاني «دربارا» (احتفالاً) ضخماً في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣م/ ٢ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ حضره شيوخ الإمارات، وكان شخبوط أبرز الحاضرين

فيه.[(١٠٣)] وألقى المقيم في ذلك الاحتفال خطبة ردد فيها آراء كيرزن – نائب الملك في الهند الذي زار الخليج في عام ١٩٠٣م – واستعمل لغته، وتبنى أسلوبه، حَذْو النعل بالنعل، يلوك الماضي دونما اعتبار للمستجدات. وكان الهدف من هذا الاحتفال – كما جاء في وثائق الحكومة البريطانية– أن تكون خطبة المقيم إعلاناً لموقف السياسة البريطانية تجاه الساحل المهادن. وراحت حكومة الهند البريطانية تؤكد ضرورة تشديد القبضة البريطانية على هذه المشيخات. وانبرت الحكومة البريطانية لتحقيق هذه الغاية؛ فاتخذت عدّة قرارات منها: نقل المقيمية البريطانية من بوشهر إلى الجانب العربي للخليج، و«تحسين أداء المقيم وإعلاء سمعته؛ لأن وجود المقيمية على أرض فارس ماعاد يؤدّي إلا إلى الاحتكاك ولن يجلب غير المتاعب».[(١٠٤)]

وظلت السياسة البريطانية في إمارات ساحل الإمارات في أعقاب الحرب العالمية الثانية على نمطها القديم تسعى لزيادة الهيمنة التي راح شخبوط يقاومها بسلبية تمثلت بعدم التعاون وتجاهل الإداريين البريطانيين، ما أمكنه ذلك. وحين استقلّت شبه القارة الهندية عن التاج البريطاني، وألغيت حكومة الهند البريطانية، وتولت وزارة الخارجية إدارة شؤون الخليج العربي مباشرة، ظلت السياسة البريطانية في الساحل المهادن رهينة أساليبها القديمة من ضرورة أن تزيد في هيمنتها على منطقة الإمارات وإغلاقها في وجه كافة التأثيرات الخارجية عدا البريطانية، ولكن مع تغيّر في التطبيق ووسائل التنفيذ.[(١٠٥)]

شهد عهد شخبوط جملة من المشكلات الاقتصادية المستعصية تفاقمت على مدى ثلاثة عقود ونصف متتالية حتى انفرجت أخيراً مع استثمار البترول في الإمارة. واجهت خزينة شخبوط – التي ورثها خاوية نتيجة للاضطرابات الأسرية التي سبقت توليه الحكم منذ بداية عهده – الكساد العالمي الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩م، وتدني الطلب العالمي على اللؤلؤ الذي كان غلّة أبوظبي الرئيسة،وغيره من سلع الرفاهية. و لم

تتعاف مالية الشيخ شخبوط من أثر هذه الأزمة الاقتصادية العالمية حتى صادفت ظروف الحرب العالمية الثانية فزاد سوق اللؤلؤ كساداً على كساده. وزاد تصنيع اليابان للؤلؤ بعدئذ وهن اقتصاد أبوظبي. وكان لاستقلال شبه القارة الهندية وما تلاه من انخفاض سعر الربية الهندية - العملة المعتمدة في الخليج - أثره الخانق في خزينة الشيخ شخبوط التي لم تعد قادرة بأي حال من الأحوال على الوفاء بمقتضيات السياسة التقليدية لشيوخ آل نهيان في البادية؛ فقد اعتادت البادية من شيوخ آل نهيان - كما هي العادة لدى شيوخ البوادي العربية عامة - البذل والعطاء والإحسان للقبائل. وهذه هي السياسة العربية المعتمدة في النظام المشيخي الأبوي الذي يقدم لأبنائه الإحسان قبل أن يحملهم على الولاء له بالسيف والرمح. وحين انحبس عطاء الشيخ شخبوط عن باديته قسراً بدأت هذه البادية تتململ، وأضحى ولاء الحلفاء فيها فاتراً، وأخذ العطاء يتسرب إلى تلك البوادي من مصدر آخر تمثل بعبدالله بن جلوي، وكيل ابن سعود في الأحساء.

وعلى الرغم من أن السعوديين وجدوا لهم موطئ قدم في بادية أبوظبي المتزعزعة الولاء إلا أن ابن سعود ظل يتجنب التدخل المباشر في تلك المنطقة ويستثمر - بدلاً من ذلك - علاقة واليه في الأحساء الطيبة مع بعض شيوخ البادية لتحقيق قدر من التدخل لا يستطيع البريطانيون إلقاء مسؤوليته عليه. كان ابن سعود في هذه الفترة منذ الحرب العالمية الأولى يلعب بحذق بورقة التناقضات الدولية فضمن مساندة بريطانية مادية ومعنوية لتحقيق أهدافه في استعادة السلطة السعودية في الحجاز وشمر وبعض مناطق تهامة، وكان في ماعونه ما يكفيه من مشكلات هذا التوحيد وزيادة. وقد تمكن من الحصول بموجب اتفاق جدة مع بريطانيا في ١٩٢٧م على اعتراف بريطاني صريح بسيادته واستقلاله. وعلى الرغم من ذلك راح الجباة السعوديون في أوائل عهد الشيخ شخبوط يحصلون على الزكاة من بعض عشائر المناصير في بينونة، ومن بعض المزاريع الذين كانوا ينزلزن في ليوا، ولم يتمكنوا من استيفاء الزكاة من بني ياس في تلك

المناطق؛ فقد كانوا يعملون على "تفريق" إبلهم في البوادي بعيداً عن أعين الجباة السعوديين، ويدّعون أنهم قوم مساكين لا يملكون إبلاً ولا كراعا، ولا يعملون إلا في الغوص في مواسمه فقط.(١٠٦) واتبعّ المناصير بعدئذ مع الجباة السعوديين الخطة التي ابتدعها بنو ياس في هذا المنوال فلم يعودوا – إلا قليلاً منهم – يؤدّون الزكاة للسعوديين. ورغم إدراك السلطات السعودية أن هذه الحجّة لا تعدو أن تكون ذريعة للتنصّل من أداء الزكاة إلا أنها لم تعمد إلى تحصيلها بالقوة. ومنذ أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي لم تعد هناك قبيلة تابعة لأبوظبي أو عشيرة تؤدّي الزكاة للسعوديين إلا فرع البومنذر من المناصير الذين كان شيخهم محمد بن ناصر قد استقرّ عند ابن جلوي في الأحساء. ولمّا حاول محمد الساحلي – جابي الزكاة السعودي – إجبار الهوامل على أداء زكاتهم لعام ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠– ١٩٣١م لم ينل ومجموعته المرافقة سوى بعض اللكمات والكدمات جرّاء شجار لم يتطور إلى معركة.(١٠٧)

تنصلت قبائل أبوظبي بعد هذا الحادث تماماً من أداء الزكاة للسعوديين خاصة بعد أن كتب الشيخ شخبوط إلى أمير الأحساء يشكو إليه سوء تصرف الساحلي وجماعته من القبائل التابعة لأبوظبي، واعتذر الأمير السعودي من الحادث، ولم ينجح الجباة السعوديون الذين كانوا يفدون إلى المنطقة سنوياً في تحصيل الزكاة بعدئذ إلا من بعض عشائر جنوب الظفرة. وكان الجباة يترفّقون في السؤال، ويكتفون من عشائر بني ياس بذريعة أنهم لا يملكون ما يستوجب الزكاة إلا بعض نخيل ليوا الذي يؤدّون زكاته لشيخ بني ياس في أبوظبي. أما الشيخ شخبوط نفسه فلم يعمل أبداً على تحصيل الزكاة ليبعث بها إلى السعوديين، وأما القبائل التي تقع ديارها وراء الظفرة مثل: بني قتب، والظواهر، وبني كعب، والنعيم فلم يؤدّوا الزكاة للسعوديين لا طواعية ولا قسراً.(١٠٨)

وعلى الرغم من حرص ابن سعود بضرورة عدم استعداء البريطانيين عليه بالتدخل المباشر في ظهير الساحل المهادن إلا أن لجنة الدفاع عن الإمبراطورية أوصت في

اجتماعها بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٣٤م/ ٣ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ بضرورة أن تعمل الحكومة البريطانية لتقيّيد ابن سعود بحدود معيّنة في هذا الاتجاه. وقام بعض الإستراتيجيين البريطانيين بدراسة هذا الأمر، وخلصوا إلى عدم وجود ضرورة له؛ فالحدود – في تقديرهم – ستكون «واضحة أنيقة حين نرسمها على الورق ولكنها مستحيلة حين نطبّقها على الأرض ونضعها موضع التنفيذ؛ فسكان المنطقة رحّل لا يقيمون في منطقة إلا ليغادروها إلى أخرى. فهذه القبائل تتحرك في هذه السباسب المترامية طلباً للكلأ، لاوازع على تحركاتهم إلا لفصول السنة».[١٠٩] ويستطرد التقرير: «ليس للشيخ العربي أية فكرة عن الحدود، ولا يعرف لأرضه بداية أو نهاية في هذه الصحراوات التي تنطمس فيها المعالم الجغرافية... يرفض الرأي العام في المنطقة الحدود، ولا يعترف بها؛ فالحدود في شبه الجزيرة العربية قبلية أكثر منها سياسية. وإذا سألت شيخاً من هؤلاء الشيوخ عن المدى الذي تمتدّ إليه أرضه ونفوذه فلن يقول لك: إنها تمتّد من منطقة كذا لتنتهي عند منطقة كذا ولكنه سيقول لك: إنها تشمل هذه القبيلة وتلك ...»

استصوبت حكومة الهند هذا الرفض ورأت أن تحديد الحدود وضمانها يجب ألا يبدأ إلا بعد منح امتيازات البترول. و لم يكن هذا الأمر هاجساً للسياسة البريطانية التي كانت تعدّ منطقة الإمارات – مثلها مثل المنطقة السعودية – منطقة نفوذ بريطاني، غير أن التغيير الفجائي جاء من ابن سعود الذي نفض يده دون مقدمات، من البريطانيين ليضعها في يد الولايات المتحدة الأمريكية، وقامت في السعودية – على مشارف إمارة أبوظبي – أكبر شركة بترول خارج حدود الولايات المتحدة. ورنت هذه الشركة ببصرها إلى بادية أبوظبي لاستثمارها. وأخذت المشكلات منذ عام ١٩٤٩م منحى جديداً بين أبوظبي والرياض. وساندت المصالح البترولية البريطانية أبوظبي بينما ساندت الأمريكية الرياض، وأضحت الحدود بين السعودية وأبوظبي ضرورة ماسة. وخاضت الحكومات الأمريكية والبريطانية المتتابعة معارك كلامية في المحافل الدولية

بشأن البريمي وما جاورها، ولم يعمد الشيخ شخبوط إلى أن يتصالح مع المصالح البريطانية التي كانت بتأييدها لمصالحها تستأسد في الدفاع عن حقوق أبوظبي؛ فسعى من خلال عراك المصالح البترولية لتثبيت حدود بلاده وفق ما يعتقد أنه الحقّ، ولم يقبل بأية مساومات تستدعيها المصالح المشتركة، فقد كانت وحدة أرضه وولاء قبائلها هو ما يؤرقه، لا الاستثمار، ولذلك قيل: إنه كان عنيداً وصعب المراس، ولا يضع ثقة في البريطانيين الذين كانوا في هذه المرحلة يقفون بثبات في وجه الشركات الأمريكية التي أرادت أن تستثمر - بعقودات سعودية - أرض الإمارات، ما يخرج هذه الأرض عن سيادة أبوظبي إلى غيرها.

حدّت الاستثمارات البترولية الحدود البينية بين المشيخات في الساحل العماني. وقد ثبت الشيخ شخبوط في هذا المجال أيضاً على قناعته بوحدة أرضه وولاء قبائلها، ولم يساوم فيما يعتقد أنه أرض تابعة له. ودخلت أبوظبي مع دبي في خلافات حول الحدود منذ عام ١٩٤٠م استمرت حتى عام ١٩٤٨م ولم تسوّ المشكلة رغم تدخل زايد بن سلطان - أخي شخبوط المسؤول عن إدارة المناطق الداخلية في العين وما جاورها - بالوساطة بين الشيخين.[١١٠]

ومع اكتشاف النفط في إمارة أبوظبي وبداية تصديره من الحقول البحرية للإمارة منذ يونيو ١٩٦٢ وحقولها البرِّية منذ أواخر عام ١٩٦٣م استشرفت إمارة أبوظبي أفقاً آخر كانت أولى طلائعه إعلان التأكيد على إلغاء الرق الذي أصدره شخبوط في ٥ يونيو ١٩٦٣م *. وأوجدت الاستكشافات النفطية وما تلاها.من عمليات تحدِّيات اقتصادية واجتماعية هائلة بدلت من مفهوم السلطة القديم، وأصبح من اللازم على الإمارة أن تتعامل وفق حدود جغرافية بعينها مع شبكة مترابطة من المشكلات الطارئة في الاقتصاد والتجارة، وفي الأمن والتعليم والصحة، والتنظيمات الاجتماعيَة والمدنية والمؤسساتية، وما تبع ذلك من فتح مصاريع الإمارة لاستقبال العالم الحديث بكل

تأكيد إلغاء الرق وعتق الرقيق في إمارة أبوظبي

Slavery signed by Shaikh Shakhbut

10
END

انا الموقع بذيله ادناه الشيخ شخبوط بن سلطان حاكم امارة ابو ظبى وتوابعها اعلن بان الرق قد سبق فى الماضى البعيد ان الغى فى قطرنا هذا كما اعلنت ذلك وعلى كل من سبق ان كان عبدا فى الماضى يعتبر الان حرا يتصرف كما يشاء، كما اننى اعلن ان البيع والشراء والنقل فى العبيد ممنوع منعا باتا.

حرر فى هذا اليوم الاربعاء فى ٥ من شهر يونيو عام ١٩٦٣

الشيخ شخبوط بن سلطان
حاكم ابو ظبى

I, the undersigned, Shaikh Shakhbut bin Sultan, Ruler of Abu Dhabi, declare that slavery was long ago abolished in my territory (as I have already announced) and that anyone who was formerly a slave is now free to conduct his life as he wishes. I declare too that the sale, purchase and transport of slaves in my territory is absolutely forbidden.

This 5th day of June, 1963.

SHAIKH SHAKHBUT BIN SULTAN,
RULER OF ABU DHABI.

إنتاجه الحضاري والثقافي وما يتبعه من تعامل بشكل إيجابي لتحقيق ربط الإمارة بمنجزات العالم الحديث، بعد أن عانت دهراً طويلاً سياسة الإغلاق. و لم يتمكن الشيخ شخبوط بن سلطان الذي سلخ من عمره فترة طويلة يدير شؤون شعب إمارته وفق المنظور الأبوي التقليدي القديم – من التأقلم مع المتغيرات التي أضحى التعامل معها فرضاً لا يحتمل التأجيل؛ فانبرى أخوه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – بتأييّد من أسرته ومباركة من شعبه في ٦ أغسطس ١٩٦٦م – لتحمل مسؤولية قيادة الإمارة وسط رياح التغيير العاتية التي كان يدرك قوّتها وخطر اتجاهاتها. أعدّ زايدِ – كما سنرى – لهذه العواصف عدّتها لتحديد وجهتها إلى التحديث الذي لا تحدّه إلا الأعراف والتقاليد الموروثة، وإلى العمل الوحدوي الذي ارتقى فوق أفق القبلية والقبيلة وتحالفاتها لينتظم كافة قبائل الإمارات في هذه المنطقة، ويتطلع إلى ما وراء الحدود الإقليمية. وسويت في عهد زايد مشكلات الحدود الإقليمية العربية والبينية، وجرى توظيف ذلك – بالتخطيط السليم – لتحقيق تطلعات المواطنين في الرفاهية والحياة الكريمة.

هوامش وذيول

* ورثت أبوظبي في هذه الفترة القوة التقليدية للقواسم، وانتقلت إليها السمعة التي امتاز بها القواسم فترة طويلة من مقاومة الهيمنة الأجنبية أو ما كانت السلطات البريطانية تطلق عليه لفظ «القرصنة». يقول بالجريف الذي اشتهر برحلاته في شبه الجزيرة العربية (١٨٦٢ – ١٨٦٣ م): إنه قد قابل مجموعتين أو ثلاثاً من رجال بني ياس الذين يمتازون بالأناقة والبشرة السمراء، وبشعورهم الطويلة القاتمة السوداء التي تنسدل على أكتافهم، والذين يتميزون بنظرات «القراصنة» وهم مسلحون بالبندقيات والحراب القصيرة والخناجر حتى أسنانهم ...

راجع:

Palgrave, WG., A year's Journey Through Central and Eastern Arabia, 2 vols., London, 1856, vol. II, p. 310.

١- (IOR) L/P&S/20/248D., Naval Arrangements on the Abolition of the Indian Navy.

٢- (IOR) R/15/1/155, BA Sharjah to PR, 23 Nov. 1857.

٣- (IOR) same series & Vol. 62, Commodore P.G. Squad to PR, 19 June 1858.

٤- (IOR) same series & Vol. 155, BA at Muscut to PR, 11 Oct., 1858.

٥- منهم على سبيل المثال: سالم بن سلطان، عم شيخ الشارقة، وعبدالرحمن بن سيف شيخ الحمرية، وإبراهيم بن سلطان وآخرون.

راجع:

(IOR) same series & vol., BA Sharjah to PR, 12 Aug. 1858.

٦- (IOR) same series & vol., BA Sharjah 15 PR, 16 safar 1276.

٧- (IOR) L/P&S/20/C240., Pricis of Nejed Affairs (P.N.A) p. 19.

٨- ibid., p. 21.

٩- ibid., p. 27.

* جاء في تقرير للوكيل الوطني ما يؤكد أن أبوظبي ودبي يدعمان بشكل كامل السلطة الشرعية لمسقط وأنهما يزمعان تقديم مساعدتهما للإمام ضد متمردي صحار، وكذلك الحال مع عجمان. أما أمر الشارقة فمختلف إذ يتعاطف حاكمها خالد بن سلطان تماماً مع الوهابيين، ويبني قلعة في الزوراء بين عجمان والحمرية من شأنها دعم الوهابيين، وأما شيخ رأس الخيمة فهو – كما جاء

في هذا التقرير – لم يحسم أمره بعد.

راجع :

(IOR) MSS/EUR/F.126/43, Pelly PR to GOB, 25 Nov. 1865.

١٠- (IOR) R/15/6/2, PR. To GOB, 25 Sept. 1865.

١١- (IOR) L/P&S/20/C240., P.N.A., p. 23.

١٢- ibid., p. 37.

* انحاز السديري إلى أبناء الشيخ خالد بن سلطان المتوفى عام ١٨٦٨م ضد عمهم سالم الذي كان قد تولى المشيخية واعتقل؛ فثارت عليه الشارقة، وانتهى الأمر بمقتل السديري وكل مرافقيه النجديين عدا أحد إخوته فقد تمكن من الفرار. راجع:

(IOR) R/15/6/4, PR to GOB. 10 Oct. 1869

** أرسل عبد الله بن فيصل، الإمام السعودي، إلى سالم بن ثويني سلطان مسقط السابق – في منفاه في قشم يؤكد له دعمه ضد عزّان وأخبره بأنه سيعمل على مساندته لاستعادة حكمه، كما أرسل سفارة أخرى إلى سالم في قشم برئاسة ابن أخي شيخ أم القيوين. ويشير هذا التقرير إلى أن شيخ النعيم أفاد أن عبدالله بن فيصل يقول: إن كافة شيوخ المنطقة من رأس الخيمة إلى دبي يدعمونه، وقد أعد جيشاً في العديد ولكنه لم يخرج به إلى عمان، وذلك للجفاف الذي ضرب المنطقة في هذه السنة ما يجعل تحرك الجيش أمراً صعباً، بالإضافة إلى أنه يخشى أن يعترضه شيخ أبوظبي، وكذلك خيفة المؤامرات التي تحاك ضده في الرياض.

راجع:

(IOR) L/P&S/20/C.240, PNA p. 32-33.

١٣- (IOR) R/15/2/32, PA Muscut to Gonne, 18 Jan. 1869.

١٤- (IOR) R/15/6/4, PR. to GOB, 10 Oct. 1869. cf. (IOR) L/P&S/10/50, PA Muscut to Sec. GOI, 17 April 1869.

١٥- (IOR) R/15/6/2, PA Muscut to SGB, 9 June 1869.

١٦- (IOR) same series & vol., Translation of a letter from Azzan b. Ges to PR, Muscut, 4 July 1869.

* يذكر عزّان في خطاب له مؤرخ في ٢٣ ربيع الأول ١٢٨٦ أنه قام على رأس قوّة كبيرة إلى البريمي، وحاصر قلعتها المنيعة جداً مدّة ثلاثة أيام فانهارت بعد أن بذل لجندها الأمان، ونجد خطاباً آخر له موجّهاً إلى دسبراو، وكيل مسقط البريطاني، بنفس المعنى.

راجع:

من إمام المسلمين عزان بن قيس (IOR) R/15/6/3

١٧- أرسل سعود بن فيصل بن تركي - لدى إقامته ضيفاً على زايد - رسالة إلى المقيم البريطاني في الخليج في ٢٥ ذي الحجة ١٢٥٦/ ٢٧ أبريل ١٨٧٠ يشرح فيها علاقته العدائية مع أخيه عبدالله ويقول: إنه سيغادر أبوظبي إلى البحرين آملاً لقاء السركار ليحصل منه على المعونات والمساعدات الممكنة التي تعينه على الانتصار على أخيه.

راجع:

(IOR) L/P&S/19/6, Saood b. Faysal b. Turki to PR. 25 zil Hajje 1256, 27 April, 1879.

١٨- (IOR) L/P&S/20/C.240, P.N.A., p. 13

١٩- ibid., p. 36.

٢٠- ibid., p. 32-33.

٢١- لمعلومات أوفى: راجع الفصل الأول.

٢٢- (IOR) P/438/1, PR to Sec. GOB, 7 Dec. 1867.

٢٣- (IOR) same series & vol. Sec. GOI (F. dept.) to Sec. GOB (Pol. Dept) 7 Feb. 1968.

٢٤- (IOR) L/P&S/20/C.244, Precis of Bahrian Affairs (P.B.A.) p. 16.

٢٥- (IOR) Pol. Letters and enclosures from India, vol. I, PR. To F.Sec. GOI, 20 Aug. 1877.

٢٦- (IOR) same series, vol. 16, Grant to Ross, 3 Aug. 1873.

٢٧- (IOR) L/P&S/20/C.241, P.B.A. p. 16.

٢٨- (IOR) L/P&S/20 CX, 243, Precis of Katar Affairs, p. 14.

٢٩- (IOR) Pol. And Sec. Letters and enclos. From India, vol. 4 offic . PR to Office F. Sec. GOI, 31 Aug. 1876.

٣٠- (IOR) same series, vol. 7, Governer – in – council to Sec. Of State for India, 8 Feb. 1876.

٣١- (IOR) same series, vol. 4, Sec. GOI to Prideaux, 7 Nov. 1876.

٣٢- (IOR) same series, vol. 12, Viceroy (Vic.) To Prideaux, 23 Oct. 1876.

٣٣- (IOR) L/P&S/20/241, P.B.A., p. 19.

٣٤- (IOR) Pol. & sec. Home corres. Vol. 20, Savet Pasha to Layard, 2 Aug. 1877.

٣٥- (IOR) Pol. Letters & enclos. From India, vol. 22, Layton dispatch on 22 May on Turkish Jurisdiction on the Arabian coast.

٣٦- (IOR) L/P&S/8/B./9., Turkish Jurisdiction along the Arabian coast, part I.

٣٧- (IOR) Pol. & sec. Letters & enclos. From India, vol. 22, Layton dispatch on Turkish Jurisdiction 22 May 1879.

٣٨- (IOR) L/P&S/8/B 9, Turkish Jurisdiction along the Arabian coast, part I.

٣٩- Loc. cit.

٤٠- (PRO) Fo/78/508, PR to F. Simla, 14 Dec. 1887.

٤١- راجع على سبيل المثال:

من قاسم بن محمد إلى راص باليوز وقنصل الدولة البهية، ٢٤ رمضان ١٣٥٠ .

(IOR) R/15/1/189

٤٢- من زايد بن خليفة إلى كرنل راص. باليوز وقنصل الدولة البهية، ١٨ شعبان ١٣٠٥.

(IOR) Same series & vol

* لعل رسالة قاسم إلى ابن ثنيان بتاريخ ٢٣ رمضان ١٣٠٥ كانت أبلغ تلك الرسائل. طلب قاسم إلى ابن ثنيان في هذه الرسالة أن يكون لسانه لدى الدولة التي بذل لها الولاء دون مقابل إلا ما كان من تعلّقه بوشائج الرابطة الإسلامية. ويحرّض قاسم الدولة العثمانية على الاستيلاء على عمان، مشيراً إلى ما يمكن أن يجنوا منها من أموال يدّعى أن زايد بن خليفة يصيبها وقد أتخمه الثراء؛ فأصبح قوّياً لا يأبه لقطر التي بات يعمل لضمّها إلى أراضيه. وبعد أن يسرد قاسم أخبار المعركة التي وقعت في ١٨ رمضان، والتي خسر فيها الولد والأموال يؤكد أنه ترك أمر القصاص للدولة، ولم يحاول أن يثأر لنفسه. وقد ساق قاسم في خطابه البليغ هذا عدداً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وانتهى إلى ضرورة أن تدعمه الدولة ليكون مسؤولاً عن هذه الأرجاء ويدافع عنها.

راجع:

(IOR) R/15/2/29, Sk. Jassim b. Thani to Abdullah Pasha b. Thaniyan b. Saud, 23 Ramadan 1305.

٤٣- من أحمد بن عبد الرسول إلى الباليوز وقنصل جنرال الدولة البهية ١٩ صفر ١٣٠٦ مطابق ٢ أكتوبر ١٨٨٨م.

(IOR) same series & vol.

٤٤- (IOR) R/15/1/190, Precis of conversation bet. PR and Jassim at Al Bida on Oct.1888.

٤٥- (IOR) same series & vol., Ahmed b. Abdullah, chief of Umalgawain to H.H. Seyid b. Turki, 15 Oct. 1888.

٤٦- لمعلومات أوفى عن المشكلات الظبيانية القطرية راجع:

عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج، دراسة وثائقية، لندن، دار الساقي، ص ٧٩ -١١٢.

جاء في خطاب المقيم باللغة العربية إلى الوكيل في شأن حاكم دبي: «يكون تصرف حاكم دبي أنه بنظرنا غير معقول في قبوليته علاقات الشيخ جاسم بن ثاني أو أن يدخل نفسه في أمور على أي نحو كان. إننا نشور عليه أن يطلب منه المسامحة عن طريق مناسب».

راجع:

(IOR) R/15/1/190, PR to RA, No. 25 of Aug. 1888.

٤٧- (IOR) R/15/6/19, News report by Residency Agent (RA) Sharjah to PR, 31 Jan., 1889.

٤٨- (IOR) same series & vol., Residency Agent (RA) Bahrain to PR,19 March 1889.

٤٩- (IOR) same series & vol., RA Sharjah to PR, 7 Feb. 1889.

٥٠- (IOR) same series & vol., RA Bahrian to PR, 14 Feb. 1889.

٥١- (IOR) same series & vol., RA Bahrian to PR, 10 April. 1889.

٥٢- (IOR) same series & vol., RA Bahrian to PR, 15 April. 1889.

٥٣- (IOR) same series & vol., RA Sharjah to PR, 1 June. 1889.

٥٤- (IOR) same series & vol., RA Bahrian to PR, 20 April. 1889.

٥٥- (IOR) same series & vol., RA Bahrian to PR, 6 May. 1889.

٥٦- (IOR) same series & vol., Extract of correspondence relating to complain. made by Sk. Zaid.

٥٧- (IOR) same series & vol., Sk. Jassim b. Thani to PR, rec. 2 April 1889.

٥٨- (IOR) L/P&S/20/244, P.B.A., p. 52.

أرسل والي البصرة خطابين في أكتوبر ١٨٨٩م إلى الشيخين زايد وقاسم يذكرهما بالرابطة الإسلامية التي تجمعها معاً وتربطهما إلى السلطان العثماني ما يجعل القوى الكبرى «تحسده» على سيادته في أمّة العرب، وتعمل على إحداث فرقة بينه وبينهم. وطلب الوالي إلى الشيخين رفع خلافاتهما إلى السلطان العثماني دون غيره ليحكم فيها. وجاء رد زايد في نوفمبر بأنه لا سبيل له على قاسم ما التزم حدود أرضه، ولم يعتد عليه، وأفاد، في المقابل، أنه سيقف بثبات لحماية أرضه وقبائله. وجاء رد الوالي على زايد يرفض صراحةً تحركاته ضد قاسم ويطلب إليه بحزم التزام الهدوء. وأجاب زايد على هذا الخطاب الأخير في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٠٧/ ١٤ يناير ١٨٩٠م، بخطاب حاسم جاء فيه ... إن ما يقوم به هذا الرجل تجاهنا ليس بخافٍ عليك. وسنعمل من جانبنا على ردع تحركاته العدائية ودرْء شره.

٥٩- ibid., p. 38.

٦٠- (IOR) R/15/6/9, Extract on a report on a visit to Burimi by Lt. Col. S.B. Mites in 1875

٦١- (IOR) R/15/1/266, Cox acting PR to GOI, 18 June 1904.

٦٢- (IOR) P.G. Administration report for the Year 1885-1886.

* اللفظ المستعمل لسفن الحرب البريطانية.

٦٣- (IOR) R/15/1/242, Note on Zura case, 31 Dec. 1901.

٦٤- Loc. cit.

٦٥- Loc. cit.

٦٦- (IOR) P.G. Administration Report 1905-1906.

٦٧- (IOR) R/15/1/266, RA Shrjah to Chief of Abu Dhabi, 24 Feb. 1907. cf, same series & vol., PR to SK. Zayed b. Khalifa, 3 Feb., 1907.

٦٨- ورد في التقرير الإداري لعام ١٨٨٩- ١٨٩٠ أن اقتصاد أبوظبي قد انتعش بالارتفاع الطارئ في أسعار اللؤلؤ. وقد زاد نتيجة لهذا الرواج عدد مراكب الغوص في أبوظبي حتى أنها أصبحت تملك أكبر أسطول للغوص على امتداد الساحل العماني. ويفيد التقرير أن الشيخ زايداً قد شجع حركة النمو الرأسمالي في بلاده بالإعفاءات الضريبية الممنوحة لبعض ملاك القوارب من الشيوخ والأعيان ما شجع على زيادة الاستثمار وأدّى من ناحية أخرى إلى تأليف عدد من أعيان أبوظبي

وأثريائها منهم أخوه ذياب وبطي بن خادم وبعض العاملين في سلك إدارة الشيخ زايد.

راجع:

(IOR) P.G. Administration Report 1877-78

٦٩- Zwemer,S.M., Three Journeys in Northern Oman, Geographical Journal, vol. IX, 1902.

٧٠- من عبدالعزيز بن سعود إلى مبارك الصباح ١٩٠٦/٦/٢٥م.

(IOR) R/15/5/24

٧١- (IOR) R/15/1/266, Report by RA Sharjah, 1906.

* راجع نص الاتفاق في:

هذه المعاهدة انعقدت فيما بين المشايخ المتصالحين في مادة الغواويص الهاربين سنة ١٨٧٩ .

(IOR) L/P&S/ 7

٧٢- مكث المبعوث الفارسي أحمد خان - نائب حاكم بوشهر - عدّة أيام في ضيافة زايد. وقد عرفت السلطات البريطانية بتفاصيل مفاوضاته مع حاكم أبوظبي من سيد مسقط الذي كان زايد قد أخبره بها، وأفشى السيد التفاصيل للمقيم البريطاني.

٧٣- (IOR) L/P&S/ 20/C. 248 D., Precis of correspondence Regarding Turcial Chiefs, p. 68.

٧٤- راجع نص الاتفاق في :

المعاهدات الجارية فيما بين الدولة البهية البريطانية ومشايخ المتصالحين ١٣٣٦ هـ/ ١٩٠٦م

(IOR) L/P&S/7/195.

* اقترح المقيم البريطاني في الخليج على حكومة الهند في رسالته بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٩١ بنود هذا التعهد، ورأى ضرورة عقده لتأكيد التعهدات السابقة وتوثيقها. وقد وافقت حكومة الهند على اقتراح المقيم بعد تعديل بعض البنود وذلك في رسالتها بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٨٩١م. وقد وقّع على هذا التعهد باسمه أو ختمه في تواريخ متقاربة في هذه الفترة شيوخ كل من أبوظبي ودبي وعجمان والشارقة. وعرف هذا التعهد فيما بعد بالاتفاق المانع أو الشامل، كما عرف عند البعض بالاتفاق الأبدي أو السرمدي. وقد اعتمدت حكومة هوايتهول في خطابها بتاريخ ٢٧ يوليو ١٨٩٢م إلى وزير الهند هذه الإجراءات التي أمضتها حكومة سملا.

راجع:

(POR) Fo. 371/16066, Exclusive agreement of Abu Dhabi with the British Gov. dt. 6 Mar. 1892.

٧٥- (IOR) LI/P&S/20/C248D, Percis of corresp. Regarding the Turcial Chief, p. 68.

٧٦- (IOR) L/P&S/10/113, Arms Trafic. P.G. Blockade.

٧٧- RA Sharjah to PR, 25 May 1901 in "ROE,6"

٧٨- RA Sharjah to PR, 22 Dec. 1911 in ibid.

٧٩- (IOR) L/P&S/20/20/E84.

٨٠- (IOR) R/15/5/25, Sk Abdul Aziz b.. Abdulla Rahman Al Faisal to PA Bahrian, 21 Zill Gadah 1333.

٨١- (IOR) R/15/1/480, PR to Sk. Abu Dhabi 20 Nov. 1915.

٨٢- (PRO) Fo./371/17824, Draft outline of Tribal History in the Hinterland of Turcial Oman, Note by PA Bahrian, 21 Jan. 1935.

٨٣- (IOR) R/15/6/43 knox office. PR to F. sec GOI (Pol. Dept.) 17May 1914.

٨٤- (IOR) L/P&S/10/425/4684 PTI, Muscut Rebellions, knox to F.Sec. GOI, 9 July 1914.

٨٥- ساند شيوخ أبوظبي من أبناء الشيخ زايد، اعتباراً من حمدان حتى سلطان، شيخ أم القيوين ما أدخلهم عامة في دائرة عدم رضى الشارقة. وقد شهدت هذه الإمارة الأخيرة تقلبات عدّة في خلافة الحكم كان الوكيل «الوطني» للبريطانيين في الشارقة يرى أن للشارقة يداً فيها. تولى الحكم في أم القيوين بعد الشيخ راشد بن عبدالله الشيخ عبدالله بن راشد الذي اغتيل في أكتوبر ١٩٢٣م وآل الحكم بعده إلى حمد بن إبراهيم الذي اغتيل أيضاً على يد أحمد بن راشد في عام ١٩٢٩م. وقد كان للعلاقة بين أم القيوين والشارقة آثارها السلبية في العلاقة بين الشارقة وأبوظبي اللتين كانتا تعانيان أيضاً اضطرابات مماثلة في ولاية الحكم.

راجع:

(PRO) Fo./371/18723, Vic. To SSI, 20 Feb. 1929.
cf., (IO) R/15/1/1427, Succession to Sheikdom of Abu Dhabi. 1909 – 1921.

٨٦- (PRO) Fo./371/17815, Tribal Consideration of the Air Route.

٨٧- (PRO) same series, vol. 8918, Tribal History in the Hinterband of Tucial Oman 1918-1934.

٨٨- (PRO) same series, vol. 17824, Draft outline of Tribal History of Turcial Oman 1918- 1933 by PA Bahrian, 31 Jan 1935.

٨٩- (IOR) L/P&S/10/658, Turcial coast, pp. 416-18.

٩٠- من خان بهادر إلى وكيل الدولة البريطاني في البحرين، ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ.
(IOR) R/15/2/544,

٩١- (PRO) Fo. 371, 11444, PR to S.S. colonies

٩٢- (PRO) Fo./371, vol. 17815, Tirbal Consideration of the Air Route.

٩٣- (PRO) Fo. 371, vol. 17824, Draft outline of Tribal History -------.

٩٤- (PRO) Fo. 371/8952, PR to F. sec. GOI, 18 Mar. 1923.

٩٥- (PRO) same series, vol. 1144, Nejedian Encroachments on the Turcial coast Under-sec Co to Fo., 21 July 1926.

٩٦- (IOR) same series, vol. 17815, Triball Considerations of the Air Route.

٩٧- (IOR) L/P&S/ 18/B.403, the Turcial Chiefs 1908-1928.

٩٨- قامت الإمامة في عمان عام ١٩١٣م على قواعد الفكر الإباضي الذي رفع رايته في هذه الفترة الفقيه العماني عبدالله بن حميد السالمي، ووجدت الدعم بعدئذ من الشيخ عيسى بن صالح شيخ الحرث ومجموعته بني هناة عامة، وهي المجموعة التي تمثل أساساً القوة العسكرية للإباضيين. ويسترعى الانتباه دخول حميد بن ناصر النبهاني ومجموعته من بني ريام الغافرية في هذا الحلف الذي اجتمع على أهداف متناقضة فعقدت البيعة للإمام الخروصي في النصف الثاني من عام ١٩١٣م حين أعلنت نزوى عاصمة للإمامة. وجرت المفاوضات بين الإمامة والسلطنة في أواخر عام ١٩١٤م في قرية السيب، وكذلك في عام ١٩١٥م، لتسوية المشكلات بين الإمامة والسلطنة، و لم تكن ناجحة. وفي ١٥ سبتمبر ١٩١٩م وصل الفرقاء إلى صيغة اتفاق جرى تعديل بعض بنوده، وانتهى إلى ما عرف باتفاق السيب في ١٤ يوليو ١٩٢٠م.

راجع في هذا الصدد:

(PRO) Fo./371/2416, The Rebellion Against Sultan of Muscut 1913-1916.

ولنص الاتفاق راجع:

Aitchison, CU, op.cit, vol. XI, p. 319.

٩٩- (PRO) same series, vol.13723 (secret) Future Policy of the Trucial Coast, 1929.

١٠٠- (PRO) same series, vol. 18912, Draft minute of the 42nd meeting of the sub committee of the imperial defence concering the Middle East, 24, Sept. 1935.

١٠١- (PRO) same series vol. 13723, (secret) PR, to GOI, 23 April 1929.

١٠٢- (IOR) R/15/2/8141, Annual Report on the Trurial Coast for 1934.

١٠٣- (PRO) Fo./ 371/16957, PR to Rotaxandum, London, repeated Simla.

١٠٤- (PRO) Same series, vol. 18911, Knatchbul-Hugessen to Rendel, 26 Sept. 1935.

١٠٥- (PRO) Same series, vol. 1891, Draft of the minute of the 42nd meeting ----.

١٠٦- (PRO) Same series, vol. 17815, Tribal Considerations ....

١٠٧- Loc. cit.

١٠٨- (PRO) Same series, vol. 18918, Tribal History ....

١٠٩- (PRO) Same series, vol. 17824, I.O. to F.O., 28 Nov. 1934.

١١٠- (IOR) L/P&S/18/B437, Memo on Relations of Wahabee Amirs & Bin Saud with Eastern Arabia & British Govt. 1900 – 1913.

* مسألة حظر بريطانيا لتجارة الرقيق في هذه المنطقة من الموضوعات التي لم تجد حظها من الدراسة بعد. فقد عمدت حكومة شركة الهند البريطانية إلى حظر هذه التجارة في فترة مبكرة نصت عليه في تعهد ١٨٢٠م الذي حصلت عليه من الحكام في هذه المنطقة، وكان ذلك قبل أن يتم حظر هذه التجارة رسمياً في بريطانيا ذاتها! وفي عام ١٨٤٠م حصلت بريطانيا من شيوخ أبوظبي ودبي ورأس الخيمة وأم القيوين على تعهد يتيح لسفنها الحربية حق مصادرة مراكب هؤلاء الشيوخ التي تعمل بتجارة الرق في المنطقة الممتدة بين رأس دلجادو في ساحل أفريقيا الشرقي وجوادر على ساحل الخليج العربي بدعوى الدوافع الإنسانية واستغلته في تامين استقرار مستعمراتها في الهند وتعطيل الحركة العربية في البحر في هذه المنطقة التي أغلقت مياه الخليج أمام مراكبها، و لم يتطرق هذا الاتفاق إلى تجارة الرق في البر أبداً. وحصلت بريطانيا في عام ١٨٤٧م على تعهد من سلطان بن صقر شيخ رأس الخيمة والشارقة أدرجت فيه في أبريل مايو من نفس العام مكتوم بن بطي حاكم دبي وسعيد بن طحنون حاكم أبوظبي وعبدالعزيز حاكم أم القيوين. حظر هذا التعهد على هؤلاء الشيوخ نقل الرقيق على مراكبهم ومراكب أتباعهم وخول السفن البريطانية حق تفتيشها ومصادرتها إذا خالفت الحظر. وقد وثق هذا التعهد في عام ١٨٤٩م حيث تأكد حق التفتيش والمصادرة لكافة سفن المشيخات التي لا تمتنع امتناعاً تاماً عن استيراد الرقيق من أفريقيا. وحصلت الإدارة البريطانية في الخليج في عام ١٨٥٦م على تعهد آخر من شيوخ المنطقة بتسليم الرقيق الذين يفدون مشيخاتهم على السفن البريطانية، كما حصلت بريطانيا في عام ١٨٧٣م بعد توقيعها معاهدة تجارة الرقيق بين مسقط وزنجبار على تأكيد من زايد بن خليفة في أبوظبي وسالم بن سلطان في الشارقة بمراعاة شروط التعهدات السابقة التي تحظر هذه التجارة.

الفصل الثالث

زايد في العين

- – مولده وأسرته الصغيرة
- – زايد الصبي
- – آراء بعض البريطانيين في شخصية زايد في مدينة العين
- – مجالس زايد وأحكامه وإدارته في مدينة العين
- – إدارة الأزمات
- – اصلاحات زايد في العين
- – زايد من العين إلى القلب

« زايد بن سلطان آل نهيّان هو:

– أقوى الرجال في منطقة العين وما جاورها

– امتدّ نفوذه من العين حتى الظفرة

– يخصص المال القليل الذي في حوزته لخدمة مجتمع العين (البريمي)

– تدفعه روحه الإصلاحية فتؤهله مع مقدراته السياسية وسخائه وبذله من أجل المنفعة العامة، إضافة إلى تعلق البدو به – لأن يكون الحاكم المنتظر لأبوظبي»

من تقرير كلارنس مان ١٩٦٤م

زايد في العين

يعدّ المؤرخون الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رائد المسيرة في الإمارات العربية المتحدة؛ فقد قاد قومه من ضيق المحل إلى بحبوحة العيش، ومن دائرة العوز إلى ساحات الثراء، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن وهدة المرض إلى ظلال العافية، ومن متاهات الفرقة والشتات إلى قوّة الوحدة والثبات، فزايد – في حقيقة الأمر – مؤسسة في رجل.

ولا ندّعي هنا أننا أسبغنا هذه المحامد الجمّة على هذا الرجل الجدير بها، إنما هي محامد بدت لنا بارزة في المصادر البريطانية التي وقفنا عليها، وقصرنا بحثنا عليها دون غيرها من المصادر، كما لا ندّعي أننا قمنا باستنباط أو تحليل لهذه المصادر وصولاً إلى ما نثبته لهذا الشيخ من مكارم الصفات؛ إذ لم يزد دورنا هنا عن تجميع للمعلومات، وتنظيمها تنظيماً يجعلها تتحدث عن نفسها بوضوح. ولا يعود اختيارنا هذا المصادر إلى ثقتنا التي لا تتزعزع – والتي قد يخالفنا البعض الرأي – في أنها الأجدر بالدراسة والتحليل في الكشف عن غوامض تاريخ هذه المنطقة، ولكن إلى ثقتنا في أنها تمثّل في موضوعنا هذا آراء مجموعة كبيرة من الإداريين والفنيّين والرحالة البريطانيين، كانوا يتمتعون في هذه المنطقة بنفوذ كبير، وبقوّة هيمنة لا يُعلى في الأرض عليها؛ ولذا لم يكن أي منهم متملقاً أو مداهناً أو مادحاً أو مجاملاً، فهو لا يحتاج أن يكون هذا أو ذاك، بالإضافة إلى أن جُلّ هذه التقارير كانت وقتئذٍ سرّية لا يطلع عليها زايد أو غيره من أهل المنطقة. ويتأكد لنا صدق هذه المصادر حين نعرف أن زايداً كان يتصرف على سليقته التي تعكس كوامن شخصيته؛ فلم يكن يدرك أن أولئك البريطانيين كانوا يراقبون مسلكه، ويحللّون شخصيته، ويكتبون عنها. ولعله – لو عرف ذلك – ما كان له أن يعدّل في تصرفاته إرضاء لهذا المسؤول البريطاني أو ذلك، فقد شهدت له هذه المصادر كلها بالاستقلال في القرار، وبفيض من عزّة النفس، ووفرة الكرامة.

وقد اعتدنا – معشر المؤرخين – حينما نجد شهادات طيّبة من كوادر المستعمرين عن أحد المواطنين، مهما كان موقعه – أن نتعامل معها بأحد منهجين: أولهما وأقربهما للصحة هو منهج الشك في المشهود له؛ فالمستعمرون لا يتعاملون في مصالح الإمبراطورية بالإنسانيات النبيلة والعاطفة مع غيرهم؛ فيقرّظوا من الوطنيين من هو جدير بالتقريظ؛ لأن مصالح الوطنيين تتعارض غالباً مع مصالح المستعمرين، ولذلك فكل مدح أو إطراء من أولئك المستعمرين لمواطن أو مسؤول لا يضاف عادة إلى ميزان حسناته.

أما المنهج الثاني – وهو أقرب إلى المناهج الأدبية منه إلى التاريخية – فهو الذي يسير على هدى: الفضل ما شهدت به الأعداء. ونحن حين ننبذ هذا المنهج نقدياً، نرفضه موضوعياً أيضاً. فأي عداء يمكن أن يقع بين مستعمر يخطط للانسحاب وقد دالت دولته، وبين زعيم يخطط للإمساك بزمام القيادة في بلاده من متسلط اضطرّته الظروف الدولية والإقليمية إلى الانسحاب. فالعداء – تاريخياً – قام في فترة عملت فيها الدولة الإنجليزية على إرساء هيمنتها في المنطقة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وشهد رجالها في تلك الفترة على كل من قاوم أهداف حكومة الشركة الإنجليزية في الهند ونفوذها وسيطرتها بأنه قرصان خارج على النظام الدولي. ضربت إنجلترا «ساحل القراصنة» ثم أغلقته الإمبراطورية البريطانية بعدئذ إغلاقاً محكماً بعيداً عن كل المؤثرات الحضارية في العالم بحجّة تصريفها شؤونه الخارجية، فأورثته الفقر والجهل والمرض.

قادت المتغيّرات الدولية التي بدأت تعمل منذ الحرب العالمية الأولى وظهور الشبح الأمريكي وإمبرياليته التي أخذت تقوّض في تؤدة مرتكزات الاستعمار القديم، كما قاد استقلال شبه القارة الهندية بعدئذ، وتصاعد نفوذ الدولة السوفيتية، والخوف من انتشار الفكر الشيوعي – بريطانيا إلى أن تدرك أن انسحابها من شرق السويس أدعى

للحفاظ على ما تبقى لها من مصالح في الخليج العربي. وأسهمت المتغيرات الإقليمية وانتشار الفكر التحرري في إيران، ونموّ الفكر القومي في المنطقة العربية، وقيام مملكة عبد العزيز بن سعود، في زيادة الوعي السياسي البريطاني بضرورة الانسحاب من منطقة الخليج العربي. و لم يكن من الممكّن أن تنفّذ بريطانيا انسحابها من المنطقة - كما يقول الساسة البريطانيون - دون أن تعمل على «سد الفراغ». وقد تأكد هذا الوعي البريطاني بضرورة الانسحاب وملء الفراغ بعدئذ بثورة ناصر في مصر، وثورة مصدق في إيران.

اقتضت نظرية ملء الفراغ التي برزت ملحّة في السياسة البريطانية في تلك الفترة البحث عن رجال في المنطقة لهم المقدرة، والكفاءة، والوجاهة الاجتماعية، والنظر الثاقب، والهيمنة، ما يقي لهذه المناطق تكاملها، ويجعلها قادرة على الثبات في وجه التحديات الدولية والإقليمية التي تواجهها. أما التحدي المحلي فقد كان الأكبر والأخطر إذ تمثّل باستثمارات النفط وموارده. فقد كانت الاستثمارات البريطانية في منطقة الإمارات وقتئذٍ تتوجس خيفةً، من المد الاستثماري الأمريكي المتدفق عبر السعودية عنيفاً وبلا هوادة.

وتبينت السياسة البريطانية أن العديد من حكام الخليج العربي امتازوا بالحنكة والدراية في إدارة شؤون مناطقهم المحلية في تلك الحواضر الصغيرة، وفي قبائلهم في تلك البوادي الشاسعة، ولكنهم مع ذلك ما كانوا يعرفون شيئاً عن شؤون العالم الخارجي الذي حجبه عنهم ظل الإمبراطورية البريطانية زمناً طويلاً، ولن يستطيعوا سدّ الفراغ حين يلقى بهم فجأة في لجّة السياسة العالمية وأمواجها، وبات جميع هؤلاء الحكام - بالضرورة - يتوجسون خوفاً من أن تتعرض بلادهم لأية مؤثرات خارجية تفسد عليهم دينهم ودنياهم. وفي هذا الصدد صرح الشيخ شخبوط بن سلطان في ١٣ مايو ١٩٦٢م/ ٨ ذي الحجة ١٣٨١هـ، لبويستيد في الوكالة السياسية البريطانية في

أبوظبي[1]: «نحن بدو، خلقنا هكذا، وعشنا البداوة سنين عدداً، وسنظل بدواً، فنحن بذلك سعيدون قانعون». وأضاف شخبوط أنه لن يعمل على أن يفارق وقومه حياة البداوة أبداً، وتمنى في مناسبة أخرى التقى فيها هذا المسؤول البريطاني في ١٣ أبريل ١٩٦٢م/ ٨ ذي القعدة ١٣٨١هـ، لو لم تكن شركات البترول قد بدأت العمل في المناطق التابعة له لتجنب زيادة التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لإمارته التي اتهم البريطانيين بقصّ بعض أطرافها[2].

لذلك كان تحرّي المسؤولين البريطانيين في المنطقة شخصيات الرجال الذين يمكن لهم التعامل مع التحديات المستحدثة جاداً، فانبروا لذلك، يدقّقون في تلك الشخصيات. واسترعى زايد انتباه كل هؤلاء المسؤولين، وظفر باحترامهم؛ فهو رجل المرحلة في الإمارات الذي يمكن أن يتعامل مع المسؤوليات الجديدة التي يحتّمها الاستقلال، ومع الأعباء الطارئة التي يتطلبها الاستثمار. وسنلاحظ في هذا البحث أن زايداً لم يكن أقل تعلّقاً بالبداوة من أخيه شخبوط؛ فهو - وإن كان مدني التوجه بحكمته - بدوي الروح بأصالته. أدرك زايد منذ البداية أن البترول واستثماراته وعقابيله تودي بالبداوة كنظام حياة؛ فكان عليه أن يحافظ عليها قيماً وثقافة وإرثاً. وقد أدرك هؤلاء المسؤولون البريطانيون منذ البداية أن هذا الرجل راشد يمكن أن يتعامل مع هذه المسؤوليات المستحدثة بوحي من حكمته وتقاليده وإرثه. وقد جاء في تقرير لوس المقيم البريطاني في الخليج العربي، المؤرخ ١٧ أبريل ١٩٦٢م عن زايد بأنه «رجل متسامح بطبيعته، يتمتع بحب أهله، كما أنه يظفر منذ الوهلة الأولى بتقدير كل من يقابله. وهو رجل كريم يشيد به كل من عرفه، شغوف بحب شعبه يتطلع للعمل على رفعته». ويشير هذا التقرير إلى أن زايداً ليس الرجل المطواع الذي يذعن لما يشار به عليه، «فهو قد جمع في شخصه كل اعتزاز البدوي بالنفس، وكل الشعور بالأنفة والقوّة؛ ففيه كل ما يميِّز الشخصية البدوية من تفرد وكبرياء». ويذهب التقرير إلى

القول: إن زايداً صلب «لا نستطيع نحن ولا أيّة قوة أخرى دفعه إلى اتجاه بعينه. فقلبه لا يتسع إلا لما يحقق آمال شعبه في الرفاهية والازدهار»[٣].

مولده وأسرته الصغيرة

وعلى ضوء ما ذكرنا من شهادات يمكن لنا أن ندخل إلى رحاب مكونات شخصية الشيخ زايد. ولد الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفة بن شخبوط بن ذياب بن عيسى آل نهيان الفلاحي من البني ياس، - كما تقول بعض مصادرنا البريطانية - عام ١٩١٠م، في قصر الحصن الذي بناه والده شرق العين[٤]. وتضع وثيقة أخرى مولده عام ١٩١٦م. وتختلف هذه المصادر عن كافة المراجع الأخرى التي كتبت في سيرة زايد والتي جعلت مولده عام ١٩١٨م في قصر الحصن في أبوظبي. ولربما كانت المراجع الأخرى أصوب من مصادرنا إذا اتضح لنا أنها وثّقت تلك الحقيقة من مصادر محلّية أقرب إلى الدقّة من مصادرنا. ما يسترعي النظر أنه قد ورث الإمارة كابراً عن كابر، فليس في كل الأسماء التي ذكرناها من أسلافه أحد لم يتول الحكم في أبوظبي أو يمارسه.

حكم والده سلطان الإمارات في الفترة ١٩٢٢- ١٩٢٨م، كما حكم جدّه زايد من قبل (١٨٥٥- ١٩٠٩م) هذه الإمارة وأحكم سلطانها. ولعل في إطلاق اسم زايد على الوليد الحفيد تيمّناً بتثبيت السلطان الذي ظل متأرجحاً بعد وفاة زايد الجد. أما خليفة، والد زايد الكبير، فقد حكم في الفترة ١٨٣٣- ١٨٤٥ م، إرثاً عن أبيه شخبوط (١٧٩٣- ١٨١٦ م) الذي كان قد ورثه عن أبيه ذياب المتوفى سنة ١٧٩٣م، ولعل في هذا التسلسل الصلبي ما يبرر روح الزعامة المتأججة في زايد بن سلطان منذ نعومة أظفاره.

وإذا كان هذا شأنه في تسلسله الأبوي فإنه يعود من ناحية أمه الشيخة سلامة بنت بطي بن خادم بن نهيمان إلى القبيسات. وقد كان لهذه السيّدة أثر تربوي كبير في

أبنـائهـا الأربعـة: شـخبـوط المـولـود في ١٩٠٣م، وهـزاع المولود في ١٩٠٥م، وخالد المولود في ١٩٠٧م، وزايد أصغر إخوته الذي حمل اسم جدّه، بالإضافة إلى بنت واحدة.

جاء زايد وإخوته إلى هذه الدنيا نتاج زواج سياسي تصالحي بالدرجة الأولى، قصد منه لّم شمل بيوت بني ياس التي كان بعضها يخرج على بعض أحياناً. فرّقت الخصومة بين الشيخ زايد بن خليفة جدّ زايد لأبيه، وبطي بن خادم، جدّه لأمه ثم تصالحا. وجاء الزواج بين سلطان بن زايد وسلامة بنت بطي ليقوّي الأواصر بين الأسرتين، ويوثّق روح الوفاق العشائري، والتآلف الأسري.

تقول المصادر البريطانية(٥) إن بطي بن خادم، شيخ القبيسات، قد خرج في عام ١٨٦٩م، مع قومه مغاضباً للشيخ زايد بن خليفة ليستقر في خور العديد. ولم يكن خروج شيوخ القبيسات هذه المرّة إلى تلك المنطقة هو الأول من نوعه، ولكنه كان الأخير. فقد دأب شيوخ القبيسات على ذلك الخروج كلما دبّ الخلاف بينهم وبين شيوخ أبوظبي. خرج القبيسات في ١٨٣٧م على الشيخ خليفة بن شخبوط، كما خرجوا في عام ١٨٤٩ على الشيخ سعيد بن طحنون.

لم يكن الشيخ زايد بن خليفة – ذلك الشيخ القوي الطموح – يرضى بأن تنتقص قوّته أو يقتطع جزء من أرضه بخروج شيخ ولا بهجرته. ولما كانت السلطات البريطانية تحرس البحر وتقف فيه لتمنع تحرك أية قوّة محلية لدرء فتنة أو للحفاظ على ما يمكن أن نطلق عليه تكامل السيادة الوطنية – فقد تطلع الشيخ زايد في فترة ما للعثمانيين لمساعدته في إعادة قومه إلى الطاعة، كما تطلع إليهم أيضاً الشيخ بطي بدوره للاعتراف بسلطته في ذلك الجزء الذي استقطعه من الإمارة. وخشي البريطانيون من مساندة العثمانيين إلى هذا الرجل أو ذاك؛ فوافقوا على مساندة الشيخ الشرعي

ودعمه. و لم يكن زايد ينتظر من البريطانيين مساندة أو دعماً للتعامل مع رعاياه، ولكنه كان يخشى مواجهتهم في البحر لما لهم فيه من سفن حربية لا قبل له بها.

لم ينتظر زايد الدعم البريطاني الموعود، إنما تمكن بمصادره الخاصة أن يبحر إلى خور العديد ويسيّطر في ٢٨ مارس ١٨٧٨م على تلك المنطقة التي كان القبيسات قد هجروها[٦]. ثم تصالح بعدئذ الأهل من آل نهيّان وآل نهيمان، وصار بعدها الأخيرون يداً قوّية لآل نهيان، خاصة في الجزر التابعة للإمارة، يراقب شيوخهم سفن صيد اللؤلؤ، ويُحكّمون في خلافاتها الصغيرة، ويرصدون رسومها التي كانوا في كثير الأحيان يتولّون جبايتها لشيوخ آل نهيان. وكان زواج سلطان بن زايد من سلامة بنت بطي توثيقاً لهذا الصلح ومهراً للترابط العشائري. وكانت الشيخة سلامة تعي تماماً أن الصلح خير للجميع، وأن القـوّة في الاتفـاق، وأن المتنـازعين تذهب ريحهم ولا يبقى لهم من أثر. وأرضعت هذه السيدة أبناءها جميعاً هذا الفكر الصادق؛ فربطت بينهم برباط الولاء بعضهم لبعض، إضافة إلى الحب الصادق الذي تبذله كل أنثى لصغارها. وقد ظلت هذه الشيخة حتى وفاتها مرجعاً هاماً لأبنائها كافة في الشؤون الخاصة والعامة.

يشير أحد التقارير البريطانية بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٦٢م إلى أن الشيخة سلامة جمعت أبناءها الأربعة عندما تولى شخبوط سدّة الحكم عام ١٩٢٨م. وأوصتهم بأن يكونوا يداً واحدة، وألا يسمحوا للأهواء أن تفرّق جمعهم، وجعلت أبناءها الثلاثة: هزاعاً وخالداً وزايداً يقسمون أمامها قسماً غليظاً بألا يقوموا بأي عمل يعود بالضرر على شخبوط. وتضيف هذه المصادر أن زايداً كان ثابتاً على قسمه لم يحنث فيه، وأنه كان يحترم مشاعر والدته، ويثق – كما يثق إخوته – في حكمتها التي كان تأثيرها في أبنائها كبيراً[٧]. ونثق من جانبنا بأن تأثير هذه السيدة في ابنها زايد غدا بعد ذلك من أبرز العناصر التي جعلته يفرد للمرأة في دولته مكاناً وضعها على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات العامة فيما لا يخالف الشرع والعرف.

لم يتلق زايد من التعليم النظامي في الكتاتيب والمدارس إلا ذلك القدر اليسير الذي اعتاد كافة أبناء شيوخ شبه الجزيرة العربية تلقيه: فاتحة الكتاب، وقدر منه يعينهم على صلاتهم وحفظ دينهم، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والخط العربي. وكثيراً ما شوهد الشيخ زايد في طفولته يكتب على لوح من عظم كتف جمل مصقول بحبر بدائي بواسطة قلم من خوص ويستضيء بمصباح يضاء بزيت الزيتون. وقد عرفت طفولة زايد بعدئذ الورقة والحبر الأكثر تطوراً [٨].

ولا يعود عدم اهتمام الشيوخ العرب بتلقي أبنائهم التعليم النظامي إلى تعذّر تحصيل هذا النوع من التعليم في ذلك الوقت فحسب، بل إلى زهدهم فيه. فهو ربما يشغل الأبناء – بحسب تفكيرهم – عن تلقي تلك العلوم المكتسبة بالمران من الصحراء والبيئة البدوية والتي تؤهّلهم لقيادة الرجال.

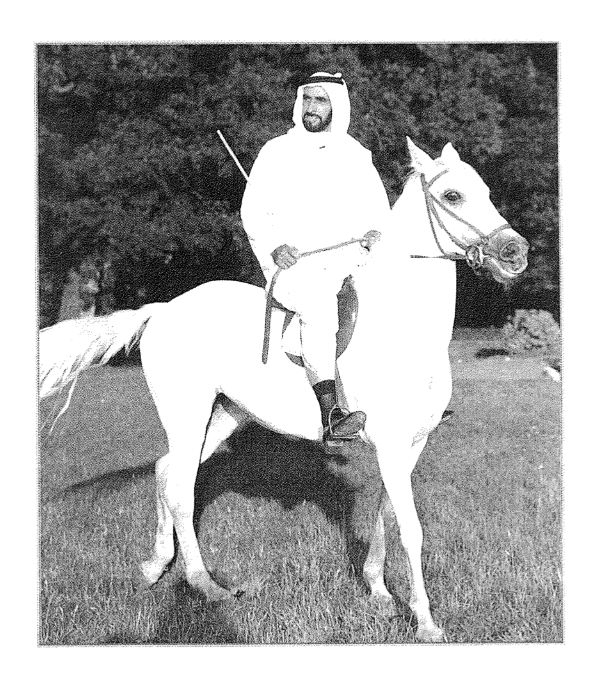
ولا تقتضي أسس القيادة في البادية أن يكون الشيخ فقيهاً في علوم الدين بقدر ما تقتضي أن يكون حصيفاً حكيماً، والحكمة – عند أهل العلم – أرقى مدارج الفقه. وهي التي تجعل الشيخ يستعين بأهل الفقه والمطاوعة وكبار السن ليشاوروهم في الشؤون الإدارية والقانونية للقبيلة التي تخضع للأعراف، أو الموافقة لها، أو التي لا تتعارض مع حدود الشرع. و لم يخلُ مجلس شيخ أدار شؤون قومه بحنكة ووعي من فقيه أو عدّة فقهاء يشاورهم في الأمر ويستنير بآرائهم، ويبقى الشيخ الرئيس بعد ذلك المرجع الأخير في الأحكام القضائية. وقد كان لزايد – حال إقامته مسؤولاً عن قرى العين – قاض مقيم ورد ذكره في المصادر البريطانية، وإن لم تحدد الوثيقة مهامه. ولابد لنا أن نقدّر أن زايداً كان يستشيره فيما يشكل عليه، ولكن يبقى النطق بالحكم وتحمل المسؤولية وإجراء العدل للشيخ وحده.

أما الشؤون المالية التي تعامل بها هؤلاء الشيوخ في تلك الفترة حتى ظهور البترول فلم تكن على درجة من التعقيد بالقدر الذي يستوجب النظر في علوم المحاسبة

والاقتصاد. فمصادر الدخل في ذلك الاقتصاد البدائي معلومة: ثمار من النخل تزكّى حسب ما نصّت عليه الشريعة، بالإضافة إلى رسوم عدد معلوم من مراكب الغوص يدفع كل منها جُعلاً معلوماً، ورسوم جمارك لا تكاد تذكر، تجبى حسب الاتفاق، ولا شيء غير ذلك. ومع ذلك فقد كان لزايد حال مسؤولياته في إدارة العين مُزَكٍّ يساعده في الأمر وفق الضوابط المعلومة [٩]. أما مصارف المال فلم تكن تعتمد الموازنة، إنما اعتمدت بشكل خاص على الإنفاق على مجالس الضيافة في قصر الحكم الذي كانت أبوابه مشرعة أمام صغير القوم وكبيرهم، من أعلاهم إلى أدناهم، وعلى «الشفية» [١٠]. أو «الشرهة» التي تصل عادة إلى الشيوخ الأدنين منزلة استئناساً لهم، أو شراء لولائهم، أو لإعانتهم على الثبات على الولاء والدعم ضد الأعداء ولا مشاحة فإن الكرم أس النظام الأبوي المشيخي. ونجد أن الكرم وسفح المال في البادية الشحيحة الموارد كان من أبرز المقومات التي تمدّ في نفوذ الشيخ. وقد وصفت إحدى الوثائق البريطانية الشيخ زايداً في العين بأنه الأوفر كرماً في أوساط شيوخ صحراء «الساحل المتصالح» [١١]. أما تطوير مصادر الدخل في هذه البيئة والذي جهد فيه زايد في فترة توليه إدارة العين، فلربما انبثق من الحكمة التي امتاز بها والتي كانت صنْواً لكرمه.

تلقى زايد فن الفروسية والتعامل مع البادية من مخالطته كبار السن – وهو يافع – في مجالس أبيه في قصر الحكم، ومما لقنّه إياه والده كذلك. وقد ساق زايد طرفاً من مبادئ هذا الفن لكلود موريس [١٢] فقال: « إن غارات البدو التي كانت في ذلك الوقت من سمات مجتمع البادية تقوم على قواعد الشرف وأخلاقيات الفروسية. فإذا أغار بدو على خيام فريق آخر فيجب ألا يطلقوا النار في اتجاه الخيام حتى لا يتسببوا في مصرع طفل أو امرأة أو شيخ مسنّ أو ترويعهم. ولا يجوز للمحارب أن يقتل مسالماً غير محارب أو أن يصرع رجلاً لا يدانيه قوّة وعدّة وعتاداً. فإذا كنت راكباً فلا تقتل الراجل، وإذا سقط فارس عن حصانه فلا يجوز أن تصرعه، أما الأسرى فإنهم يعاملون في قانون الحروب القبلية معاملة الضيوف يشاركون آسريهم طعامهم وشرابهم، أما إذا كان في أوساط هؤلاء الأسرى شيخ من ذوي المكانة الرفيعة فيعامله من أسروه معاملة الشيوخ. ولمثل هذا الشيخ، ولغيره من سائر الأسرى، إذا تعهد شفاهة بدفع فدية أن

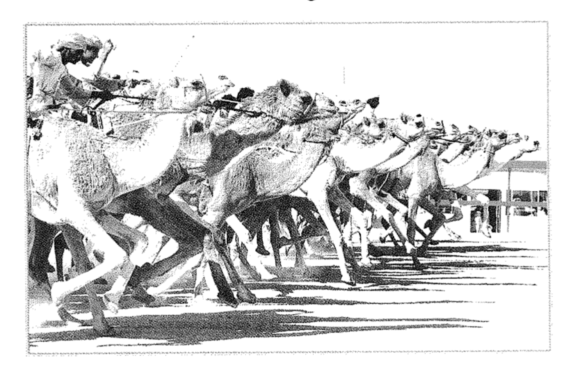
تلقى زايد فنون الفروسية صغيراً

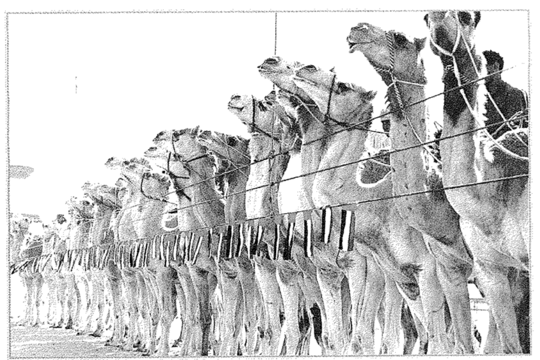


يذهب حرّاً طليقاً، ولا شك في أنه سَيَفي بالوعد. وإذا نزل قاتل على مضارب أهل قتيله ورفضوا العفوّ عن جريرته فلا يجوز لهم أن يلحقوا به الأذى مباشرة، إنما يطلب منه الرحيل ويمهل ثلاث ليال قبل السعي في ملاحقته. هذا ولا يجوز لصاحب الثأر أن يغتال المطلوب إذا أدركه نائماً إنما يجب عليه أن يوقظه ويمنحه وقتاً كافياً لكي يأكل ويشرب، ويدخن غليونه إذا أراد. أما إذا دخل رجل إلى مضارب قبيلة ما وجاء في إثره من يطلبه فلا يجوز لأهل تلك الخيام أن يعينوا الطالب أو يمدّوه بمعلومات قد تؤدّي للقبض عليه، بل يجوز لأهل الخيام أن يدلّسوا عليه تمويهاً»[١٣].

كان مثل هذا التعليم بسيطاً في مبناه، كبيراً في معناه، فهو يفي بمتطلبات منظومة الأعباء التي على الشيخ أن يقوم بها، تعليم لا يعتمد على الكتاب إنما يكتسب من البيئة ويستجيب للمتطلبات المجتمعية، وهو – بعد – تعليم تدريب لا تعليم تلقين.

كان لأسرة زايد في العشرينيات من هذا القرن نحو مائة وثمانين رأساً من الخيل، وأربعمائة بعير، يوكلون رعايتها والاهتمام بها إلى البدو الذين يفيدون من ألبانها وأصوافها، يستعيدها الشيوخ أو قد يستعيدون بعضها ساعة يشاؤون[١٤]. وكان زايد محبّاً للإبل يرعاها ويعرف من أوجاعها وأدوائها كافة ما يعرفه البدو، ويميز أصائلها من غيرها. وكانت ناقته غزالة – فترة مسؤوليته في العين – أجمل ناقة في البرّ العماني كله. وقد سمح لتسجر، أحد الرحالة البريطانيين، أن يعلو ظهرها مرتين تلطفاً من زايد، مرّة حين ركب من المويجعي في طريقه إلى الشارقة، ومرّة أخرى حين رافق زايداً في رحلة صيد. وقال تسجر الذي ركب العديد من النوق العمانية في رحلاته في هذه المناطق: إن المرء لا يحسّ وهو على ظهر غزالة وَصَباً ولا يشكو إرهاقاً[١٥]. ويبدو أن اسم غزالة الذي ارتضاه زايد لناقته الخاصة كان للدلالة على ما للغزالة من سرعة في العدوّ، وتناسق في التقاطيع، ورقّة في العيون. وقد بلغ من حب زايد للإبل أنه قال لأحد الذين استضافهم من البريطانيين أنه يعتبر شعبه «شعب الإبل»، وفي هذه العبارة ما فيها من قوّة الصبر، والتحمل، والعزم، ومغالبة الصعاب، وشدة المراس الذي يراه زايد في شعبه.





أما الخيل فهي زينة وركوب. وقد برع زايد في امتطاء صهواتها طفلاً، وأغرم بها شاباً، وأحسن إليها كبيراً؛ فأقام لها السباقات وأجزل لفرسانها الهدايا. كان زايد ابن بيئته التي كشفت له عن محاسنها صغيراً فسخّر جهوده للحفاظ عليها كبيراً. وكان في فترة ولايته العين يخرج في رحلات قنص متواترة لإشباع تلك الهواية التي أولع بها، ويأخذ معه عدّة قنصه من شوزان وبندقيات، إضافة إلى الصقور. ولكنه أدرك ذات مرّة عاد فيها بصيد وفير جراء استعمال البندقية أن الصيد بالبندقية يتلف البيئة، ويخلّ بتوازن عناصرها الطبيعية، وما عاد بعد ذلك يستعمل في قنصه إلا الصقور[١٦]. ولعمق تعلقه بهذه الهواية وضع عنها كتاباً أصيلاً اعتمد على معلوماته المستوحاة من خلاصة تجاربه. كان هذا الكتاب فريداً في موضوعه إذ لم يشهد عصرنا الراهن كتباً كتبت في البيزرة والقنص، فقد خلت المكتبات من هذا الفن الذي لم يزدهر إلا في عصر العباسيين، أزهى عصور التاريخ الإسلامي.

أتقن زايد فن التعامل مع الصقور الذي مارسه صغيراً، وبرع في التعاطي معه كبيراً. ويشهد له ويلفرد تسجر بأنه كان يطبب طيوره بنفسه، ويحكي عنه بأنه قام بتجبير جناح طير له بقطعتين من قرن غزال، وسقى طيراً آخر سُكّراً علاجاً له من مرض ما، كما طلب أيضاً أن يعطى أحد الطيور خليط بيض بالحليب، هذا بالإضافة إلى أنه كان يَسِم طيوره بيده ويضع عليها علامته. وقد وردت في كتاب «الرمال العربية»[١٧] كثير من الحقائق التي ذكرها زايد لتسجر عفوّ الخاطر وهو يجامل ضيفه الذي يرافقه فيروي له بعض عادات الطيور وفنون القنص. أشار زايد لتسجر إلى بقع من الزيت إلى جانب حبارى أسقطتها الطيور وقال له إنه الوسخ الذي تزرقه الحبارى على الصقور المطاردة لها، وإن ذلك إذا صادف عيني الصقر يورثه العمى المؤقت فلا يبصر شيئاً في يومه ذاك، أما إذا أصاب الريش منه فيقعده عن الطيران يوماً كاملاً. وكان زايد يؤمن بعنصر التجربة في التعليم فقد قال لتسجر: إن الصقور إذا رأت النسور فلن تطير وراء الحبارى، وإذا فعلت، فإن

لقطات توضح اهتمام الشيخ زايد بالبيرزة والصيد بالصقور





النسور تلاحقها دون الحبارى. وراح زايد يجري التجربة، وما زال بأحد طيوره حتى أطلقه في إثر أحد طيور الحبارى مع وجود النسور في الجوّ. وسرعان ما هاجم أحد النسور الصقر الذي استدار فزعاً في اتجاه زيد وارتطم على صدره. وترك زايد بعدئذ ذلك المكان إلى غيره فلا فائدة من البقاء للصيد فيه ترتجى مع وجود النسور.

تعلّم زايد من رحلات القنص والطراد دروساً كافية في الطبوغرافية والعلوم الإيكولوجية وفي الجغرافيا السياسية؛ فقد واصل رحلاته في البوادي والشعاب فوق كل تلك المناطق التي تدين لآل نيهان بالولاء، أو التي تحالفهم أو تربط بهم بعلاقات الصداقة والتعاون. وكانت تلك الرحلات إحدى مصادره الحيّة لمعرفة أسماء الأودية ومواقعها، ومواطن العشائر، ومصادر الكلأ. كما عرف زايد أيضاً من رحلاته حدود أرضه واختبر ولاء عشائرها، وتلمّس حاجات إنسانها المتنامية، للعيش الكريم.

كان الصيد إرثاً تليداً في أبوظبي منذ ميلادها؛ انغرس في اللاوعي عند شيوخ آل نهيان؛ فقد ارتبط اسم مشيختهم ذاته بالصيد والقنص. وقد اعتمدت المصادر البريطانية على ما جاء في بعض متواترات المنطقة من أنه في حوالي عام ١٧٦١م/ ١١٧٤هـ، كان شيخ القبيلة في رحلة صيد فأبعد في اتجاه الساحل ثم خاض منه إلى جزيرة كانت تلتحف طبقة رمادية من سديم الفجر، وحين انقشع السديم بعد حين أبصر الشيخ ظبياً فلاحقه، فوقع على نبع ماء. وحين رجع ذلك الشيخ إلى قومه في الداخل أخبرهم عن جزيرة أبوظبي وأم ظبي التي يمكن الوصول إليها في فترة انحسار المدّ خوضاً، والتي يمكن أن تهيئ لهم إبان الأزمات ملجأً آمناً يمكن الدفاع عنه بقوّة. و لم يمض أكثر من ثلاثين عاماً من ذلك الحدث حتى اتخذ بنو ياس هذه الجزيرة منذ عام ١٧٩٣م/ ١٢٠٧هـ قاعدة لهم[١٨].

لم تكن فنون القيادة والصدارة والحكم في البادية تتطلب الأكاديميات أو المعلمين لتدريس الطلاب ومراجعة تحصيلهم. كان الشيخ الأب هو المعلم الأول لابنه، كما كان التمرّس بحياة البادية، وعدم الاحتجاب عن الرعايا، ومشاركتهم أنماط حياتهم، هي المرتكزات الحقيقية في بناء الشخصية. ومع ذلك فقد كان الشيخ يوكل إلى بعض الرجال الذين يثق في ولائهم وحنكتهم وشجاعتهم ودينهم أمر ملازمة أبنائهم، وحراستهم، ومتابعة سكناتهم وحركاتهم. وقد يأخذه بعض هؤلاء ممن لا يرضيهم شيء من تصرفات الشيخ الصبي إلى والده ليتولى بنفسه محاسبته وتأديبه حتى يشبّ الابن صلب المراس. وقد قال أحد هؤلاء الموكلين بتدريب زايد وملازمته في طفولته لكلود موريس[١٩]: إن زايداً كان كثير الحركة لا يستقرّ به حال، وإنه قد أولع في طفولته بالقنص، وكان في سعيه وراء ذلك لا يخشى حرّاً ولا يتقي برداً. وأضاف الرجل أنه كثيراً ما كان يعجز عن ملاحقة الصبي، فإذا غفل عنه لحظة فسرعان ما يختفي بسرعة الريح. ويقول هذا المرافق أيضاً: إن زايداً كان في طفولته يعتلي منحدرات جبل حفيت على مشارف العين، ويعود بالطرائد التي يأخذها بصقوره وبندقيته.

ويوافق حديث هذا المرافق ما قاله زايد لموريس من أن القنص والفروسية من أولى هواياته، وأنه قد حمل منذ طفولته الباكرة البندقية ولما تبلغ قامته طولها. ويتذكر زايد أول رحلة قنص قام بها في الثامنة من عمره يحمل صقره فوق ساعده ويطلقه فيعود له بالحبارى. وحكى زايد أيضاً لموريس عن رحلات القنص والطراد الأولى التي كان يرافق فيها والده إذ كانت الجماعة تنطلق للصيد فجراً ثم يعوجون إلى معسكرهم في حوالي الثانية بعد الظهر محمّلين بالحبارى والطرائد. ويشير زايد إلى الأثر التربوي المكتسب من القنص في صباه وكيف تعلم من تلك الرحلات الفراسة والفروسية والنشاط والتوافق مع الأقران والأتباع.

ويجب ألا يحملنا الاستطراد في التعليم العملي الذي ناله زايد في طفولته عن حقيقة أساسية وهي أن زايداً شخصية كوّنت نفسها بالتعليم المستمر. فهذه التجارب الثرّة مع البيئة والحياة والناس بدأت في الطفولة، وتنامت مع الزمن، وازدادت ألقاً ورسوخاً بالحكمة المكتسبة والموروثة. ويجدر بنا هنا أن نعود لنذكّر مرّة أخرى بشخص والدته، معلمته الأولى، والتي استمرّت حتى وفاتها تسبغ على أبنائها من فيض حكمتها. ويروى أنها كانت تعلّق على جدار غرفتها بعض المتعلقات الموروثة من فترات ضيق بعينها، وما إن يزورها أحد من أبنائها وتقع عيناه عليها حتى ينطلق لسانه بشكر نعمة الله على الأمن والسلامة والتضامن والثراء. ولعل ذلك كان من الدوافع التي جعلت الشيخ زايد بن سلطان – حين أصبح مسؤولاً عن إدارة الدولة – يهتم بالتاريخ عامة وتاريخ قومه خاصة. فهناك هذه الوظيفة الايمانية للتاريخ التي استفادها زايد من حكمة والدته والتي نراه يذكّر بها قومه في أكثر من مناسبة حين يطلب إليهم التدبر في أوضاعهم ومقارنتها بأحوال آبائهم الذين كم كدّوا وكم تعبوا. وجاء في العديد من أحاديث زايد أنه يحتفي بعلم التاريخ ويراه مستودع علم لازم للمجتمع لتحفيز حركة النمو والتقدم فنحن نتعلم من ماضينا ونعرف كنه أعمالنا حين نزنها بميزان التاريخ– بعد أن نجرّده من أخباره وحكاياته وننفذ إلى لبِّه نظراً وتحقيقاً. فالمستقبل – كما يقول التاريخ – مفتوح لكل الفعاليات، وبالتاريخ يزيد احترام الفرد لذاته وتقديره لأمته لإحساسه بجذوره المتأصلة ولوعيه بذاته المؤثلة القيم.


امرأة من العين تحمل وعاءين من الماء على رأسها وتحت ابطها إلى بيتها

زايد الصبي

قضى زايد أهنأ أيام طفولته وباكورة صباه في منطقة العين، وهي المنطقة نفسها التي شهدت بداية فترة التيه التي عاشتها أسرته بعد خروجها منها عام ١٩٢٧م. وقد أضافت هذه الفترة العصيبة إلى شخصية زايد أبعاداً جديدة. وثّقت هذه الفترة معاني التراحم والتكامل والإيثار ونكران الذات بين أبناء سلطان بحكمة والدتهم. حزمت تلك الشيخة أمرها وأعملت عقلها ووظّفته في توجيه عاطفة الأمومة لتزيد في التعاضد بين أبنائها. وما إن انجلت تلك الغمّة وعاد شخبوط، ابنها الأكبر، ليتربع على سدّة الحكم في أبوظبي بمساعدة عمه الشيخ محمد بن خليفة [٢٠] حتى كانت مشاعر أبنائها جميعاً، وأيديهم وسلاحهم كتلة واحدة، مكّنت لحكم مشيخة أبوظبي الثبات على الولاء للحاكم الجديد. وكان زايد أكثر إخوته نشاطاً – تحت لواء أخيه – في شؤون الحكم والإدارة، يعاضده ويشدّ من أزره، ويمحّص له النصح.

كانت قرى العين التابعة لمشيخة أبوظبي في هذه الفترة تحت إدارة أحمد بن هلال الظاهري ممثلاً لشخبوط في المنطقة الغربية. وحين توفي أحمد بن هلال الظاهري في عام ١٩٣٦م أنيط حكم المنطقة بعلي بن غانم. وكان شخبوط وإخوته وأبناء عمومته يقضون فصل القيظ في العين عادة، إلا أن زايداً كان أكثرهم تعلقاً بهذه المنطقة، وأوفرهم معرفة بها وبأهلها ومن جاورهم. ولّما كان زايد حريصاً على معاونة أخيه شخبوط في شؤون الإدارة والحكم التي أظهر فيها منذ البداية همّة ونشاطاً فقد عيّنه أخوه حاكماً من قبله في عام ١٩٤٦م وممثلاً له في المنطقة الشرقية التي تضمّ قرى العين. وقد أضحت هذه المنطقة – في هذا التاريخ – تقاسم أبوظبي أهميتها إلا أن أعباء الحكم فيها كانت أثقل.

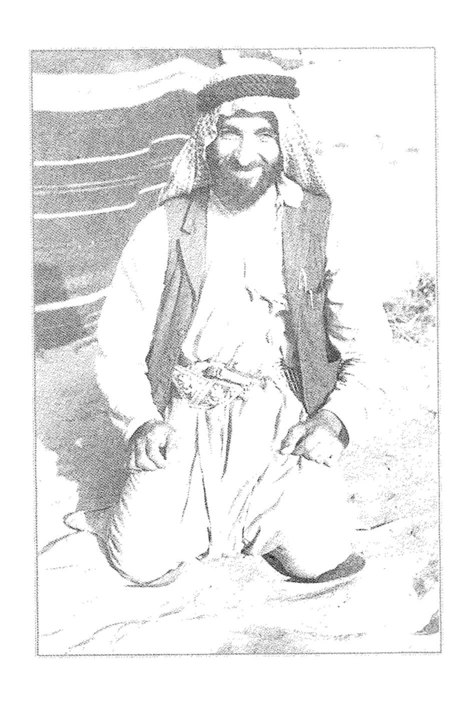
فإذا كانت أبوظبي المقرّ الدائم للحكومة فقد كانت العين مقرّاً لرئيس تلك الحكومة، الشيخ شخبوط، فترة طويلة من السنة. وإذا كانت أبوظبي مقرّاً لاستثمارات

صيد اللؤلؤ ورسومه وتجارته التي أصابها الكساد بعد عام ١٩٣٠م نتيجة للكساد الاقتصادي الذي ضرب العالم في تلك الفترة، وللازدهار الذي أصابته تجارة اللؤلؤ الصناعي – فقد كانت أراضي العين تنتج تمراً وتعطي ثماراً لا يقل مردوده المالي كثيراً في الدخل القومي، إذا صحّ التعبير، أو إسهامه وجباية زكواته في الخزينة العامة – عن مصادر أبوظبي التي غدت شحيحة. ولربما أمكن القول: إن المنطقة الشرقية التي أصبح زايد يحكمها نيابة عن أخيه قد أضحت تقاسم أبوظبي أهميتها، ومع ذلك فإن أعباء الإدارة في هذه المنطقة كانت ثقيلة؛ فشؤون الإدارة والحكم في عاصمة الإمارة أبوظبي التي تتعامل مع البحر الذي يحكمه البريطانيون بسطوتهم ونفوذهم كانت أيسر من التعامل مع الصحراء وعشائرها وعلاقاتها المتشابكة. يضاف إلى هذا كله المشكلة الجديدة التي طرأت مع الاستثمار الأمريكي للنفط في المملكة العربية السعودية، والذي أخذ يزحف تجاه المناطق التابعة لأبوظبي في المنطقة الشرقية. أما التعقيدات التي نشأت بعد ذلك فقد كان من أهمها تشكيل قوّة بريطانية القيادة في عام ١٩٥٠م، كان أكثر من نصف رجالها من أتباع زايد ورئاستها في الجاهلي[٢١] التي لم تألف وجود بريطانيين من قبل. وقد كان على زايد أن يحمي بنفوذه هذه القيادة البريطانية التي كان عليها أن تحمي بسلاحها مصالح مشيخة أبوظبي، وكان عليه أيضاً أن يحمي رجاله من تسلط القيادة البريطانية لهذه الفرقة لجهلهم بالأعراف القبلية وإدارة شؤون البادية. ويمكن القول إن زايداً قد أصبح يقاسم أخاه شؤون الحكم، ويتولى معه المسؤولية الإدارية بشكل متساوٍ، إن لم نقل بقدر أكبر.

آراء بعض البريطانيين في شخصية زايد في العين

يقول ولفرد تسجر (١٩٤٦م) في وصف زايد: إنه رجل قوي البنية جداً، يبلغ نحو الثلاثين من العمر، له لحية بنية، ينمّ سيماه على الذكاء، له عينان ثاقبتان في تيقظ، ويحملك الانطباع الأول على الثقة بأنه شخص هادئ يتمتع بالمقدرة والكفاءة. كان زايد بسيطاً في مظهره تماماً، يرتدي جلباباً قصيراً خيط من قماش عماني النسيج، بني اللون، وجعل فوقه «صدرية» غير مزررة. وقد ميّزه بين جلسائه «عقاله» الأسود فوق

زايد في العين ١٩٤٨م



«غترة» أسدلت على كتفيه بدلاً من أن يلقيها على رأسه وفقاً للتقاليد المحلِّية. كان زايد يتمنطق بخنجر وحزام للرصاص، أما بندقيته فقد كانت ملقاة إلى جانبه على الرمل. ويضيف تسجر قائلاً: «كم كنت شغوفاً بلقاء هذا الرجل الذي طارت شهرته في أواسط البدو لبساطة تصرفاته غير الرسمية، ولمودّته التي يبذلها لهم ما جعلهم يحترمون فيه قوّة شخصيته وفراسته وقوّته الجسدية! لقد ظل البدو يتحدثون عن شخصيته بإعجاب، فهم يقولون: إن زايداً بدوي، يعرف النوق ويعتلي أكوارها مثلما نفعل تماماً، كما أنه هداف بارع، متمرس على القتال»(٢٢). ويضيف تسجر: «وقد أتى أحد الخدم لنا ببساط لنجلس عليه بينما كان زايد يجلس على الرمل».

ويصف جفري بيبي – عالم الآثار الذي زار منطقة العين وقرى البريمي في ١٩٥٢م – زايداً في كتابه: «البحث عن دلمون»، بأنه طويل في تناسق، عريض المنكبين، سيماؤه بدوية خالصة فكأنه الصقر في توثبه ... يتوهج اسمه سحراً، فهو قناص قوي، وصحراوي شهير.(٢٣)

تضم مجالس زايد في العين مجموعة من الشيوخ والعامة وبعض ضباط كشافة عمان

أما بويستيد – الممثل البريطاني في أبوظبي – فقد أبدى إعجابه بكرم زايد، وتعجب من الحشود الكبيرة التي تحيط به في منطقة البريمي بالاحترام، فكأنه «قديس»، فالرجل سخي جداً، متلاف لماله، حلو الحديث، طيّب العشرة يلاطف الجميع، وهو مرح المزاج.(٢٤)

ويشهد النقيب أنطوني شبرد – قائد كشافة عمان في العين – زايداً فيقول: إنه أشهر شخصية في المشيخات المتصالحة، ظفر بإعجاب البدو الذين يعيشون في الصحراء المحيطة بالبريمي وبولائهم. ويضيف شبرد أنه كان يذهب مرّة في كل أسبوع لزيارة زايد في حصنه، ويدخل عليه باحترام. «ولكن كان احترامي له يزداد كلما خرجت منه،

فهو واحد من العظماء القلائل الذين التقيتهم، وإذا كنا أحياناً لا نتفق، فممن المؤكد أن جهلي وتذمري كان السبب وراء ذلك».[٢٥]

ويصف موريس زايداً الذي التقاه في العين (١٩٧٤م) بعد توليه مسؤولية الحكم والإدارة في الدولة، فقال: إنه كان يرتدي عباءة بنّية اللون تبرز منها رقبته الطويلة القوية. له لحية سوداء، وشارب يغطي شفته العليا. أما وجهه النحيل فبرونزي أسفع تميزه عينان قويتا الألق، شديدتا التركيز، ترسلان نظرات فاحصة هي البديل للأوراق الثبوتية في الصحراء والطريقة التقليدية التي يتم بها تقويم الآخرين. ويضيف موريس: بدا لي هذا الرجل الذي قارب نهاية العقد الخامس من العمر قوّياً رشيقاً، جيّد الصحة، رابط الجأش. وتحدث يداه القويتان عن رجل عمل بهما في حفر الرمل وحمل الصخور، يدان خبرتا فنون الصيد، واستخدام السلاح، و لم يتورع في استخدامها في أعماله الزراعية إذا دعت الحاجة إلى ذلك.[٢٦]

وننتهي في هذا الجانب إلى شهادة وردت في تقرير المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٦٢ قال فيها: «في تقديري أن زايداً أبرز شيخ في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية، يتمتع بنفوذ لم يصل إليه أي من الشيوخ الآخرين منذ وفاة جده زايد».[٢٧]

مجالس زايد وأحكامه وإدارته في العين

اتسمت مجالس زايد في العين بأنها مسرح للديموقراطية الحقة التي تعطي كل ذي حقّ حقّه في التعبير عما يريد، والظفر بما يريد. كان مجلس زايد في العين بيت الجميع، و لم يكن لصاحب البيت الحصيف إلا أن يعامل أسرته بالرحمة والبذل والعطاء والسماحة والإحسان، وكل ما يمكن له أن يعكس شخصية أب حكيم في تصريف شؤون أبنائه مباشرة بلا حجاب مادي أو معنوي.

يقول تسجر[٢٨] عندما رأى زايداً أول مرّة: «كان يجلس على الرمل تحت شجرة شوكّية أمام حصنه». ويضيف أنه ورفاقه حين نزلوا عن نياقهم على بعد ثلاثين ياردة

فقط من ذلك المجلس تقدموا مباشرة – وهم يحملون بندقياتهم وعصيّهم – إلى زايد للسلام عليه! ويضيف هذا الرحالة أن زايداً قد اعتاد أن «يبرز» إلى قومه في كل يوم بعد تناول الإفطار، ويجلس معهم على الأرض في ظل تلك الشجرة أمام الحصن، أو قد يجلس أحياناً في الممر المسقوف الذي يلي بوابة الحصن مباشرة. ويظل الشيخ جالساً حتى وقت الغداء وهو يستقبل الوافدين عليه دون انقطاع من البدو الذي يأتون من كل فجّ، ومن الرسل الذين قد يأتون من أبوظبي، ومن أهل منطقة العين ذاتها. وكان زايد ومجلسه يقفون كلما أهلّ عليهم وافد فيحيّونه بالسلام ثم يدعو زايد الجميع للجلوس. ويلتقي زايد في مجلسه الرواشد والعوامر والمناصير وبني ياس والعشائر الأخرى التي تفِد من أطراف السعودية وعمان. وتدور في المجلس الأحاديث مع أقداح القهوة وأطباق التمر.

وحين تبدلت الأمور وعرفت البلاد لتوّها نعمة الكهرباء والتكييف والتبريد فقد جاء على لسان موريس الوصف التالي [٢٩] عن مجلس زايد في العين (١٩٧٤م): «المجلس أو الملتقى الديموقراطي غرفة واسعة وضع أمامها بساط مبسوط، عليه قرابة مئة نعل من حذاء وصندل تخصّ الوافدين الذين سبقوني إلى القدوم. ويزدان جانبا الغرفة بثريات كهربائية مذهّبة بينما وضع عند مدخل الباب مصباح عربي ما يشير إلى تزاوج القديم بالجديد. وجلس في كل من جانبي الغرفة – على مقاعد خضر مريحة – نحو خمسين شخصاً، وكان نحو ثلاثين بدوياً من رجال البادية يحملون بندقياتهم بينما كان نحو عشرة آخرين إلى جانبهم وتحت أقدامهم عصي الخيزران. وكان أحد رجال القبائل يحتضن مدفعاً من طراز هوتسكتش. ويضيف موريس أن مجلس زايد كان المنتدى الذي يقصده الجميع، فهم جماعة من الإخوة يعالجون أمورهم، حتى الرسمية منها، بأسلوب غير رسمي. ويشير إلى أن اثنين من البدو اتسخت ثيابهما، وكانت تعلوهما غبرة من أثر السفر دخلا إلى المجلس واتجها نحو زايد بخطى ثابتة سريعة حتى شخصا أمامه فصافحهما. ويلاحظ موريس أن هناك فارقاً كبيراً بين خطو هؤلاء البدو الصحراويين الواثق، وبين الخطو المتردد لكثير من الموظفين المدنيين في ذلك المجلس».

ويحدثنا تسجر عن إجراءات التقاضي البسيطة في مجلس زايد الذي يفد إليه أيضاً آخرون للحصول على هدية فقط، وقد يلحوِّن في كثير من الأحيان بما يحضّ على مضاعفتها. [٣٠] يقول هذا الرحالة: قد يقوم أحد العرب فجأة من بين الجلوس، وينبري جالساً في مواجهة زايد مباشرة ثم يضرب الأرض بعصاه لاسترعاء الانتباه ويقطع حديث زايد مع محدثه ويسأله قائلاً: والآن يا زايد ما العمل بخصوص هذه النوق التي اغتصبت مني؟ ويتوقف الشيخ عن متابعة حديثه ليتابع شكوى الرجل. ويلاحظ تسجر أن أكثر القضايا كانت تتصل بسرقة الإبل، وأن المدعى عليهم غالباً ما يكونون في مجلس الشيخ؛ فقد كان زايد يستأنسهم ويحسن إليهم أيضاً. وتتعالى أصوات الخصوم يقاطع بعضها بعضاً والشيخ يصغي ويتابع غير ضَجِرٍ. ولم يكن الشيخ يعمد إلى الإضرار بأولئك الخارجين الذين كانوا يعملون وفق قانون البادية كما كان – في الوقت نفسه – حريصاً أيضاً ألا يخسر شهرته في إجراء العدل. وأخيراً يصدر الشيخ حكمه الذي كان يرضي الجانبين كليهما، ويحقق لهما العدل.

وفي اعتقادنا أن عدل زايد كان يتفق مع أحكام الشريعة، بالإضافة إلى أنه كان دائماً يصدر بعد استشارة كبار السن من العشيرة والجلساء. ويذكر تسجر قضيتين حكم فيهما زايد وهو في مجلسه في المويجعي: القضية الأولى تخصّ سيدة هربت من زوجها ولجأت إلى أهلها فجاء إخوانها إلى زايد يطلبون تطليقها، ورفض الزوج الطلب محتجّاً بأنه لن يطلقها إلا إذا أعادت إليه مهرها كاملاً. والتفت زايد إلى بعض جلسائه الكهول يسألهم الرأي، وأصدر بعد ذلك حكمه بتطليق المرأة على أن تعيد له نصف ما دفعه من مهر. وإذا رجعنا إلى فقه الأحكام في الشريعة الإسلامية لوجدنا مثل هذا الحكم في أحكام النشوز، والثانية تخصّ امرأة أغواها أحد الخدم؛ فقام أحد إخوتها بقتلها. وحكم زايد في هذه القضية بجلد الرجل الذي أغواها [٣١] وهنا أيضاً نجد أن القياس مع فقه أحكام الزنا متوافق تماماً؛ فالزانية المحصنة ترجم حتى الموت، أما الفتى غير المحصن فيجلد ثمانين جلدة. ولربما نتجاوز هنا عن أن القتل كان على يد الوالي، فتلك أعراف البادية فالحاكم في المجتمعات المدنية عليه أن يتولىٰ عن الرعية إصدار الأحكام وتنفيذها.

ويمكن أن نذكر قضية أخرى وردت عند أنطوني شبرد[٣٢] الذي كان مسؤولاً عن كشافة عمان في العين، فحواها أن ثلاثة إخوة قاموا بقتل شيخ أخذاً بثأر والدهم الذي كان هذا الشيخ قد قتله قبل مدّة. وفرّ هؤلاء الفتيان الثلاثة في اتجاه البريمي حيث تتداخل حدود أبوظبي مع السعودية وعمان. وأرسلت قاعدة الشارقة إشارة لاسلكية سريعة إلى النقيب أنطوني شبرد تطلب إليه تعقب الجناة وإلقاء القبض عليهم. وانطلق شبرد مع رجاله في سيارتي لاندروفر يبحثون عن زايد الذي كان في رحلة صحراوية؛ فقد كان من التعليمات الثابتة لرجال هذه القوّة ألا يتصرفوا في شؤون البادية أو يتعقبوا البدو إلا بعد استئذان الشيخ.

ويروي شبرد أن زايداً استقبله بلطف جمّ، واستمع إليه، وعرف أبعاد القضية والأمر الصادر لشبرد باعتقال أولئك الفتية. ولم يجادل زايد ذلك النقيب، إنما راح يغمره بكرمه، ويشبعه قهوة وتمراً، ويؤانسه بلطف شديد. «فلم يكن الرجل فظا». وأخذ زايد يقصّ على النقيب بعض ذكرياته عن القنص، ويبدي ملاحظاته عن تحسن اللغة العربية لدى النقيب، ويلقي عليه عدة أسئلة عن لندن وباريس وطبيعة الحياة هناك. وظل زايد مع النقيب ساعات طويلة يحادثه حديثاً هادئاً، ثم استأذن بعد ذلك للانصراف ليأوي إلى خيمته، فقد أزف وقت النوم. وبهذا مكّن زايد للإخوة الثلاثة الذين لم يرتكبوا وفق قانون البادية وغياب المؤسسات المدنية إلا ما يحفظ شرف العائلة. ولا بد لنا هنا أن ننوّه بالحكمة إذ لم يعمد زايد مباشرة إلى رفض طلب ذلك النقيب الذي تقتضي الأوامر الصادرة له ضبط أولئك الرجال وتوقيفهم، وعليه في الوقت ذاته أن يحمي الذين أخذوا بثأر أبيهم ولم يرتكبوا وفق قوانين البادية غرماً؛ فهم أولياء الدم. ولربما فسرت هذه العوامل المتعارضة التي كان على زايد أن يتصّدى لها جانباً من شخصية الرجل التي يقول شبرد عنها إنها التي تجمع بين المرح والسخرية.

يشهد مارتن بكماستر[٣٣] – المسؤول السياسي البريطاني في أبوظبي الذي رافق زايداً مدة شهرين كاملين في رحلة في مناطق الحدود – له بتحقيق العدل. قال هذا المسؤول: إن الشيخ زايداً الذي يمتاز ببساطة سلوكه، يمارس العدل ويحققه؛ فهو رجل رابط الجأش، يتمتع بشخصية متوازنة. ويستشهد بكماستر بما ورد عند لورنس، ت

أي، في «أعمدة الحكمة السبعة» من ميزات شيوخ العرب.بما تترجمه شخصية زايد في الواقع. ينقل بكماستر عن لورنس عدم وجود فوارق طبيعية أو تقليدية تميز العربي عن الآخر عدا تلك القوة اللاشعورية التي يمتاز بها شيخ شهير بفضل إنجازاته. فالرجل لن يكون زعيماً للعرب، ما لم يأكل مما يأكلون، ويلبس مما يلبسون، ويقاسمهم ضروب حياتهم رغم أنه أفضل منهم في ذاته وشخصيته. ويضيف بكماستر متحدثاً عن ذكرياته في تلك الرحلة التي جمعته مع زايد في قافلة تضمّ خمسة وستين رجلاً على إبلهم بالإضافة إلى مئة وعشرين بعيراً أخرى كانت تحمل متاعهم فيقول: إن القرى التي كانوا يغشونها كانت تظهر ابتهاجاً وترحيباً بالركب بالاحتفالات التي تنحر فيها الذبائح. وقد أرست تلك الاحتفالات في ذهن ذلك المسؤول البريطاني مدى الاحترام الذي كانوا يكنّونه للشيخ زايد وأكدت له أنه كان يتمتع بشعبية كبيرة حيثما حلّ، رغم أن الوقت كان دقيقاً، والمهمة كانت حساسة لاتصالها بالنزاع على الحدود. ويصف مارتن سلوك زايد مع القبائل وشيوخها ويقول: إنها تنّم على الاتزان الدبلوماسي الذي كان زايد يمارسه حتى مع المنافسين له الذين كانوا يقفون على الجانب الآخر. لم يعتر زايداً – فيما يقول بكماستر –ذلك المرض الذي يعتري بعض المفاوضين الذين يتظاهرون بغير ما هم عليه؛ فيقولون – كذباً – ما لا يستطيعون تحقيقه، ويعبّرون عن أعمال وتوقعات لا يستطيعون تحقيقها. نأى الشيخ زايد بنفسه عن إثارة الأحقاد، وزرع الأوهام؛ فحصد المصداقية والود والاحترام من سائر الذين التقاهم من موالين وغيرهم[٣٤].

لم تقتصر مجالس زايد وتحرّيه عن أحوال مواطنيه على رحلاته الرسمية «وبروزه» أمام قلعته لكل من يسعى إليه فقط؛ فقد كان في رحلات قنصه يتفقد أحوال مواطنيه ويلبي حاجاتهم. وكان أكثر ما يكون كرماً وعطاءً حال صفوه وهو يمارس هوايته المفضلة. على الرغم من أن كرم زايد كان سليقة جُبِل عليها إلا أن الكرم كان في حياة الصحراء منظومة إدارية سوشيوسياسية لا يعلى عليها. وكانت المناسبات السعيدة لآل نهيان – خاصة حفلات الزواج – مناسبة يفيض فيها كرم زايد ليشملَ قرى العين والقرى المجاورة لها، فتوثّق تلك المناسبات من رباط الولاء والألفة.

يشير أحد التقارير إلى أن حفلات زواج روضة بنت الشيخ شخبوط في ١٥ أغسطس ١٩٥٨م بمحمد، ابن أخيه خالد، قد استمرت في العين أسبوعاً نحر فيها أحد عشر رأساً من الإبل، كما ذبح فيها مئة وثلاثون رأساً من الغنم. وقد كانت المناسبة فرصة للشيخ زايد ليجمع فيها كثيراً من شيوخ القبائل وذوي النفوذ فأرسل سيارته إلى البريمي وإلى قرى أخرى في عمان لتعود بالمدعوين. وعلى الرغم من أن الشيخ شخبوط كان في العين بهذه المناسبة إلا أن الشيخ زايداً هو الذي استثمرها إدارياً وسياسياً [٣٥]. أما حفلة زفاف سلامة بنت الشيخ زايد إلى سعيد بن الشيخ شخبوط الذي تمّ في العين، والذي جاء خبره في تقرير للوكيل البريطاني في أبوظبي بتاريخ ٦ يوليو ١٩٦٣/ ١٣ صفر ١٣٨٣هـ [٣٦] فقد كانت مناسبة جمع فيها زايد الشيوخ وذوي النفوذ والوجهاء، إضافة إلى البدو وجموع المهنئين من كافة الطبقات الاجتماعية. وقد أدهشت الاحتفالات ومظاهر البهجة الأخرى من سباقات الخيول والهجن ذلك الوكيل البريطاني الذي كتب في تقريره بأنه تعبير عن بهجة الراقصين ببندقياتهم التي ضمت كل طراز من قديم وحديث، واستهلكت من البارود ما يكفي كسب معركة غير صغيرة. ولم يفسد تلك الاحتفالات جزئياً إلا تلك الحادثة التي وقعت، عندما قذف أحد المحتفلين بندقيته الحديثة الطراز في الهواء ثم تلقفها فلمس إصبعه زنادها من غير قصد؛ فانطلقت الطلقات منها لتصيب رجلاً وامرأتين بإصابات شديدة. ويحكي لنا هذا التقرير عن «حمى الابتهاج والفرح» التي تملكت الجميع الذين توافدوا إلى العين من كل فجّ، فازدحمت بهم طرقاتها كما لم تزدحم قبلئذ. «ومن الصعوبة أن نعطي تقديراً دقيقاً لأعداد الضيوف الذين يقدرون بالآلاف». ويذهب هذا التقرير إلى أن كل شيوخ الساحل المهادن قد أوفدوا مندوبين عنهم إلى العين للتهنئة. وهكذا يتضح لنا أن زايداً كان يستثمر مثل هذه المناسبات الاجتماعية في الإحسان إلى الفقراء بكرمه الذي يعدّ عنصراً لازماً لكل شيخ يريد أن يدير البدو بسلاسة ويمتلك مشاعرهم، كما كان يوظّف هذه المناسبات أيضاً لاستضافة الشيوخ والبارزين للتداول فيما يخصّ شؤون السياسة والإدارة بشكل غير رسمي، وفي جوٍّ ودّي.

جانب من احتفالات العين

ولم يفت زايداً أن يستغل مثل هذه المناسبات دبلوماسياً؛ فقد يدعو إلى مثل هذه المناسبة من الشيوخ الذين هم خارج دائرة سيطرة مشيخة أبوظبي وخارج نطاق المشيخات المتصالحة أيضاً. وتزيد بمثل هذه الاجتماعات غير الرسمية وسباقات الخيل والهجن الملازمة لها، والرقصات الشعبية، وحفاوة الكرم - مشاعر الصداقة. وقد قضى الوكيل البريطاني في أبوظبي الفترة من ٣ إلى ٥ يوليو في ضيافة زايد في العين لحضور هذه المناسبة. وعقد زايد جلسة عمل رسمية مع هذا الوكيل على هامش تلك الاحتفالات[٣٧].

ولعلنا نلاحظ هنا أن زايداً كان كثيراً ما ينجز أعماله الرسمية بشكل غير رسمي؛ فتراه يناقش شؤون الإدارة والحكم مع الشيوخ الناجزين وغيرهم في مثل هذه المناسبات، وفي رحلات القنص التي كان الشيخ محمد بن خليفة يرافقه فيها دائماً. ولم تقتصر «غير الرسميات» على إخوانه من شيوخ العرب وغيرهم الذين يناقشون أمورهم ويسوونها على الموائد في جوّ من الود والصفاء، إنما امتدت لتشمل بعض المسؤولين البريطانيين الذين كان زايد كثيراً ما يدعوهم أيضاً لمرافقته في رحلات قنصه[٣٨]. ويستغل زايد ما تهيئه له الرحلة من فسحة في الوقت ومن أجواء الصداقة، ليناقش فيما يريد ويفاوض بشكل غير رسمي في أمور رسمية بحتة، وعادة يظفر بما يريد.

إدارة الأزمات

لم تقتصر إدارة حكم زايد على العين وقراها والمنطقة الشرقية من المشيخة ومعالجة شؤونها فقط إنما امتدّت لمعالجة كثير من مناحي القصور في إدارة حكم المشيخة كلها. كان زايد ناصحاً أمينا ومستشاراً صادق الرأي لأخيه شخبوط، ولكن ربما كانت أساليبه الإدارية والسياسية لا تطابق أساليب أخيه. كان زايد يؤمن بالرفق في التعامل مع الوحدات السياسية المجاورة لمشيخته، والعمل على نبذ الفرقة، وتخطي أسباب الخلاف وصولاً إلى التعاضد والتعاون مع محيطه[٣٩]. وفي هذا المجال نشير إلى دوره في معالجة الخلافات التي ضربت أبوظبي ودبي في الفترة من عام ١٩٤٥-١٩٤٨م. راح زايد مع أخيه هزّاع يفاوضان عن أخيهما شخبوط - حاكم أبوظبي - صديقهما حاكم دبي من آل مكتوم الذين يرتبطون دماً، ويتصلون عشيرة وأهلاً مع حكام

مشيخة أبوظبي. وقد انتهت تلك المفاوضات بعقد صلح وقّعه زايد وهزّاع في ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٢٦/ ٣ مايو ١٩٤٨م نيابة عن أخيهما شيخ أبوظبي، شهد عليه أحمد بن راشد، شيخ أم القيوين. وقد عولجت في هذا الاتفاق المسألة الأساسية في تلك الخلافات بينما ظلت العلاقات متوترة هوناً ما بين الشيخين في أبوظبي ودبي فترة تالية. وقد تبدلت تلك الجفوة إلى صفاء وتعاضد في عام ١٩٥٢م بوساطة زايد بين الشيخين المذكورين حينما كان في رحلة علاج في مستشفى دبي استثمرها أيضاً في علاج الوضع المتأزم بين المشيختين[٤٠].

ولا يتسع موضوعنا تفصيلاً للنظر في مسائل الحدود بين المشيخات المختلفة أو بين أبوظبي وبين جاراتها: السعودية، وعمان، وقطر، ولكننا حكماً – بما تثبته الوثائق البريطانية – نجد شخص زايد دائماً وأبداً وراء تلك الأحداث. ولم يكن زايد يعالج مسائل الحدود بعقلية السياسي النهم الذي يسعى كي يمدّ في حدود أرضه ودوائر نفوذه، إنما كان في معالجته أكثر ميلاً إلى التسويات التي تحفظ لكل ذي حقّ حقه، وتحافظ على علاقات الصفاء والأخوّة والاحترام. ولعلنا حين نورد بعض رسائله للشيوخ المجاورين، المحفوظة في دور السجلات، نثبت أن زايداً كان – بحكم معرفته بالبادية وعشائرها – مفتاحاً لكثير مما استغلق في التسويات الحساسة التي عمل الرجل على تجاوز حساسيتها بالتزامه حدود حقوق الآخرين. ولعل اللغة التي صاغ بها زايد رسائله إلى الآخرين من الشيوخ من منافسيه وغيرهم تكشف عن جانب من شخصية هذا الشيخ الذي كان يكنّ وداً خالصاً للجميع، ويخلص الاحترام لنظرائه والآخرين، ولا يخاطبهم إلا بالقول اللّين الواضح المبين، كما تكشف أيضاً أنه كان المسؤول الأول والأساسي عن تحديد الحدود البرّية لمشيخة أبوظبي، وكان دوره في هذا الصدد أكبر من دور أخيه الحاكم المعترف به من أسرته ومن الآخرين. وكان الشيخ زايد في هذا المجال العضد الأول لأخيه، والسند الذي يعتمد عليه في جلائل الأعمال. وقد تمكن زايد من التعامل مع مشكلات الحدود التي كانت مستفحلة في حينها بكل سهولة ويسر؛ فقد كان شيوخ المنطقة كافتهم يدركون أن في شخصية الرجل من الحكمة والكرم، ونكران الذات، ما يؤهله لكي يكون حكماً عدلاً لا ينحاز إلا إلى

الحق الذي يتجاوزه أحياناً في غير ما تفريط، سماحة وإيثاراً من عنده، وخدمة لمصالح الآخرين من جيرانه الأقربين، واسترضاءً لهم وإدراكاً منه لوحدة الهدف والمصير.

نبدأ برسالة أرسلها زايد في الأول من ذي الحجة ١٣٧٨هـ لنتبين أسلوبه في المخاطبة والتفاوض: «إلى حضرة الأخ العزيز الأكرم الأفخم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي المحترم. حاكم الشارقة سلمه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام والسؤال عن صحتكم ونحن لله الحمد طيبين. كتابك الشريف وصل وتلقيناه مسرورين بلخصوص عن ما ذكرت لنا من جهة الحدود والديار بأنها واحدة ولا بيننا وبينكم تجويز. اعلم سلمك الله بأننا وأياك مثل ما تحسب أخوان إلا أن الدولة قد طلبت منا العام الماضي أن نعين الحدود فيما بيننا وبين بني كعب واتفقنا مع بني كعب من العقيدات جنوب وغرب للشمال ثم على الفاو والفقع إلى النخره. وإذا جنابك لا توافق على ذلك فنحن مستعدين أن نتنازل على الذي يرضيك ويناسب لك وباقي الجواب بلسان رسولك محمد بن علي السحيبي وهذا ما لزم والسلام مع كل لازم شرفونا»[٤١].

لا نشك من جانبنا أبداً أن هذه الروح الأخوية التي عبّر عنها زايد في خطابه لترسيم الحدود الموجه لأخيه صقر الذي كان مثله مثل زايد يرى أن الديار واحدة – كانت من تباشير فجر تكوين دولة الإمارات العربية المتحدة التي كانت في هذه الفترة – كما سنلمح لاحقاً – من أولويات المشروعات التي راحت تختمر في ذهن زايد، وراوده الأمل في تحقيقها.

ويمكن أيضاً أن ننقل ديباجة ترسيم الحدود التي وقعها السلطان سعيد بن تيمور في ٤ ذي القعدة ١٣٧٨هـ/ ١٢ مايو ١٩٥٩م ثمّ الشيخ شخبوط بن سلطان في ١٣ ذي القعدة ١٣٧٨هـ لنعرف الدور الذي قام به زايد في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الجوار. تقول الديباجة بعد البسملة[٤٢]: «لقد اتفقنا السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان والشيخ شخبوط بن سلطان الفلاحي حاكم أبوظبي وتوابعها بشأن حدود قبائل السلطنة (وهم بني كعب والنعيم والبو شامس) وأبوظبي كما يلي وحسب المكاتيب التي تبودلت بين الشيخ زايد بن سلطان الفلاحي ومشايخ قبائل

السلطنة المذكورين ...» ولعل في هذه الديباجة ما يؤكد أن كافة الخطوات الإجرائية لترسيم الحدود والتي سبقت هذه المعاهدة كانت من إعداد زايد.

أما الرسائل التي تبودلت بين الشيخ زايد التي أشار إليها هذا الاتفاق والمحفوظة في دور الوثائق البريطانية فهي كثيرة، نورد بعضها للكشف عن عمق معرفة زايد حينما كان ممثلاً للحاكم في العين، وعن خبرته في شؤون البوادي المجاورة، وعن النفوذ الذي كان يتمتع به حتى في أوساط القبائل التي لا تقع ضمن دائرة نفوذه المباشر.

يقول زايد في خطابه المؤرخ في ٢٨ رمضان للشيخ محمد بن سالمين بن رحمه بعد البسملة [٤٣]: «من زايد بن سلطان إلى حضرة الأفخم الأكرم الشيخ محمد بن سالمين بن رحمه المحترم. بعد التحية والاحترام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام أما بعد كتابك الشريف بيد مستر واكر إلينا وصل وفهمنا مضمونه بخصوص فيما سئلتنا جنابك عنه وهيا الحدود الذي يستمون عليها أهل بو شامس وفهمنا ذلك على أثر كتابكم ونحن من جهتنا موافقين وحررنا هذا الكتاب لكم ليصير لديكم معلوم على موافقتنا وهيا بما يلزم والسلام بلغ سلامنا كافة أولادك الكرام ومن لديك عزيز. جرا في ٢٨ رمضان ١٣٧٨هـ».

ويجري خطاب زايد بتاريخ ١٧ رمضان إلى «حضرة المكرم المحب العزيز الشيخ أحمد الصلف المحترم سلمه الله. بعد التحية والاحترام لازلتم مسرورين كما أننا منه الحمد كما تحبون كتابك الشريف إلينا وصل وما ذكرت صار لدينا معلوم بلخصوص فيما سئلناك عنه من جهة الحدود الذي بيننا وبينكم. أما من جهتنا فنحن وافقنا على موجب كتابكم وهوه كما يلي بأن الحد الفاصل بيننا وبينكم وادي مريخات الذي شمالي قرون الغروف. هذا ما لزم بيانه» [٤٤].

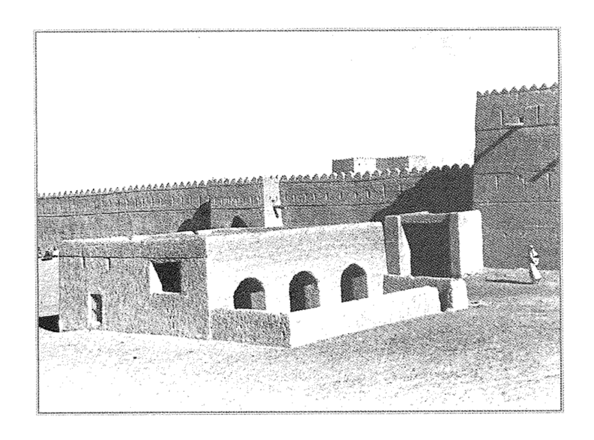
ونختم هذه المراسلات التي جرى بها الاتفاق على تحديد ديار القبائل المختلفة لترتيب مسألة الحدود التي كان قد غدت في هذه الفترة شائكة بالاستثمارات البترولية – بخطاب أرسله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في ٢٩ رمضان ١٣٧٨هـ/ ٨ أبريل ١٩٥٩م إلى «حضرة المكرم العزيز الشيخ عبد الله بن سالم الكعبي المحترم سلمه الله

بعد التحية والاحترام لازلتم مسرورين كما أننا لله الحمد كما تحبون كتابكم الشريف ايلينا وصل وما ذكرت صار معلوم بلخصوص عن نبواكم لنا فيما سئلناكم عنه من الحدود التي تخصكم. اعلم أننا قد وافقنا على موجب ما اعلنتوه لنا من الحدود في كتابكم المترخ ١٩ رمضان ١٣٧٨ وموافقتنا هاذي لم يتغير إلا إذا لا سمح الله كان من جانبكم أي تغير في تلكا الخطة والمحلات المسماية في كتابكم في ذلك فنحن من حال التاريخ لا يحق لنا أن ننكر موافقتنا أبداً علاوة على ذلك سئلتنا في كتابك عن حدودنا الشرقية الجنوبية فهيه كما يلي من النبعه شرق على العوينه ومن العوينه شرق جنوب على خطم السواد جنوب إلى العوير ومن العوير جنوب على جبل المثمومة ومن الشرق جنوب على ثقاب صاع ومن ثقاب صاع جنوب إلى وادي المريخات الذي شمال قرون الغروف هذا وين تنتهي حدودنا من الجنوب من الشرق هذا والباري يحفظكم والسلام».[٤٥]

تكشف هذه الرسائل جميعاً أن زايداً كان يدير الأزمات بنفس تلك الأساليب غير الرسمية التي كان يتعامل بها في الشؤون الإدارية. وبدأ وكأنه الأب الحادب الذي يرعى مصلحة الجميع، أو الأخ المتسامح الذي يتغاضى عن الهفوات؛ فظفر باحترام الجميع، وما عادوا يرفضون له حكماً.

لم تقتصر الأزمات التي استحدثتها بداية الاستثمارات البترولية في المنطقة الداخلية من المشيخة التي كان زايد يتولى شؤونها ممثلاً لأخيه شخبوط على ترسيم الحدود فقط؛ فقد استخدمت السلطات البريطانية في هذه المنطقة فرقة كشافة ساحل عمان التي كانت رئاستها في حصن الجاهلي الذي توصفه المصادر البريطانية بأنه يشبه قلعة رملية في قلب تلك الواحة تكاد تجرفها المياه إذا أمطرت السماء[٤٦]. وكان أكثر من نصف الجنود من رعايا زايد، فانتقلت بذلك السلطة القضائية على هؤلاء الأفراد إلى رئاسة الحامية بحكم عملهم جنوداً فيها. كما كانت السلطة القضائية على كافة العرب الوافدين والأجانب الآخرين تعود –بموجب موافقة حكومة مشيخة أبوظبي في ١ شعبان ١٣٦٤/ ١٠ يوليو ١٩٤٥ – إلى البريطانيين دون الشيخ الحاكم. وأخذ الشيخ شخبوط مع بداية الاستثمارات النفطية التي مهدت لمجيء وافدين من عرب وغيرهم

قلعة المويجعي من موائل زايد في العين، في الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٦م



يقاوم هذا الأمر الذي ارتضاه سابقاً في فترة لم يكن له تأثير مباشر في إدارته مشيخته التي ما كانت تعرف من الأجانب إلا أفراداً معدودين. وبينما أخذ الشيخ شخبوط يقاوم هذا الأمر بعناد حقيقي أخذ الشيخ زايد يقاومه بإصرار ثابت يقوم على الحجّة والمنطق. احتجّ زايد بأنه إذا كان وجود الأجانب من غير أهل المنطقة يعود بمصلحة مشتركة لمشيخة أبوظبي وللاستثمارات البريطانية فيها فإن سلب الشيخ حقّه القضائي يضعف سلطته ويذهب بهيبته، وتضار بذلك المصلحة المشتركة. وأخيراً أثمرت حجج زايد وعقلانيته التي عاضدها عناد شخبوط؛ إذ نقل جانب من السلطة القضائية إلى حكومة أبوظبي وذلك بموجب خطاب المقيم البريطاني في الخليج في ٢٢ أبريل ١٩٦٠م/ ٢٥ شوال ١٣٧٩هـ. أفاد ذلك الخطاب [٤٧] بنقل السلطة القضائية على عرب السعودية، والعراق والأردن ومصر ولبنان واليمن ومسقط وعمان وليبيا ومراكش وتونس والسودان وفلسطين ومشيخات الخليج الأخرى، وكذلك السلطة القضائية على الإيرانيين والأفغانيين والإندونيسيين إلى حكومة أبوظبي، كما أقرّ هذا الخطاب قيام محاكم مشتركة للنظر في القضايا الجنائية والمدنية التي يكون فيها أحد الخصوم من الرعايا البريطانيين.

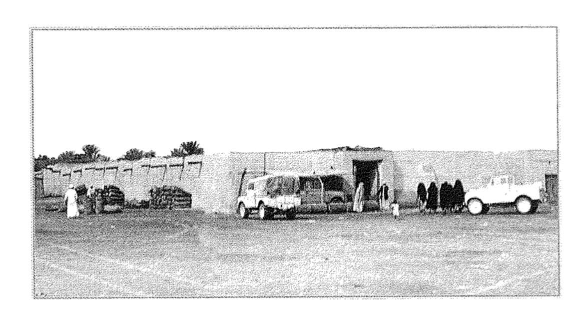
لا يمكن في هذه العجالة أن نحصي الأعباء القاسية التي كان زايد في العين يضطلع بها نيابة عن أخيه الحاكم في أبوظبي، والتي مكّنت لحل المشكلات الطارئة التي كان حلها ضرورياً لمواجهة المتغيرات التي أخذت المنطقة تستشرف غمارها. فبينما راح الشيخ شخبوط، الحاكم المسؤول، يقف كالصخرة ضد تيار إرادة التغيير التي باتت باستثمار البترول حتمية وذلك لخشيته أن يجرف التيار رعاياه في غماره، أخذ زايد يتعامل مع تلك الإرادة بواقعية، ويديرها بحنكة ربان ماهر ليصل بشعبه من خلال تيارها المتسارع إلى ما يصبو إليه من رفعة ورفاهية؛ فقد كان لزايد روح بدوية أصيلة تطوّع التحضر؛ تنتقي إيجابياته بحصافة، وتنفي سلبياته بعزم لا ينثني، فالبادية هي أصل العرب الذين استهدت الإنسانية بحضارتهم زمناً طويلاً، والإسلام لا يعارض التطوّر، وكما قال زايد لكلود موريس، «لن تجد في القرآن ما يتعارضُ مع التقدم العلمي أو يعترض عليه» [٤٨].

لن نسعى في هذا المجال إلى تفصيل أو تحليل بل نذهب مباشرة إلى التأصيل فنروي قدراً ضئيلاً مما أورده شهود عيان بريطانيون عاشوا في المنطقة أو زاروها، وكتبوا عن انطباعاتهم أو أثبتوها في تقارير رسمية.

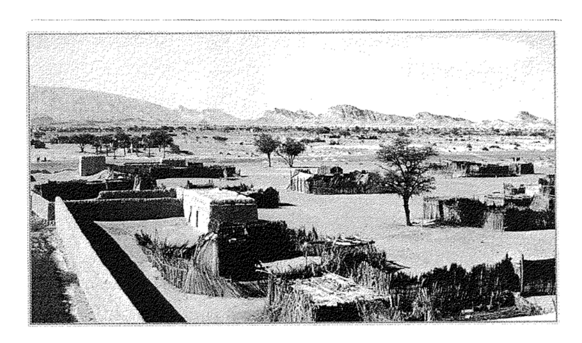
يقول أحد هذه التقارير [٤٩] بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩٥٨م/ ١٨ صفر ١٣٧٨هـ: إن أهم تطوّر شهده القطاع التابع لمشيخة أبوظبي في الداخل هو افتتاح سوق العين في بداية ذلك الصيف، والذي تولى الشيخ زايد – من حرّ ماله– القيام بكافة تكاليفه التي بلغت أكثر من «لك» روبية (١٠٠,٠٠٠ روبية). ويشير هذا التقرير أيضاً إلى أن زايداً لم يعمد – رغم حاجته الماسّة إلى المال للإنفاق على مشاريع أخرى – إلى تأجير المحلات التجارية في هذا السوق بل أناطها بالتجار دون دفع أي إيجار. ويتابع التقرير ليقرر أن هذا السوق قد جذب عدداً من التجار من خارج نطاق السيادة الإقليمية لمشيخة أبوظبي؛ فقد جاء بعض هؤلاء التجار من قرى عمان المختلفة، ووفد بعضهم من الشارقة ودبي، وانتظم هؤلاء جميعهم مع تجار العين من مواطنيها، وراجت تجارة البلدة لذلك. ويذهب التقرير إلى أن تنوّع السلع في هذا السوق جعلته قبلة للمشترين؛ فالسلع الموجودة فيه، في تنوّعها ووفرتها، تبذّ الموجودة منها في سوق أبوظبي. ويقول هذا التقرير أيضاً: إن هذه السوق انتزعت الأهمية التجارية التي كانت تتمتع بها سلفاً أسواق البريمي، وحماسا في المنطقة.

ويورد التقرير أن عدد المحلات التجارية التي بناها زايد بلغت خمسة وعشرين «دكاناً» ينتظم بعضها جوار بعضٍ في صفّين متقابلين يفصل بينهما شارع مسقوف يقي المتعاملين في السوق حرّ الهجير. ويضيف هذا التقرير الذي أعدّه الوكيل السياسي في أبوظبي، أن زايداً عمل على ترميم سوق القطارة أيضاً وزاد في امتداده، وأن مواطني القطارة والجيمي والهيلي الذين كانوا سابقاً يتعاملون مع أسواق القطاع المسقطي أصبحوا يعتمدون على سوق القطارة الذي تتوافر فيه كافة السلع التي يحتاجون إليها.

سوق العين بناه زايد وأهداه للتجار



منازل العين (١٩٦٠) ويبدو جبل حفيت في حدود العمران



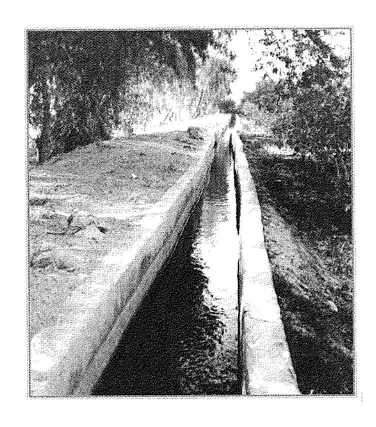
ويقول هذا التقرير: إن هناك مشروعاً آخر جعل الناس في المنطقة يلهجون بشكر زايد، وارتفعت شهرته وسمت مكانته بأكثر مما كانت عليه؛ فقد أمر زايد بحفر (ثقاب) ثقوب جديدة بالقرب من منبع فلج العين وصلت إلى طبقة جديدة للمياه الجوفية أبعد غوراً من سابقتها. وأوصلت هذه الامتدادات بالمجرى الرئيسي للفلج القديم. وكان من من نتائج ذلك أن زاد تدفّق المياه بمقدار الثلث عما كان عليه حالها سابقاً. وقلّصت هذه الزيادة في المياه دورة الري لحدائق العين من ستين يوماً إلى ستة وثلاثين يوماً. وازدهرت بعد ذلك أشجار النخيل، واخضرّت أشجار المانجو والفاكهة وأيْنعت فطرحت ثمارها وكثرت الخضراوات. ويضيف هذا التقرير أيضاً أن زايداً عمل كذلك على تنظيف فلج المعترض وإعادة ترميمه، وقام بأعمال صيانته أدّت زيادة ملحوظة إلى مياهه.



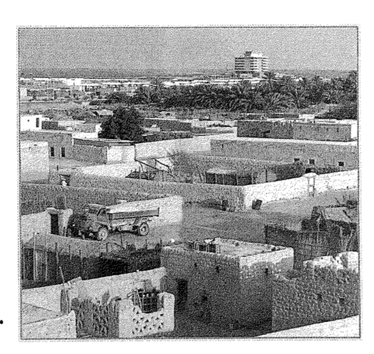
مدرسة في العين أنشأها زايد

وجاء في هذا التقرير ذاته أن زايداً كان قد افتتح في ٢٤ أبريل ١٩٥٧م/ ٢٤ رمضان ١٣٧٦هـ مدرسة بالعين. ويختتم التقرير بأن حجم التجارة والاستثمارات قد أخذ يتنامى في العين ما أورث شيوخ آل نهيان – وزايداً خاصة – تقديراً شعبياً، زاد عما كان عليه سابقاً.

وهناك أيضاً ما كتبه بويستيد – أحد الممثلين البريطانيين في أبوظبي– في كتابه: «رياح الصباح»[٥٠]، والذي جاء فيه أن زايداً قد وضع خطّة زراعية، واستدعى خبيراً باكستانياً مقتدراً ليقوم بهذا العمل، ودفع له من حسابه الخاص. ويضيف هذا المصدر على لسان كاتبه: «لقد دهشت وأنا أتابع إنجازات زايد في بلدته العين وفي المناطق المجاورة لها، والتي كانت تصبّ كلها في مصلحة شعبه. لقد شقّ زايد الأفلاج، وفجّر الينابيع، وحفر الآبار لترتوي البساتين، كما أقام أحواضاً من الأسمنت في الأفلاج ليستحم فيها الرجال والنساء.. إن كل من يزور منطقة البريمي سيلحظ السعادة بادية على وجوه أهل المنطقة».



اهتم زايد بالأفلاج ومصادر
المياه في منطقة العين



مدينة العين في بداية الستينيات

ونوجز القول: إن البنك في العين أخذ في ذلك الوقت يفلس تماماً؛ فقد أنهكت مشاريع زايد التنموية في العين كل اعتماداته. ولما كان البنك لا يستطيع أن يرفض طلبات الشيخ لسدّ كافة تلك النفقات الاجتماعية فقد اشتكت رئاسته إلى الوكيل البريطاني مما تعانيه، وطلبت منه أن يحلّ هذا الإشكال.

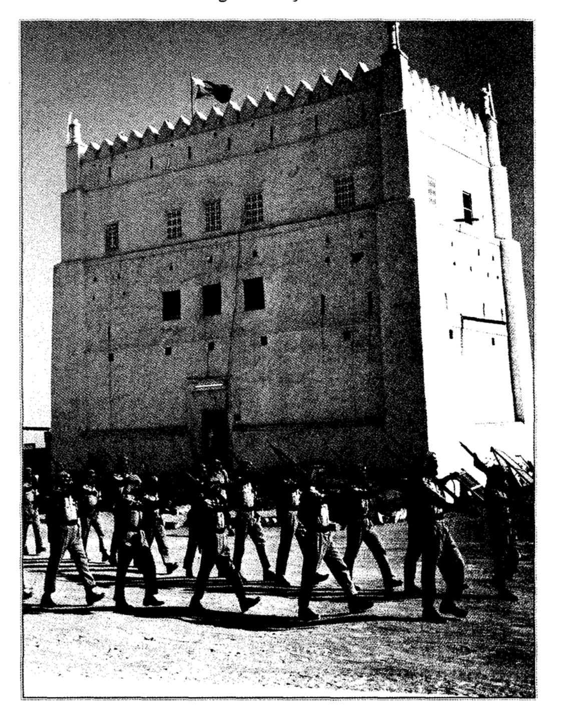
وقد صادفت كل مشاريع التنمية التي قام بها زايد بما في ذلك بناء قلعة المربعة لتأكيد الأمن في المنطقة – حينما كان حاكماً للعين ممثلاً لأخيه – حظّها من الرواج والنماء، ووجدت قبولاً زاد في ألق شخصيته. غير أن جهوده في مجال التعليم وفتح المدارس لم تصادف حظّاً من القبول ولا الرّواج؛ فقد انتظم في المدرسة الأولى التي افتتحها عدد من الطلاب سرعان ما هجروها إذ وجد آباؤهم أن العائد المباشر للمردود النفعي المباشر يمكن أن يكون أكثر إذا عمل أبناؤهم في الرعي أو الزراعة أو التجارة أو في مجالات الأعمال الأخرى؛ لذا فإن جهود زايد في فتح مدرسة ثانية لقيت ما وجدته جهوده الأولى في هذا المجال.

و لم تكن هذه المشروعات التنموية التي راح الشيخ زايد يبتدعها في العين تلاقي الترحيب من الشيخ شخبوط في أبوظبي، ولا تظفر منه بالدعم المالي اللازم. وجاء في أحد التقارير الصادرة عن الوكالة السياسية في أبوظبي بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٦٢م أن شخبوط قد وبّخ أخاه زايد واتهمه بأنه يتلف الأموال في العين على بناء الأسواق، وشراء الأسمدة للمزارعين، وقيام المشروعات الزراعية وما إلى ذلك مما لا عائد وراءه. وكان ردّ زايد على ذلك أن طلب إلى أخيه أن يأتيه ولو بشاهد واحد على أن أعماله في العين لم تعد بفوائد مباشرة على المواطن.[٥١]

زايد من العين إلى القلب

في السادس من أغسطس ١٩٦٦ انتقل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من موقعه ممثلاً للحاكم في مدينة العين إلى أبوظبي، قلب الإمارة ليتولى قيادتها. وكان هذا الانتقال ضرورياً ومنطقياً أيضاً. وقد يجد البعض حرجاً في مناقشة هذا الموضوع الذي

قلعة المربعة.. العين



نراه مهمّاً؛ لأنه أعاد صياغة التاريخ في هذه المنطقة كلها. فمن المنطقي أن كل المؤسسات والقوانين والأشخاص وكافة المرتكزات الأساسية تصبح غير ضرورية وغير عقلانية إذا عجزت عن مواكبة المتطلبات الإنسانية للفترة التاريخية التي يعيشها المجتمع، ولا يمكن لها أن تعيش إذا عجزت عن التناغم مع حاجاته. ولابد للعبقرية القائمة في روح الأمة التي تعمل بواسطة الأفراد أن تتدخل لتعمل على تشكيل التاريخ وصياغته. ويمكن النظر إلى أمر التغيير الذي حدث في المشيخة على ضوء نظرية هيجل في نفي النفي؛ فالتمرة في نهاية الأمر نفي للزهرة التي هي نفي للنخلة التي تمثل بدورها نفياً للنواة. فكل مرحلة، وإن لم تكن تمثل الشيء ذاته، كانت تطوراً منطقياً للسابقة لها.

لا تكشف الوثائق البريطانية عن أية جوانب سلبية في شخصية الشيخ شخبوط الذي حكم مشيخة أبوظبي ثمانية وثلاثين سنة متصلة نعمت فيها بالأمن والاستقرار. ولا يرجع هذا الأمر إلى صلابته في الحقّ وحبّه لعشائره فقط إنما يعود أيضاً إلى الدعم الذي وجده من إخوته وأفراد أسرته في تسيير شؤون البلاد. يقول تقرير للمقيم البريطاني في ١٧ أبريل ١٩٦٢م: إن الشيخ شخبوط ظل في الأربع والثلاثين سنة الماضية حاكماً يتمتع بالقدرة والكفاءة في التعامل مع مجتمع بدائي صغير، ولكنه أصبح الآن (مع بداية استثمار البترول وتدفق الأموال) في وضع مغاير تماماً. وضع جديد يحمل في طياته فرصاً كبيرة تتطلب منه التحفّز لاقتناصها، كما يحمل له أيضاً صعاباً وعرة تحتاج منه إلى الكفاءة والصبر واستيعاب المستجدات لمعالجتها.[٥٢]

كان شخبوط شيخاً تقليدياً يخشى أن ينفتح شعبه البدوي فجأة على العالم المعاصر فيخسر تراثه وتقاليده ويفقد هويته، كما اعتقد أيضاً أن زيادة التداخل الحضاري يمكن أن تؤدّي تدخلاً أكبر إلى شؤونه الداخلية؛ فيخلق بذلك هوّة بينه وبين شعبه.

اعتقد الشيخ شخبوط أن الثراء مفسدة، وقال ذات مرّة لجلسائه وبعض حرسه: إن الله خلق الفقراء بإرادته فلماذا يعمل الخلق لإثرائهم؟! وكان الشيخ شخبوط لا يدفع لحرسه وللعدد القليل التابع له من الموظفين رواتبهم عند استحقاقها ما جعل رجاله المقربين منه مكان ازدراء في السوق. أما سائقو التاكسي فما كانوا يسمحون لشرطته بالركوب معهم إلا إذا دفعوا الاستحقاق مسبقاً(٥٣). وحين فوتح الشيخ شخبوط في اتخاذ عدد من المحاسبين والمستشارين لإدارة الدولة في طورها الجديد أجاب بأنه سيضبط أموره المالية بواسطة أحد الرجال الذين يعملون مع تاجر في السوق سماه لهم(٥٤). وترصد الوثائق البريطانية التي وقفنا عليها الكثير من مثل هذه الأحاديث التي تؤكد أن الشيخ لم يكن على وعي بعمق التحولات التي أخذت تعصف بأسس الروابط القديمة.

كان رئيس حزب العمال الحاكم في بريطانيا أسبق من الشيخ شخبوط وعياً بتحولات العصر؛ فأدرك مع حكومته أنه يجابه عالماً جديداً غير عالم الهيمنة الاستعمارية لبريطانيا الذي تقلّص مع الزمن؛ فراح في هذه الفترة يلملم ما تبقى من ذكريات تاريخ بلاده في منطقة الخليج استعداداً لرحيل جنوده عن منطقة هيمنة تقليدية فيما وراء السويس. أما الشيخ شخبوط فكان شديد الإصرار على التمسك بذيول ماض قد تصرّم، ولم يصغ إلى نصائح أخويه وبني عمومته وسائر أهله بأن يواكب متطلبات العصر الجديد الذي أظل العالم وأطلّت تباشيره على أبوظبي ما يحتم على حاكمها أن يبحر بها بأمان ضمن هذا التيار المتسارع.

وعلى الجانب الآخر كان زايد غير بعيد عن مسرح الأحداث؛فقد كان يحمل على كاهله الأعباء الجسام في التعامل مع القبائل والعشائر نيابة عن أخيه، وأخذ يتعامل مع المسؤولين البريطانيين بكل الواقعية والحكمة والحنكة. ويمكن لكل من يتصفح وقائع

جلسات اجتماعات مجلس حكام الساحل المتصالح أن يجد اسم زايد إلى جوار أخيه. يضاف إلى كل ذلك أنه ظل يحمل بين جنبيه روحاً تواقة لتحديث شعبه والعمل على رفاهيته بالتنمية الشاملة في كل المجالات.

و لم يكن الشيخ زايد في حقيقة الأمر بأقل من أخيه الشيخ شخبوط تمسكاً بالتراث، ولكنه كان – في هذا المجال – أكثر وعياً وتفتحاً فهو لا يعمل لتريث المستقبل. كان زايد يخطط لمجتمعه للانطلاق والتعامل مع العالم العريض في كافة المجالات على أن يقوم ذلك على قاعدة من التراث، فالذي لا تاريخ له لا مستقبل له، كما يقول زايد. فالرجل بلا تاريخ وبلا تراث هو قطعاً بلا هوية وبلا وطنية. قد يكسب شيئاً من منجزات الغرب الحضارية ولكن بعد أن يخسر نفسه.

يقول زايد: إن تصرفات أخيه الشيخ شخبوط غدت حديث الناس في أبوظبي، وإن الأسرة بدأت تفقد هيبتها ولاسيما أن المدينة كانت تشهد بعض تصرفات لا تليق بها من بعض المتعلقين بالشيخ شخبوط[٥٥] وقد جرت بالفعل محاولة لاغتيال الشيخ شخبوط دبرها البعض، وكشف أمرها لشخبوط أحد شيوخ العشائر. وانتهت تلك المحاولة في مهدها. ولكن ذلك الشيخ نفسه أخذ بعد ذلك يتآمر على شخبوط ولي نعمته[٥٦] كما كشفت عن ذلك الوثائق البريطانية. وهكذا كان على زايد أن ينقذ أخاه من مصير بات محدقاً.

أخلص زايد النصح لأخيه شخبوط ودعاه إلى إقرار ميزانية للدولة تقوم على أسس معلومة للخاص والعام، وطلب إليه أن ينفق على المشاريع العامة، ومشاريع التنمية والتعمير. وكان زايد يعتقد أيضاً أنه من الضرورة أن يخصّص جزء مقدّر من ميزانية أبوظبي لشيوخ الساحل الآخرين ولعشائرهم الذين لم يكن لهم من الاستثمارات ما يمكنّهم من الانطلاق في المجالات التنموية[٥٧]. كان زايد منذ تلك الفترة الباكرة يعمل

على توثيق وحده المصير التي تربط بين إمارة أبوظبي والإمارات الأخرى لساحل عمان المجاورة لها، وأكد أن مال أبوظبي يجب أن يكون قاعدة لبناء دولة الاتحاد. أما شخبوط فما كان يعتقد في شيء من هذا، ولم يتسع أفقه لاستيعاب هذه الآمال العريضة التي كانت أشبه ما تكون بالمعجزات في ذلك الوسط التقليدي الذي كوّنه.

راح زايد يمحّص أخاه النصح حتى اقتنع بأن يوكل إليه إدارة الشؤون المالية وضبط أوجه الصرف والدخل. ونكص الشيخ شخبوط عند التنفيذ، فلم يمكنّ زايداً من المال اللازم لذلك. وعاد زايد أدراجه من أبوظبي إلى العين دون أن يحقق شيئاً مما يصبو إليه.

وإزاء هذه المواقف المتشددة من الشيخ شخبوط اشتد نصح زايد فأضحى نقداً صريحاً. ولم يحتمل الشيخ شخبوط وطأة نقد أخيه، كما لم يحتمل أيضاً ما أبداه أخوه خالد من امتعاض حين طلب إليه أن يرسل له بعض المال لسدّ بعض نفقاته فأرسل له شخبوط مبلغاً كان دون توقعات ذلك الأخ فأعاده إليه محتجّاً. هذا بالإضافة إلى أن والدته الحكيمة التي كانت تدرك ما يمثّله المال من قيمة في ذلك المجتمع الذي كان يعاني الحرمان والفقر – لم تكن راضية عن أسلوب إدارة ابنها الشيخ شخبوط للمال، ولم يكن يرسل لها ما يسدّ نفقات مجلسها في العين، وكانت تعتمد تماماً، في هذا المجال على ابنها زايد الذي كان ينفق كل مال يقع في يديه – كما تشير الوثائق – خدمة للمجتمع.

جاء في تقرير للوكيل السياسي بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٦٢م أن الشيخ شخبوط أرسل الشيخ محمد بن خليفة إلى أخويه خالد وزايد في العين يبلغهما أنه قرر التنحي عن الإمارة، ويطلب إليهما القيام بالأمر فيها. ولم يستجب الأخوان لهذه البادرة. وأعاد شخبوط رسالته مرّة أخرى لأخويه للقيام بالأمر وألحّ في الطلب. وحمل محمد بن خليفة هذه الرسالة الثانية مرّة أخرى إلى العين بتعليمات من شخبوط تطلب إلى الأخوين الشخوص فوراً إلى أبوظبي.

صورة تجمع بين الأشقاء زايد وشخبوط وخالد



صورتان للشيخين زايد وشخبوط





اجتمع الإخوة الثلاثة في أبوظبي وجرت بينهم محاورة صاخبة. لم تؤد نتيجة وظلت الآراء متباعدة. ومع ذلك ظل زايد زاهداً عمّا في يد أخيه، فقد كان يعتقد صادقاً أن سرج الإمارة يتسع لثلاثتهم، يتشاورون ويتناصحون ويعملون لخير المجتمع تحت قيادة الأخ. وحذرّ زايد أخاه الأكبر من أن تصرفاته قد «تقذف بالجميع إلى ما وراء أسوار القلعة».

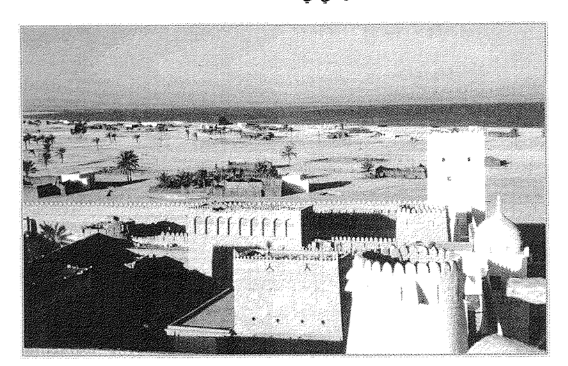
وتشير التقارير إلى أن الشيخ محمد بن خليفة وابنيه مبارك وطحنون والآخرين من أبنائه الذين ينعتهم التقرير بالراشدين والمؤهلين من آل نهيان، كانوا يعتقدون صواب آراء زايد ويعضّدونها، وأن الشيخ محمد بن خليفة كان يرى ضرورة أن يتنحى شخبوط عن القيادة لأخيه زايد، فلكل زمان دولة ورجال.

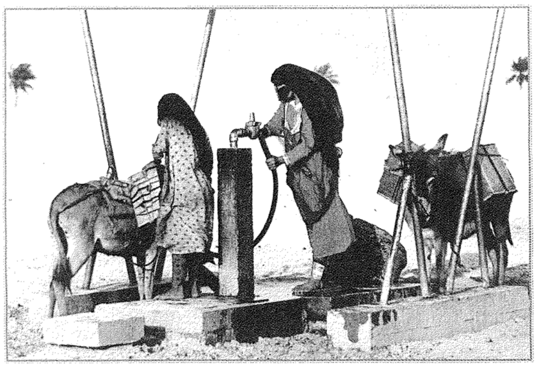
وأخيراً قرّر الشيخ زايد أن يضع حداً لتلك المشادات التي أخذت تفرّق بين الأسرة، والتي ذاعت أخبارها، في أوساط العامة. ولقي هذا الأمر ترحيباً ومباركة من أفراد أسرته. فأعدّ زايد للأمر عدّته وأحكمه. وهكذا آل إليه الأمر في إمارة أبوظبي في السادس من أغسطس١٩٦٦م التي باتت في ذلك اليوم تستشرف فجراً جديداً بعد أن ترجّل أخوه شخبوط ذلك الفارس المرهق عن فرسه. وقد رحّبت بالتغيير كافة فئات المجتمع كما رحبّت به أيضاً إمارات الجوار. كان شيخ البحرين – وهو صديق زايد يرافقه أحياناً في رحلات القنص في المناطق المجاورة لخور العديد – يعتقد أن شخبوط رجل صعب، كما لم يكن شيخ الكويت راضياً عنه. أما حكام قطر والمناطق المجاورة الأخرى فهم – كما جاء في بعض الوثائق – لم يذرفوا عليه الدموع.

وصل زايد إلى قلب الإمارة في أبوظبي التي كان يؤرّقه وهو في العين قلّة عمرانها، وفقر إنسانها، وكساد تجارتها، وركود اقتصادها. وكان قد بدأ في أبوظبي بعض المشروعات العمرانية في بعض الفترات التي تولى فيها الأمر نيابة عن أخيه حينما كان أخوه في بعض رحلاته خارج البلاد.


صورة جوية لإمارة أبوظبي - (١٩٤٨م)


ساحل أبوظبي (١٩٥٤م)





حلّ زايد في القلب من الإمارة وتولى شؤونها؛ فأطلق العنان بحكمته وكرمه لكل المقدرات الإنسانية المالية والإبداعية والأخلاقية، لخدمة مجالات تنمية الإنسان والبيئة، ووضع أسس الوحدة والأمن والاستقرار وتأكيد سياسة حسن الجوار. ولم تقتصر جهوده في التنمية والعمران والحفاظ على البيئة واستصلاحها على دولته فقط إنما امتدت إلى العديد من الدول العربية الإسلامية والصديقة. وارتفعت في بعض أقطار الدول العربية مدن كاملة بأموال زايد حملت اسمه، ومشروعات للزراعة والري تشهد بأفضال زايد، وحدائق ريّانة خضراء يحدث نسيمها عن رجل غير مسبوق في إحسانه الذي تجاوز الإنسان وارتد إلى الرمل الذي ما عهدناه أخضر اللون إلا بجهود زايد، وحكمته وحنكته وكرمه وخياله المبدع الخلّاق.

هوامش وذيول

١- (PRO) F.O. 371/163025, PA Abu Dhabi to PR. Bahrain, 13 May 1962. cf: Records of the Emirates (R.O.E) 1961 – 1965(1962). Anrta L.P. Burdett (ed.) London, Archive editions, 1977, p. 46.

٢- (PRO) Same series & vol., PA Abu Dhabi to PR Bahrain, 13 April 1962. cf: R.O.E (1962) p. 64.

٣- (PRO) Same series & vol., PR Bahrain, 17 April 1962. cf: R.O.E (1962) p. 58.

٤- كلود موريس، صقر الصحراء، قصة صاحب السموّ الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (مترجم) أبوظبي، وزارة الإعلام والثقافة، ١٩٧٥، ص ٢٧.

٥- (10) Sec. Letters and Enc. From India, vol. 16, Grant to Ross, 1879.

نقلاً عن:

عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، بريطانيا وإمارات ساحل عمان، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٩٨٢، ص ٢٨٨.

٦- (10) Pol & Sec. Letters and Enc. From India, vol. 22, Layton on Turkish Juris. on the Arabian Coast, 22 May 1879.

نقلاً عن: المرجع السابق

٧- (PRO) F.O. 371/163025, Memo. by Walmsly F.O. May 15, 1962. cf: ROE (1962) p. 69.

٨- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤.

٩- المرجع السابق، ص ٣٥.

١٠- (PRO) F.O. 371/140133, PA Abu Dhabi to PA, Dubai, 3 Sept. 1958. cf ROE, vol 12, 1959 – 1960, p. 134.

١١- (PRO) F.O. 371/163025, PR. Bahrain to F.O., 17 April 1962, cf: ROE (1962) p. 58 ff.

١٢- مرجع سبق ذكره، ص ٣٠.

١٣- المرجع السابق، ص ٣١.

١٤- المرجع السابق، ص ٤٣.

١٥- Wilfred Thesiger, Arabian Sands, 3rd print, Dubai, Motivate Pub. 1998, p. 239, cf also p. 254.

١٦- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

١٧- Wilferd Thesiger, Op. cit, p. 253.

١٨- Historical Sketch of the Bani Yas Tribe of Arabs.

١٩- مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

٢٠- (PRO) F.O. 371/ 168956, Arabian dept. F.O., Aug. 12/ 1963. cf. ROE 1961-1955 (1963) p. 48.

٢١- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

٢٢- Wilferd Thesiger, Op. cit, p. 234

٢٣- عن: كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص٤٤.

٢٤- المرجع السابق، ص٤٣.

٢٥- المرجع السابق، ص ٤٠.

٢٦- المرجع السابق، ص١٧.

٢٧- (PRO) F.O. 371/ 168956, PA Abu Dhabi to Arabian dept. F.O./ Aug 12/1963.

٢٨- Op. cit, p. 234.

٢٩- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

٣٠- Wilferd Thesiger, Op. cit, p. 235

٣١- ibid. p. 236.

٣٢- عن كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٤١.

٣٣- المرجع السابق، ص ٤٤.

٣٤- المرجع السابق، ص ٤٥.

٣٥- (P.R.O) F.O., 371/140133, PA Bahrain to PA Dubai, 3 Sept 1958. cf ROE, Vol 12, 1959 – 1960 , p. 134.

ويشير هذا التقرير إلى أن الشيخ زايداً دعا إلى هذا العرس عدداً من شيوخ عمان ورعايا السلطان رجالاً ونساءً، وأنه أرسل سيارته الخاصة ليأتي بهم. جاء في التقرير أيضاً أن الشيخ زايد انتهز هذه الفرصة للتفاوض مع بكماستر في عدد من الشؤون الهامة التي تتصل بالحدود، وأثار معه عدداً من القضايا الخاصة بكشافة ساحل عمان.

٣٦- (PRO) Fo.371/168956, PA Abu Dhabi to PR Bahrain, July 6, 1963 cf: ROE 1961-1963 (1963) p. 51.

٣٧- Loc. cit.

٣٨- (PRO) Same Series, 1630261, PA Abu Dhabi To PR Bahrain, Dec. 11, 1962. cf: POE (1963) p. 110.

وجاء في هذا التقرير أن زايداً دعا بويستد، الوكيل البريطاني في أبوظبي، في مساء يوم الاثنين ١٠ ديسمبر للخروج معه للقنص. وقد بحث مع ذلك المسؤول البريطاني في تلك المناسبة عدداً من الأمور التي تخصّ الإدارة والسياسة.

٣٩- (PRO) Same Series, 1630232, PA Abu Dhabi To PR Bahrain, March. 30, 1962.

وفي هذه الرسالة يقول المسؤول البريطاني: إن الشيخ زايداً - في معرض حديثه مع سالم، المساعد العربي في وكالة أبوظبي البريطانية، لا يقرّ خط أخيه شخبوط في التعامل مع جيرانه. ويعلّق المقيم بأن لزايد شخصية تعني ما تقول، ومع ذلك فهو لن يسمح أبداً بالتفريط في مصالح مشيخة أبوظبي من أجل الوصول إلى اتفاق.

٤٠- Loc. Cit.

وقد بدأت هذه الوساطة من زايد؛ إذ أرسل إلى شيخ دبي مبعوثه المدعو راشد بن عمان برسالة شفهية يحسّن له الصلح بينه وبين أخيه شخبوط، وأبلغه أنه يقوم بهذه الوساطة دون تفويض من شخبوط. وقد أبدى شيخ دبي بعض التردد أولاً، ولكنه سرعان ما انحاز إلى السلام، وانحاز له شخبوط أيضاً.

٤١- من زايد بن سلطان إلى صقر بن سلطان بتاريخ ١ ذي الحجة ١٣٨٨/ ٨ يونيو.

(PRO) Same series, vol. 140134, enclosed in PA Dubai to Arabian dept. Sept. 5 July 1959.

٤٢- اتفاق بين السلطان سعيد بن تيمور، سلطان مسقط وعمان، والشيخ شخبوط بن سلطان الفلاحي، حاكم أبوظبي وتوابعها.

(PRO) Same series, 140134 cf- ROE, vol 11, 1958-1959, p. 162.

٤٣- من زايد بن سلطان إلى محمد بن سالمين بن رحمة، بتاريخ ٢٨ رمضان ١٣٧٨

(PRO) Same series & vol..

٤٤- من زايد بن سلطان إلى حمد بن أحمد الصلف. (PRO) Same series & vol.

يجري الخطاب الذي أشار إليه زايد على النحو التالي: بعد البسملة «من الشيخ أحمد بن محمد

الصلف إلى حضرة الأكرم المكرم المحشم العزيز الشيخ زايد بن سلطان المحترم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فإن مس واكر وصل إلينا من جهة الحزام الذي بيننا وبينكم والديار واحد وليما واحد». وبعد أن يذكر الصلف ما يراه بشأن الحدود يستطرد فيقول: «نحن على الدوام وزيادة وأن بدت حاية أو لوم ولا منا ...»

٤٥- من زايد بن سلطان إلى عبد الله بن سالم الكعبي بتاريخ ٢٩ رمضان ١٣٧٨.

(PRO) same series and vol..

ولم يتم الاتفاق من الوهلة الأولى بين الشيخ زايد وعبد الله بن سالم الكعبي ولذا أرسل له زايد مرّة أخرى يقول: «وعرفنا في كتابك عدم موافقتك على ذلك أعلم أيوه المحب بأننا سنتنازل على حسب رغبتم لأجل الاتفاق وإذا شيئم الآن أوضح لك على حسب طلبكم...» ويستمر الخطاب ليرسم الحدود.

٤٦- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

٤٧- (PRO) F.O. 371/ 140250, PA Dubai To PR Bahrain, Oct. 20, 1959.

وكذلك

(PRO) same series, vol. 149108, PR to Sk. Shakbout, April 1960, cf. ROE, vol. 11, 1958-1959, p. 240 .

٤٨- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣.

٤٩- (PRO) same series, 140133, PA Abu Dhabi to PA Dubai, 3 Sept. 1958.

٥٠- كلود موريس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

٥١- (PRO) same series, 163025, PA Abu Dhabi to PR Bahrian, Oct. 17. 1962.

٥٢- Loc. cit.

٥٣- Loc. cit.

٥٤- (PRO) same series & vol., PA Abu Dhabi to PA Bahrain, 17 April 1960.

٥٥- Loc. cit.

٥٦- Loc. cit.

٥٧- (PRO) same series & vol., Record of discussions with Sk. Zaid at Buraimi on May 22 – 23.

الفصل الرابع

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة

- زايد ونظرية البطولة في تفسير التاريخ
- استغلال الظروف الدولية لتحقيق طموح البطل
- زايد بين الاتحاد السباعي والاتحاد التساعي
- تطور الخطتّين التساعية والسباعية
- زايد ومسيرة الاتحاد السباعي
- موقف الحكومة البريطانية من مسيرة الاتحاد
- اجتماع دبي/ فبراير ١٩٦٨م
- اجتماع أبوظبي/ مايو ١٩٦٨م
- الاجتماع الثاني للمجلس الأعلى للحكام في أبوظبي / يوليو ١٩٦٨م

«يقول الشيخ زايد: إنه يقدّر أن الشيخ راشداً أكبر منه سنّاً، وأشار إلى أنه ينوي أن يفسح المجال لراشد ليؤدي الدور القيادي في حكومة الاتحاد. وتحدث زايد عما بذله من جهد كبير منذ أن تولى زمام الحكومة (في أبوظبي) لإقامة أطيب العلاقات مع راشد، وأن هذه العلاقات قد آتت أكلها، وقادت إلى تلك المفاوضات التي نوقشت فيها الخلافات بصراحة وتوّجت فيما بعد بالاتفاق لدى لقائهما في السميح بقيام الاتحاد».

الوكيل السياسي البريطاني – أبوظبي
٢٠ مارس ١٩٦٨م

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
وقيام اتحاد الإمارات العربية

انبثقت دعوة الوحدة العربية واضحة صريحة مع الحرب العالمية الأولى. وتعالى مدّ هذه الدعوة، وانبرى تيارها الهادر يجرف في مسيرته دولة الخلافة، تلك الدولة التي أفسد المسؤولون فيها الوحدة الإسلامية بطورانيتهم التي اتسمت بالعنصرية، وتميّزت بمنهجية العسكرية التركية التي لم تعرف غير العنف سبيلاً للتعامل مع العرب. وحين انتفض العرب ضد المظالم العنصرية أخطأت دعوة الوحدة العربية دربها حين وضعت يدها في يد القوى الغربية، البريطانية منها على وجه الخصوص. وركبت تلك القوى الدولية حماس المدّ القومي إلى تحقيق أهدافها من استعمار الأرض العربية وتمزيقها تحت دعوى الحماية أو الانتداب أو تحرير العرب أو غير هذه وتلك من مسميات ابتدعوها أو ترّهات لفقّوها.

حصد الاستعمار العالمي ثمار انتصارات الثورة العربية، وانزوت دعوة الوحدة العربية وهي ترمق بالحسرة والأسى تفرّق الأمة التي انتثر عقد وحدتها، وأضحت أرضها أشلاء مبعثرة بين البريطانيين والفرنسيين وغير هؤلاء وأولئك من أساطين الاستعمار الذين كان عليهم أن يعترفوا «بالباب المفتوح» للمصالح الأمريكية، وأن يستجيبوا للأطماع الصهيونية في فلسطين. واجتهدت قوى الإمبريالية العالمية بعدئذ، في محاربة الدعوة إلى الوحدة العربية، وانبرت تنهب معظم الثروات القومية؛ فأورثت الأمة الفقر إلى جانب الجهل الموروث من العثمانيين، ودعمت كل ما يوسّع الفجوات بين أبناء الإقليم الواحد. ومع ذلك فإن دعوة الوحدة القومية لم تفتر وعملت – على وهنها – مع التيارات الوطنية الأخرى في الوطن العربي لمناهضة الاستعمار العالمي حتى وهنت قواه، ثم انفرجت بعد الحرب العالمية الأولى عن دول وكيانات وأقطار في المنطقة، كلٌّ لها من همومها ومشكلاتها الكثير مما يباعد بينها. وعلى الرغم من ذلك

تعالت بعدئذ دعوة الوحدة العربية، وتدفق من جديد تيارها هادراً منذ النصف الثاني من القرن الماضي، غير أنها ضلّت دربها مرّة أخرى حين اكتسبت في فترة كفاحها ضد الاستعمار صفة القطرية، وحين تأثرت بأفكار فلاسفة القومية الأوروبية، وحين أصبح في كل بلد من بلاد العروبة عدد من دعاة ألوان الوحدة العربية، كلٌ يرى في منهجه المستحدث المنهج الأمثل والأجدر بأن يتّبع. وأدى اختلاف المناهج وتعدد الفلسفات، وإن قُيِّض لها أن تتحقق في فترة من فترات جيشان العاطفة القومية، فإن اختلاف المناهج، وتعدّد المذاهب، وتعالي المزايدات القطرية كان يئدها في مهدها، أو يفصم عراها.

وفي هجير هذا الفشل المتراكم في الوصول إلى صيغة وحدة أو اتحاد عربي، والذي بلغ ذروته بهزيمة العرب عام ١٩٦٧م، كان هناك تطلع جاد وصادق وفطري في منطقة الخليج العربي لقيام اتحاد يلمّ شعثها، ويجمع شملها، ويحقق أهدافها المشتركة في الاستقرار وسيادة السلام وتحقيق التنمية. وكان لابد لهذا التطلع المشروع الذي انتظم فيه الحكام والرعية، على حدّ سواء، أن يجد قيادة واعية تعمل على تحقيقه وترجمته إلى واقع ملموس بفضل ما تتمتع به من حنكة وحكمة ودراية وبعد نظر يتجاوز المصالح الآنية الضيِّقة إلى رحاب المصالح الجمعية البعيدة المدى، الباقية الأثر. وقد وجدت المنطقة ضالتها في شخصية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان، ذلك الرجل البطل الذي اتخذ لنفسه نهجاً فريداً أفضى به إلى تحقيق آمال شعبه.

زايد ونظرية البطولة في تفسير التاريخ

ذهب الفلاسفة في تفسير التاريخ مذاهب شتى، وتبنى بعضهم نظرية «البطل»، وهي نظرية تتسق تماماً مع شخصية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان الذي نتناول طرفاً من سيرته هنا. وقد برزت فكرة البطل في تواريخ هيرودتس واضحة إذ يقول «أبو التاريخ»: إن أحد أهداف التاريخ هي حفظ مآثر الرجال الذين تركوا بصماتهم

بإنجازاتهم الكبرى على جبين الزمن. وازدادت هذه الفكرة وضوحاً وتألقاً في العصر الروماني. ففي بلوتارخوس – على سبيل المثال – نجد صورة مشرقة لشخصية البطل في الإسكندر المقدوني الذي عمل ذلك المؤرخ على إبراز أعماله لرؤساء عصره كي يقتدوا بها ويبلغوا شأوها. ومع عصر النهضة الأوروبية برزت صورة أخرى للبطولة لا تعتمد مقاييس سابقاتها، إذ ليس الشديد بالصرعة في عصر الاستنارة. ظهرت في عصر النهضة صورة البطل «الإنساني» إن صحّ التعبير، وأضحت الصفات العقلية هي الأبرز في تحديد صورة البطل وتجسيد معاني البطولة.

أما في العصر الحديث فيُعدّ توماس كارليل (١٧٩٥– ١٨٨١م) من أبرز فقهاء هذه المدرسة. يعدّ كارليل التاريخ الإنساني كله صفحة سطّر عليها الأبطال إنجازاتهم في هذا العالم الذي هو في محصلتَه النهائية تجسيد حيّ لأفكارهم وأفعالهم؛ فهم «روح التاريخ العالمي كله».[١]

يعد كارليل البطل رسولاً من قبل الغيب لخدمة الإنسان؛ فهو يرى بثاقب نظره عواقب الأعمال، أما أقواله فهي – عند كارليل – ضرب من الإلهام. أما هيجل (١٧٧٠– ١٨٣١م) فإنه حين يتحدث عن نظرية البطل في التاريخ يرى فيه «آلة» بين يدي «روح العالم» تحقق السيادة بالبصيرة النافذة؛ فالبطل عند هيجل يتفوّق على غيره بإدراكه للخطوة التالية للديالكتيك إدراكاً يقصر عنه الآخرون، ويتقدم نحوها بثبات. إنه يسمع «نداء الروح»، ويسارع إلى وضعه موضع التنفيذ. يتبع الأبطال المسار الديالكتيكي لفكرة الحرّية ليؤدوا أدوارهم حين تستدعيهم اللحظات الحاسمة التي تمثل الإرادة الانتقالية في تاريخ الجنس البشري فيهجس البطل ما تريده «روح العالم»، ويترجم ذلك فعلاً سياسياً. والبطل عند هيجل، قد يكون على غير وعي «بأهداف الروح» ولكن نداء العقل الذي يوجه مسار التاريخ يدفع البطل إلى القيام بأهداف الروح وتنفيذ مقاصدها.[٢]

لم ينكر العديد من الفلاسفة اللاحقين من أمثال نيتشه (١٨٤٤- ١٩٠٠ م) وفاغنر، وإستفان جورج وغيرهم دور البطل في التاريخ. ويؤكد نيتشه سموّ البطل وعلوّ كعبه لتفرده وقوّة عزيمته. ويرى هذا الفيلسوف أن الوظيفة الرئيسة للمجتمع هي أن يكون مسرحاً للعظماء. ويعترف توينبي (١٨٨٩- ١٩٧٧ م) بدوره في تفسيره الحضاري للتاريخ بنظرية البطل، ويضيف أن حياة البطل تمرّ بمرحلتين: الاعتكاف ثم العودة. يخدم الاعتكاف في البطل تحقيق الصفاء الذاتي، ثم تأتي مرحلة العودة التي هي غاية الحركة وجوهرها. ويفسّر توينبي هذا الأمر بأن البطل حين يعتكف يبتعد بنفسه عن التيار المنحدر في المجتمع، ثم ما يلبث أن يعود بعد مرحلة الاعتكاف منخرطاً في مجتمعه بعد التحقق ليعالج أدواء ذلك المجتمع.[٣]

ويتوافق رأي توينبي في التفسير الحضاري مع سيرة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي كان قد خرج مع والدته وإخوته من منزله في مدينة العين – بعد أن فقد والده في أحداث عام ١٩٢٦م في أبوظبي– إلى المنفى، نائياً بنفسه عن التيار المنحدر في المجتمع، معتكفاً عنه، متأملاً فيما يحقق لنفسه الصفاء الذاتي. وحين عاد الشيخ زايد إلى بلده مرّة أخرى راح يصغي مليّاً لنداء حركة «روح المجتمع» ليحقق الخطوّة التالية للديالكتيك بعد أن صقلته فترة الاعتكاف بما تزوّد به من تحقيق الصفاء الذاتي. ولا غرْوَ أن تشهد مدينة العين منذ أن تولى أمرها في عام ١٩٤٦م، تحت إمرة أخيه الشيخ شخبوط، جهوداً مكّنت تلك الحاضرة من أن تكون قبلة المجتمع البدوي. وطار صيت الشيخ زايد وذاع في البادية وانتشر حتى بلغ مداه في محيطه الإقليمي. أما حاضرة العين فقد ازدهرت بفضل جهود الرجل ازدهاراً لم تكن تؤهّله لها إمكانياتها القاصرة، ولا الظرف التاريخي الذي كانت تعيشه. وحين تولى الشيخ زايد في عام ١٩٦٦م حكم إمارة أبوظبي، لبّى نداء مجتمعه الداعي إلى الاتحاد وشرع في تحقيقه.

استغلال الظروف الدولية لتحقيق طموح البطل

أصدر هارولد ويلسون – رئيس وزراء بريطانيا وزعيم حزب العمال الحاكم في أوائل عام ١٩٦٧م تصريحاً أعلن فيه سياسة حكومته التي تقضي بالانسحاب التام من مستعمرة عدن والمحميات في موعد لا يتجاوز نهاية ذلك العام. وعادت تلك الحكومة لتعلن في ١٦ يناير ١٩٦٨م – على لسان رئيس الوزراء في مجلس العموم البريطاني – أن حكومته قد قرّرت الانسحاب العسكري نهائياً من الشرق الأقصى والخليج قبل نهاية عام ١٩٧١م، وأضاف أن بريطانيا لن تستبقي بعد ذلك التاريخ أية قوات عسكرية خارج المجال الأوروبي ونطاق البحر المتوسط.

ودار الحديث وقتئذ عن إقامة حلف في الخليج على مثال حلف بغداد يربط المنطقة بعجلة السياسة الغربية. و لم يكن مثل هذا الحديث بطبيعة الحال منطقياً، ولا يتسق مع حركة التاريخ في ذلك الوقت، بل يمكن القول: إنه كان مجافياً لها؛ فقد كانت الإستراتيجيات القديمة تضعف وتتحلل في هذا الوقت لتفسح المجال لإستراتيجيات كونية، كما كانت القوّة الوطنية المستنيرة النامية في الخليج العربي وسائر البلاد العربية تدرك كنه تلك الأحلاف الاستعمارية، وتتصدى لمقاومتها، خاصة في الوقت الذي تجلّت فيه صورة البطولة القومية في المنطقة، وتجسّدت في شخص الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان، وانطلقت قويّة فتيّة لتؤدّي دورها التاريخي في حركة الدياكتيك.

تقول إحدى الوثائق البريطانية الصادرة عن مقيمية البحرين في ١٠ يونيو ١٩٦٨م ما نصّه[٤]: «عقب إعلان السادس عشر من يناير المتعلق بشأن انسحاب القوات البريطانية من الخليج نهاية عام ١٩٧١م بدأ حكام الإمارات العربية التسع الواقعة تحت الحماية في جنوب الخليج يفكّرون في أمثل السبل التي يمكن لها أن تكفل لهم حفظ الأمن في مناطقهم على المدى الطويل. وقد تمثّلت إحدى الحلول التي وقعوا عليها بمحاولة تشكيل اتحاد يلمّ شملهم». وتضيف تلك الوثيقة أن: «الحكومة البريطانية

كانت تدرك استحالة قيام اتحاد يجمع بين إمارات الخليج العربي لظروف التمزّق الذي تعيشه تلك الإمارات»(٥).

ويدلّ ما أوردته هذه الوثيقة على أن إرادة الوحدة كانت إرادة جمعيّة لحكام الإمارات. وحين نمعن النظر في تاريخ الوثيقة نجد أنه جاء لاحقاً لرؤية نمطين من أنماط الاتحاد أفرزتهما قيادتان في المنطقة: رؤية تدعو إلى الاتحاد بين إمارات الساحل العماني يمكن أن تضمّ لاحقاً إمارتي البحرين، وقطر، ورؤية أخرى لاتحاد أشمل يضمّ الإمارات التسع معاً في وقت واحد. وكانت ريادة الفكرة الأولى لأبوظبي، بينما حملت قطر لواء الدعوة الثانية. ولكن حين ننظر في التفاصيل التي أوردتها هذه المذكرة البريطانية نجدها تورد في الفقرة التالية تحت عنوان: «تشكيل الاتحاد» ما يلي: «عقب إعلاننا الانسحاب في يناير بوقت قصير شهدت المنطقة تحركات للحكام وقيام اتصالات بينهم. وقد تمثّلت القوة الدافعة لهذه التحركات بكل من الشيخ زايد حاكم أبوظبي، والشيخ راشد حاكم دبي. وكان من رأي زايد أن الهدف الأساس من هذه التحركات إحداث تقارب بين الإمارات المتهادنة واجتماعها تحت قيادته». أما إذا نظرنا في وثيقة أخرى بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٦٨م – أي قبل توقيع اتفاقية السميح بيوم واحد – صادرة عن الوكالة السياسية في أبوظبي فنجد فيها ما يلي: «أكّد الحاكم – الشيخ زايد – أن الاتحاد ضرورة قصوى، ويرى أن من اللازم أن تقوم في منطقة الساحل العماني دولة تحمل اسم دولة ساحل عمان، أو ربما يختار الحاكم لها اسماً آخر لإبراز أنها تضمّ منطقة البريمي ... دولة الظاهرة مثلاً ...» ويذكّر الوكيل السياسي في أبوظبي في هذه المذكرة المرسلة إلى المقيم السياسي في الخليج أن الشيخ زايداً قد أطلعه على مذكرة صاغها لتكون أساساً للاتفاق مع الشيخ راشد في اجتماعهما الذي قال: إنه سيعقد في السميح في يوم ١٨ فبراير. وتفيد هذه المذكرة ضرورة قيام اتحاد بين أبوظبي ودبي على أن تعمل الإمارتان بعدئذ على توسيع دائرة الاتحاد بضمّ إمارات

الساحل المهادن الأخرى. وتدعو هذه المذكرة الدول الخليجية الأخرى إلى الانتظام في سلك هذا الاتحاد، وتذكر في هذا الصدد البحرين وقطر تحديداً.(٦)

ويتبع هذه الشهادات الوثائقية الرأي بأن الاتحاد كان صناعة محلّية خالصة، وأن اللبنة الأولى في أساسه كانت من تصميم الشيخ زايد بن سلطان. ونحن حين نستجلي هنا هذه الحقيقة نشير إلى أن كافة حكام الإمارات وأهلهم كانوا – بطبيعة الحال – شركاء زايد في هذا المجال، فدون دعمهم ومؤازرتهم ما كان للبطل أن يحقق قيام هذا الاتحاد. ونحن في هذا الصدد لا نوافق العديد من الفلاسفة الذين رفضوا نظرية البطل في التفسير الحضاري رغم وجاهة الآراء الناقدة التي ساقوها؛ فهم يؤكدّون أن التاريخ لا يمكن أن يكون – كما فسّره كارليل – صناعة الرجال العظام بينما يبقى الآخرون – وهم عصب المجتمع ولحمته وسداه – آلات صامتة لا حوْل لها ولا طوْل.

يؤكّد الرافضون فكرة البطل في التفسير التاريخي أن كل فرد في المجتمع فاعل فيه منفعل به، متأثر بالآخر ومؤثر فيه، ويعتقدون أن من واجب المؤرخ النظر في الظواهر العامة التي يعكسها سلوك الجماعة. وهذا النقد – رغم وجاهته فيما نعتقد – لا يثبت أمام التطبيق. ولعلّ من نافلة القول بعد النظر في التاريخ الإنساني كله تأكيد أن هناك طبقات في كل مجتمع «أفعل» من غيرهم. أما قولهم: إن البطل – في أحسن حالاته – لا يمثل سوى الشرارة التي تؤدي إلى الانفجار الذي يقود بدوره إلى التغيّر، وإن على المؤرخ ألا يصبّ اهتمامه على الشرارة التي لن تعمل ما لم تصادف المادة المتفجرة، وإن المادة المتفجرة هي التي تفرز شراراتها، وليس على المؤرخ أن يتعامل مع الشرارة إنما مع الاحتراق الذاتي(٧)، فنقول: إنه رأي مردود عليه؛ لأننا نتعامل مع بشر لا مع تفاعل كيميائي. ونستطيع أن نقول جدلاً: إن الشرارة التي ضربوا بها المثَل «أفعل» من غيرها كيميائياً، ونرى – على ضوء ذلك – أن يهتم المؤرخون بتلك الشرارة التي هي علّة الحدث؛ فالتاريخ علّة ومعلول، وأسباب ونتائج. وعلينا هنا أن نضع في اعتبارنا أن

زايداً غدا «أفعل» من غيره لعدة عوامل أبرزها: أن أرض إماراته تشكِّل أكثر من ٨٦٪ من الأرض التي سعى إلى توحيدها، وأن دخل أبوظبي من البترول يشكِّل المصدر الرئيس للتنمية في الأرض التي يعمل لتوحيدها، أما على الجانب الأخلاقي فقد كان كرم البطل لا يدانيه في البذل والعطاء إلا حكمته التي وجّهت عزمه الأكيد لتحقيق الاتحاد من أجل ازدهار إنسان هذه المنطقة التي عانت كثيراً الجهل والفقر والمرض وكافة عوامل الفرقة التي دعمتها الهيمنة البريطانية في المنطقة منذ عام ١٨٢٠م.

وتشير هذه الوثيقة التي نحن بصددها والمؤرخة في ١٠ يونيو ١٩٦٨م، كما أسلفنا القول، إلى: «استحالة قيام اتحاد يجمع بين إمارات الخليج العربية لظروف التمزّق الذي تعيشه تلك الإمارات». وقد كان على الشيخ البطل أن يعالج هذا التمزّق ويرتقه بالزمن. ولم تعمد هذه الوثيقة إلى تتبع جذور هذه الفرقة التي ازدادت حدّتها واستشرت منذ بداية القرن التاسع عشر حين ساقت بريطانيا حملاتها إلى المنطقة في عام ١٨٠٥م. وأصبحت هذه المنطقة من الساحل العماني مسرحاً لعدّة عمليات عسكرية بريطانية متتالية في ١٨٠٩م ثم ١٨١٩م انتهت إلى استحداث تعهدات إذعانية قدّمها شيوخ المنطقة فرادى ومجتمعين منذ عام ١٨٢٠م. واستنّت السياسة البريطانية بعدئذ بسنّة الحصول على تعهدات جماعية وفردية من شيوخ المنطقة بالقسوة والإكراه طوال ذلك القرن. وتوالت هذه التعهدات تتّرى حتى الربع الأول من القرن العشرين، وطّدت بها بريطانيا هيمنتها؛ فأصبحت – جرّاء هذه التعهدات القسرية – صاحبة الكلمة الأولى في سياسة المنطقة الخارجية وشؤون الدفاع، وآل إليها حقّ التصرف في الثروات الطبيعية المستكشفة وغير المستكشفة في المنطقة.

أحكمت الإمبراطورية البريطانية رتاج هذه المنطقة عن كافة متغيرات التحديث وضروبه؛ فلم تعرف المنطقة المدرسة النظامية الحديثة، وظل التعليم فيها مقصوراً على

ما يمكن أن يقدمه المطوّع للمجتمع، كما ظل الاستطباب في ظل غياب المشافي مقصوراً على الطب الشعبي وضروب من الشعوذة والدجل. ولمّا أتاحت السلطات البريطانية للمنصِّرين الأمريكان أن يغشوا هذه الأماكن لتقديم علاج تنصيري يقدّمه في الغالب أطباء غير مؤهلين غدا أولئك المنصِّرون عيوناً تنقل للسلطات البريطانية في رواحها من أخبار هذا الساحل أكثر مما كانت تنقله للأهالي في غدِّوها من علاج ودواء. وتدخلت السلطات البريطانية بأساليب عدّة في نسيج المنطقة ومزّقت وحدتها. وتحفظ لنا وثائق التاريخ وكتبه العديد من المناسبات التي قام فيها المقيم البريطاني ومكتبه بتغذية الخلافات بين الشيوخ وأفراد أسرهم، يعينون هذا على ذاك، ويباعدون بين الأسر الحاكمة في المنطقة بعضهم عن بعض، وبينهم وبين رعاياهم. وكثيراً ما هرب الرعايا من حكامهم وانشقوا عنهم، حتى لا يضطرّوا إلى الإسهام في دفع الغرامات التي يفرضها المقيم على الحكام، أو ربما أنكر الحكام أنفسهم تبعيّة بعض رعاياهم تنصّلاً منهم من جريمة «قرصنة» ألصقها المقيم بأولئك الرعايا أو ببعضهم تستوجب على الشيخ المعني دفع غرامة.

كان على الشيخ البطل في الظروف الدولية المتغيِّرة – بعد أن غدا الأسد البريطاني العجوز بلا براثن حين فقد إمبراطوريته في الهند – أن يعمل برفق لا تنقصه الجرأة على رفع الحيف البريطاني الذي جثم على المنطقة قرناً ونصف قرن من الزمان، وأن يجمع شملها مرّة أخرى في وقت كانت لا تزال عوامل التفرقة من جهل وفقر ومرض تفعل في المنطقة فعلها، وكان للشيخ ما أراد. ووجد البطل من إخوانه حكام الإمارات ومن الرعيّة، المؤازرة في مسعاه المبارك الذي حوّل بكاريزما شخصية البطل عوامل التفرقة التي كان البريطانيون يعمدون سابقاً إلى تنشيطها إلى عوامل دعم للاتحاد. فتعليم المطوّع الذي كان مقصوراً على تلقين العبادات تلبية للحاجات الروحية للمجتمع وبعض المتطلبات المادية البسيطة كان تعليماً فطرياً – إذا صحّ القول – لم تخالطه الفلسفات أو المذاهب والنحل التي تفرّق بين أهل المنطقة الواحدة. أما حياة البداوة

فقد حافظت على عراقة العنصر العربي وتقاليده الأصيلة . لم يفقد الشيخ في ذلك المجتمع البسيط مكانته الموروثة المتمثلة بقوّته الأبوية في الرئاسة والإدارة. وكان قرار شيخ القبيلة الفرد ديمقراطياً يعبّر عن الإرادة الكلّية للقبيلة؛ فأبواب مجلس الشيخ الذي يتصدره الكبار مشروعة لكل امرأة وطفل، ومال الشيخ – على الرغم من أنه ملكية خاصة له – كان مسفوحاً لكل معدم في القبيلة، بل لكل عابر سبيل. ولما كان الشيوخ ممثّلين تمثيلاً صادقاً لرعاياهم بحكم النظام الأبوي فقد تنادوا لتحقيق آمال الرعية في قيام الاتحاد ما سارع في عملية التغيير، واستشراف المستقبل الأفضل.

كانت محاولات الاتحاد أو الوحدة أو التقارب في المنطقة قبل فترة التحوّلات الدولية التي أودت بقوّة الإمبراطورية البريطانية تلقى من المسؤولين البريطانيين عنتاً ورهقاً وعسفاً. ومع ذلك فقد اضطرّت الإدارة البريطانية – مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين – أن تجمع حكام الإمارات في مجلس منذ عام ١٩٦٣م، كان المقيم يتولى رئاسته بداية. وعلى الرغم من اجتماع الحكام في مجلس واحد إلا أن الإدارة البريطانية عملت على أن تباعد بينهم بمشكلات الحدود البينية حتى تتفرق قلوبهم، وحتى تظل تلك الإدارة الفيصل والحَكَم بينهم، وتحافظ على سيطرتها في أوساطهم. ولمّا تولى الشيخ البطل الحكم في أبوظبي عام ١٩٦٦م، تحوّلت مشكلات الحدود البينية إلى عامل وحدة، ولمّا عقد الشيخ زايد مع أخيه الشيخ راشد اتفاقية تسوية الحدّ البحري في السميح في ١٨ فبراير ١٩٦٨م، شهد ذلك اليوم وضع لبنة في بناء صرح الاتحاد إذ تمّ إعلان الاتحاد بين الإمارتين ليكون أساساً لدولة الإمارات العربية المتحدة. وقد عبّر زايد في تلك المناسبة بعد تسوية الحدود بقوله: «إننا نحرص على المودة والأخوة بيننا، وإذا أخذت شيئاً من يدك اليمنى لتضعه في يدك اليسرى فهل يمكن أن يقال: إنك فقدت شيئاً؟ نحن جميعاً إخوة وجسد واحد».

الثقة في حسن النوايا تذلل كافة الصعوبات





مشاورات بين زايد وراشد

فقدت بريطانيا إمبراطوريتها الهندية؛ ففقد الخليج وظيفته الإستراتيجية العتيدة إذ كانت الإمبراطورية تعدّ متراساً لأمن الهند. وخرج أكثر المصالح البترولية في الخليج من اليد البريطانية إلى اليد الأمريكية، بالإضافة إلى أن القوّة البريطانية ما عادت منذ الحرب العالمية الثانية ندّاً لقوّة الاتحاد السوفييتي الذي جهد الغرب في إبعاده عن ضرع طاقته في الخليج. ونشطت في هذه الفترة حركات التحرر في العالم العربي والإسلامي؛ فطويت صفحة من تاريخ بريطانيا الاستعماري، وما عادت جيوش بريطانيا وأساطيلها تحمي في شرق السويس سوى أصداء ذكرى مجد استعماري غابر. ولّما وصلت حكومة حزب العمال البريطاني إلى الحكم كانت أقدر ممن سبقتها من حكومات حزب المحافظين المتتالية على مواجهة الحقائق الجديدة والاستجابة للمتغيّرات الأكيدة، فأعلنت سحب قواتها من المنطقة، وراحت تعمل على رسم خريطة جديدة لإمارات الخليج العربي. واستقرّ الرأي في فترة ما على دعم الإمارات الأربع الكبرى: البحرين، وقطر، وأبوظبي، ودبي، لتتطور إلى كيانات منفصلة مستقلة بعضها عن بعض، على أن تلحق الإمارات الخمس الصغرى: رأس الخيمة، والشارقة، والفجيرة، وأم القيوين، وعجمان بدبي أو أبوظبي.[٨] وانتهى التداول بعدئذ إلى تشجيع أبوظبي على التطور بشكل مستقل، على أن تدخل الإمارات الصغرى تحت لواء دبي. واستقرّ الرأي أيضاً على عدم طرح هذا الموضوع الأخير علانية في هذه المرحلة؛ حتى يكون لدبي قدر من الدخل يمكنّها من الإنفاق على هذه الإمارات الأخيرة ويغنيها عن الاعتماد على ثروة زايد وخزينة أبوظبي. وكانت هذه الخطة تتطلب فترة زمنية تتراوح بين عامين وثلاثة لتدخل حيّز التنفيذ. غير أن هذه الخطّة قد أفسدها زايد «لسوء الحظ»، حسبما تقول الوثيقة، فقد غيّر إعلان الثامن عشر من فبراير المشهد تماماً.[٩]

تورد مذكرة الوكالة البريطانية في أبوظبي بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٦٨ أن زايداً قد ناقش في ١٥ فبراير مع المقيم مذكرة أعدّها بشأن قيام الاتحاد. وتذهب هذه المذكرة إلى اعتماد اتحاد بين إمارتي دبي وأبوظبي يتبعه دخول إمارات الساحل المهادن الأخرى رحاب الاتحاد المنتظر، ثم دعوة قطر والبحرين للانضمام إلى الاتحاد المزمع. وتذهب هذه المذكرة أيضاً بعد التمهيد، إلى العمل على قيام اتفاقيّة دفاع مشترك، وتوحيد الشؤون الخارجية، وتكامل أسس التنمية الاقتصادية، وإصدار عملة موحّدة، وإنشاء مؤسسة نقدية في الخليج العربي.(١٠)

ويذهب الوكيل البريطاني في أبوظبي إلى وصف هذه المذكرة التي أعدّها زايد بأنها «ضعيفة جدا»، ولكنه يضيف: «ومع ذلك فإن إعدادها بواسطة الشيخ زايد يشير بوضوح إلى أن زايداً يدرك ضرورة الوحدة»، ونراه الآن يسعى للاجتماع بالشيخ راشد وهو يحمل شيئاً معيّناً يتعدى الأفكار الهلامية غير المحددة. فهو يحمل مذكرة مكتوبة. ويذكر الوكيل أن المقيم البريطاني اقترح على زايد عدّة اقتراحات منها: «أن من المستحسن أن تحذف الإشارة إلى دعوة البحرين وقطر إلى الانتظام في الاتحاد المقترح، وكذلك ضرورة ألا يتضمن الإعلان توحيد العملة الخليجية، بالإضافة إلى حذف الإشارة إلى ذكر لفظ الخليج العربي من النصّ المقترح فلربما يؤدي هذا الأمر إلى احتجاجات إيرانية تزيد من حدّة التوتر السياسي».(١١)

هذا ما كان من خطّة زايد في اتحاد الإمارات السبع التي أراد أن يبدأ العمل في بنائها بالتدريج: عمل زايد على أن «يبدأ بعشيرته الأقربين في دبي، إلى إمارته داراً وأهلاً حيث يعيد بناء صرح بني ياس» ثم يتدرج خطوة تلوّ أخرى في ضمّ شمل أهله في الإمارات الأخرى الواحدة بعد الأخرى بادئاً بالشارقة إلى رأس الخيمة.(١٢) وتورد مذكرة للوكيل السياسي البريطاني في أبوظبي في ٤ أبريل ١٩٦٨ أن الخطّة التي اختطّها زايد ستجد طريقها للتنفيذ «فصاحبها رجل ذو عزم وشجاعة وتصميم، إضافة

إلى أنه يمتلك المال اللازم الذي يمكنّه من تنفيذ ما أزمعه»[١٣]. ويمكن بعد قيام هذا الاتحاد الذي يضمّ عدداً متجانساً من الإمارات النظر في ضمّ الإمارات الأخرى، مثل قطر والبحرين وغيرها، التي عاشت ظروفاً إدارية مختلفة أوجدت واقعاً مختلفاً باختلاف الإستراتيجيات الإقليمية والدولية، وعلى أن تبقى مسألة انضمام تلك الإمارات إلى الاتحاد رهناً بتسوية تلك الخلافات.

تطور الخطّتين التساعية والسباعية

أما الدعوة إلى قيام الاتحاد فوراً بين الإمارات التسع مجتمعة فكانت دعوة قَطَريّة لم تبلغ زايداً إلا في الأسبوع الأول من فبراير ١٩٦٨م؛ فقد تلقى زايد هذه الدعوة من حاكم البحرين لدى زيارة مبعوثه الشيخ مبارك آل خليفة مدينة أبوظبي، تطلب قطر فيها عقد اجتماع للحكام التسعة للتداول في شأن قيام اتحاد يجمع بين إماراتهم. وتذهب مذكرة الوكيل البريطاني لامب إلى المقيم البريطاني إلى أن «حاكم البحرين كان يعتقد أن الشيخ راشداً قد تحدّث في هذا الأمر مع الشيخ زايد، غير أن الأمر لم يكن كذلك». وقد أبلغ الشيخ زايد الشيخ محمد بن خليفة أنه مستعد لحضور هذا اللقاء المقترح إذا تلقى دعوة بذلك من الشيخ راشد. ويذكر الوكيل للمقيم: أنك قد سألت بدورك الحاكم - زايد- أيُعقد هذا الاجتماع قبل اجتماع الحكام السبعة للساحل المهادن أم بعده؟ فأجاب بأنه قد يكون تالياً لاجتماع السبعة. وقال الحاكم أيضاً في إجابته عن سؤال آخر لك: إن على إمارات الساحل المهادن أن ترتّب شؤونها أولاً قبل أن تدخل في اجتماعات مع البحرين وقطر؛ حتى يتبيّنوا بشكل جليّ خططهم المستقبلية. وأضاف الحاكم أن عقد اجتماع مع البحرين وقطر دون إعداد الخطوات التمهيدية اللازمة لذلك ووضع جدول أعمال لها ربما لا يكون ناجحاً، ولن يثمر عن أمر ذي بال. «وعبّر الشيخ محمد بن مبارك بأن الشيخ عيسى يشاطر الحاكم الرأي ذاته».

يلاحظ أن مشروعي الاتحاد المقدّمين من الشيخين: زايد بن سلطان (أبوظبي)، وأحمد بن علي (قطر) كانا متطابقين مع اختلاف في منهج التطبيق؛ فكلا الرجلين قد أخلص النيّة في القيام بأمر الاتحاد والعمل على تنفيذه. ولا خلاف بين المشروعين إلا في أمر التنفيذ الفعلي الذي أراده زايد خطوة بعد أخرى بينما أراده أحمد فوراً.

ويمكن تلخيص تعثّر بداية انطلاق المسيرة نحو الاتحاد الذي أجمع عليه الجميع في المنطقة وخارجها في الاختلاف حول مسالك المسيرة وتضارب الاتجاهات لتعارض الخطط.

أ- هنالك خطّة أبوظبي التي أعّد لها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عدّتها، خطّة اتحاد مع دبي تكوّن بنيتها الهيكلية الأساس لقيام اتحاد شامل تقوم عليه وتعلي بنيانه الإمارات الأخرى في منطقة الساحل العماني على أن تنداح هذه الدائرة وتتسع تدريجياً لتشمل قطر والبحرين. كانت خطّة زايد خطّة عملية تستثمر الواقع لصياغة الوقائع ليتحقق الإنجاز في سهولة ويسر. فسيطرة أبوظبي التاريخية على الرقعة الأساسية من أرض الإمارات في الساحل العماني حين تمتد إلى أرض دبي الملاصقة لها تماماً دون أية حواجز طبوغرافية أو إثنّية أو ثقافية تشمل أكثر من ٩٠٪ من الدولة الاتحادية التي خطط زايد لقيامها بداية في منطقة الساحل العماني. وعندما يتحقق الاتحاد بين أبوظبي ذات الثراء البترولي، ودبي ذات الخبرة التجارية تنجذب الإمارات الأخرى القليلة ثراءً ومساحةً وسكاناً إلى نداء الاتحاد. أراد زايد أن تكون اللبنة الأولى في هذا الاتحاد إمارتين تنتميان تقليدياً إلى تجمع قبلي واحد، هو تجمع بني ياس. وحين تستعيد هذه القبيلة لُحْمتها وتتكامل أرضها، وحين تتحقق هذه الإرادة السياسية التي سعى إليها شيوخ آل نهيان عبر تاريخهم يصبح المسرح معدّاً تماماً لاستقبال الشق الثاني المتمثل بتجمع القواسم، صنوّ بني ياس،

الذي تقاسم مع أبوظبي ودبي حلوّ أحداث المنطقة ومرّها. ونستطيع القول دون أدنى شك: إن أي حدث سياسي أو إداري أو عسكري وقع في هذه المنطقة منذ بداية السيطرة البريطانية على منطقة الساحل العماني كان حدثاً أسهم فيه كل من بني ياس والقواسم بنصيب. ارتبط الطرفان مع بريطانيا بالارتباطات نفسها وتقاسما النتائج نفسها. عاش الطرفان – سلباً وإيجاباً – اقتصاداً واحداً. أما المعارك التي خاضها كل فريق منهما ضدّ أي فريق آخر محلي أو إقليمي، فإن الفريق الثاني كان شريكاً مباشراً أو غير مباشر فيها، دعْ عنك تعاركهما وتحالفهما واختلافهما واتفاقهما بعضهما مع بعض. كان الفريقان الياسي والقاسمي عبر التاريخ جسداً واحداً، حقيقة لا مجازاً، رغم أن بعض أعضاء هذا الجسد كان في كثير من الأحيان يورث رأسه الصداع.

أدرك زايد أنه قد آن الأوان لهذا الجسد أن يتعافى، بعد أن أصبح يملك الترياق لعلاج الصداع القديم فيمسح بالمال ضنك السنين العجاف، وحينئذٍ يستطيع هذا الجسد أن يتحرك ليخطو أولى خطواته تجاه جيرانه في قطر والبحرين، يزداد بهما قوّة ومنعة في رحاب اتحاد يكفل لكلا الجارين تحقيق تطلعاته في الوحدة والقوّة والثراء، وذلك بعد أن يكون هذان الجاران قد سَوَّيا خلافاتهما المتشعبة الأطراف في مجاليهما: العربي، والإقليمي.

ب– وهناك خطّة قطر التي قامت على أن تدخل الإمارات التسع كافة في الاتحاد معاً دون إبطاء. وليس هذا المنهج في التعامل مع فكرة الوحدة بغريب عن فكر قطر ذات التطلعات الوحدوية منذ أن تشكّلت فيها سلطة سياسية تحت أمراء آل ثاني. ويدعم هذا الفكر أيضاً أن القبائل القطرية التي هي نتاج المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية – هي في الواقع امتداد غير مقطوع لقبائل الأحساء والظفرة والربع الخالي ومنطقة ساحل عمان من جهة، وقبائل البحرين وجزرها من جهة أخرى.

رأت قطر في الاتحاد جمعاً لشمل هذه القبائل لا يحتاج بلوغه إلى تخطيط فوري خاصة وأن الذهنية القبلية لا تعترف بالحدود السياسية فوق رمال شبه الجزيرة ولا تقرّها. كما تطلعت قطر إلى أن تظفر في الاتحاد الشامل بموقع مؤثّر لموقعها الوسط الذي يربط بين البحرين ومنطقة الساحل العماني، ورأت أن هذا الموقع المؤثّر في إدارة الاتحاد سيجنّبها الدخول في دائرة تطلعات أصدقائها قبل أعدائها. غير أن هذا الوصل الإثني الذي اعتمدت عليه قطر مع الوصل الجغرافي كانت تعترضه عوامل جيوبولوتيكتية تحيّد من شأنه. فقطر تاريخياً هي الفاصل بين هجر وعمان، وهي الفاصل بين الصحراء والبحر، وهي الفاصل ثقافياً بين الوهابية وغيرها من الثقافات الدينية الأخرى في البحرين بصفة خاصة وفي منطقة أبوظبي التي قد لا ترى في الوهابية فاصلاً عقدياً ولكنها تعدّها فاصلاً سياسياً.

وحين نطيل النظر في نصف الكوب الفارغ الذي صوّرنا نستطيع أن نقول: إن السياسة البريطانية قد استغلّت هذه الفواصل منذ منتصف القرن التاسع عشر استغلالاً ذكياً لتحجز المدّ العثماني إلى نجد عند قطر وتفصلها عن ظهيرها كما فصلتها عن محيطها في البحر والساحل. وقد خلق هذا الفصل القائم على عوامل جيوبولوتيكية طبيعية حزمة من المشكلات ذات أبعاد تاريخية كانت قيادة قطر ترى أن حلّها ممكن بضربة واحدة بالاتحاد الفوري الشامل؛ فالاتحاد قوّة، ويمكن بالمؤسسات الاتحادية التي ستقوم حل كافة المشكلات بما تمثّله هذه المؤسسات من تكامل لتصل المنطقة إلى الاستقرار الذي تسعى إليه جميع القوى في المنطقة. وكان شيخ قطر أحمد بن علي ونائبه كلاهما يعتقدان أن بريطانيا ستدعم هذا الاتحاد الشامل، وأن السعودية وإيران ستساندان الاتحاد الشامل وتدعمانه بلا تحفظ؛ تحقيقاً لأمن الخليج واستقراره وستسوّيان مشكلاتهما التاريخية مع كل من أبوظبي والبحرين. ففي قوّة هذا الاتحاد الشامل – كما ترى هاتان الدولتان – ما يحجب عن المنطقة التيارات القومية المتأججة

في هذا الوقت والشيوعية المتطلعة للعبث بمقدرات المنطقة، ويحقق لإيران والسعودية أصول سياساتهما.

ج- أما الموقف البريطاني من الاتحاد فقد كان متأرجحاً بين برجماتية أبوظبي ويوتوبيا الدوحة. كان همّ السياسة البريطانية أن ترى في المنطقة اتحاداً أو اتحادين أو ربما ثلاثة اتحادات أو أربعة متكاملة السياسات لملء الفراغ الذي ستخلّفه برحيلها.[١٤]

و لم تقدم هذه السياسة حلاً محدداً أو تُرِدْ حلاً سريعاً إذ لا يزال الوقت في هذه الفترة من بدايات عام ١٩٦٨م حين أعلنت بريطانيا انسحابها من المنطقة في عام ١٩٧١م مبكّراً. وكان على السياسة البريطانية أن تراقب في هذه الفترة سير الأحداث وتنظر في حلّ التشابك الإقليمي في ظل التوازنات الدولية والإقليمية وتديرها في تؤدة لقيام اتحاد أو مجموعة اتحادات تتوافق مع مصالحها.

قام زايد بالخطوة الأولى لتنفيذ خطته وعقد مع نظيره حاكم دبي اتفاق السميح وذلك في يوم الأحد ١٨ فبراير ١٩٦٨/ ٢٠ ذي الحجة ١٣٨٧ ليكون أساساً لاتحاد أشمل يضمّ إمارات الساحل المهادن ثم قطر والبحرين المدعوتين للدخول فيه كما جاء في نصّ البيان «ثمّ دعوة صاحبي العظمة حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة، والاتفاق معهما على عمل موحد لتأمين ذلك». وبهذا الاتفاق التاريخي الذي قام على مذكرة زايد التي اعتقد الوكيل البريطاني في أبوظبي أنها ضعيفة جداً، برزت إلى حيّز الوجود ببساطة لا تشوبها فلسفات غربية ولا مساجلات قانونية نواة اتحاد عربي تأسس على أعراف وتقاليد البادية الموروثة التي تستجيب للإرادة الكلية للرعيّة بنظام أبوّي يحترم الشيخ الأصغر فيه رأي الشيخ الأكبر سناً والأوفر مالاً، أو الأكثر شهرة أو وجاهة، الذي يستجيب بسماحةٍ لتحقيق إرادة نظائره. ويبدو أن الوكيل البريطاني كان يقصد أن خطّة الاتحاد المقدّمة في المذكرة «بسيطة جداً» أي غير معقدة، وما ذلك إلا لأن البساطة كانت في حقيقة الأمر أساس

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا اليوم الأحد الرابع في ١٨ فبراير سنة ١٩٦٨م، الموافق ٢٠ ذو القعدة سنة ١٣٨٧هـ، اجتمع حضرة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم امارة أبوظبي مع أخيه صاحب السمو الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم امارة دبي لمتابعة أحاديثهما بشأن مستقبل المنطقة بعد الانسحاب على أسس توحيدهما لضمان المحافظة على الاستقرار فيهما وتحقيق المستقبل الأفضل لشعبيهما.

وفي سبيل تحقيق أماني شعب المنطقة والمحافظة وسلامته فقد تم الاتفاق والرضا بحمده تعالى بينهما على ما يلي :-

١- تكوين اتحاد يضم البلدين له علم واحد، ويناط بهذا الاتحاد المسائل الآتية :-

(أ) الشئون الخارجية.

(ب) الدفاع والأمن الداخلي في حالة الضرورة.

(ج) الخدمات كالصحة والتعليم.

(د) الجنسية والهجرة.

٢- يناط بالاتحاد السلطة التشريعية في الشئون الموكولة للاتحاد في المسائل المشتركة التي يتفق عليها.

٣- الشئون التي لم توكل للاتحاد بموجب هذا الاتفاق تكون من اختصاص حكومة كل بلد.

٤- كما اتفق الحاكمان على دعوة اخوانهم أصحاب السمو حكام الامارات المتصالحة الأخرى لمناقشة هذا الاتفاق والاشتراك به ومن ثم دعوة صاحبي العظمة حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق جميعاً على عمل موحد لتأمين ذلك.



زايد بن سلطان آل نهيان	راشد بن سعيد المكتوم
حاكم امارة أبوظبي	حاكم امارة دبي

شكل اتفاق السميح الأساس القوي لقيام اتحاد الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

اتفاقية اتحاد امارتي أبوظبي ودبي

ان صاحب العظمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم امارة أبوظبي

وأخاه صاحب العظمة الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم امارة دبي ،

في سبيل المحافظة على استقرار بلديهما ،

وسعيا وراء خير شعبيهما ورفاهيته ،

وتحقيقا للمستقبل الأفضل ،

قد اتفقا بعون الله تعالى على ما يلي :-

(١) تأسيس اتحاد يضم البلدين يكون له علم واحد .

(٢) تناط بالاتحاد المسائل الآتية :-

(أ) الشئون الخارجية .

(ب) الدفاع والامن الداخلي في حالة الضرورة .

(ج) التعليم والصحة .

(د) الجنسية والهجرة .

(٣) تناط بالاتحاد السلطة التشريعية في الشئون الموكولة للاتحاد بموجب هذا الاتفاق وفي المسائل الاخرى المشتركة بين البلدين .

(٤) الشئون التي لم توكل للاتحاد بموجب هذا الاتفاق تظل كما كانت من اختصاص حكومة كل بلد .

والتزاما بما اتفق عليه الطرفان المتعاقدان فقد وقعا بأسميهما على هذه الوثيقة في السميح في هذا اليوم الأحد الواقع في ١٨ فبراير سنة ١٩٦٨م الموافق ٢٠ ذوالقعدة سنة ١٣٨٧هـ .

زايد بن سلطان آل نهيان
حاكم امارة أبوظبي

راشد بن سعيد المكتوم
حاكم امارة دبي

وذلك بحضور صاحبي السمو الوليين الشاهدين ،

الشيخ مكتوم بن راشد المكتوم

الشيخ حمدان بن محمد آل نهيان

ذلك المجتمع المتطلع إلى الاتحاد، وديدن شيوخه. وجاء في خطاب المقيم البريطاني في الخليج في ١٠ يونيو ١٩٦٨م تلخيصاً لنتائج هذا الاتفاق: «نصّت الاتفاقية على أن يكون للاتحاد علم واحد، وأن تناط به مهمة الشؤون الخارجية والدفاع، والصحة، والتعليم وشؤون الجنسية والهجرة». ويقول التقرير: «إن الشيخ زايداً كان صاحب الاقتراح، وأن الشيخ راشداً قد استجاب له». ويلاحظ المقيم أيضاً «أن زايداً وافق علناً على أن يحوِّل إلى ملكية دبي شريطاً من سواحل إمارة أبوظبي يشتمل على عشرة كيلومترات، ويعتقد أنه يحوي نفطاً، وذلك منحة لدبي». كما يشير المقيم أيضاً إلى «أن الشيخ زايداً قدّم قرضاً ضخماً لدبي دون فوائد». وذلك لاستثماره في التنمية، وفي توليد الطاقة في دبي خاصة.[١٥]

بهذا الاتفاق، البسيط في مبناه، الكبير في معناه، كسب زايد إمارة دبي إلى جانبه سنداً حقيقياً في المجالات الداخلية والإقليمية والدولية، كما كسبت دبي باتحادها مع أبوظبي، بعداً اقتصادياً لإمارة يقوم اقتصادها منذ زمن على التجارة وإدارة الأموال، وثقلاً أمنياً وحضوراً سياسياً؛ فلم تضمّ إلى حدودها ذلك الشريط الضيِّق الذي تنازل زايد عنه من مياه أبوظبي، إنما امتدت حدودها وتداخلت لتشمل كل أراضي الإمارة التوأم. أما القرض الذي أشير إليه فقد كان مقدمة لقروض أخرى وهبات كثيرة قدّمها زايد لدبي ولسائر الإمارات الأخرى في الساحل المهادن لتحقيق التنمية لإنسانها. وشرح زايد الأمر للمسؤولين البريطانيين في الخليج بأنه حين يبذل كل ما يستطيع من مال في شؤون التعمير لكافة الإمارات فإنه لا يربط ذلك بمسيرة الاتحاد، ولا بانتظام المشيخات الأخرى في سلكه، وكما يقول زايد، «هو تعاون في سبيل خير الجميع الذين يعمرون هذه المنطقة ذات الامتداد الجغرافي والثقافي الواحد، فالمال هنا للتنمية». وأردف زايد بأنه يميِّز بين نوعين من الدعم للإمارات: دعم التنمية الذي أكدّه مرّة أخرى أن لا صلة له بمسألة انضواء هذه الإمارات تحت راية الاتحاد، والدعم العسكري الذي يمكن أن يقدمّه للإمارات التي تدخل في عضوية الاتحاد فقط.

وفي الحقيقة فإن ما لم يقله زايد لهؤلاء المسؤولين هو أنه قد جُبِل على العطاء، وحبّ الخير لمجتمعه الصغير ومحيطه الأوسع؛ فالعطاء الذي كان يظنّه المسؤولون البريطانيون سياسة مدبّرة يستجلب بها زايد تقدير زملائه الحكام، ويستأنس بها قلوب الرعية كان في حقيقة الأمير سياسة أبوية عفوية نابعة من الذاتية الشخصية للبطل؛ فالبطولة في التفسير التاريخي لها مواصفات قد لا يحسن موظف من موظفي الإمبراطورية البريطانية المتهالكة في ذلك الوقت تقديرها، ولكنها تستوقف المؤرخ وتظفر بتقديره.

تكمن البطولة – من منظور التفسير الحضاري للتاريخ – في ذلك الإنسان الذي يضع هموم مجتمعه في المقام الأول من اهتماماته ويعمل بدأب لاستكشاف الوسائل الناجعة التي تتطلبها اللحظة التاريخية، وتفعيل تلك الوسائل، لحل مشكلات المجتمع رغم ما يعترضها من عقبات. في البطل تتجمع فضائل القوّة العقلية، ونفاذ البصيرة وصفاء السريرة، وحيوية الضمير والصفات الخيّرة الطبيعية والمكتسبة التي تكوّن الشخصية الفردية والجماعية، وتوجّه التاريخ. ويصبح البطل – بنكرانه ذاته التي تفنى في الكل – «أقدر» من أفراد مجتمعه في قيادة المسيرة الجماعية، و «أفعل» في تحقيق أهداف مجتمعه.[١٦]

البطل – تاريخياً – هو الكل في الفرد؛ ففيه تتجسّد كافة تطلعات المجتمع وتتركّز آماله؛ لأنه يخرج من قلب مجتمعه ويعبّر عن ضميره.

والبطل أيضاً هو الفرد في ريادة الكل؛ فشخصية البطل عادة ما تكون شخصية متقدمة على مجتمعها. يتقدم البطل ذلك المجتمع ثم يحرّضه للحاق به، بيّد أن المسافة بين شخصية البطل وشخصية مجتمعه يجب ألا تكون شاسعة حتى لا تحدث القطيعة، ويفقد صفة البطولة ويصبح منظِّراً أو فيلسوفاً، أو داعية إصلاح، لغايات بعيدة المنال لا تفي مصادر مجتمعه ولا قدراته بتحقيقها. ومهما كانت تلك الغايات سامية أو جليلة

فلا تعدو أن تكون آمالاً طيبة، وأحلاماً نبيلة. ولما كان للشيخ زايد من صفات البطولة الحضارية ما أهّله لامتلاك مصادر القوّة المادية والمعرفية والأخلاقية التي يتحتم عليه أن يوظّفها التوظيف الصحيح ليبلغ بها غايات مجتمعه، ولما كان على هذا البطل الحضاري أن يتمتع بالإدراك الصحيح لمصادر قوته فلا يفرط في تقديرها ولا يعمد إلى التهوين من شأنها – فقد أصغى «لنداء الروح» في تلبية دعوة الاتحاد الجماعي لإمارات الخليج كلها، ولكنه بات ينتظر الخطوة التالية للدياليكتيك «التي تتأتى من طبيعة الشيء في ذاته رغم أنها لا تمثله ولا تكون شبيهة له». أدرك الشيخ البطل مبدأً مهمّاً في نظرية التفسير الحضاري للبطل، وهي أن التفريط والإفراط طرفاً نقيض، وكلاهما حرب على البطل!

كان الشيخ زايد يدرك أن هناك العديد من المشكلات الدولية والإقليمية والمحلية والخاصة التي تعترض سبيل قيام اتحاد تساعي. وأدرك زايد أن عليه وعلى الآخرين من نظرائه الحكام أن يعملوا لبلوغ تلك الغاية، على ألا تتوقف مسيرة الاتحاد بين إمارات الساحل المهادن التي أصبح طريقها ممّهداً. ورغم وعي البطل بكل تلك المشكلات إلا أنه سارع إلى حضور مؤتمر حكام الإمارات التسع المنعقد في دبي في الفترة من ٢٥ إلى ٢٧ فبراير ١٩٦٨م، وأسهم في نجاحه رغم اختلاف وجهتي النظر بينه وبين حاكم قطر المتطلع إلى اتحاد فوري بين الإمارات التسع.

ذكرت برقية من الوكيل البريطاني في ٢٢ فبراير ١٩٦٨ ومصدرها دبي، أن لامب – الوكيل البريطاني في أبوظبي – قد كان في العين في ٢٠ فبراير، وأنه زار الحاكم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.[١٧] ووجد الشيخ أحمد بن علي آل ثاني في مجلسه الذي ضمّ الشيخ محمد بن خليفة آل نهيان كذلك. وتضيف البرقية أن الشيخ أحمد لم يكن راضياً عن إعلان اتفاق دبي – أبوظبي في ١٨ فبراير، وعاتب الشيخ زايداً على صدور ذلك الإعلان الذي كان يجب أن يؤجّل لتنضمّ إليه كافة

الإمارات الأخرى وحثّه على التراجع عن ذلك الاتفاق للاتفاق الجماعي الجديد الذي اقترحه، غير أن زايداً اعترض بشدّة على ذلك الطلب على الرغم من أنه كان يتحمس لقيام اتحاد تساعي حماس الشيخ أحمد، ويسعى لتنفيذه إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وأضاف زايد أنه سيستجيب فوراً لحضور أي اجتماع أو اجتماعات يدعى إليها للنظر في قيام أي اتحاد يمكن أن يضمّ الإمارات التسع أو السبع. ودافع الشيخ زايد بأن إعلان السميح يمكن أن يكون أساساً قوياً لبنية اتحاد تقوم عليه الإمارات التسع.

موقف السياسة البريطانية من مسيرة الاتحاد

في الحقيقة أن تراجع زايد عن اتفاق السميح الأمر الذي أراده الشيخ أحمد بن علي تمهيداً لقيام الاتحاد التساعي لم يكن مقبولاً ولا ممكناً؛ فقد اكتسب ذلك الاتفاق صبغة قانونية، وشرعية، وتأييداً شعبياً، وقبولاً لدى الغالبية العظمى من الدول العربية، بالإضافة إلى أنه وجد من السلطات البريطانية في الخليج «دعماً متحفظاً».[١٨] ولا يوجد من الأسباب المنطقية ما يدعو إلى رفضه، فهو لا يتعارض البتّة مع قيام الاتحاد الأشمل، بل يمكن له أن يكون دعامة من دعامات الاتحاد المرجو.

مضى الشيخ زايد في جهده الدؤوب في تشكيل الاتحاد السباعي الذي كان يدرك أن إمكانياته المتاحة وقتئذ تفي للاضطلاع بعبئه، ولم يتأخر في الوقت ذاته عن تقديم الدعم للاتحاد التساعي.

شرح الشيخ زايد خطّته بشأن قيام الاتحاد للوكيل السياسي البريطاني في أبوظبي بأنه يسعى جاهداً في هذه الفترة إلى استكمال اتحاد الساحل المهادن بدعوة الإمارات الشمالية الخمس لتصبح وحدة ضمن هذه المنظومة الاتحادية التي ضمّت أبوظبي ودبي. ويعلّق الوكيل البريطاني على ذلك بأنه يعتقد أن هدف زايد مقبول، وأنه يتسق

مع ما يعتقدون أنه يحقق رغبة المواطنين المستنيرين سياسياً في إمارات الساحل المهادن، ولا يتعارض مع قيام اتحاد شامل للإمارات العربية. وأضاف الوكيل: «إنهم – البريطانيين – سيعملون على دعم زايد دعماً متحفظاً». وعبّر الوكيل البريطاني لزايد بأنه يعتقد أن هناك وسيلتين لدعم العمل الاتحادي والنهوض به الأولى: أن يتعامل زايد مع مواطني الإمارات الأخرى مباشرة ببذل المال والعطاء إليهم، وهذه الوسيلة ستضعف سلطة حكام تلك الإمارات على مواطنيهم، برأي الوكيل، والثانية: أن يتعامل مع حكام الإمارات مباشرة، على أن يبدأ بالشيخ راشد بن سعيد، ثم بالخمسة الآخرين. وأشار الوكيل على زايد بضرورة أن يلتزم بالرباط القديم الذي أسسّته بريطانيا للحكام المتمثّل بمجلس حكام الساحل المهادن، وأن يعمل معه لتطويره إلى اتحاد «وظيفي» وعليه أن يستغل وكالات هذا المجلس، ويدعم صندوق التطوير التابع له، بما يقدر من العطاء.[١٩] ولم يكن زايد يرى في مجلس حكام الساحل المهادن – في حقيقة الأمر – إلا تاريخاً تقلّص مع تقلّص النفوذ البريطاني ولكنه – رغم كل هذا – قد دعم هذا المجلس بتحفّظ، تمشياً مع سياسته المرنة تجاه السلطات البريطانية التي عمل على استقطابها، ولكن دعمه لم يكن بالقدر الذي يحقق للمجلس ما أرادته السلطات البريطانية.

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن السياسة البريطانية التي أفسد الشيخ زايد خطّتها حين أعلن مع الشيخ راشد قيام مؤسسة فيدرالية – كانت سياسة مرنة تفاعلت مع الأوضاع القائمة. وقد تعلّم الساسة البريطانيون من تاريخهم الإمبراطوري الطويل ألا تقوم سياساتهم على الفرضيات والنظريات إنما على الواقع. فإذا توافقت معطيات الأحداث مع الأهداف والمصالح البريطانية دعمتها تحقيقاً لغاياتها المحددة، أما إذا تناقض ذلك الواقع مع أهدافهم ومصالحهم فنجدهم يبحثون في نسيجه عن خيوط يعالجونها برفق ودقّة وحذر فيصبغونها لما يخدم مصالحهم. فعلى سبيل المثال نجدهم – وقد خسروا تخطيطهم بجهود الشيخ

البطل، وتوقيع اتفاقية السميح التي لم يكن لهم يد في صياغتها – يبحثون عن مدخل يمكّنهم أن يوجهوا به الاتحاد المزمع الوجهة التي يريدونها؛ فاختاروا أن يدخلوه في قوالبهم القديمة، مثل مجلس حكام الساحل وغيره من المؤسسات التي كانوا قد ابتدعوها لتنفيذ سياساتهم.

أشارت السلطات البريطانية في الخليج على الشيخ زايد بأن يصل إلى هدفه في قيام الاتحاد بمجلس حكام الإمارات وصندوق التطوير. ويمكن لنا أن نلاحظ هنا أيضاً أن زايداً قد عايش سياسات البريطانيين دهراً طويلاً؛ خبر أساليبها، واستقى منها قدراً مكّنه من التعامل معها ومواجهتها بروح البطل الذي يدرك حجم إمكانياته؛ فلا يعمد إلى المواجهة المباشرة، ولا يهرب إلى بيت الطاعة والامتثال.

أكدت الوثائق البريطانية المتبادلة بين المسؤولين في الخليج أن زايداً يزهد في «النصائح البريطانية»[٢٠] ولا يستجيب لها، غير أن عدم استجابته لم تكن تأخذ شكل الرفض الصريح إنما كان يغلّف رفضه بأعذار منطقية، وأسباب عملية تلقى قبولاً من الطرف الآخر.

كان الشيخ زايد يدرك أن مكتب التطوير الذي أسّسته بريطانيا عام ١٩٦٥م، وألحقته بمجلس حكام الساحل المهادن لم يقم إلا لمناهضة ما أزمعته الجامعة العربية من مساعدات لدعم التعاون العربي، ومساعدات مالية وفنيّة للإمارات لتقوية التعاون الاجتماعي والثقافي، ودعم النشاط الاقتصادي في المنطقة. واعتمدت بريطانيا مبلغ مليون جنيه منحة سنوية للصندوق عند إنشائه، ووجهت بأن تصبّ كافة المساعدات العربية للمنطقة في ذلك الصندوق، بحجّة توحيد مصادر الدخل والصرف. وقد رفضت الجامعة العربية، كما رفضت الكويت والسعودية وغيرهما من الدول المانحة للمساعدات أن تدعم هذا الصندوق، أو أن تعمل تحت غطاء بريطاني، وقرّرت هذه الدول والمؤسسات العربية على أن تقدم دعمها لأشقائها بعيداً عما خططته بريطانيا.

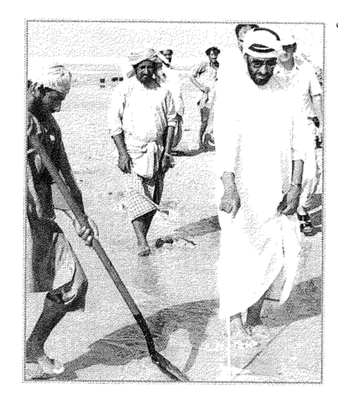
أما إمارة أبوظبي فقد دعمت هذا الصندوق دعماً متحفظاً يجنبّها الاعتراضات البريطانية، ولكنها راحت في الوقت نفسه تقدم الدعم المالي المباشر للإمارات الأخرى بما يفوق أضعاف ما تقدّمه بذلك الصندوق.

رفض الشيخ زايد رأي الوكيل البريطاني أن تقديمه المال لمواطني الإمارات يضعف من سلطة الحكام الآخرين على رعاياهم. وأكد للوكيل أن الحكام في الإمارات الأخرى لا ينظرون إلى دعمه مواطنيهم إلا بالعرفان، وأنهم يدركون جيداً حسن نيّته، وأن دعمه لهؤلاء الرعايا لن يفسّر إلا بأن الحكام في الإمارات المختلفة يد واحدة تمتد بالعطاء للجميع. ومع ذلك فقد وعد الشيخ زايد الوكيل البريطاني بأنه سيعمد إلى تخفيف العطاء المباشر لمواطني الإمارات الأخرى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وأشار زايد في هذا الصدد إلى أن انقطاع عطائه فجأة لن يتسبب إلا في ردّة فعل شعبية تضرّ بمركزه وبزملائه «الحكام الآخرين وأضاف أنه سينظر في أمثل السبل للتوصل إلى طرق بديلة في توزيع عطائه لسدّ حاجة الأهالي الفقراء في الإمارات الأخرى».

وهنا أيضاً يمكن القول: إن الكرم ضرورة من ضرورات الحكم الأبوي وسجيّة من سجايا البطل العربي المسلم الأصيلة انطلاقاً من شخصية تدرك معنى التكافل الاجتماعي، وتعمل على رفع المعاناة عن المحتاجين. ولم يكن عطاء الرجل لمواطنيه ضرباً من السياسة كما ظنّت السلطات البريطانية، إنما كان نمطاً موروثاً في الشخصية القيادية العربية منذ فجر التاريخ. ويؤكد هذا الرأي أن الشيخ زايداً قد أخبر الوكيل السياسي البريطاني في أبوظبي في اجتماع آخر بأن غاية «أمانيه أن يرى أهل الساحل المهادن كافة يعيشون معاً، وكأنهم أسرة واحدة، وأن يرى الحكام كافة إخواناً يعاضد بعضهم بعضاً، ويدعمون مسيرة الاتحاد».[٢١]

كان الإداريون البريطانيون في الخليج يعملون لأن تكون لبريطانيا كلمة مسموعة في قيام الاتحاد الذي عملوا على «قَوْلَبته» في مجلس حكام الساحل المهادن، وجاهدوا

زايد يتفقد بعض
مشروعاته



زايد يشارك مواطني الإمارات المختلفة احتفالاتهم



في ألا تكون الخطوات الفعالة فيه خطوات وطنية أصيلة يقودها الشيخ البطل. تقول إحدى الوثائق البريطانية الصادرة عن مكتب الوكيل البريطاني في أبوظبي في ٤ أبريل نصّاً: «وعلى الرغم من أنني استطعت أن أقطع معه (زايد) شوطاً بعيداً في سبيل التفاهم إلا أنني فشلت فشلاً ذريعاً في إقناعه بألا يقوم بعقد اتفاقات منفصلة مع كل شيخ من شيوخ الإمارات. فقد قال لي زايد بمزيد من الفخر: إنه قد فرغ لتوّه من عقد اتفاقية في هذا الصدد مع حاكم الشارقة، وإن ابن شيخ أم القيوين في الطريق إليه حالياً لتوقيع الاتفاق نيابة عن والده، وأضاف أن هناك إشارات من عجمان تبشّر بقرب انضمامها إلى الاتحاد». وأكد زايد للوكيل السياسي البريطاني أنه قد غدا متفائلاً بأن دور رأس الخيمة للانتظام في سلك الاتحاد قد بات قريباً. أما الشيخ راشد، شيخ دبي، الذي سبق أن دخل مع الشيخ زايد في اتفاقية السميح فقد كان محل تقدير زايد واحترامه، «فهو الأكبر سناً» وهذا ما يؤهّله انطلاقاً من الأعراف الموروثة لزايد للفوز بالصدارة. وذكر الشيخ زايد أنه ينوي أن يفسح المجال لراشد ليؤدي الدور القيادي في حكومة الاتحاد، وتحدث عن الجهود التي بذلها منذ أن أصبح حاكماً لتأكيد العلاقات الطيبة مع الشيخ راشد، وأن هذه الجهود قد كللت بالنجاح، وآتت أكلها في تلك المحادثات التي نوقشت فيها كل الأمور بصراحة تامة، ثم توّجت بعدئذ باللقاء الذي تمّ في السميح والذي أعاد «توحيد بني ياس».[٢٢]

ويؤكد الوكيل البريطاني أن الشيخ زايداً قد صمم على قطع شوط الاتحاد حتى آخره، وأنه يمدّ يده للاتحاد مع «أي عدد من الإمارات ينضمّ إليه، وأنه سيعمل على الدفاع عن الإمارات التي تنضوي تحت لواء الاتحاد فقط». وأفادت هذه المذكرة بأن زايداً سيسهم في دفع حركة التنمية في كافة الإمارات المهادنة «سواء استظلت بعلم الاتحاد أو رفضته».[٢٣] ويضيف الوكيل البريطاني «أن الشيخ زايداً لا يريدنا أن نتصل بالحكام في هذا الصدد، وأبدى لنا قناعته بأنهم سيتفهمون في القريب العاجل ما يرمي إليه شخصياً من قيام الاتحاد»، وأنه يريد أن يضّطلع بعبء تنفيذ سياسته مع نظرائه

الحكام دون أية مساعدة منا، ودون أدنى تدخل من جانبنا لدى هؤلاء الحكام. وقد وعدته بذلك، كما طلب عرض وجهة نظره عليك «يخاطب الوكيل المقيم»، ويصل الوكيل البريطاني إلى القول: «أما ما يخدم خطّة هذا الرجل، فيمكن القول: إن صاحبها رجل ذو عزم وتصميم، ويملك المال اللازم لتنفيذ خطّته التي أزمع على تنفيذها».

جاء في فقرة أخرى من هذه المذكرة أن الوكيل البريطاني قد استنتج من سلوك الشيخ زايد ومما رواه أحد مستشاريه ما جعله يثق بأن زايداً بات مقتنعاً منذ أمد طويل بضرورة انتهاج هذا «النهج في قيام الاتحاد، وأن أي عمل نقوم به لن يفتّ في عزيمته أو يثنيه؛ فقد صمم تصميماً تاماً وعزم عزماً راسخاً على تنفيذ هذا الأمر بطريقته. فإذا لم نعترضه أو نشاكسه في مسعاه فإني أثق بأنه سيقبل نصيحتنا في عدد من النواحي المهمة المتصلة بالتنظيم الإداري للدولة الجديدة. أما إذا اضطرّ زايد، نتيجة رفضنا التعاون معه فيما أزمعه فإنه سيطرح نصيحتنا في هذا الأمر جانباً، وسيقوم بالأمر وحده».

وعلى الرغم من كل ذلك لم تفتر محاولات المقيم البريطاني ومكاتبه من التدخل لتوجيه الاتحاد الوجهة التي يريدونها. جاء في مذكرة بتاريخ ١١ أبريل ١٩٦٨م أن المقيم السياسي البريطاني تطرّق في لقائه مع الشيخ زايد، «إلى موضوع الاتحاد بين إمارات الساحل المهادن، وأنه لن يملّ من أن يكرِّر ما ذكره لزايد من قبل بأن هدف الحاكم من إنشاء اتحاد يضمّ إمارات الساحل المهادن هدف جيد، ولكن على الحاكم ألا يتعجل في الأمور ليتمكن من بناء الاتحاد بشكل أفضل، وأن ذلك الهدف يمكن أن يتحقق بمجلس حكام الإمارات».[٢٤] أجاب الشيخ زايد على الوكيل البريطاني بأنه «يعرف هدفه جيداً، وأن نظراءه من حكام الإمارات الأخرى لم يظهروا أي ضجر من أسلوب عمله في قيام الاتحاد، و لم يعترضوا عليه». واعترض زايد على رأي المقيم الذي

جاء منه أنه: «من الأفضل أن يصبّ زايد المال من خلال قنوات مكتب التطوير للإمارات الأخرى لدعم الاتحاد ومن المستحسن أن يبذل المال لهؤلاء الشيوخ لكي يمنحوه لرعاياهم». وذكر أن أكثر المال المقدم حتى هذا الوقت إلى مكتب التطوير قد ورد من خزينته، وأنه لم يأل جهداً في مساندة مشروعات هذا الصندوق. "وانتهز المقيم هذه الفرصة ليقول للحاكم إن الرعيّة يجب ألا تُمنح الأموالَ هِبةً دون أن تقوم بجهد العمل؛ فالهبات دون عمل مفسدة للرعية. ودفع الحاكم هذا الاعتراض بقوله: إن بلاده تمرّ بمرحلة استثنائية يصعب على الرعيّة – على ما هي عليه – أن تجد من العمل ما يمكن القيام به، وأن الوسيلة الوحيدة في هذه الفترة لمساعدة المواطنين، وإدخال السرور إلى قلوبهم تكمن في إتحافهم بالأعطيات ومدّهم بالهبات."(٢٥)

بهذه الروح السمحة تدفق عطاء زايد لإنسان الإمارات ليروي بالعطاء جفاف السنين العجاف، ويزيد في تآلف القلوب. والعطاء عند زايد خلّة وطبع وهو في الوقت ذاته إرث متأصل في النظام المشيخي الأبوي لا يقوم هذا النظام إلا به. أما إذا حشرنا هذا العطاء الزايدي في زاوية السياسة، كما هو دأب المسؤولين البريطانيين، فيمكن القول: إنه يمثل سياسة البطل الذي هو «الكل في الفرد»، فإذا اجتمع في البطل الشيخ «كل» المجتمع فإنه لن يهنأ بمال لا يشاركه فيه ذلك الكل.

عمل زايد على تنظيم العطاء لأهله من رعايا الإمارات الأخرى بشيوخ تلك الإمارات، وأمر في يونيو ١٩٦٨م بافتتاح مكتب أبوظبي في الشارقة للقيام بالأبحاث والدراسات اللازمة لتهيئة الفرص لأهالي إمارات الساحل للعمل في مشروعات التعمير التي تقوم بها أبوظبي في الإمارات الشمالية وفي إمارة أبوظبي كذلك. ولقد لقي هذا المكتب – حال افتتاحه – ترحيباً عربياً. وتشير إحدى الوثائق من الوكالة البريطانية في دبي إلى أن صحيفة «الأهرام» القاهرية قد أشادت بافتتاح هذا المكتب الذي لقي ترحيباً في الدوائر السياسية في القاهرة، ويقول الوكيل البريطاني: «ذهبت

إلى هذا المكتب في الشارع العام في الشارقة والذي يرفّرف عليه علم أبوظبي، ويعرف في الأوساط الشعبية هنا باسم مكتب التعاون. وقد أخبرني حاكم الشارقة في لقائي إياه في ٦ يونيو أن الموافقة على إنشاء هذا المكتب قد تمّت في الاجتماع الأخير في أبوظبي، وأنه سيستكمل بضمّ ممثلين عن عجمان وأم القيوين، وأن المهمّة الأولى له هي تنظيم العمالة لتلافي العشوائية والتخبط والموانع الأخرى التي تعطل توظيفها».[٢٦]

ولنوجز ما قدّمنا: بالدبلوماسية العربية البسيطة الهادئة المتزنة للشيخ البطل أصبحت أبوظبي قبلة عطاء تهافتت إليها قلوب الرعيّة في كافة الإمارات، وركيزة لمشروعات تنموية وعمرانية واجتماعية وثقافية للمجتمع في تلك المنطقة تنادى إليها شيوخها بعزم أكيد، وتصميم لا مزيد فوقه. وقد شهد النصف الأول من عام ١٩٦٨م نشاطاً سياسياً مكثّفاً من كافة شيوخ الإمارات تلبية لنداء الاتحاد الذي أطلقه زايد «الشيخ البطل»، وقاموا بزيارات متتالية إلى أبوظبي صدرت إثرها بيانات رسمية تؤكد أواصر الاتحاد والأخوة والتضامن والمصير المشترك ونبذ الفرقة والتشرذم.[٢٧] وقد أسهم هذا المدّ الاتحادي في منطقة الساحل المهادن في العمل على تقريب وجهات النظر بين حكام الإمارات التسع.

اجتماع دبي: فبراير ١٩٦٨م

جاء اتفاق دبي الذي وقّعه حكام الإمارات التسع في السابع والعشرين من شهر فبراير على ذات النسق الذي قام عليه اتفاق السميح إلا أنه كان أكثر تفصيلاً. وأبرق الوكيل السياسي في دبي إلى المقيم في البحرين بما يلي: أصدر حكام البحرين وقطر والإمارات المتصالحة في السابع والعشرين من فبراير بياناً رسمياً مشتركاً عبّروا فيه عن اتفاقهم على إقامة اتحاد للدول التسع مجتمعة يسمى اتحاد الإمارات العربية. وفيما يلي تلخيص لأهم معالم هذا الاتحاد:

١- توحيد السياسة الخارجية والتمثيل الخارجي.
٢- إقامة تنظيم للدفاع المشترك.
٣- إقامة مجلس أعلى للحكام لوضع الدستور، وتحديد الخطوط الرئيسة للسياسة في الميادين الدولية والدفاعية والاقتصادية وغير ذلك.
٤- يتولى المجلس الأعلى للحكام وضع ميزانية الاتحاد، ويحدد إسهام كل إمارة عضو.
٥- إنشاء محكمة عليا للاتحاد.
٦- يقرر المجلس الأعلى المقرّ الرئيس للمحكمة العليا.
٧- المحافظة على سيادة الكيان الداخلي للإمارات الأعضاء.

ونصّ هذا الاتفاق أيضاً على أن يبدأ العمل بأحكام هذا الاتفاق من أول المحرم ١٣٨٨/ ٣٠ مارس ١٩٦٨م. وقد تلقى المواطنون هذا الاتفاق بارتياح كبير، ورحّبت به الدول العربية ما عدا سورية واليمن الديموقراطية والجزائر أو ما كان يسمى بالدول الثورية. وكان ترحيب الكويت والسعودية بالحدث كبيراً، عبّرت عنه وسائل الإعلام كما عبّرت عنه أيضاً التصريحات المتبادلة بين الحكومات المذكورة.[٢٨] ويرجع عدم ترحيب الجبهة العربية الرافضة لنصّ الاتفاق إلى الاعتقاد الخاطئ حينئذٍ في تلك الدوائر بأن الاتحاد صناعة إمبريالية.[٢٩] ولعل المثير للانتباه أيضاً أن المسؤولين البريطانيين كانوا يعتقدون - خطأ أيضاً- أن الترحيب السعودي الذي ورد في البيان المشترك الصادر في الرياض في ١٣ أبريل ١٩٦٨م والذي تكرّر مرّة أخرى في البيان المشترك الصادر في الكويت في أعقاب زيارة الملك فيصل للشيخ صباح السالم الصباح - كان ترحيباً غير صادق، فهو - في ظنّهم - لا يزيد عن كونه خطوة تكتيكية رمى بها الملك فيصل إلى إحراج طرف معيّن. أما الإعلام الإيراني فقد كان مقتنعاً بأن هذا الاتحاد المزمع لا يزيد عن كونه «مؤامرة إمبريالية». وهكذا ومنذ اللحظة الأولى لإعلان الاتحاد التساعي برزت إلى السطح مصالح إقليمية ودولية يمكن أن تعترض طريق هذا

اتفاقية

اتحاد الامارات العربية

الموقعون على هذه الاتفاقية :

صاحب العظمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان	حاكم أبوظبي
صاحب العظمة الشيخ عيسى بن سلمان الخليفة	حاكم البحرين
صاحب العظمة الشيخ راشد بن سعيد المكتوم	حاكم دبي
صاحب العظمة الشيخ أحمد بن علي آل ثاني	حاكم قطر
صاحب السموّ الشيخ أحمد بن راشد المعلا	حاكم ام القوين
صاحب السموّ الشيخ خالد بن محمد القاسمي	حاكم الشارقه
صاحب السموّ الشيخ صقر بن محمد القاسمي	حاكم رأس الخيمه
صاحب السموّ الشيخ محمد بن حمد الشرقي	حاكم الفجيره
صاحب السموّ الشيخ راشد بن حميد النعيمي	حاكم عجمان

نظرا لان امارتي أبوظبي ودبي قد أبرمتا في يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٩٦٨ م اتفاقا على تكوين اتحاد بينهما رغبة منهما في المحافظة على الاستقرار في بلديهما وتحقيق مستقبل أفضل لشعبيهما ،

ولما كان الاجماع منعقدا على أن انشاء اتحاد يشمل جميع الامارات العربية في الخليج بما فيها امارتا أبوظبي ودبي أوفى بتحقيق الغرض الذي نشدته هاتان الامارتان وترنو اليه آمال شعوب المنطقة بأسرها ،

ودعما لأواصر الأخوّة الوثيقة بين جميع الامارات العربية في الخليج العربي ، وتثبيتا للروابط القويّة العديدة التي تجمع بين هذه الامارات ،

وحرصا على توجيه جهودها بكل الوسائل المستطاعة الى ما فيه صلاح أحوالها ، وتأمين مستقبل بنيها ، وتحقيق الخير للامة العربية جمعاء ،

واستجابة لرغبة شعوب المنطقة في تعزيز أسباب الاستقرار في بلادها وتحقيق الدفاع الجماعي عن كيانها وصيانة أمنها وسلامتها ، وفقا لأهداف ومبادئ ميثاق الامم المتحدة وميثاق جامعة الدول العربية ،

قد اجتمعوا ، مع الوفود المرافقة لهم في دبي يومي اليوم السادس والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٧ هـ الموافق لليوم الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩٦٨م واليوم الثامن والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٧ هـ الموافق لليوم السابع والعشرين من فبراير عام ١٩٦٨م

وتمّ التعاهد والاتفاق بينهم على ما يلي :—

البـــاب الأول

انشـــاء اتحـــاد للامـــارات العربيـــــة

(١) ينشأ اتحاد للامارات العربية في الخليج العربي من الامارات المتعاقدة ويسمى " اتّحاد الامارات العربيـة "

(٢) يكون الغرض من هذا الاتحاد هو توثيق الصلات بين الامارات الاعضـاء وتقوية التعـاون بينها في كل المجالات ، وتنسيق خطط تقدمها ورخائها ، ودعم احترام كل منها لاستقلال الاخرى وسيادتها ، وتوحيد سياستها الخارجية وتمثيلها الخارجي ، وتنظيم الدفاع الجماعي عن بلادها صيانة لأمنها ومحافظة على سلامتها والنظر بصفة عامة في شئونها ومصالحها المشتركة بما يكفل بلوغ أمانيها وتحقيق آمـال الوطن العربي الكبير قاطبـة .

البـاب الثـانـــي

السلطات

(٣) يشرف على شئون الاتحاد مجلس يسمى " المجلس الاعلى " ويشكل من حكام هذه الامـــارات .

(٤) يضطلع المجلس الاعلى بوضع ميثاق كامل دائم للاتحاد ، ورسم سياسة عليا له في المسائل الدوليـة والسياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية وغيرها المتصلة بأغراض الاتحـــاد المبينة في المادة الثانية من هذه الاتفاقية . ويختص المجلس بأصدار القوانين الاتحـــادية اللازمة في هذا الشأن . وهو المرجع الاعلى في تحديد الاختصاصات . وتصدر قراراته بالاجماع .

(٥) يتناوب حكام الامارات الاعضاء سنويا رئاسة اجتماعات المجلس الاعلى . ويتولى الرئيـــس تمثيـــل الاتحاد في الداخل وتجاه الدول الاجنبية .

(٦) تصدر الميزانية العامة للاتحاد بقرار من المجلس الاعلى . ويعيّن القانون مواردها والحصة التي تؤديها كل امارة من الامارات الأعضاء .

(٧) يعاون المجلس في مباشرة سلطاته مجلس يسمى " مجلس الاتحاد "

(٨) مجلس الاتحاد هو الهيئة التنفيذية للاتحاد ، ويمارس اختصاصاته وفقا للسياسة العليـا التي يقرّها المجلس الاعلى وطبقـا للقوانين الاتحادية .

(٩) يحدد القانون طريقة تشكيل مجلس الاتحاد ، والقواعد الاساسية لنظامه •

(١٠) لا تعتبر قرارات مجلس الاتحاد نهائيــة الا بعد مصادقة المجلس الاعلى عليها •

(١١) تشكل وتنظم بقانون اتحادى المجالس والهيئات اللازمة لمعاونة مجلس الاتحاد على القيام بأعماله •

البـــاب الثـــالث

أحكـــــــام متـفـــرقـــــــه

(١٢) عملا بحق الدفاع الشرعي — الفردى والجماعي — عن كيانها ، تتعاون الامارات المتعاقده فيما بينها لدعم مقوماتها العسكرية وتعزيزها • واداء لواجبها المشترك في دفع أى اعتداء مسلح يقع على أىّ منها ، تشترك ، بحسب مواردها وحاجاتها ، في تهيئة وســـائلها الدفاعية الخاصة والجماعية للقيام بهذا الواجب •

(١٣) أ ـ يكون للاتحاد محكمة عليا تسمى " المحكمة الاتحادية العليا "

ب ـ يحدد القانون طريقة تشكيل المحكمة ونظامها واختصاصاتها •

(١٤) يصدر بتعيين المقرّ الدائم لاتحاد الامارات العربية قرار من المجلس الاعلى ، ولهـــذا المجلس أن يجتمع في أى مكان آخر يحدّده •

(١٥) تمارس حكومة كل امارة شئـونها المحلية الخاصة التي لم يسند الاختصاص بصددها للاتحـاد بموجب هذه الاتفاقية أو القوانين الاتحادية •

(١٦) يجوز بقــرار من المجلس الاعلى للاتحاد تعديل هذه الاتفاقية ، وبخاصة اذا كان من شأن التعديل أن يجعل الروابط بين الامارات الاعضاء أشد قوّة وأكثر متانة •

ولا يبتغي التعديل الا في دور الانعقاد التالي للدور الذى يقدم فيه الطلب •

(١٧) يعمـــل بهذه الاتفـــاقيـــة من أول محـــرم ١٣٨٨هـ ، المـــوافـــق ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ م ، وفقــا للانظمـــة المرعيـــة في كل امارة عضــــــو ، وذلك

الى حين وضع ميثاق بالنظام الكامل الدائم للاتحاد .

حررت هذه الاتفاقيــــة في دبي بتــاريخ الثامن والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٧ هـ ، الموافق لليوم السابع والعشرين من فبراير عام ١٩٦٨ م من تســـع نسخ سلمت واحدة منها لكل من الامارات الاعضاء .

التـوقيعـــات

عيسى بن سلمان الخليفة حاكم البحرين	زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي
أحمد بن علي آل ثاني حاكم قطر	راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي

صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة	خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة	أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين

راشد بن حميد النعيمي حاكم عجمان	محمد بن حمد الشرقي حاكم الفجيرة

الاتحاد، كما برزت لاحقاً مؤثرات محلية برهنت عقابيلها على اختلاف في المصالح والرؤى وكان من الصعب تجاوزها.

كان الشيخ زايد على قناعة تامة بقيام اتحاد الإمارات العربية التسع، إلا أنه رأى بثاقب نظره أن اتحاد الإمارات التسع المعلن الذي يتمنى له أن يدوم طويلاً أمر غير واقعي: «وذكر زايد في حديث له مع الوكيل البريطاني في أبوظبي أن الاجتماعات التي تتم بين الرؤساء لإقامة هذا الاتحاد» يجب ألا تكون تعبيراً عن مظاهر خادعة، بل قناعة لدى الجميع بالفوائد التي يمكن أن تنجم من مثل هذا التنظيم. وفي لقاء آخر لزايد مع الوكيل البريطاني عبّر الشيخ عن قناعته بضرورة قيام اتحاد الإمارات السبع كوحدة واحدة تدخل ضمن اتحاد فضفاض يضمّ الإمارات التسع، وأكّد في هذا اللقاء للوكيل البريطاني أيضاً قناعته بضرورة أن تكون علاقة أبوظبي مع قطر علاقة أخوِّية طيِّبة، وأن تكون قطر عضواً فاعلاً في الاتحاد الأشمل، وأردف الشيخ زايد بأنه ينظر إلى قطر – بحكم علاقاتها الوثيقة مع السعودية – كعامل حيوي في استقرار أمن إمارة أبوظبي، وأمن الاتحاد الشامل في الخليج العربي.

وعلى الرغم من حماس شيخ أبوظبي لقيام اتحاد شامل بين إمارات الخليج العربية تندرج فيه قطر، وعلى الرغم من حماس شيخ قطر للاتحاد التساعي الذي كان أول المنادين به إلا أن الدوافع لكل من الشيخين في أبوظبي وقطر لم تكن متطابقة.

كتب بويل – الوكيل السياسي البريطاني في الدوحة – في ١٢ أبريل ١٩٦٨م، عن وجهة النظر القطرية فقال: «لا ترى قطر سوى سبيل واحد للحفاظ على السلم والاستقرار في منطقة الخليج مستقبلاً هو الوحدة بين الإمارات العربية على أن تكون دبي عاصمة للاتحاد» ويستطرد الوكيل فيقول: أعتقد أننا جميعاً نتفق على أن قيام اتحاد للإمارات العربية هو هدف جيد نظرياً، ولكنه صعب التطبيق على أرض الواقع.

ولا يوافق الحاكم (قطر) ونائبه على الشقّ الأخير من هذا الرأي، فهما لا يعتقدان في وجود عوائق تحول دون التطبيق.(٣٠)

ينظر الحاكم في قطر ونائبه إلى السعودية على أنها الوريث الطبيعي لبريطانيا في هذه المنطقة: «فإذا ارتضى حكام الإمارات العربية هذا الوضع للمملكة العربية السعودية، ثم عملوا على اتحادهم كياناً واحداً، بالعمل لا بالكلمات، فإن كل شيء ممكن أن يتم على ما يرام، وسيصبح اتحاد الإمارات الخليجية التسع واقعاً تكتب له القدرة على البقاء والاعتماد على الذات». ويمتد طموح الحاكم ونائبه كذلك إلى أبعد من هذا؛ فهما يأملان – كما يقول هذا التقرير – أن يقوم الاتحاد بوظيفة الرابط الطبيعي بين العربية السعودية وإيران، ويعتقدان أن الاتحاد المنتظر ستكون له المقدرة على تحقيق ذلك، ويمكن أن يتحقق السلام ويسود الأمن منطقة الخليج بعد ذلك. ويعتقد الشيخان القطريان أن اعتراض الإيرانيين على انضمام البحرين إلى الاتحاد سيكون «أقلّ حدّة من إعلانها دولة مستقلة». وتستطرد الوثيقة لتقول إن: «حكام قطر يعدّون أنفسهم المنسّق الرئيس للتعاون بين الاتحاد المزمع والمملكة العربية السعودية وما ذلك إلا للأواصر التقليدية التي تربطهم بتلك الدولة، بالإضافة إلى أنهم يعدّون أنفسهم ودبي حليفيْن لإيران، وذلك على ضوء العلاقة الطيّبة التي تربط بينهما وبين إيران، ولعدم وجود أية منازعات إقليمية حدودية بينهما وبينها».(٣١)

وتضيف المذكرة: «أن قطر ترى ذات الرأي الذي تراه دبي بأن علاقتها الطيّبة مع إيران عامل أساسي حيوّي لاستقرار الخليج»، ويرى القطريون أن كل إمارة من إمارات الساحل المهادن ستكون المركز المحتمل لنسف الأمن الجماعي في الخليج، إذا استغنت بنفسها عن أخواتها، و لم تكن مع التكتل السياسي معها، وأن عدم الاستقرار سيزداد وينتشر حتى يعمّ قطر والبحرين والسعودية، وأن درء هذا الخطر يكون بقيام اتحاد الإمارات العربية.(٣٢)

كانت رغبة قطر في قيام الاتحاد الشامل صادقة، ولكنها عمدت إلى القفز فوق الحواجز حين تجاهلت النظر في وجه الحقيقة! فالعلاقة بين الرياض وأبوظبي التي كثيراً ما أكد الجانبان على أنها أخوِّية كانت لا تزال تعاني بعض مشكلات الحدود الإقليمية. فهل ستكون قطر – وهي تنتظم في سلك اتحاد يجمعها مع أبوظبي – أقرب إلى وجهة نظر الاتحاد أم أقرب إلى وجهة النظر الأخرى؟ وليس هنا مجال للإجابة عن هذا التساؤل، ولكن المؤشرات التاريخية تضعها في الجانب الآخر من أبوظبي ما قد يعدّ مشكلة حقيقية للاتحاد الوليد. كان الشيخ زايد في هذه الفترة يسعى – مثله مثل الملك فيصل – لحل النزاع على الحدود بينهما، وكان يرى القيام بتلك الخطوة لتسوية المشكلات أيضاً، ثم النظر في الخطوة التالية التي تقتضي زيادة التعاون والتضامن ودخول الاتحاد الأشمل الذي يضمّ قطر ذات العلاقة العضوية بالمملكة السعودية في ذلك الوقت. ولا يتعارض ذلك مع إدراك زايد أن من المهم في هذه الفترة أن تكون علاقات أبوظبي مع قطر جيدة فهي تتقاطع حدودها مع حدود أبوظبي والسعودية ولها – كما يقول زايد – أهمية فيما يتعلق «بالادعاء» السعودي في أراضي أبوظبي.[٣٣]

ولا يشك أي باحث بأن قطر حين نادت بالاتحاد الشامل لم تكن تنظر إلى مصالحها دون مصالح أخواتها الأخريات؛ فالأمن الذي تدعو قطر إلى سيادته في الخليج تراه أمناً لوحدة واحدة وثمراته للمنطقة كلها. وتقول مذكرة للمقيم البريطاني في الخليج: «إن الحاكم في قطر ونائبه كانا أول من نادى بفكرة الاتحاد التساعي». وينظر المقيم في الفوائد المباشرة التي تعود على قطر في حالة قيام الاتحاد التساعي فيقول: «ربما يرى الرجلان – الحاكم ونائبه – في عضوية قطر في هذا الاتحاد الشامل الحلّ الأمثل لمستقبل دولة مستقلة قائمة بذاتها ولذا يجب عليها الاتحاد مع إمارات أخرى». وهنا يقدِّم المقيم البريطاني حجّة أخرى تتعارض مع منطق اللحظة التاريخية التي ساد التعاون فيها والتضامن جميع الأطراف العربية في الخليج فيقول: إن قطر تبدي هذا التدافع لقيام الاتحاد التساعي: «خشية أن تسعى السعودية لابتلاعها إذا لم تنتظم في

الاتحاد». ويشير المقيم البريطاني إلى أن الشيخ أحمد بن علي الذي يخشى أن تبتلع السعودية بلاده محتاج في الوقت نفسه إلى الدعم السعودي[٣٤]. ويورد المقيم البريطاني بعض المؤشرات التي تفيد بانحياز حاكم قطر إلى الموقف السعودي أكثر من تبنيه وجهة النظر الظبيانية، العضو ذي الباع الطويل في الاتحاد المزمع.

كانت هناك عوامل متعارضة تطلعت قطر إلى التقليل من شأنها للوصول إلى الاتحاد الأشمل بينما كانت أبوظبي ترى أن من الأوفق أن تحلّ تلك العوامل المتناقضة أولاً وصولاً إلى قيام اتحاد شامل صادق يقوم على المكاشفة والصراحة، والاعتراف بوجود مشكلات، والعمل بأمانة لحلها ودحض كل ما يعترض المسيرة التي بدأ زايد يخطو أولى خطواتها مع إخوانه حكام إمارات الساحل المهادن. كان زايد - كما تقول إحدى الوثائق - «يلقى من مواطني منطقة الساحل المهادن كافة كل الدعم والسند اللازم، وكانوا كافة يتطلعون إلى إقامة اتحاد بقيادته؛ فزايد يتمتع بشعبية حقيقية في أوساط البدو الذين هم قسم مهم من سكان هذه الإمارات، بالإضافة إلى عامل الجذب الذي تمثّله ثروة زايد، كما يجد التأييد من تجار دبي الذين يعتقدون أن مصالحهم الذاتية تتطلب قيام اتحاد تحت قيادته».

مهّد اجتماع عقول وقلوب مواطني الساحل المهادن - بدوهم وحضرهم - على الشيخ زايد، إضافة للفوائد المادية للبدو من الأعطيات، وللتجار من التنمية المتسارعة - الطريق أمام الشيخ البطل الذي نذر نفسه لتحقيق هذا الهدف الاتحادي الذي أجمع المجتمع عليه. وكانت اللحظة التاريخية مواتية لحركة الانتقال، وكانت استجابة الشيخ البطل لنداء روح المجتمع صادقة وسريعة لتحقيق اتحاد السبع ما أربك الخطط البريطانية التي لم تكن تعترض على الاتحاد، ولكنها أوصت بالتريث في التنفيذ، غير أن اللحظة التاريخية التي مكّنت زايداً من الانتصار على عوامل الفرقة في ساحل الإمارات السبع لم تكن - حتى هذه اللحظة المفصلية - قد أعدّت مسرحها بعد ليؤدي فيه دوره

الرئيسي في قيام الاتحاد التساعي؛ فقد كان يدرك حدود إمكانيات معطيات الأحداث، ويستغل فن الممكن إلى أبعد الحدود دون تفريط في ضياع الفرص المتاحة، أو إفراط.

أدرك زايد أن انضمام البحرين إلى الاتحاد أمر دونه العديد من الحواجز المحلِّية والإقليمية ذات الذيول الدولية، وأن إزالة هذه الحواجز يحتاج إلى وقت قد يطول أو يقصر حسب المعطيات السياسية وإفرازاتها الدولية والإقليمية. وكان كعيسى شيخ البحرين، يتحين اللحظة التاريخية التي يمكن أن يهتبلها لتحقيق هذا الهدف النبيل. أما قادة الخليج الآخرون وكافة المواطنين في أمصار الخليج فقد كانوا يتعجلون لحظة دخول البحرين الاتحاد، ويتوقون إلى قيام هذا الاتحاد الشامل الذي أدرك زايد أن وقته لم يحن بعد.

لم يكن الشيخ عيسى منذ البداية مقتنعاً قناعة تامة بدخوله الاتحاد وذلك حكماً على الأوضاع التي كانت تحيط إمارته، وكان يعتقد «أن أمن البحرين ربما يتحقق بصورة أمثل إذا أصبحت بلاده عضواً مستقلاً في الأمم المتحدة». وفي الحقيقة فإن رأي عيسى كان يبدو منطقياً؛ فهو يعرف أن بلاده لها من المشكلات الإقليمية ما يكفيها، ولا يريد أن يزجّ بها في مؤسسة جديدة لها مشكلات إقليمية مختلفة كانت تبدو مستعصية على الحل في تلك الفترة. وأعلن الشيخ عيسى منذ البداية للسلطات البريطانية صراحة عن شكوكه في جدوى الاتحاد الشامل، وأن دخول بلاده هذا الاتحاد سيضطّره بحكم موقفه إلى أن يساند أبوظبي ضد غيرها من القوى الإقليمية، وسيدخله هذا الأمر في حرج مع المملكة العربية السعودية التي يرى أن دعمها له ضد الادعاءات الإيرانية على بلاده كان أمراً حيوياً، وذكر أنه وقّع اتفاق السابع والعشرين من فبراير الخاص بقيام اتحاد الإمارات العربية مضطّراً؛ فقد دفعه إلى ذلك الحماس الشعبي المضطرم في بلاده، وأن الشهور الثلاثة التي انقضت منذ توقيع ذلك البيان المشترك قد ضاعفت من

شكوكه في جدوى هذا الاتحاد، وأن المدّ الشعبي العارم في البحرين الذي كان ينادي بالوحدة قد تراجع منذ توقيع ذلك البيان عندما تلاشى الأمل في أن تصبح المنامة عاصمة الاتحاد. ومع ذلك فقد كان على الشيخ عيسى أن يبذل جهوداً كبيرة للعمل على قيام الاتحاد؛ فالسعودية التي يعوِّل على مساندتها بلاده كانت ترمي بثقلها في كفة الاتحاد، وكان يتمنى أن يربط اقتصاد بلاده باقتصاد أبوظبي الذي بات قوياً. وتنتهي هذه المذكرة إلى أن البحرين لن تحاول المسير في النهج الآخر الذي يفضي بها إلى الاستقلال بنفسها ما لم يبرهن هذا الاتحاد على فشله عملياً.(٣٥)

من هنا نلاحظ أن النهج الذي انتهجته البحرين كان يتّسق تماماً مع خط أبوظبي. فكلتاهما ترغب في قيام الاتحاد الشامل، وكلتاهما تدرك أيضاً أن معطيات الأحداث في تلك الفترة كانت تتعارض مع تحقيق هذه التطلعات. ومن هنا التبس الأمر على أولئك المعاصرين للأحداث الذي اعتقدوا خطأً أن عيسى وزايد كليهما كان زاهداً في الاتحاد الشامل.

ثارت ثائرة الإعلام الإيراني عندما أعلن الحكام التسع بيانهم المشترك في ٢٧ فبراير الذي وقّعته البحرين مع الإمارات الأخرى. وقد عبّرت البعثة البريطانية في جدّة عن رأيها بأنها لا تعرف ماذا يمكن أن يسفر عنه واقع الاتحاد في الثلاثين من مارس، الموعد المحدد لوضع الاتفاق موضع التنفيذ، وأشارت تلك البعثة إلى أنها عرفت أن السعودية ستعترف بدولة الاتحاد حين إعلانها، وأن السفير الأمريكي قد أبلغها مداولاته في هذا الصدد مع فرعون والسقاف، أبرز مستشاري الملك فيصل، والتي أظهرت أن السعودية ستعلن اعترافها وترحيبها بالاتحاد. وأفاد السفير الأمريكي أنه قد طلب إلى الرجلين ضرورة أن تتوخى المملكة الحكمة في هذا الأمر، وأن تتريث وتؤجل اعترافها ريثما يتم الاتصال مع الحكومة الإيرانية للتداول معها حوله. وطلب السفير البريطاني في جدة -على ضوء هذا الوضع- الاتصال بحكام الخليج كلهم وحثّهم على ضرورة

التريث في إعلان قيام الاتحاد رسمياً؛ وذلك على أساس أن مصلحتهم تقتضي تجنب أية مواجهة بين العرب وإيران في هذه المرحلة جرّاء إعلان قيام الاتحاد.[٣٦]

ولما كان الشيخ زايد يدرك تماماً أن دخول البحرين الاتحاد – رغم ما أعلنه ميثاق دبي – لن يتم إلا بعد فضّ خيوط التشابك الدولية والإقليمية التي يستلزم حلّها فسحة من الوقت لإجراء المداولات والمفاوضات والمساومات – فقد ركّز جهوده في هذه الفترة في توطيد مساعيه التي يبذلها لقيام اتحاد الإمارات السبع الذي ربما يصبح قاعدة متينة تؤسس للاتحاد الأشمل الذي يتسع لقطر والبحرين بعد التغلب على المتناقضات. أما الممثلون البريطانيون فقد عملوا من جانبهم على تثبيط همّة الشيخ زايد وطلبوا إليه عدم الاندفاع وراء تشكيل الاتحاد السباعي، ولكنه لم يستمع لقولهم، واعتذر بأنه يريد أن يمضي قدماً حتى لا تفتر همّة المواطنين الذين يريد أن يشركهم معه عملياً في المؤسسات الاتحادية التي يسعى لاستحداثها؛ فهو يسعى لأن يكون للمواطنين مجلس استشاري ليحملوا معه هموم الوطن. أما الاتحاد التساعي فقد اقتنع زايد منذ البداية على إقامة فاصل مؤقت بينه وبين هذا الاتحاد ولكنه كان – على الرغم من هذا – يعتقد أن قيام اتحاد سباعي قوي يمكن أن يكون أساساً ركيناً للاتحاد التساعي في المستقبل. ومن هنا نبتت في ذهن زايد فكرة قيام اتحاد وثيق بين مشيخات الساحل المهادن يدخل بعدئذ ضمن اتحاد فضفاض مع البحرين وقطر. وقد أراد بذلك الاقتراح أن يستجيب لطموحات الحكام والمحكومين المتعطشين في حماس لوحدة خليجية، ويتدارك في الوقت ذاته مجموعة التناقضات التي تسدّ طريق الاتحاد الأشمل دون القفز – بوعي أو غير وعي – فوق حواجزها. وقد حظيت هذه الفكرة بعدئذ بتأييد من الساسة البريطانيين.

ولا مندوحة عن القول: إن هذا التوجه الذي لا يعشو عن رؤية ما يمكن تحقيقه في هذه الفترة عبّر عن حكمة وحنكة ودراية وبعد نظر سياسي، ووجد له في فترة مهمة

من فترات بداية مفاوضات الاتحاد صدى في أرْوقة السياسة البريطانية. وما لبثت حكومة بريطانيا في الفترة السابقة لقيام مؤتمر الحكام في دبي في مايو أن أيّدته وتبنّته.

ويتضح الموقف البريطاني من البيان المشترك للاتحاد المعلن في برقية صادرة من القسم العربي بوزارة الكمنولث إلى روالبندي في ٩ أبريل ١٩٦٨م جاء فيها: «من السابق لأوانه الحكم على أهميّة هذا الاتفاق الذي أنشئ بموجبه اتحاد الإمارات العربية. وعلى الرغم من أن الاتحاد قد دخل حيّز التنفيذ رسمياً في الثلاثين من مارس إلا أن هذا التاريخ لم يحمل في ذاته أية دلالة ذات أهمية؛ لذا فإننا لا نعتبر أن الإقرار باتفاقية الاتحاد قد أدخل أي نوع من التغيّير بين حكومة جلالة الملكة والإمارات المحميّة التسع، كما أن الحكام لم يصرّحوا من جانبهم بحدوث أي تغيير في علاقاتهم ببريطانيا نتيجة هذا الأمر. ومن المتوقع أن يجتمع الحكام مرّة أخرى في غضون شهر مايو للنظر بشكل أكثر تفصيلاً في الشكل الذي سيتخذه هذا الاتحاد»[٣٧]. وتذهب البرقية إلى القول: إن اجتماع الحكام الذي تقرر فيه قيام الاتحاد قد تمّ تنظيمه «بشكل تام بناءً على مبادرات من الحكام أنفسهم»، و لم يكن لنا أي دخل بهذا الأمر رغم أننا كنا بالطبع نحث هذه المشيخات أبداً على التعاون معاً، وكذلك مع جاراتها الكبريات. وتستطرد المذكرة لتقول: «إننا رحبنا بالاتحاد كبادرة تدل على جدّية نظرة هؤلاء الحكام إلى المستقبل، وقد عرضنا عليهم من جانبنا أن نقدّم لهم المساعدة والنصيحة إذا رغبوا فيهما». «ونؤمن من جانبنا بأن هناك مصلحة في التعاون الجاد لقيام اتحاد إمارات الساحل المهادن السبع، كما نعتقد أن اتحاد أبوظبي/ دبي الذي أعلن قيامه قبل الإعلان الأخير بوقت وجيز يمكن أن يكون مفيداً كخطوة مهمّة في قيام هذا الاتحاد، ولا نرى أنه يتعارض مع الاتحاد الأشمل». وتذهب البرقية إلى القول: «لمعلوماتك الخاصة فقط فإننا غير واثقين بأن هذا الاتحاد التساعي سيكون كياناً دولياً قابلاً للحياة». وتشير البرقية إلى أن حاكم البحرين لا يتوقع أن تسفر محاولات الاتحاد عن شيء ذي بال. وتستطرد البرقية لتقول: «علينا أن نتجنب إبداء ما يشير إلى شكوكنا حول نجاح هذا

الاتحاد؛ فنحن إذا فعلنا ذلك يمكن أن نلام بعدئذ على انهياره المحقق». وهكذا نجد أن نظرة لندن كانت تتفق مع نظرة الشيخين زايد وعيسى إلى أن مقوّمات نجاح الاتحاد التساعي المعلن في دبي تفتقر إلى الظروف التي تؤهلها للاستمرار، وأن هناك عقبات تحول دون نجاحه وكان زايد يدرك تماماً كُنْهها. وتكشف لندن عن أنها تفضّل قيام اتحاد قوي بين الإمارات السبع المتهادنة على قاعدة اتفاق الاتحاد بين أبوظبي ودبي، «غير أن التحركات الراهنة التي تبذل لنجاح هذا الاتحاد السباعي تتبناه أبوظبي وحدها؛ ولذا يمكن القول: إن هذا الاتحاد لن يكون مثمراً، وننظر إليه بتحفظ». وهنا نلاحظ أن سلطات لندن السياسية قد بدأت تشك في أمر كان الشيخ البطل قد عقد العزم على اتخاذه؛ فقد كان لهذا الشيخ من الوعي بحركة التاريخ ما يجعل تحقيق تطلعاته حقيقة ثابتة.

ويأتي خطاب المقيم في الخليج بتاريخ ٢٠ أبريل ليفصّل القول في الشكل الذي تريده بريطانيا للاتحاد حيث يقول: «يبدو أنه لن يكون في إمكاننا أن نحوّل في المستقبل القريب دفّة سير مفاوضات اتحاد الإمارات العربية إلى النهج الذي يناسبنا، وهو قيام اتحاد فضفاض يضمّ اتحاداً قوياً لإمارات الساحل المهادن. هذا الأمر يبدو بعيد المنال في الوقت الراهن؛ فقطر تخطط لقيام اتحاد مدمج مترابط، أما البحرين، فحكماً بالمقترحات التي أعدّتها حكومتها، تعمل لقيام اتحاد فيدرالي يتولى إدارة الدفاع والشؤون الخارجية والتنسيق المركزي للأنشطة الوظيفية.. أما زايد فيرتكز اهتمامه في قيام اتحاد الإمارات المتهادنة، ولا يسعى حالياً للقيام بعمل يذكر في ساحة الاتحاد الأشمل؛ ولذا فإنه الوحيد بين الحكام الذي تلتقي إرادته في هذا الشأن مع هدفنا المفضل».[٣٨]

ويذهب المقيم البريطاني في خطابه إلى القول: إن قيام اتحاد فيدرالي يضمّ الإمارات التسع مجتمعة سيكون - كما تشير الاحتمالات - أمراً صعب التنفيذ. وعلى الرغم من

ذلك من العسير علينا أن نقول للحكام قبل اجتماعهم المزمع: إننا نعتبر الهدف النهائي غير ملائم. من الواضح أن فكرة الاتحاد برمّتها ستكون محل شك إذا أخفقت محاولة قيام هذه الفدرالية. ويمكن حين نتصل بالحكام أن نشجّعهم للتفكير في بناء اتحاد في مرحلة زمنّية تمتد من سنتين إلى ثلاث تكون فيها الترتيبات اللازمة قد استوت على سوقها. فإذا وافقنا الحكام على هذا الرأي وتبنوه فإنه سيحقق الميزات التالية[٣٩]:

- سيتيح فسحة كافية من الوقت لإجراء الترتيبات اللازمة على المستويين المحلي والدولي لقيام هذا الاتحاد.
- سيتيح الفرصة لإحداث تحوّل في الوضع الدولي للبحرين بشكل غير فجائي؛ فالفسحة الزمنية ستكون كافية للبحث عن تسوية بين حكومتي إيران والبحرين للتعايش السلمي.
- ما يعنينا أن هذا التريث سيرجئ التحوّل إلى فترة لاحقة تمتد حتى المرحلة الأخيرة من وجودنا العسكري في الخليج، ما يمكننا من إجراء التحوّل الذي سيطرأ على علاقاتنا مع إمارات الخليج؛ فمن الضروري أن تنتهي اتفاقياتنا الشاملة مع هذه الإمارات قبل قيام الاتحاد ودخوله عضوية الأمم المتحدة.
- إذا ثبت بالتجربة عدم إمكانية قيام اتحاد تساعي فإن التريّث سيتيح المجال لاستكشاف حلول أخرى؛ فيمكن على سبيل المثال إنشاء اتحاد فيدرالي يربط إمارات الخليج المتهادنة مع قطر فقط، أو ربما أمكن العمل لقيام اتحاد كنفدرالي يضمّ الدول التسع على أن تحتفظ الإمارات الرئيسة بسيادتها فيه، وبمعنى آخر سيكون المجال مفتوحاً لخيارنا الأول الذي سيطفو للسطح مرّة أخرى.
- على ضوء ما ذكرنا فإن حديثنا مع الحكام قبل الاجتماع المزمع لاتحاد إمارات الخليج العربية ومداولاتنا معهم يجب ألا يبحث في شكل الاتحاد الذي يزّمعون إقامته، إنما يجب أن تتركز في ضرورة إبطاء سرعة إيقاع تنفيذ البرنامج التي يعدّونها لبناء الاتحاد.

ويضيف التقرير أنه يمكن في هذه الفترة التثبت من نوع الاتحاد الذي يريده الحكام. ويشير هذا التقرير أيضاً إلى أن اتفاق دبي «البيان المشترك» اتفاق يشوبه الغموض خاصة مادته الثانية التي تقول باستمرارية استقلال وسيادة كل إمارة. فالاتحاد الفيدرالي – كما ينبئ مدلول الكلمة – لن يكون متسّقاً مع الاستقلال؛ لأن الفيدرالية في معناها المجرد، تعني وحدة مترابطة تفي بالأغراض الدولية. «فإذا أكد الحكام لنا أن هذا هو الهدف الذي يسعون إليه أوصيناهم عند ذلك بالتريث». وتتساءل المذكرة بعدئذ عن عدّة مشكلات يمكن أن تنشأ جرّاء قيام هذه الفيدرالية وتحاول أن تجد لها الإجابة. وتدور الأسئلة حول: «هل يدرك الحكام معنى أن يضعوا فوراً حرسهم تحت إدارة اتحاد فيدرالي يتطلب اعترافاً دولياً؟ أو ليس من الواجب أن تكون هناك فترة تحضيرية ممتدة لتهيئة الكادر الذي سيقوم بإدارة الشؤون الخارجية؟ وهل يتصور الحكام حدوث تحول في القنوات التي يتعاملون بها معنا؟» وتخلص المذكرة إلى ضرورة التريث والتداول بين الحكومة البريطانية وبين الحكام على مدى السنتين أو الثلاث سنوات القادمة «خاصة وأن عضوية الاتحاد في الأمم المتحدة تحتّم علينا إلغاء الاتفاقيات الشاملة التي تربطنا بهذه الإمارات».[٤٠] «لذا فإن تأجيل قيام الاتحاد والتريث في خطوات تنفيذه سيحقق عدداً من الأمور ريثما تتاح الفرصة لإيجاد قناة اتصال فيدرالية، وإجراء الترتيبات اللازمة إزاء التحوّل الطارئ في علاقاتنا معهم. وفي هذا السياق علينا أن نوضح للحكام أن معاهداتنا معهم تخصّ كل واحد منهم على حِدَة، أي إنها ليست ذات صبغة جماعية، وأن هذه المعاهدات لا يمكن أن تتحول من طرف واحد ليتمكن الجميع من تشكيل هذا الاتحاد. فإذا أرادوا منا أن ندعم قيام الاتحاد فيجب عليهم التداول معنا في هذا الشأن لنتدبر النتائج». وتستطرد المذكرة لتتناول الوضع في البحرين خاصة. ويلقي المقيم البريطاني في الخليج العربي في هذا الصدد عدداً من التساؤلات التي كان شيخ البحرين مثل الشيخ زايد على وعي تام بها.

يقول المقيم البريطاني: «هل فكّر حاكم البحرين في الاحتمالات الممكنة التي قد تنجم عن التحوّل المفاجئ في مكانة البحرين الدولية، وتؤثّر في الوجود العسكري (البريطاني) في الجزيرة؟ وهل يدرك الحاكم أن هذا التحوّل السريع في وضع البحرين إلى وضع دولي آخر مغاير سيأتي بعدد من الممثلين الأجانب، وذلك ما قد ينتج منه تغيّير في الأحوال المحيطة بالقوات البريطانية الموجودة هناك، خاصة وأن الرأي العام في البحرين أصبح أقل استعداداً لقبول وجود عسكري بريطاني مقيم، وأن ضغط الرأي العام في البحرين للمطالبة بالجلاء السريع ربما يتصاعد؟».

وتستمر المذكرة لتقدم بعض الحلول للمشكلات الأمنية والدفاعية في فترة الإعداد لقيام الاتحاد، وهي أمور قد لا تعنينا هنا إلا في استجلاء حدّة التعقيدات التي كانت تحدق بأسس الاتفاق التساعي، وفي إبراز وعي زايد المتزايد بخطر ذلك الوضع الذي بات يهدد بنسف فكرة الاتحاد كلها، التساعي والسباعي، بعد أن تهيأت اللحظة التاريخية لاستقبال مشروع الاتحاد السباعي والاحتفاظ به، وازداد زايد مع ظهور هذه المشكلات، إصراراً على رأيه بضرورة قيام اتحاد وثيق يجمع بين إمارات الساحل المهادن على أن تدخل هذه الإمارات المتحدة السباعية بدورها في اتحاد فضفاض مع البحرين وقطر. وقد وجد هذا الرأي – كما سبق أن ألمحنا – تأييداً في أروقة الحكومة البريطانية فتبنّتْه.

تقول رسالة صادرة عن ستيوارت كرافورد – المقيم السياسي البريطاني في الخليج – في ٢٨ أبريل بعث بها إلى الوكلاء السياسيين في الإمارات المختلفة: «إن الخط الذي نقترحه للاتحاد يستهدف خلق نوع من الاتحاد الفضفاض الذي يضمّ في إطاره اتحاداً أقوى للإمارات المهادنة. وقد تمّ الاتفاق على هذا الأمر في لندن مؤخراً بحسبانه أكثر أشكال الاتحاد ملاءمة للمنطقة، وأجده أمراً عملياً ..» [٤١]

اجتماع أبوظبي: مايو ١٩٦٨م

تقرّر عقد اجتماع مجلس أعلى للحكام في أبوظبي في مايو ١٩٦٨م، لينظر رؤساء الخليج في إعلان اتحاد إمارات الخليج في دبي بتاريخ ٢٧ فبراير، والذي تقرر فيه أن يجتمع الرؤساء مرّة أخرى لوضع الاتحاد موضع التنفيذ. وكان لابد لاجتماع أبوظبي المقترح من جدول أعمال اتفق جميع الحكام على أن تقوم لجنة من المستشارين بإعداده. واجتمعت هذه اللجنة في أبوظبي وحضر الاجتماع ممثلون عن كافة الإمارات ماعدا الفجيرة التي فوّض حاكمها وفد أبوظبي تمثيل إمارته. وبرز الخلاف حاداً منذ الوهلة الأولى لاجتماع هذه اللجنة التحضيرية في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم السبت ٣٠ صفر ١٣٨٨ الموافق ١٨ مايو ١٩٦٨م. وانبرى وفد قطر يحثّ المجتمعين على وضع جدول أعمال لاجتماع الحكام المقبل لاتخاذ خطوات تنفيذية لقيام دولة الاتحاد، بينما كان ممثلو أبوظبي والبحرين – دون تنسيق بينهم – يعملون على قصر مهام هذه اللجنة على دراسة الخطوات التمهيدية اللازمة لإعداد الميثاق الدائم للاتحاد، واختيار الخبراء الدستوريين المكلّفين بوضع هذا الميثاق، والقيام بمهام تحضيرية صرفة.[٤٢] ولم يكن هذا الخلاف بين أعضاء اللجان إلا صدى لآراء الشيوخ القائمين على الأمر؛ إذ لم يكن مجلس المستشارين مفوّضاً بالنطق إلا بألسنة سادته. وكان الشيخ زايد يرى أن المشكلات القائمة في وجه الاتحاد التساعي لم تهدأ حدّتها بعد بل ربما تفاقمت بمستجدات أخرى تستعصي على الحلول التي يمكن لدولة الاتحاد الوليدة أن تقدمها، كما كان الشيخ عيسى يعيش تلك التعقيدات عملياً؛ لذلك كان كلاهما – دون تنسيق بينهما – يرى مشروع إقامة مؤسسات تنفيذية لدولة الاتحاد أمراً غير ذي جدوى، وأن التقدم في هذا المضمار يتطلب وضوح رؤية تتحقق بالتمهل وتشكيل اللجان التي تستقصي المشكلات الإقليمية والدولية بالدراسة، وتقترح الحلول، بينما كان شيخ قطر أحمد بن علي ونائبه خليفة بن حمد يدفعان في اتجاه قيام هذه المؤسسات الاتحادية، ويريان عدم قيامها تجميداً لإعلان دبي في ٢٧ فبراير ١٩٦٨م.

اقترحت قطر جدول أعمال طموح لاجتماع الحكام في أبوظبي أبرز نقاطه[٤٣]:

١- انتخاب أول رئيس لاتحاد الإمارات العربية.

٢- إقرار نصّ القَسَم الذي يؤديه رئيس الاتحاد أمام المجلس الأعلى.

٣- تعيِّين المقرّ الدائم للاتحاد.

٤- تعيِّين الأمين العام للاتحاد.

٥- إقرار نصّ القَسَم الذي يؤديه الأمين العام أمام المجلس الأعلى.

٦- بحث التدابير العامة لإنشاء أمانة عامة للاتحاد.

٧- دراسة الإجراءات المتعلقة بالشؤون التالية:

أ - وضع الميثاق الكامل الدائم للاتحاد.

ب - إعداد شعار الاتحاد وعَلَمه ونشيده الوطني.

ج - توحيد النقد في منطقة الاتحاد.

٨- مناقشة تشكيل مجلس الاتحاد، وتحديد اختصاصاته، وإرساء القواعد الأساسية لعمله.

٩- بحث قيام وزارات للخارجية والمالية والاقتصاد والداخلية والعدل والمعارف والأشغال العامة والصحة العامة والمواصلات والدفاع المدني.

١٠- اعتماد مبلغ لمواجهة النفقات التأسيسية الأولية العامة، قبل وضع الميزانية العامة.

١١- مناقشة المادة الرابعة من اتفاقية اتحاد الإمارات العربية الخاصة بصدور قرارات المجلس الأعلى بالإجماع.

١٢- مناقشة أية مسائل أخرى تقترحها أية إمارة، وعرضها على المجلس.

١٣- استعراض نصّ القرارات التي وافق عليها المجلس وتوقيعها.

١٤- إقرار نصّ بيان مشترك لاجتماعات المجلس.

كان اجتماع لجنة المستشارين قد انتهى في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر الأحد الموافق ١٩ مايو ١٩٦٨م دون اتفاق؛ فانتقل الخلاف في الرأي إلى المجلس الأعلى

للحكام الذي عقد في أبوظبي أيضاً في ٢٥ مايو. واجه مجلس الحكام في أول جلساته مذكرة قوِّية من قطر ترى أن عدم إقرار مجلس المستشارين توصياتها بإعداد جدول لأعمال مؤتمر الحكام يعني نقضاً صريحاً لاتفاقية دبي الموقعة في ٢٧ فبراير. وذهبت المذكرة إلى أن ذلك يتعارض تعارضاً كاملاً مع المصالح العليا للاتحاد. و لم يصادف هذا الرأي القطري قبولاً لدى غالبية المجتمعين.(٤٤) وانفضّ اجتماع المجلس الأعلى للحكام في ٢٨ صفر ١٣٨٨/ ٢٦ مايو ١٩٦٨ بعد أن أصدر بياناً مشتركاً يعترف بوجود خلافات في الرأي بين أعضائه حول الطرق الكفيلة لتنفيذ اتفاقية الاتحاد المبرمة في دبي في ٢٧ فبراير ١٩٦٨م.

وكان هذا البيان صادقاً؛ فالأعضاء جميعهم متفقون على ضرورة قيام الاتحاد بينهم – كما هو واضح – ولكنهم مختلقون في أسلوب تنفيذه، كما أشار البيان. ويمكن حين نتحرى الدقّة أن نقول: إنهم كانوا مختلفين في توقيت تنفيذه. وقد انتهى اتفاق الحكام على ضرورة قيام الاتحاد وقناعتهم به وإجماعهم عليه إلى أنهم حددوا موعداً لعقد مجلسهم مرّة أخرى، حين كان يمكن لهم أو لبعضهم أن يعمل على تعليق الاجتماع فترة غير محدّدة. ولربما اعتقد الشيخ زايد أن حماس الحكام والمواطنين للاتحاد قد يصبح حقيقة ملموسة في فترة التأجيل التي يمكن أن تتضّح فيها الرؤية فيما يخصّ وضع البحرين بالنسبة لإيران، وموقف قطر في حالة استمرار تعارض المصالح الظبيانية والسعودية.

انتهى هذا الاختلاف في وجهات النظر إلى أزمة وفهم خاطئ شعبياً وإقليمياً، فحواها أن الاتحاد قد فشل في اختباره الأول. ولما كانت المملكة العربية والكويت من أكثر الدول العربية حرصاً على نجاح الاتحاد فقد عملت دبلوماسية البلدين، للتوسط بين الحكام المختلفين حتى لا يفشل الاجتماع المزمع التالي ثانياً. وراحتْ كافة الأطراف المعنية في المجال الإقليمي والرسمي المحلي تشير بطرف مباشر أو خفي إلى الشيخ زايد

بحسبانه غير راغب في قيام الاتحاد التساعي. ونرى أن تلك الجهات كانت معذورة في ذلك؛ لأن التيارات البارزة في الأحداث كانت تحمل في طياتها ما يمكن أن يسوق إلى هذا الاعتقاد. أما زايد نفسه فقد كان يكتم في نفسه من الأمر ما لو أفصح عنه شعبياً لأدى إلى الفشل الذريع والانشقاق المريع في صفوف هذا الاتحاد التساعي المزمع الذي كان يحرص عليه مع إدراكه أن وقته لم يحن بعد، وفي مجاله الإقليمي أيضاً (إيران والسعودية) الذي كان يحرص على عدم استدعائه أيضاً.

في الحقيقة أن ظاهرة «التأزم» أو «الأزمة» تعدّ ظاهرة صحّية ذات نتائج طيّبة في التفسير الحضاري للبطل. «فالتأزم» أو الأزمة تنتهي حتماً إلى التآلف synthesis بعد أن يجتاز التأليف Thesis مرحلة التأليف المضاد Antithesis ثم تترجم أفكار البطل إلى واقع تاريخي معيش. وكان من الضروري أن يعترف البطل بالواقع «الراهن» ويقرّه بالضرورة، ويسعى – في الوقت ذاته – انطلاقاً من هذا الواقع الذي يمثل الحقيقة الماثلة؛ لأنه عقلي وينبثق عن ذلك الواقع ثم ينفيه ويدحضه وصولاً إلى واقع مستهدف. هكذا يقول هيجل الذي تقوم نظريته على نفي النفي في العملية الديالكتية.[٤٥]

أدرك زايد – وهو العاشق للتاريخ ومن الذين يدركون من خباياه قدراً يمكّن له تفسيره حضارياً ببساطة وعفوية تفوق في صفائها كثيراً من الفلسفات الغربية الموضوعة – أن الحقيقة تسعى حثيثاً لتحقيق ذاتها، وتتمكن من ذلك في نهاية الأمر. الحقيقة المطلقة هي أمر آخر يختلف عن الأمنيات المجردة؛ فهي تنمّي نفسها أبداً عبر المسيرة التاريخية لتصل إلى جوهرها أو أصلها كحقيقة نهائية ضرورية. أدرك الشيخ زايد بالتأمل والتدبر ضرورة اعتماد معطيات المرحلة التي كانت تمرّ بها المنطقة؛ فهي لم تبلغ مرحلة النضج بعد للتمكين للاتحاد الشامل، والأوضاع «الراهنة» لم يتهيأ لها الظرف التاريخي بعد ليأخذ بيدها إلى الحقيقة النهائية التي يتطلع إليها البطل لتحقيق

غايات مجتمعه. ويكشف الظرف التاريخي في ذلك الوقت أن تلك المحاولات والجهود التي بذلها بعض الحكام الآخرين بأمانة وإخلاص لبلوغ هدفهم في الاتحاد الشامل في أسرع فرصة ممكنة لا تمثّل إلا الشكل الخارجي الذي تكشف به الحقيقة عن ذاتها. ومع ذلك فقد كان الشيخ البطل يدرك أن هذا النمط من دعوة التسرّع لقيام الاتحاد التساعي الشامل «ضروري» للمجتمع في تلك المرحلة، غير أن تلك الضرورة في ذاتها وقتية ما يلبث أن يتجاوزها التطور فتفارق صفتها المؤقتة إلى شكل آخر ضروري في المرحلة التالية سعياً وراء تحقيق ذاتها.

أدرك الشيخ زايد أن الاتحاد الشامل ضرورة لم تتهيأ لها اللحظة التاريخية بعد. ويثق البطل أنه حين يتجاوز معطيات واقعه، ويسعى لاستباق اللحظة التاريخية لتشكيل هذا الاتحاد الشامل، فسيحصد الفشل المحتم وسينسف معه الاتحاد السباعي الذي قطع البطل مع رفقائه الحكام في الساحل المهادن شوطاً بعيداً في إنجازه.

ولم تكن خيبة الأمل التي استشعرتها السعودية والكويت كلاهما لما كانتا تظنّانه فشلاً لمؤتمر أبوظبي (٢٥ - ٢٧ مايو ١٩٦٨م) قاصرة على هذين البلدين المهتمين بشؤون الإمارات في تلك الفترة فقط، بل تعدّتهما إلى السلطات البريطانية في الخليج. وقد وقعت تلك السلطات أيضاً في الخطأ ذاته الذي وقعت فيه دبلوماسية البلدين المذكورين في أن الاختلاف الذي انتهى إلى «الفشل» ناجم عن مسائل إجرائية.

جاء في إحدى الوثائق البريطانية بتاريخ ٢١ مايو ١٩٦٨م، أي في الفترة اللاحقة لاجتماع المستشارين، والسابقة لاجتماع الحكام في مؤتمر أبوظبي ما يلي: « لا ينبغي لمشاعر التثبيط أن تكتنف الحكام نتيجة للتباين والاختلاف الذي طرأ أثناء اجتماعات المستشارين، ولا يجوز لهذه الخلافات أن تقف حائلاً دون نجاح اجتماعهم. إن مهمّة تكوين الاتحاد مهمة شاقة ومعقّدة تتطلب من الحكام مناقشة الاختلافات وإيجاد التسويات اللازمة لها». وتنتهي الوثيقة إلى القول: «إنه لمن المؤسف أن يذوي الأمل

في توحيد الإمارات التسع أول وهلة. على الحكام طرح الشكوك القائمة على الخلافات السابقة جانباً والتركيز في عمل بنّاء يفضي إلى قيام اتحاد يمكّن لهم مناقشة خلافاتهم وإيجاد الحلول لها. وهذا هو ما يتوقعه مواطنو هذه الإمارات من حكامهم»[٤٦].

نعتقد أن هذه المذكرة تكشف عن الاهتمام البريطاني الجاد بمسيرة الاتحاد التساعي بوضوح وعن تتبع المسؤولين البريطانيين اجتماعات لجنة المستشارين. وقد دعا هذا بالمقيم البريطاني في الخليج إلى القول: إن السياسة البريطانية كانت حريصة في هذه الفترة على نجاح الاتحاد التساعي. وتنعى مذكرة أخرى كتبها بويل – الوكيل البريطاني في الدوحة – اجتماع الحكام في أبوظبي الذي بدا وكأنه لم يعقد. «فقد فشلت قطر في إقناع الإمارات الأخرى بوجهة نظرها». ويضيف الوكيل البريطاني أن «فشل اجتماع أبوظبي لن يكون فشلاً لقطر وحدها إنما هو في الحقيقة فشل للبحرين وأبوظبي ودبي كذلك»[٤٧]. ودعا بويل – وهو يناقش البدائل المتاحة – إلى أن تتدخل الحكومة البريطانية مباشرة لإنقاذ الوضع؛ «فاللوم سيلحق بنا إذا فشل الاتحاد، فهل يمكن أن نقوم بهذا الدور؟ يبدو لي أن من الحكمة أن نحاول إنقاذ هذا الاتحاد من الفشل المحدق به؛ وذلك بأن نتصل بالحكام مباشرة ونقرّر الخطوات اللازمة التي عليهم اتباعها لبلوغ هذا الهدف». ودعا بويل بعد ذلك إلى أن تقوم السلطات البريطانية في الخليج بوضع جدول أعمال لاجتماع الحكام المزمع عقده في يوليو «وأن تطلب منهم مناقشة بنوده مع استبعاد تدخل المستشارين في الأمر بقدر الإمكان. وأعتقد أننا – في هذه الحال– نحتاج إلى أن نتحدث للمستشارين باستفاضة قبل حلول هذا الموعد». وقد كان بويل من أبرز الإداريين البريطانيين في الخليج الذين كانوا يؤكّدون ضرورة قيام اتحاد المشيخات التسع رغم أنه اعتذر في إحدى رسائله بقوله: «إنني على يقين من أن الآراء التي أعبّر عنها ترجع بشكل ما إلى «غسيل دماغ» أتعرض له يومياً باتصالاتي مع الحاكم ونائبه»[٤٨]. ويسترسل بويل فيقول: على

الحكومة البريطانية إذا أرادت أن تبقي نفوذها في شبه الجزيرة العربية ومصالحها الاقتصادية في الخليج، أن تعمل ما في وسعها للتقارب مع السعودية. «فالملك فيصل يريد أن يرى اتحاداً تساعياً»، غير أن زايداً –كما يقول بويل – يقف في مواجهة هذا الاتحاد. وينتهي بويل إلى القول: إذا أثبتنا للعربية السعودية تأييدنا لقيام اتحاد الإمارات العربية، ورمينا بثقلنا لتحقيق ذلك الهدف، فإني أشعر بأننا قد بتنا قريبين من تحقيق استقرار الخليج، ذلك الهدف الذي نحتاج جميعنا – مع إيران ذاتها – إلى تحقيقه.

في الحقيقة لم يرفض زايد قيام الاتحاد التساعي كما يزعم بويل، ولكنه أحجم عن اتخاذ أية خطوة تنفيذية له في ذلك الوقت؛ إيماناً منه بضرورة انتظار موعد ميلاده، حتى لا يتعثّر إذا جاء قبل أوانه المحتوم. و لم يكن التدخل البريطاني لدى الحكام الذي أوصى به بويل يتسق مع شخصية الشيخ زايد «فهو زاهد في هذه النصائح نهائياً. ومع ذلك يمكن أن نُسمعها له ونحاوره فيها ونستدرجه». فزايد «رجل ذو عقل متفتح، وإذا رفض أن يستمع إلى نصائحنا بداية فإن تكرارها ونقاشنا معه مراراً ستجد فيه في بعض ما نقوله له أذناً صاغية». على كل حال فإن موضوع التدخل البريطاني المباشر ليس إلا توصية من وكيل سياسي بريطاني في إحدى عواصم الإمارات. وعلى الرغم مما كان للوكلاء السياسيين والإداريين البريطانيين في الخليج من دور كبير في صياغة السياسة البريطانية في هذه المنطقة إلا أن هذه التوصية لم يؤخذ بها؛ فقد أراد البريطانيون للمنطقة أن تنتظم في اتحاد واحد أو في مجموعة اتحادات بحسب ما تقتضيه المصلحة البريطانية العامة من استرضاء للمملكة العربية السعودية القوّة العربية الإسلامية الكبرى في المنطقة، وبحسب ما تمليه المصلحة الإيرانية القوّة الإقليمية الأبرز في الخليج، ويحقق توازناً في كافة الاتجاهات واستقراراً في هذه المنطقة لأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية للمصالح الدولية بعامة. ولما كان الاتحاد مطلباً شعبياً ورسمياً فقد استقرّت السياسة البريطانية أخيراً على أن تترك لزعماء المنطقة تكوين خط الاتحاد الذي يريدونه على أن تقوم من جانبها بتقديم «النصيحة» لتحقيق هذا الهدف. غير أن

السياسة البريطانية باتت تدرك أيضاً أن «نصيحتها» للحكام لم تعد ملزمة لهم كما كان الأمر إبّان سيطرتها المباشرة.

كانت الكويت في هذه المرحلة من أكثر الدول اهتماماً بقيام الاتحاد التساعي؛ فعملت على مساندته وإنجاحه بكل السبل الممكنة. وفسّرت الدبلوماسية الكويتية انتهاء مؤتمر أبوظبي (٢٥- ٢٧ مايو) دون نتائج بارزة - إلا ما كان من أمر تحديد موعد آخر لاجتماع تالٍ - بأنه فشل يتعلق بتحديد شخص الرئيس، ومكان العاصمة وقيام مؤسسات الاتحاد، وغير ذلك من مسائل إجرائية لم يكن الشيخ زايد يقيم لها وزناً؛ فقد كان همّه أكبر من ذلك كثيراً، فهو يريد اتحاداً باقياً يترسخ مع الزمن، لا اتحاداً واهياً يمكن أن تعصف به الخلافات العابرة. أرسلت الكويت وزير خارجيتها - صباح الأحمد الجابر - إلى حكام هذه الإمارات وفي حقيبته عدّة حلول للمسائل الإجرائية التي ظنّت أنها كانت العقبة التي اعترضت مسيرة الاتحاد في اجتماع أبوظبي.

تفيد رسالة من وكيل البحرين البريطاني أن الوزير الكويتي وصل إلى البحرين في اليوم الثالث والعشرين من يوليو في بداية جولة له في الخليج. وزرته زيارة رسمية فطلب الوزير من مرافقيه الانصراف، ثم أخذ يتداول معي في موضوع اتحاد الإمارات العربية. وذكر لي الوزير أن حكومته مصممة على كسر الجمود الطارئ في المداولات، وإسباغ قوة دافعة لمسيرة الاتحاد. وقد طرح الوزير، البدائل التالية لحكام البحرين وقطر وأبوظبي ودبي[٤٩]:

١- تأجيل النظر في اختيار موقع عاصمة الاتحاد.

٢- اعتماد جدول الأعمال الذي سبق للمستشارين أن أعدّوه ليتداوله مجلس الحكام في الاجتماع القادم مع إضافة النقاط التالية:

أ- الرئيس: للحكام أن ينتخبوا في الوقت الراهن رئيساً لكل جلسة من جلسات الاجتماع الذي يعقده المجلس الأعلى.

ب– مجلس الاتحاد: يستحسن أن يتفق الحكام على إنشاء هذا المجلس على أساس ثلاثة ممثلين عن كل إمارة من الإمارات التسع، على أن يكون لكل مجموعة ثلاثية صوت واحد ، ويعتمد القرار على أساس الأغلبية.

ج– تأجيل اجتماع المجلس الأعلى المزمع حتى منتصف يوليو لتهيئة الوقت الكافي للحكام للاتفاق على المبادئ.

وأردف الشيخ صباح بأنه يدرك أن هذه الاقتراحات غير منزّهة عن النقصان، ولكنها ربما تساعد على دفع عجلة الأمور، وأشار إلى أنه قد عرض مقترحاته على الشيخ عيسى فوافق عليها، ويأمل أن توظّف الحكومة البريطانية كل ما لديها من نفوذ لتفعيل اتحاد الإمارات العربية. وأشار الوزير الكويتي إلى عوامل عدم الاستقرار في الخليج بما في ذلك التأثير المحتمل لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية والاهتمام السوفييتي المتزايد بالمنطقة، وأكّد أن فشل إقامة اتحاد الإمارات العربية سيشكل خطراً لن يطال بريطانيا وحدها، بل سيلحق دول الخليج أيضاً. وعبّر الوزير الكويتي عن قناعته بأن الشاه سيضطر إلى الاعتراف باتحاد الإمارات العربية حالما يراه حقيقة ماثلة.

الاجتماع الثاني للمجلس الأعلى للحكام في أبوظبي: يوليو ١٩٦٨

يذكر تقرير أعدّه المقيم البريطاني في الخليج في ١٠ يونيو بشأن هذا الاجتماع المزمع عقده في أبوظبي أن فرص نجاحه لا تبدو واعدة، وأنه لا يجد مؤشرات تبعث على التفاؤل وذلك لحدّة الانقسامات بين الحكام. ويلامس المقيم الحقيقة أول مرّة حين يقول في هذا التقرير: «إن اختلاف مواقف هذه الإمارات وعلاقة كلٍّ منها منفردة مع المملكة العربية السعودية وإيران هي التي تعوق الاتحاد»[٥٠]. ويخلص المقيم البريطاني إلى حقيقة أخرى كانت تؤرق الشيخ زايداً حين يضيف: «وعلى الرغم من ذلك تتوافر العديد من العوامل التي تهيئ لاتحاد الإمارات العربية فرصة النجاح، وإذا انهار الاتحاد فالخطر – لاشك – محدق بهذه المنطقة». ويكشف المقيم عن طبيعة السياسة البريطانية

في الخليج في هذه المرحلة حين يقول: «على السياسة البريطانية في المنطقة التكيف مع ما يلائم متغيرات الوضع كلما استجدّ جديد». ولعل في هذا ما يدحض ما يتردد عند البعض من أن السياسة البريطانية كانت في هذه المرحلة فاعلة توجه هذا الحاكم أو ذاك؛ فالسياسة البريطانية في حالة ضعفها الذي كانت تعيشه في هذه المرحلة هي ذات السياسة البريطانية في حالة قوّتها في هذه المنطقة أو غيرها من الأصقاع في العالم عبر تاريخها الإمبراطوري الطويل؛ سياسة براجماتية مرنة لا تقوم على النظريات أو الفرضيات بل تعتمد الواقع وتستثمره وفق معطيات الأحداث. فإن توافق الواقع في الخليج، واتسقت معطيات أحداث قيام اتحاد أو اتحادات في المنطقة مع الأهداف والمصالح البريطانية اعتمدت الأمر وركبت موجته لتصل إلى غاياتها، أما إذا ناقض الواقع الأهداف والغايات المقررة فالسياسة البريطانية تعمل برفق وبحذر وبالتدرج لتحويل المسار إلى الاتجاه الذي يقوم بمصالحها. والدليل على قولنا في هذه المذكرة ذاتها إذ يقول المقيم البريطاني: «كنا نفضل إنشاء اتحاد فضفاض للإمارات العربية يضم في داخله اتحاداً أقوى لإمارات الساحل المهادن السبع. ولمّا كانت هذه السياسة في الوقت الراهن غير واقعية فإننا ندعم حالياً فكرة إنشاء اتحاد فيدرالي من نوع بسيط وعملي». ويستطرد التقرير ويردد صدى ما قاله الوزير الكويتي سابقاً: «سيؤدي فشل مفاوضات اتحاد الإمارات العربية إلى مضاعفة الأخطار التي يحملها المستقبل. ولن يلحق هذا الخطر بالحكام فحسب ولكنه سيتجاوزهم إلينا أيضاً ».

أما الإيرانيون فقد كان موقفهم من هذا الاجتماع المقترح في يوليو ١٩٦٨ أقل حدّة من الاجتماع السابق. نظر الإيرانيون إلى فشل اجتماع أبوظبي في مايو على أنه سقوط للفيدرالية التي كادت أن تغيّر من الوضع في البحرين. ورحّبت السياسة الإيرانية في ذلك الوقت بتجميد الوضع إلى وقت لاحق، وباتت ترى أن الاتحاد التساعي قد لا يغيب عن الوجود في نهاية المطاف! ولما كان الإيرانيون يعملون لتنمية آفاق التعاون مع

الدول العربية، وخاصة المملكة العربية السعودية، في هذا الوقت الذي تعدّ فيه بريطانيا العدّة للرحيل – فقد عمدوا إلى تلطيف الجوّ والتخفيف من الضغط الشعبي.

«إلا أن تخفيف الإيرانيين من ضغطهم المباشر لم يصحبه تخفيف من حدّة الصعوبات الماثلة المتصلة بادعاءاتهم الخاصة في بعض المناطق العربية في الخليج؛ فقد ظلت تلك الادعاءات على حالها. وبات واضحاً أن الخطّة الإيرانية ترغب في التنسيق والتعامل مع الحكومة البريطانية بدلاً من التعامل مع حكومات الإمارات العربية، على أمل أن تتحرك هذه الحكومة (البريطانية) لفرض تسوية على العرب ترتضيها إيران بصرف النظر عن وجهات النظر العربية والمصالح العربية». وتستطرد هذه الرسالة لتقول: «يجب علينا أن نؤكد بوضوح أننا لسنا في موضع يخوِّل لنا فرض أمر واقع على الإمارات العربية. وتسترسل الرسالة فتقول: ومن المهم أن نوضِّح هذا الأمر للأمريكان مرّة أخرى إذ يبدو واضحاً من محادثات السيد روبرت في واشنطن أن السيد روستو يعتقد أنه يمكن أن نعقد صفقة مع الشاه مباشرة، ثم نحملها للعرب للموافقة عليها».

في الحقيقة لم تكن فرص اجتماع يوليو واعدة تماماً مثلما اعتقد البريطانيون؛ فشيخ أبوظبي كان يدرك حدّة الصعوبات التي تعترض المسار قبل فترة من عقد الاجتماع المزمع ما جعله يصمم على الفصل بين الاتحادين السباعي والتساعي بقوّة؛ حتى لا ينسف فشل التساعي المتوقع فرص نجاح السباعي التي بدت واعدة. وكان شيخ البحرين يدرك أيضاً أن مشكلاته تستعصي على الحلّ في إطار الاتحاد التساعي المزمع. وكانت بريطانيا – على الرغم من حرصها على نجاح هذا الاتحاد بأي شكل – تنتظر مولد الأحداث لتعمل على تشكيله لما يتفق ووجهات نظرها وخدمة مصالحها. أما السعودية والكويت فكانتا تضغطان في اتجاه سرعة لمّ الشمل جماعياً وقيام الاتحاد؛ درأ للتعقيدات المحتملة، ولكن دبلوماسية البلدين لم توفّق حين حصرت أسباب

«فشل» الاجتماع الأول في مايو في مشكلات إجرائية لم تكن تشغل حيّزاً كبيراً في ذهن الشيخ زايد.

اجتمع مجلس الحكام في أبوظبي وأصدر في السابع من يوليو ١٩٦٨م بياناً مشتركاً وقّعه الحكام التسع. وصدرت في هذا الاجتماع حزمة من القرارات الاتحادية التي احتفى بها الرأي العام العربي ولكنها في حقيقة الأمر لم تكن لتتمثل إلا قفزة في الهواء هوى بعدها الجسد الاتحادي إلى مكانه الذي انطلق منه. فقد تعامل مع الاجتماع مع ظاهر المشكلة و لم ينفذ إلى لبها. وسارعت الدوائر العربية للترحيب بالاتحاد الذي أعلنته تلك القرارات بنتائج ذلك الاجتماع، أما الإيرانيون فاستقبلوه بتنديد كان يمكن تجنبه لو لم يعمد مشروع الاتحاد – كما فعل – إلى القفز فوق الحواجز. واتهمت إيران هذا الاتحاد بما ليس فيه، وبما لا يمكن أن يدور في خلد أحد من القادة المشاركين فيه؛ إذ رأته صنيعة استعمارية واتحاداً مزيّفاً. وكان من رأي المسؤولين البريطانيين أن الحكومة الإيرانية ترفض انضمام البحرين إلى الاتحاد التساعي رفضاً باتاً، وأن رفضها انضمام البحرين إلى الاتحاد يفوق رفضها قيام البحرين دولة مستقلة عضواً في الأمم المتحدة. رأى الساسّة الإيرانيون أن انضمام البحرين للاتحاد المعلن يشكل حرجاً لسياستهم فقبلوا على مضض بفكرة استقلال البحرين، وهذا من شأنه أن يبقي مسألة الادعاء الإيراني مسألة طافية على السطح. أما انضمام البحرين إلى الاتحاد فمن شأنه أن يقضي على هذا الادعاء، ويضع عائقاً إضافياً في وجه إيران التي ستضطر حتماً إلى مجابهة البحرين وستجد نفسها– عندئذ – في مواجهة مع الإمارات التسع جميعاً. وأمّا إذا ظلت البحرين خارج حظيرة الاتحاد فإن المواجهة ستكون مع البحرين فقط. وأضاف السفير الإيراني في لندن أن إيران تعلّق أهمية كبيرة للحفاظ على علاقات طيبة مع أكبر عدد ممكن من إمارات الخليج، وتعمل على تطوير تلك العلاقات، ولا ترغب في أن تجد نفسها في مواجهة معها جميعها.

608

VAE

بيان مشترك

Communiqué Reg.

في الفترة ما بين ١٠ و ١١ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ الموافق ٦ و ٧ يوليو ١٩٦٨، واستأنف المجلس الأعلى اجتماعه الذي أجل من جلسته السابقة المنعقدة في ٢٦/٥/١٩٦٨.

وفي جو سادته مشاعر الأخوة الصادقة والثقة المتبادلة، والحرص الشديد على رعاية مصالح المنطقة وتحقيق ارادة شعبها وصالحه في أمنها، استعرض المجلس الأعلى القضايا الأساسية الضرورية لتنفيذ اتفاقية دبي العربية في ٢٧ فبراير ١٩٦٨، وتلاقت وجهات نظر أعضائه على حلول تناولتها القرارات التي أصدرها المجلس للسير قدما بالاتحاد نحو تحقيق أهدافه السامية.

ولقد كان دعم العلاقات الأخوية الوطيدة التي تربط الامارات العربية أعضاء الاتحاد رائد المجلس الأعلى في ما انتهى اليه من قرارات تؤدي الى تمكين الاتحاد وتمهيد السبل لتسيير ازدهاره.

هذا وقد حدد المجلس الأعلى قطر مكانا لانعقاد دورته المقبلة في أول أكتوبر الموافق ٢٠ ... والمجلس الأعلى اذ يعلن موافقة أعضائه الاجماعية على القرارات المشار اليها ليبتهل الى الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطى الاتحاد على طريق التضامن العربي وأن يوفقه الى ما فيه خير شعبه والأمة العربية جمعاء.

عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين	زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي	راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي
أحمد بن علي آل ثاني حاكم قطر	صقر محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة	خالد محمد القاسمي حاكم الشارقة
راشد حميد النعيمي حاكم عجمان	أحمد راشد المعلا حاكم أم القيوين	محمد بن حمد الشرقي حاكم الفجيرة

حرر في أبوظبي في هذا اليوم السابع من شهر تموز (يوليو) ١٩٦٨ الموافق ١١ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ

An English translation ...

صدرت قرارات اجتماع أبوظبي في يوليو ١٩٦٨م، وكانت في مجملها قرارات توفيقية لحل ما يظنّه البعض مشكلات حقيقية، ولكنها كانت في حقيقة الأمر مشكلات واهية لم تطرأ على ذهن الشيخ البطل. قفزت هذه الحلول التوفيقية فوق حواجز الواقع؛ فلم تعالج مسألة اختيار العاصمة، و لم تحسم مشكلة الرئاسة، و لم تعالج أية حقيقة جوهرية، اللهم ما كان من أمر الاستجابة لآمال الرأي العام في المنطقة في قيام الاتحاد الذي كان مجلس الحكام قد أعلنه قبل ذلك فعلاً. والرأي العام عادة يستجيب للظاهر، وتغمض عليه الكثير من بواطن الأمور. أما البطل فهو الذي يغوص في الأعماق، يستكشفها ويستجلب منها ما يمكنه أن يعالج به الواقع، وتظهر وقتئذ نتائجه التي تنفع الناس. مثلّت الاستجابة لقيام الاتحاد في اجتماع أبوظبي – في التفسير الحضاري للتاريخ عند توينبي – قفزة إلى الأمام يدرك البطل أنها مثل القفزة إلى الخلف، لن تؤدي إلى النتيجة المرجوّة؛ لأن هذا النوع من الاستجابة غير مجدٍ لا يشكل سوى الانفلات من الواقع بطي عنصر الزمان مع ثبات عنصر الواقع في المكان. يضاف إلى كل ما ذكرنا أن الشيخ زايداً لم يكن يضع وزناً كبيراً للمشكلات التي عمل هذا الاجتماع على معالجتها، تلك المشكلات التي بدا ظاهرياً وكأنها تؤرقه. فزايد لم يكن يعمل إلا بأسلوبه البسيط في ظاهره، العميق في مضمونه، المتين في مبناه، الذي أقام بموجبه مع الشيخ راشد اتفاقية السميح: «يمكن لكل إمارة عضوّ أن تتمتع بإدارة شؤونها المحلية وفقاً لما تختاره على أن تؤول إدارة الشؤون الخارجية والدفاع إلى حكومة الاتحاد المرجوّة». وقد تركز اهتمام الشيخ زايد في هذه المرحلة في أن تكون إمارة أبوظبي مقرّاً لوزارتَي الخارجية والدفاع، أما الوزارات الأخرى فيمكن أن تتركز في أية بقعة أخرى من أرض أيّ إمارة. وأعلن زايد أكثر من مرّة أنه لا يهتم بأن تؤول أي من الوزارتين المذكورتين إلى مواطن من أبوظبي أو إلى أي فرد آخر من مواطني الإمارات الأخرى. وفي الوقت الذي كان يدرك أن طبيعة الأشياء تضعه رئيساً للمجلس الأعلى، أو تؤهّله لأن يكون المقدّم بين زملائه فإنه لم يكن – كما قال – يهتم

بأمر رئاسة الحكومة أو بالأحرى أمانتها، وصرّح بأنه لا يجد حرجاً في أن يتولاها أي من إخوانه الحكام. وذهب إلى أبعد من ذلك حين ذكر أنه لا يعمل على حصر أمانة الحكومة التابعة للمجلس الأعلى في أفراد من الأسر الحاكمة فقط؛ فقد صرح للسلطات البريطانية في الخليج بأنه لا يمانع أن يتولى مسؤولياتها أي من التجار الوطنيين المسؤولين المشهود لهم بالأمانة والفطنة.

كان البطل بحكم تكوينه يدرك أن عليه أن يتقدم مسيرة مجتمعه ويحقق له أهدافه؛ ففي تحقيق أهداف المجتمع الكلّية تكمن تحقيق أهداف البطل الذاتية؛ لأن البطل في نهاية الأمر عضو فاعل في المجتمع ينبض بنبضه. وهنا تلتقي نظرية البطل في التفسير الحضاري للتاريخ مع نظرية البطل التي تعكسها الثقافة العربية التي سادت هذا المجتمع العربي منذ فجر تاريخه، وهي المتمثلة بأن البطل يغشى الوغى ويعفّ عند المغنم.

برهنت الأحداث التاريخية اللاحقة لاجتماع الحكام الثاني في أبوظبي في يوليو ١٩٦٨ على أن اللحظة التاريخية التي باتت حبلى بالاتحاد السباعي لم تتهيأ بعد لاستقبال الإمارات العربية المتحدة الشاملة خاصة بعد أن أعلنت كل من قطر والبحرين قيام حكومتيهما. ومع ذلك ظل الاتحاد الأشمل فكرة مطلقة في ذهن زايد وإخوانه. والفكرة المطلقة في محصلتها النهائية تتطابق ووصف الحقيقة المطلقة، وهي الضرورة الحيوية للاتحاد الشامل.

كان هناك تعارض بين قيام الاتحاد السباعي والاتحاد التساعي. والتعارض – كما يقول برتراند رسل في تبسيط نظرية هيجل – ينتهي إلى اتحاد في صيغة جدل تأليفي مركب. فقولة: إن الذهب (الاتحاد الأشمل) ذو قيمة، يمكن أن تعارضها قولة: إن الذهب (الاتحاد الأشمل) ليس بذي قيمة. أما نتيجة تعارض القولتيْن فهي التأليف المركب الذي ينتهي إلى قولة: إن قيمة الذهب تعتمد على الظروف المحيطة به. فإذا كان الإنسان في المدينة مثلاً وتمكن من إنفاق الذهب حين يحتاج إلى إنفاقه فإن للذهب في هذه الحالة قيمة، أما إذا كان

بسم الله الرحمن الرحيم

الديوان الأميري
القصر - أبوظبي



Emiri Court
THE PALACE - ABU DHABI

الرقم : ...
التاريخ : ...

حضرة صاحب الفخامة سير جيفري آرثر الموقر
المقيم السياسي لصاحبة الجلالة .

يا صاحب الفخامة
أحييكم أطيب تحية .

وبعد ، فاشارة الى مذكرة فخامتكم المحرره بتاريخ هذا اليوم ونصها كما يلي :

" أتشرف بأن أشير الى المحادثات التي جرت بين عظمتكم وبيني بشأن انهاء العلاقات التعاهديه الخاصه بين المملكة المتحده لبريطانيا العظمى وايرلندا الشماليه وامارة ابوظبي ورغبة حكومة عظمتكم في أن تكون امارة ابوظبي عضوا في الامارات العربيه المتحده التي ستنشأ قريبا والتي ستتولى بكامل مسئولياتها الدوليه كدولة مستقله ذات سيادة ، نيابة عن حكومة المملكه المتحده ، أقترح مايلي :

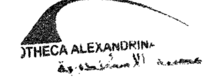
١- انهاء العلاقات التعاهديه الخاصه بين المملكة المتحده وامارة ابوظبي لتناقضها لعضويته في اتحاد يتولى كامل مسئولياته الدوليه كدولة مستقله ذات سياده ، اعتبارا من تاريخ هذا اليوم .

٢- انهاء المعاهده الخاصه المؤرخه ٦ مارس ١٨٩٢ وجميع الاتفاقات والتعهدات والالتزامات والترتيبات بين المملكه المتحده وامارة ابوظبي المنبثقه عن العلاقات التعاهديه الخاصه بين الدولتين وذلك اعتبارا من تاريخ هذا اليوم .

٣- استمرار العلاقات بين المملكه المتحده وامارة ابوظبي بصفتها عضوا في الامارات العربيه المتحده تسودها روح التعاون والصداقه الوثيقه ، ولهذا الغرض تعقد معاهدة صداقه بين المملكه المتحده والامارات العربيه المتحده .

فاذا قبلت حكومة عظمتكم بهذه الإقتراحات فلي الشرف ان اقترح ان تعتبر هذه المذكره وجواب عظمتكم بالموافقة عليها اتفاقا بين الحكومتين في هذا الشأن يسري مفعوله اعتبارا من تاريخ هذا اليوم .

واني لأغتنم هذه المناسبه لاجدد لعظمتكم تأكيداتي لكم بأسمى معاني تقديري "



بسم الله الرحمن الرحيم

Emiri Court

THE PALACE - ABU DHABI

الديوان الأميري

القصر - أبوظبي

الرقم : ____________

التاريخ : ____________

يسعدني ، جوابا على هذه المذكرة ، ان اؤكد لفخامتكم موافقة حكومتي على الاقتراحات التي فيها ، وان تلك المذكرة وجوابي هذا عليها يشكلان معا اتفاقية بين حكومتينا في هذا الشأن يسري مفعولها من تاريخ هذا اليوم .

وتفضلوا بقبول فائق التحية والتقدير ،،

التاريخ : ١ ديسمبر ١٩٧١

(زايد بن سلطان آل

حاكم ابوظبي





● صورة للصفحة الاولى من جريدة الاتحاد التي خرجت تحمل عناوين بارزة تحمل أنباء الاستقلال وقيام الاتحاد

الاتحاد

الاستقلال

الاتحاد

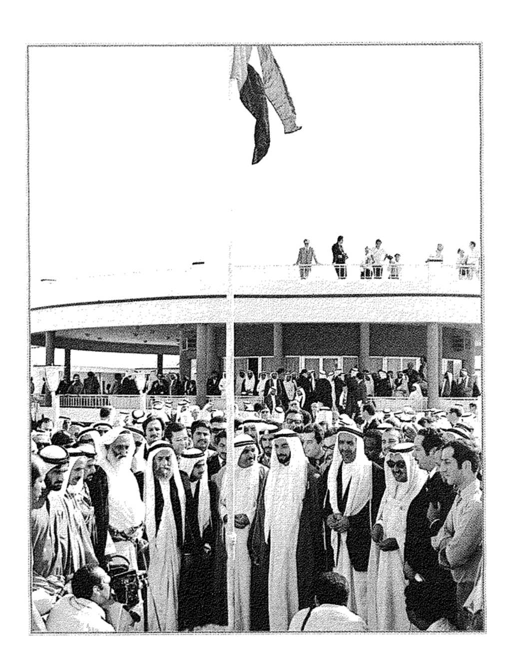
أمس الاستقلال واليوم الاتحاد

الاتحاد

قامت دولة الإمارات العربية المتحدة

زايد رئيساً للاتحاد.. راشد نائباً للرئيس





الإنسان في صحراء جرداء ومعه أكداس من الذهب لا يستطيع أن يشتري بها جرعة ماء، فالذهب في هذه الحالة عبء على صاحبه، ولا قيمة له.

لم يكن للاتحاد الأشمل في الفترة التي عالجناها قيمة صرف، ولكنه مع ذلك ظل ذا قيمة كبيرة تهيأت الظروف لها بعد ذلك في أقل من عقد من الزمان؛ فقد شهدت أبوظبي في عام ١٤٠١/ ١٩٨١م عقد أول مؤتمر لمجلس التعاون الخليجي. ضمّ هذا المجلس إلى جانب إمارات الاتحاد التساعي الذي لم تمكن الظروف تحقيقه السعودية والكويت وعمان. وراح يتلمس طريقه لتحقيق الوحدة بين أقطاره، والوحدة مطلب دينيّ حقيقي أخلاقي وضروري: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

هوامش وذيول

١- Carlyle, Thomas, On Heroes and Hero-worship and Heroic on History, London, 1862, p. 265-268.

٢- Hegel, lectures on the Philosophy of history, Trans. Cambridge Uni. Press, 1981, p. 29-30.

٣- Russel, B., Wisdom of the West, ed. Paul Foulkes 2nd imp., London, 1960, p.314.

٤- (PRO) Fco 8/14, PR. To F.O., 10 June 1968.

٥- Loc. cit.

٦- (PRO) Fo. 371, ---, PA Abu Dhabi to PR, 17 Feb, 1968.

وراجع في هذا الصدد أيضاً النصّ الرسمي لاتفاقية السميح الموقعة بين شيخي أبوظبي ودبي في ١٨ فبراير ١٩٨٦م، الموافق ٢٠ ذي القعدة ١٣٨٧هـ. ورد في الفقرة الرابعة ما نصّه: «اتفق الحاكمان على دعوة أصحاب السموّ حكام الإمارات المتصالحة لمناقشة هذا والاشتراك فيه، ثم دعوة صاحبي العظمة حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق معهما على عمل موحد لتأمين ذلك».

٧- Boggy, Philip, Culture and History, Prolegomena to, Comptive Study of Civilization, Longamans, London, 1958, pp. 152-53.

٨- (PRO) Fo. 371/---, PA Abu Dhabi to PR., 17 Feb. 1968.

٩- (PRO) Fco. 8/14, PR to F.O., to June 1968.

١٠- (PRO) Fo. 371/---, PA Abu Dhabi to PR. 17 Feb. 1968.

١١- Loc. cit.

١٢- (PRO) Fco. 8/14. PA Bahrain, 10 June 1968.

١٣- (PRO) Same series, vol. 828, PA. Abu Dhabi to PR., 4 April, 1968.

١٤- تقول إحدى الوثائق البريطانية ما يلي: «قبل إعلان السادس عشر من يناير المتعلق بسحب قواتنا من الخليج بنهاية عام ١٩٧١م لم تكن هناك أية مؤشرات محتملة لقيام اتحاد يضمّ إمارات الخليج. وارتكزت سياستنا حينها على تشجيع العمل على قيام أربع دول مستقلة. ولكن إعلان السادس عشر من يناير غيّر كل شيء؛ فقد عملت هذه الإمارات على التفكير مليّاً في الاتحاد.

(PRO) Same series, vol. 14, Annex to message no. 1, 14, 10 June.

١٥- راجع:

(PRO) Same series & vol., PR Bahrain to F.O., 10 June 1968.

١٦- عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، التاريخ، تاريخه وتفسيره وكتابته، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ١٩٩٩م، ص٢٠٣.

١٧- (PRO) Fo. 371/ ---. Dubai to F.O., 22 Feb 1968.

١٨- (PRO) Fco. 8/828, PA Abu Dhabi to F.O. 17 March, 1968.

١٩- Loc. cit.

٢٠- (PRO) Same series & vol., PA Abu Dhabi to F.O., 20 March 1968.

٢١- (PRO) Same series & vol., PA Abu Dhabi to F.O., 30 March 1968.

٢٢- (PRO) Same series & vol., PA Abu Dhabi to F.O., 4 April 1968.

٢٣- Loc. cit.

٢٤- (PRO) Same series & vol., Record of PA meeting with the ruler, Abu Dhabi, 11 April, 1968.

٢٥- Loc., cit.

٢٦- (PRO) Same series, vol. 14, PA Dubai to F.O. 10 June 1968.

٢٧- (PRO) Same series, vol. 11, PA Abu Dhabi to PR, 11 April 1968.

٢٨- (PRO) Same series, vol. 10, FCO. To Rawalpandi, 9 April 1968.

٢٩- (PRO) Same series, vol. 14, Comment on Abu Dhabi Conference.

٣٠- (PRO) Same series, vol. 11, PA Doha to PR, 12 April 1968.

٣١- Loc., cit.

٣٢- (PRO) Same series, vol. 14, attitudes of the individual Gulf rulers.

٣٣- (PRO) Same series, vol. 828, PA Abu Dhabi to PR, 20 March, 1968.

٣٤- (PRO) Same series, vol. 14, attitudes of the individual Gulf rulers.

٣٥- Loc., cit.

٣٦- (PRO) Same series, vol. 6, Jeddah to F.O., 4 April 1968.

٣٧- (PRO) Same series, vol. 10, FCO. To Rawalpandi, 9 April 1968.

٣٨- (PRO) Same series, vol. 11, RR Bahrain, letter no. 1/14 dated 20 April 1968.

٣٩- Loc., cit.

٤٠- Loc., cit.

٤١- (PRO) Same series, vol. 12, PR to F.O., 28 April 1968.

٤٢- (PRO) Same series, vol. 13, PR to F.O., 3 June 1968.

٤٣- راجع جدول أعمال الاجتماع الأول في: (PRO) Same series vol.

٤٤- راجع:

وقائع اجتماع ممثلي ومستشاري أصحاب العظمة حكام الإمارات العربية في الخليج المعقود في أبوظبي يومي السبت والأحد في ١٨، ١٩ مايو سنة ١٩٦٨م في:

(PRO) Same series, vol. 11

Russel, Wisdom of the West, p. 37. ٤٥-

(PRO) Fco. 8/12, PR to F.O. 21 May 1968. ٤٦-

(PRO) Same series, vol. 13, PA Abu Dhabi to PR, 3 June 1968. ٤٧-

(PRO) Same series, vol. 12, PA Doha to PR, 12 April 1968. ٤٨-

(PRO) Same series, vol. 14, PA Bahrain to F.O., 24 June, 1968. ٤٩-

(PRO) Same series & vol., PR. Bahrain to F.O. 10 June 1968. ٥٠-

يشير ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إلى ثبات الظاهرة التاريخية مع تقلب الأيام فيها على نحو مطَّرد، ويرى أن الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء، فالنبع واحد ما يمكِّن - حسب قوله - من قياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب. على أن قياس الماضي على الحال لا يخلو من محاذير؛ فأحوال العالم والأمم لا تدور على وتيرة واحدة، فمع أن الحادثة التاريخية جديدة تماماً حال حدوثها إلا أنها - في نهاية الأمر - ظاهرة متكررة تفيد الارتباط الأبدي بين الحدث الآني والحدث الماضي والحدث الآتي. فالحدث الآني الذي أخذت أبوظبي بناصيته وقادته إلى الاتحاد هو ترجمة صادقة للحدث الماضي الذي عبّر عن نفسه بشكل مختلف في كل عهد من عهود حكم شيوخ أبوظبي على امتداد تاريخهم: دعوة للتوحيد وعمل لإنجازه يتفاوت بحسب معطيات عصره التي حاول كل منهم بحسب كفاءته ومقدرته تطويعها وإدارتها على النحو الذي يحقق الثبات على الوحدة القبلية الموروثة في بني ياس منذ أمد طويل، ويحفظ حقوق القبائل الحليفة، ويؤكد تكامل الأرض التي يمكن لحدودها أن تمتد وتتسع لتتجاوز آفاق المفاهيم القبلية التقليدية، وتعمل على صياغة مجتمع متجانس المصالح والغايات، وصولاً إلى اتحاد شامل يحقق الرفاهة والأمن لإنسانه ويصون الكرامة.

ثبت كافة شيوخ أبوظبي على الوحدة منذ أن ظهر بنو ياس على مسرح التاريخ قبيلة موحّدة اندمج فيها عدد من العشائر المختلفة الفروع؛ فتحقق لها من المنعة في مهدها ما جذب إليها قبائل أخرى لتدخل معها في تحالف فتأسس من ذلك كيان أشبه ما يكون في مفهومنا الحديث بالفيدرالية. تأسست في ليوا - قبل أن يؤسس بنو ياس عاصمتهم في أبوظبي - دولة فيدرالية ضمت المناصير والعوامر وقبائل أخرى إلى قبيلة بني ياس، كانت الرئاسة فيها لشيخ من أسرة آل نهيان، ثم ما لبثت قرى العين وقبائل الظواهر وغيرها أن انضمت خطوة بعد أخرى وانتظمت في هذا التحالف الذي كان على رأسه

شيوخ يتعاطون من روح التحضر قدراً لا يخرج بهم عن أصول البداوة . فالتحضر مظهراً زخرف وزينة وجوهراً تنمية مستدامة، والبداوة مظهراً سمة تخلف ومخبراً أصالة وإباء. فإذا اجتمعت التنمية المستدامة إلى الأصالة الموروثة حقق الإنسان ما يصبو إليه من تقدّم وازدهار في إطار قيمه وأعرافه وموروثاته. فمنذ أن حلّ شيوخ بني ياس جزيرة أبوظبي حفروا البئر وبنوا القلعة واتخذوها حاضرة لهم، ولم يقصروا حقوق العمالة والاستقرار فيها على بني ياس وحلفائهم إنما خاض إليها من محيطها الصحراوي كل بدوي أراد أن يكسب رزقه ووفد إليها من البحر بعدئذ من العرب وغيرهم كل من أراد أن يحقق استثماراً. وعاش هؤلاء وأولئك في ظل الأمن الذي حققه شيوخ بني ياس، كما عمرت قرى منطقة العين بعد أن تحقق الأمن في ربوعها منذ أن استقر فيها شخبوط بن ذياب وبنى قلعة مريجب وسار على سياسة أسلافه من بذل المال للمزارعين في تلك المناطق ما عاد عليها بالنماء النسبي.

لم يتنكر شيوخ آل نهيان مع قيام هذه المجتمعات الحضرية للبداوة ونظامها الأبوي الموروث عن القبائل العربية منذ أن عرفت شبه الجزيرة العربية التنظيمات القبلية؛ فالقبيلة في العرف البدوي أسرة واحدة وديارها دار واحدة عليها قيِّم لا يهنأ بمال ولا سلطة أو جاه إلا إذا رجع أبناؤه منها بنصيب يحفظ عليهم – بالتشاور مع كبارهم سنّاً ووجاهة، وبمساندة سيوف شبابهم – أمنهم وينتصف لمظلومهم، ويبقي على أبواب مجلسه مفتوحة يلجها كل ذي حاجة من الكبار والصغار. وإذا حدث أن تمرد عليه البعض عالج أمره كما يعالج الآباء أمور أبنائهم بالنصح يتبعه الزجر إذا تمادى، ثم بالكرم إذا امتثل وعاد إلى مكانه من سربه. بهذا المنطق القبلي الموروث الذي تلوّن في عهد كل شيخ من شيوخ آل نهيان ليوافق معطيات عصره حافظت القبيلة – الدولة على وحدتها، وحمت أرضها من الاعتداء الذي يطرقها من جيرانها حين يهجسون فيها ضعفاً يستثمر. لم تعتمد أبوظبي الاعتداء على جيرانها سبيلاً لتحقيق أمنها، ولكنها اعتمدت حسن الجوار الذي تسنده القوّة.

ثبتت أبوظبي على علاقة حسن الجوار مع عمان بشكل مطلق؛ فلم تستطيع أية قوّة أن تطرق أبواب عمان برّاً ما لم تجتحْ ديار بني ياس. وأدى ارتباط منظومة أمن البلدين إلى أن تقوم عمان بدعم أبوظبي بالمال والسلاح والذخيرة والخبرات التقنية في بناء المراكب والسفن ونظم الإبحار التي كانت لعمان الريادة فيها حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما علاقة السلطة في أبوظبي بالسلطة في نجد والأحساء فكانت لتناقض المصالح تسوء في كثير من الأحيان ثم ما تلبث أن تعود إلى التحسن. كان كل من القوّتين يدرك أنه يشارك الآخر معتقده الإسلامي وينحدر من نفس الأرومة فكلهم في ليوا وأبوظبي وقرى البريمي وفي الدرعية والأحساء والرياض نتاج نجد، قلب شبه الجزيرة العربية. كان شيوخ آل نهيان في حرصهم على حسن الجوار يدرؤون الخلاف بأداء الزكاة طواعية إذا أحسوا بتفوق في قوّة نجد والأحساء، أما حين تتعادل القوى لضعف نزل بالآخرين أو بقوّة أصابتها أبوظبي فيدخل الطرفان في تحالف غير موجّه ضد عمان أو غيرها من القوى في المجال الإقليمي تأخذ فيه أبوظبي دور الوسيط لحل المشكلات، وإذا تعذر الوفاق فيدخل الطرفان في مناوشات كرّ وفرّ – كما هي حروب البادية – سرعان ما تنتهي إلى صلح ووفاق جرياً على أعراف البادية القائمة على أن ما فات مات. ولا يحدثنا التاريخ عن معارك كبيرة وقعت بين هاتين القوتين إلا مرّة واحدة فقط في عهد سعيد بن طحنون الذي لم يكن يعتدّ كثيراً بتقاليد البادية وأعرافها إذا تعارضت مع ما يظنّ أنه الحق.

نخلص إلى أن ثوابت سياسة شيوخ آل نهيان تركّزت في توحيد القبائل والسعي لقيام اتحاد بين الإمارات؛ فثبتت على نظام الحكم الأبوي وحسن الجوار، وتحقيق التنمية المستديمة لتحقيق هذه الغاية. ويستطيع كل من يمعن النظر في فترة حكم الشيخ زايد بن خليفة أن يدرك تفانيه في تطوير هذه المفاهيم ضمن الأعراف والتقاليد لصياغتها صياغة جديدة تناسبت مع مقدرته في التنظيم والإدارة التي استجابت لمجابهة تحديات عهده الذي امتد نحو نصف قرن من الزمان. وتمكن زايد بن خليفة أن يعلي

أساس البنيان الذي وضعه أسلافه لهـذه الثـوابـت. وحين توفي ترك دولة تقوم على الأعـراف التـي تـطورت إلى مؤسسـات. كـان بنـاء دولته قوياً ثابتاً لم تثلمه العاديات التي ميّزت عهـود أبنائه من بعـده، و لم تنل منه الظروف المحلية والإقليمية والعـالميـة التي أورثـت في عهـد حفيـده شخبـوط بن سلطان شحّاً توقفت به التنمية وتراجع العطاء والبذل الذي اعتاد شيوخ آل نهيان أن يجودوا به على البادية ويرفعوا به الضنك عن إنسانها.

ومع وصول الشيخ البطل زايد بن سلطان آل نهيان إلى سدّة الحكم في عام ١٩٦٦م استقبلته ظروف محلية وإقليمية ودولية مغايرة طوّعها بذكاء، واستغلها بحكمه لتحقيق الثوابت القديمة لآبائه؛ فأزال الركام الذي خيّم على بناء جده خليفة الذي كان يعي تاريخه ويتمثله. أصابت خزينة زايد من البترول المستثمر في إماراته من المال ما مكّنه من أن يتقدم بحنكة وثبات ليعلي ثوابت أسلافه؛ فأقام اتحاد دولة عربية مؤثلة على النظام الأبوي في الحكم والإدارة، وطوّره ليناسب معطيات عصره، وبذل العطاء المباشر وغير المباشر في ميادين التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية وتحسين البيئة، وحقق من ضروب التنمية في كافة المرافق والمناطق ما لا يحصيه إلا الاقتصاديون، وامتد عطاؤه حتى شمل أرض هذه الدولة التي ارتدت خضراء ريّانة بعد اصفرار وشحوب. أما حسن الجوار الذي تطلع إليه وحاوله كل أسلاف زايد فقد تأكد في عالم بات قاصيه يجاور دانيه بفضل المنجزات الحديثة، خاصة بعد أن غدت بلاد زايد ترفد بالطاقة أضعافاً عديدة من الأرض شرقاً وغرباً، ولا تحدّ آفاق زايد في هذا المضمار إلا قيم الأصالة مع كافة الثقافات الخيِّرة لرفاهة البشر وسيادة الأمن والسلام. «ولا عدوان إلا على الظالمين».

الفهرس

الفصل الأول

دور شيوخ آل نهيان الأوائل في تحقيق وحدة الإمارة

الفصل الثاني

إمارة أبوظبي بين زايد الأول وزايد الثاني

الفصل الثالث

زايد في العين

الفصل الرابع

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة

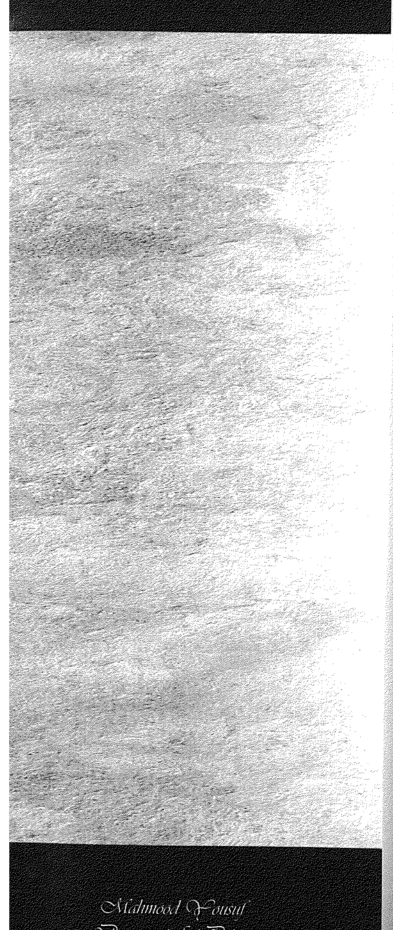
مصادر الصور الواردة في الكتاب:

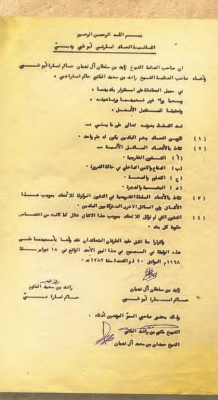
١- أرشيف مركز الوثائق والبحوث - أبوظبي.

٢- مجموعة خاصة بالمؤلف (هدايا من جون ولنكسون، وآخرين)

٣- حمدي تمام، موسوعة زايد، (ثلاثة أجزاء) د.م، د ت.

٤- Gertrude Dyck, The Oasis, Al Ain Memoirs Of Doctora Latifa, Motivate, Dubai, 1998.


Mahmood Yousuf
Documents & Prints



بسم الله الرحمن الرحيم

اتفاقية اتحاد امارتي أبوظبي ودبي

ان صاحب العظمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم امارة أبوظبي
وأخاه صاحب العظمة الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم امارة دبي ،

في سبيل المحافظة على استقرار بلديهما ،
وسعيا وراء خير شعبيهما ورفاهيته ،
وتحقيقا للمستقبل الأفضل ،

قد اتفقا بعونه تعالى على ما يلي :-

(١) قيام اتحاد يضم البلدين يكون له علم واحد .
(٢) تناط بالاتحاد المسائل الآتية :-
(أ) الشئون الخارجية .
(ب) الدفاع والامن الداخلي في حالة الضرورة .
(ج) التعليم والصحة .
(د) الجنسية والهجرة .
(٣) تناط بالاتحاد السلطة التشريعية في الشئون الموكولة للاتحاد بموجب هذا الاتفاق وفي المسائل الاخرى المشتركة بين البلدين .
(٤) الشئون التي لم توكل للاتحاد بموجب هذا الاتفاق تظل كما كانت من اختصاص حكومة كل بلد .

واقرارا بما اتفق عليه الطرفان المتعاقدان فقد وقعا باسميهما على هذه الوثيقة في السميح في هذا اليوم الأحد الواقع في ١٨ فبراير سنة ١٩٦٨م الموافق ٢٠ ذو القعدة سنة ١٣٨٧هـ .

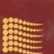
زايد بن سلطان آل نهيان
حاكم امارة أبوظبي

راشد بن سعيد المكتوم
حاكم امارة دبي

وذلك بحضور صاحبي السمو الموقعين أدناه :

الشيخ مكتوم بن راشد المكتوم
الشيخ حمدان بن محمد آل نهيان

ظلت أبوظبي، عاصمة بني ياس، تقوم منذ ميلادها بدور رائد في قيادة العمل الوحدوي في منطقة الإمارات. وظل شيوخ آل نهيان من البوفلاح من بني ياس حداة هذه الريادة وحماتها القائمين عليها. فقد أسهم كل منهم وفق إمكاناته ومعطيات زمانه في تمتين حبل الوحدة الياسية التي توثقت بجهود زايد بن خليفة (1855 - 1909م) فتطلع إلى قيام اتحاد ينتظم إمارته مع إمارات الساحل الأخرى. وحين انتهى الأمر في عام 1966م إلى حفيده زايد بن سلطان أعاد باتفاق السميح 18 فبراير 1968 لحمة بني ياس التاريخية. وما أن سقط جدار التعهدات الإذعانية الذي فرّق الإمارات منذ أن استحدثت بريطانيا أساسه في عام 1820م حتى انبرى هذا الشيخ البطل بكل قيم الفروسية العربية ليجمع شتات الزمن الغابر ويصيغه اتحاداً طالما تطلعت أبوظبي إليه منذ ميلادها.



مركز الوثائق والبحوث
Centre for Documentation & Research